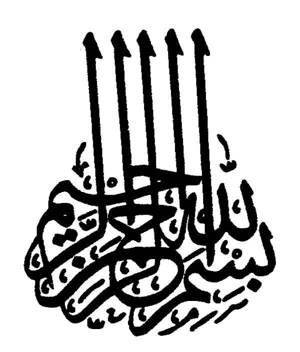
شعر الرثاء والصراع السياسي والمذهبي في العصر الأموي

دكتور / محمد أبو المجد على
كلية الدراسات العربية والإسلامية
جامعة القاهرة - فرع الفيوم

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى زوجتي ورفيقة رحلتي : ن . م .

وقلوبٍ وادعةٍ رقيقة ..

تنبض بالحب خلف ضباب المجهول :

شروق .. وعبد الله .. وهادى .. وهدير .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝

مقدمة

نحمدك اللهم حمد الشاكرين ، ونصلى ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، و التابعين بإحسان إلى يوم الدين . وبعد

فقد ارتبط الرثاء ارتباطاً وثيقاً بالصراعات السياسية و المذهبية ، التى واكبت ظهور الدولة الإسلامية ونموها ومراحل تطورها المختلفة . وكان هذا الارتباط – فى تصورى – شيئاً جديداً ، أثمر ما يمكن تسميته بـ « الرثاء السياسى و المذهبى » .

وبحثاً عما يميز هذا اللون الجديد من الرثاء ، والوقوف – من خلاله – على ما طرأ على الشعر من التجديد فى ظل الإسلام أفردت رسالتى للدكتوراه ، وهى الرسالة التى حظيت بإشراف علم جليل من أعلام الحركة الأدبية و النقدية فى العصر الحديث وأستاذ من الأساتذه العظام الذين أرسوا مدرسة ذات طابع خاص فى دراسة الأدب العربى بكلية الآداب (جامعة الإسكندرية) ، وأثرى بمؤلفاته الكثيرة المتخصصة ونظرياته الرائدة مكتبة الدراسات الأدبية وخاصةً ما تعلق منها بالفترة التى تقدمت لدراسة ظاهرة من ظواهرها ؛ الأستاذ الدكتور / سعيد حسين منصور ، أمد الله فى عمره ، وبارك فيه وفى علمه . فكان إشرافه على الرسالة ، وتقويمه لما اعوج منها ، وتوجيهه لى فى كل مرحلة من مراحل كتابتها فضلاً عظيماً – يضاف إلى أفضاله الجمة الكثيرة – وتوفيقاً من الله عز وجل .

وقد جاءت الرسالة – وعنوانها « شعر الرثاء و الصراع السياسى و المذهبى فى صدر الإسلام و العصر الأموى » – فى كتابين ؛ أحدهما خاص بالصدر(١) ، و الثانى – وهو الذى نحن بصدده – يتعلق بالعصر الأموى ، وفيه تأخذ الظاهرة أبعاداً أكثر عمقاً ، وترتاد آفاقاً جديدة ، وتظهر سمات وخصائص لم يظهر بعضها فى الصدر – وهو يمثل فترة الاحتضان – إلا على استحياء.

(١) نشرته دار الدعوة للطبع و النشر و التوزيع بالإسكندرية سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م .

ويتوزع هذا الكتاب فى خمسة فصول ؛ الأربعة الأولى للخوارج و الشيعة و الزبيريين و الأمويين ، لكل فرقة أو حزب فصل مستقل ، وفى كل فصل محور رئيس للنواحى السياسية وأثرها فى الرثاء ، وآخر للأثر المذهبى ، وقد اتضحت أبعاده فى الفرق ذات الصبغة الدينية ـ كالشيعة و الخوارج ـ دون الأحزاب ذات الصبغة السياسية كالحزبين الآخرين .

وحرصت فى ختام كل فصل على الوقوف مع شاعر أو أكثر ممن تميزوا فى إطار الفن الذى ندرسه ، بغض النظر عن شهرتهم أو تميزهم فيما سواه ، فوقفت على سبيل المثال مع شعراء مغمورين كعمرو بن الحصين ومليكة الشيبانية ، وآخرين ذائعى الصيت كعمران بن حطان وعبيد الله بن قيس الرقيات و الفرزدق و الكميت . وراعيت فى تلك الوقفات إبراز الدور الذى قام به كل منهم و الملامح الخاصة التى تميزهم ، وكنت فى بعض الأحيان أعمق من خلالهم ـ باعتبارهم نماذج وعلامات بارزة ـ ما أقرره فى الجزء العام.

أما الفصل الأخير فقد خصصته لدراسة الجانب الفنى ، وركّزت فيه على الآثار المباشرة للصراعات السياسية و المذهبية فى اللغة و التصوير و الموسيقى و الأوزان ؛ حيث لم تتخلف هذه الجوانب فى تأثرها بتلك الصراعات عن الجوانب الأخرى المتعلقة بالموضوع. ووقفت ـ فى هذا الفصل أيضاً ـ على مجموعة من الظواهر الأدبية ، كالنقض و الكتم وغلبة المقطوعات.

ورصدت فى الخاتمة أهم النتائج التى توصلت إليها ، وذيلت الكتاب بثبت تفصيلى عام للمصادر و المراجع ، واتبعت فى هذا كله منهجاً تكاملياً ؛ هو ـ كما ذكرت فى مقدمة الكتاب الأول ـ « محصلة لمجموعة من المناهج المختلفة ؛ أوضحها المنهج التاريخى ، وقد أعاننى كثيراً فى فهم الظروف و الملابسات المؤثرة فى النص الأدبى ـ وخاصةً الصراع السياسى و المذهبى مرتكزنا الأول و الرئيس ـ و المنهج الفنى ، فى تحليل هذه النصوص وتذوقها و الإحساس بما فيها من جمال ، و المنهج النفسى الذى لا يغفل

الدافع الفردى و الفروق الذاتية بين الأشخاص وما تخلفه الصراعات وعوامل الكبت و القهر فى نفوس الشعراء.

فإن أكُ قد وفقتُ فمن الله ، وإن تكن الأخرى فمن نفسى ، وقد أبى الله ألا يكون الكمال لأحدٍ سواه، وحسبى أنى حاولت ، ولم أدخر فى سبيل هذه المحاولة وسعاً ، وأخلصتُ ـ من قبل ومن بعد ـ النية لله .

ولا يسعنى ـ قبل الختام ـ إلا أن أتوجه بالشكر مرة أخرى إلى الأستاذ الدكتور / سعيد حسين منصور على ما أحاطنى به من عناية ورعاية واهتمام ، وإلى الأستاذ الدكتور / محمد زغلول سلام ، و الأستاذ الدكتور / فوزى محمد أمين ، اللذين تفضلا بمناقشة البحث وجشما أنفسهما عناء المتابعة و التقويم على كثرة مما وراءهما من المهام العظيمة و الأمور الجسام . واعتزازاً بالكلمة الطيبة التى قدم بها أستاذى الأستاذ الدكتور / سعيد حسين منصور الكتاب الأول ، ولإلقاء مزيد من الضوء على طبيعة هذا البحث ، أنقل ههنا ما كتبه نصاً . يقول العالم الجليل:

« كان لابد للعقيدة الإسلامية الجديدة أن تخوض معترك الحياة السياسية و الدينية منذ عهدها الأول .. ولم يتردد الرسول ﷺ من أن يلبى داعى الجهاد فى سبيل الله حين دعا داعى الجهاد .. وأراد الحق أن ينتصر على الباطل .. وصار للحق شهداء ، و للباطل أشلاء .

ومضى الزمن عبر صدر الإسلام ليخلف من ورائه المحنة الكبرى ، وما انتهت إليه هذه المحنة من انشقاق وما تولد عنها من صراعات ما كان للشعر أن يتخلف فيها عن ركب الحياة ولجتها العاتية وما ماجت به من تيارات سياسية ومذهبية متشابكة خلال العصر الأموى .

ومن بين أبواب الشعر فى هذا العصر كان لابد أن يُفتح باب الرثاء على مصراعيه لتعبر منه قوافل الشعراء مهتزة بكل صور الصراع ، لا تكتفى برثاء الضحايا و البكاء على الأتباع ، وإنما تؤيد قوماً وتندد بآخرين ، وتعتنق فكراً سياسياً ومذهبيا يختلف ما

بين أولئك وهؤلاء .. حاملةً فى ثناياها ما كان يراه القوم من حقوق الإمامة وما استجد فى نظرهم من آفاق الجهاد ، وما انشعب فى سبيلهم من مسالك السياسة و العقيدة ، وما أدى إليه ذلك كله من أحداث جسام .

كان هذا هو الموضوع الذى أراد الدكتور / محمد أبو المجد علي أن يشق طريقه فيه ؛ ليتتبع حركة هذا الفن الشعرى وما صاحبها من تطور طوال هذه الفترة .. فلم يعد الرثاء تعبيراً عن الحزن و البكاء على نحو ما بكت الخنساء أخاها صخراً .. وإنما اتسع باتساع دائرة الحياة الإسلامية التى ضمت إلى الجزيرة العربية الأقطار المفتوحة وتعددت فيها بيئات الشعر و السياسة فى الحجاز و الشام و العراق على ما كان بينها من خلاف واختلاف .. ومن هنا كانت دراسة شعر الرثاء خاصة ذات دلالات تدل على تطور الحياة الأدبية عامة خلال هذا العصر .. وهذا ما أثبتته الدراسة فى تحليلها لهذا الكم الهائل من النصوص الشعرية مما خلفه لنا الصراع منذ عهد النبوة بين المسلمين فى جانب وبين كفار قريش و اليهود و القبائل العربية كل بدوره ـ فى جانب آخر ـ من ألوان الرثاء.

ولما كان الموضوع بطبيعته متصلاً بالتاريخ العام وأحداثه السياسية كان من الطبيعى أيضاً أن ينتقل فى حركته من عصر النبوة إلى عصر الخلفاء الراشدين فيمضى فى دراسة شعر الرثاء الذى لازم حروب الردة فى عهد أبى بكر وحركة الفتوحات فى العهود التالية .. وما تخلل ذلك من رثاء للنبى ﷺ و الخلفاء من بعده .. وتوالت الأحداث بعد الفتنة ليجد شعر الرثاء نفسه وقد أحاطت به جموع الضحايا فى يوم الجمل وفى الصراع بين الإمام علىّ ومعاوية وبينه وبين الخوارج .. وهو الصراع الذى وَجّه فى داخل الدولة الأموية تيار الحياة السياسية و المذهبية بكل ما دار بين الأمويين وبين الخوارج و العلويين و الزبيريين وغيرهم من أحداث عرفت كيف تستقبلها بحيرة الرثاء بما انسكب فيها من دماء متأثرة ومؤثرة فى الوقت نفسه .

ولكن الرسالة التى نهض بها الدكتور / محمد أبو المجد علي ملتزماً فيها بالدقة و الدأب لم تقتصر على شعر الرثاء فى جوانبه الموضوعية وحدها صاعداً مع الزمن تمشياً

مع المنهج التاريخي في دراسة النصوص ، وإنما تابع ذلك بوقفات تحليلية عند الظواهر الأدبية و الخصائص الفنية ، واستطاع أن يتوصل إلى نتائج طيبة وأحكام علمية موفقة خلال دراسته للغة و الصورة و الخيال و الموسيقى و الأوزان وغيرها من جوانب الفن التي صاحبت غيرها من جوانب الفكر و الموضوع .

وبذلك استطاع الدكتور / محمد أبو المجد علي أن يضيف ببحثه في ميدان الأدب العربي في العصر الإسلامي إضافةً علمية لها قدرها ولها أصالتها ولها رؤيتها في الجمع بين التاريخ وبين الأدب و الفن مع استيفاء مادة الدرس من مظانها ومصادرها .. مما يمثل جهداً أرجو أن تتوافر نظائره بين شباب الباحثين .. ولا يسعنى إلا أن أهنئه على هذا الجهد و هذه الإضافة وهي تخرج من دائرتها المخطوطة إلى دوائر النور بعد حصولها على درجة الدكتوراه في الأدب العربي بمرتبة الشرف الأولى من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية .. ويقيني أنها ستكون - بإذن الله - باكورة لبحوث علمية أصيلة يشهدها المستقبل القريب . وعلى الله التوفيق ».

جزاه الله عن البحث وصاحبه أوفى الجزاء . و الحمد لله رب العالمين ، له الحمد في الأولى ، وله الحمد في الآخرة ، وبه تعالى التوفيق ، وعليه قصد السبيل .

محمد أبو المجد علي .

الإسكندرية في :

شهر رمضان المبارك سنة ١٤١٥ هـ

فبراير سنة ١٩٩٥ م .

الفصل الأول
الخـــوارج
١

١ – يشغل الرثاء فى شعر الخوارج حيزاً كبيراً ، حتى عده بعض الدارسين أحد محورين أساسيين يدور حولهما شعرهم [١] . وهو رأى مبالغ فيه بلاشك ؛ بدليل أن الباحث نفسه يرصد فى بحثه موضوعات أخرى عديدة لا تتصل بهذين المحورين اتصالاً مباشراً كالمدح والفخر والهجاء [٢] . إلا أنه يكفى للدلالة على كثرة الرثاء عندهم بالقياس إلى سائر الموضوعات .

ولعل هذه الكثرة تتناسب وطبيعة حياتهم ؛ فقد كانت حياتهم سلسلة متصلة من الحروب، سقط فيها قتلى كثيرون منهم ، وكانوا بطبيعتهم يحرصون على الموت ربما أكثر مما يحرصون على الحياة . وفى الديوان الذى جمعه الدكتور نايف معروف – وهو أحد المصادر الرئيسة التى اعتمدنا عليها فى دراسة شعرهم – أكثر من ستين مرثية تتراوح طولاً وقصراً بين القصيدة والمقطوعة والأبيات (البيت والبيتين والثلاثة) . إلا أن قصائدهم قليلة وأغلبها من النوع القصير ، وهى طبيعة عامة فى شعرهم سوف نعرض لها فى جزء خاص .

وباستثناء قليل جداً من هذه المراثى[٣] ، فإن ما يتبقى منها – حتى ما كان رثاءً للأقارب كالإخوة والأبناء – يدور فى الفلك الذى ندرسه متأثراً بالصراع السياسى والمذهبى ، وهو فى رثاء الخوارج أنفسهم ممن ماتوا على خارجيتهم مؤمنين بالمبادئ التى اعتنقوها وباعوا أنفسهم من أجلها ، فامتزج البكاء بتلك المبادئ وظهرت نبرة من

(١) الخوارج فى العصر الأموى . د. نايف معروف ط ٢ (دار الطليعة – بيروت سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) – ص ٢٥٢ . والمحور الثانى عنده هو تسجيل الأعمال الحربية .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥٥ : ص ٢٨٥ .

(٣) ديوان الخوارج ت . د . نايف معروف – ط ١ (دار المسيرة – بيروت سنة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م) ق ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ .

التمجيد والفخر والاعتزاز، لا بالقتلى من حيث هم أفراد ، وإنما من حيث هم أعضاء فى حزب سياسى دينى. وارتفعت تلك النبرة على سائر النبرات ، إضافة إلى ما فيه من دفاع ودعوة أساسهما أيضاً حزبى .

وقبل أن نخوض فى هذه الجوانب نشير إلى أن كثيراً من الباحثين المعاصرين ممن درسوا شعر الخوارج يقررون أن هذا الشعر يخلو أو يكاد من المذهبية ؛ فهو عند الدكتورة سهير القلماوى – ولعلها أول من فتح هذا الباب – يمثل شعورهم الدينى أكثر مما يمثل معتقداتهم الدينية نفسها [١] .

وهو عند الدكتور النعمان القاضى كذلك – وإن لم يشر إلى الباحثة السابقة – يجىء «تعبيراً عن شعورهم لا عن عقائدهم ؛ إذ ليس فى مقدور من يقرأ أشعارهم أن يستخرج منها عقائدهم » . [٢] ويقول فى موضع آخر إن هذا الشعر « كان مرآة صادقة لمشاعرهم وعواطفهم لا لمبادئهم ومعتقداتهم » [٣] . وإنه قد استلهم « جهادهم وإن لم يستلهم المبادئ التي خرجوا للجهاد فى سبيلها ، ولهذا كنا لا نجد لهم شعراً مذهبياً بمعنى الكلمة كما رأينا فى شعر الكميت الزيدى » [٤] .

وهو عند الدكتورنايف معروف « لم ينقل إلينا عقائد الخوارج الرئيسة التى التزاموا بها فلم يحدثنا عن رأيهم فى الإيمان أو بارتكاب الكبائر والوعد والوعيد ولا تعرض لقضية الإمامة وغيرها من العقائد الأخرى التى أصبحت فيما بعد جزءاً من سلوكهم الدينى والسياسى معاً » [٥] . ويفشل مع سائر آثارهم الأدبية « فشلا تاما فى إعطاء صورة واضحة للفكر الخارجى أو للعقائد الخارجية السياسية منها والدينية » [٦]. فلا يكتفى

---

(١) أدب الخوارج فى العصر الأموى (لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٤٥ م) ص ٤٣. وهى لا تنفى أنهم بحثوا بعض المسائل الدينية كقتل الأطفال والقعود والاستعراض والكفر والإيمان . لكنها تذكر أنهم بحثوها لخدمة أغراضهم السياسية العملية ، (ص ٤٢) . وأن بحثهم فى المشيئة – وهو بحث نظرى بحت – جاء فى عصور متأخرة (ص ٤٢) .

(٢) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى (دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠ م) ص ٤٥٤ .

(٣) المرجع نفسه ص ٤٥٥. (٤) المرجع نفسه ص ٤٥٣.

(٥) الخوارج فى العصر الأموى ص ٢٨٦.

(٦) المرجع نفسه . ص ٢٤٦ . وعلى الرغم من ذلك فقد أفرد جزءاً أسماه « الدعوة لآرائهم الدينية=

بالعقائد الدينية وحدها وإنما يضم إليها مبادئهم السياسية ، ولا يقف فى حكمه على الشعر فحسب وإنما يضم إليه الخطابة والرسائل وغيرهما من الآثار .

ونحن لا ندرس آثار الخوارج كلها ، وإنما ندرس موضوعاً واحداً من موضوعات شعرهم ، ونزعم أن هذا الموضوع قد تأثر تأثراً واضحاً بمبادئهم المذهبية ومعتقداتهم الدينية ، وإن كان هذا التأثر يتناسب وطبيعتهم البدوية الفطرية البسيطة ، فلا يصل إلى حد البرهنة على صحة ما اعتقدوه وسوق الأدلة المنطقية العقلية البحتة للإقناع بآرائهم وهدم آراء الآخرين . وهذا أمر طبيعى ؛ لأنهم لم يكونوا فلاسفة ولا أشباه فلاسفة ولم يكن غرضهم من الرثاء بحث هذه المسائل بحثاً نظرياً منفصلاً عن الواقع الذى يقولون الشعر فيه ، حيث يسيطر عليهم الحزن ويشغلهم عن التأمل والتعمق فى التفكير ، وإنما هم يعبرون عن هذه المسائل تعبيراً تلقائياً ، ويهدفون من ورائه إلى التأثير أكثر مما يهدفون إلى الإقناع ، ويتوجهون إلى المشاعر والأحاسيس أكثر مما يتوجهون إلى العقول ، فينصرفون – فى الأغلب الأعم – عن التفصيل والتحليل ، وتجىء معالجتهم لتلك المسائل فى صورة لمحات سريعة خاطفة ، قد لا يراها كثيرون ويمرون عليها دون أن يعيروها انتباهاً أو يلتفتوا إليها . وقد يلتفت إليها بعضهم لكنها لا تكفى عنده لنفى ما سبق أن قرره ، فلكى يكون الشعر مذهبياً لابد – فى تصوره – من ارتباطه بالعقل ارتباطاً وثيقاً ، ولابد فيه من البسط والتعليل واستخدام الأقيسة المنطقية والأساليب الجدلية وغيرها من وسائل الإقناع ، ولابد أيضا من التفصيل والتحليل . وأنّى لهؤلاء البدو السذج مثل هذا وقد شغلتهم الحروب طوال العصر الذى ندرسه كما شغلتهم طبيعتهم العملية عن النظر المجرد والتأمل الدقيق .

٢ – أما عن كون هذا الحزب حزباً دينياً فهذا أمر لا شك فيه ؛فقد كانت نشأتهم الأولى مرتبطة بمخالفة الإمام على أسس دينية ، بدأت بالتخطئة ثم تعددته الى التكفير[١] .وكان اعتزالهم للناس واتخاذهم دار هجرة على أسس دينية كذلك رأت فى

= والسياسية » . وهو الجزء الأول فى دراسته لأغراض الشعر عندهم ، وتعرض فيه لقضية التحكيم والشراية والخروج وتناولهم لها . ص ٢٥٦ : ص ٢٥٨ . وذكر فى موضع آخر أن « أكثر شعرهم يدور فى إطار عقائدهم الخارجية » . ص ٢٥٥ . وهو فى تصورى نوع من الخلط .

(١) الملل والنحل للشهرستانى (مكتبة السلام العالمية – القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ)جـ ١ ص ١٢٥.

المسلمين كفاراً ، ولا يحل المقام - عندهم - بين الكافرين. وكان انقسامهم بعد ذلك إلى فرق كثيرة [1] أساسه اختلافات دينية بين ابن الأزرق ونجدة وابن صفّار وابن إباض وهم رءوس الفرق الأربعة الكبيرة عندهم[2] . كما كانت هذه الاختلافات وراء الانشقاقات الكثيرة التي ظلت تلازمهم طوال التاريخ . وقد اندثرت بعض فرقهم وبقيت فرق أخرى تحولت في رأى بعض الدارسين إلى فرق دينية تنظر في مسائل الفقه والعقيدة والأصول ، وتشغل بها - إلى حد بعيد - عن الإطار الشورى الذى كان يميزها فى العصر الأموى[3] . ومن يرجع إلى كتب الفرق [4] يجد كثيراً من الأصول الدينية التى قام عليها مذهبهم والتى اختلفوا فيها مع المذاهب الأخرى كالقول فى الإيمان وارتكاب الكبائر والمشيئة والاستطاعة وحرية الاختيار، ويجد كذلك أسساً عامة يلتفون حولها ومسائل أخرى يختلفون فيها . ولا تعنينا تلك المسائل والأصول فى حد ذاتها بقدر ما يعنينا صداها فى رثائهم وأثرها فيما كانوا يندبون به قتلاهم.

وفى الحق أنها لم تتضح جميعاً فى شعرهم وإنما اتضح بعضها دون بعض . ومما

---

(١) الكامل للمبرد ت . د . محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة (دار نهضة مصر للطبع والنشر -القاهرة - بدون تاريخ) جـ ٣ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ / الفرق بين الفرق للبغدادى ت . محمد محيى الدين عبد الحميد (دار التراث - القاهرة - بدون تاريخ) ص ٩١ / الملل والنحل حـ ١ ، ص ١٢٤ .

(٢) ترى الدكتورة سهير القلماوى أن الانقسام الذى حدث بينهم بعد عودتهم من مكة ومساندتهم لابن الزبير فى الدفاع عنها خطة سياسية مقصودة كانوا يهدفون من ورائها إلى تطويق الدولة من جميع أطرافها . (أدب الخوارج ص ٣٦) . وهو رأى يعوزه الدليل . والرجوع إلى الرسائل المتبادلة بين نافع بن الأزرق ونجدة الحنفى (الكامل للمبرد جـ ٣ ، ص ٢٨٤ : ٢٨٩) يثبت أن الانقسام كان نتيجة اختلاف عميق فى فهم الدين سلوكاً وعقيدة .

(٣) العقيدة والشريعة لجولد تسيهر - ت . محمد يوسف وآخرين (دار الكاتب المصرى - القاهرة سنة ١٩٤٦م) ص ١٧٢ .

(٤) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ (أصول عامة) وجـ ١ ، ص ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٤ (أصول خاصة ومسائل خلاف) / الفصل فى الملل والنحل لابن حزم جـ ٢ ، ص ٨٩ ، جـ ٤ ص ١٤٤ (أصول عامة) وجـ ٢ ص ٩٠ ، وجـ ٤ ص ١٤٤ ، ص١٤٥ (أصول خاصة ومسائل خلاف) / الفرق بين للبغدادى ص ٢٦ ، ص ٩٢ (أصول عامة) وص٣٢ ، ٣٣ ، ٤٤، ٩٩، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١٢٠ (أصول خاصة ومسائل خلاف) .

اتضح منها الإيمان . وهو يتصل اتصالاً وثيقاً بالتكفير وارتكاب الكبائر ؛ لأنه لم يكن عندهم قولاً باللسان أو اعتقاداً بالقلب فقط وإنما امتد ليشمل إلى جانب ذلك العمل . وهم يلتقون فى ذلك مع أهل السنة . إلا أنهم يبالغون فى تقدير ذلك العمل ويتطرفون فى تكفير أصحاب الكبائر . وقد استغلوا هذه المسألة استغلالاً سياسياً فكفّروا خلفاء بنى أمية – كما كفّروا من قبل عثمان فى سنواته الست الأخيرة وعلياً عندما قبل التحكيم وطلحة والزبير وعائشة عندما خرجوا على علىّ قبل التحكيم – وكفّروا عامة الناس فى رضاهم بهؤلاء الخلفاء وطاعتهم لهم وعدم الخروج عليهم ، ولم يبق بين المسلمين مؤمناً إلا من كان على رأيهم ؛ فهم الفئة القليلة التى لا تزال – فى زعمهم – على الحق . وعلى الرغم من هذا فقد كفّر بعضهم بعضاً وانشقوا على أنفسهم كما تصور كتب التاريخ انشقاقات كثيرة . وأجاز بعضهم القعود؛ وهم أتباع عبد الله بن صفار المعروفون بالصفرية . وأنكر النجدات على الأزارقة تكفير الأطفال واستحلال أموال الناس وأماناتهم .

وننظر فى الرثاء فنجد صدى كبيراً لهذه الأفكار ؛ فهم المسلمون فى رثاء أم الجراح لأبى بلال وعروة :

« فلستَ بناجٍ مِن يدِ اللّه بَعدما هَرَقْتَ دماءَ المسلمين بلا دَمِ »[1]

وهم الأبرار فى رثاء امرأة من شيبان لذويها وقد قتلوا مع الضحاك الحرورى :

« ظَعَنَ الأبـــرارُ فانقـــلَبوا خَـــيْرَهم مِن مَعْشَرٍ ظَعَـــنوا
معشــــرٌ قَضَّوا نُحـــوبَهُمْ كـــلُّ ما قد قَدَّموا حَسَـــنُ »[2]

---

(١) ديوان شعر الخوارج ت . إحسان عباس ط٤ (دار الشروق – بيروت سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م) ص٦٧ / ديوان الخوارج ت . نايف معروف ص ٢٦ . وهى أوضح ما تكون فى غير الرثاء ومنها :

« أألفا مؤمنٍ فيمـــا زعِمتم ويهـــزمهم بآسَكَ أربعـــونا
كَذَبتم ليس ذاك كما زعِمتم ولــكنَّ الخـــوارجَ مـــؤمنونا
هم الفئة القليلة غيـر شك علـى الفئة الكثيرة ينصرونا» .

ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٦٨ ، ٦٩ .
ديوان الخوارج (نايف) ص ١٥٦ . الكامل المبرد جـ ٣ ص ٢٥٣ .

(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٣٧ . / ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٣٩ .

والصادقون في رثاء الأصم الضبي لقتلاهم بقومِس :

ذكرتُ الشُّراةَ الصّادقينَ بقُومِسٍ وذِكْرى لهم مِمَّا يُهيجُ شُجوني »[1]

والصالحون وأهل القرآن في رثاء الأصم كذلك لقتلى السَّذّوَر :

«ذكرتُ الشُّراةَ الصَّالحين وقد فَنُوا وذكّرني أهلَ القُرانِ السَّذَوَّرُ » [2]

أما خصومهم فمحلون ، يستحلون ما حرم الله . يقول عبيدة بن هلال في رثائه للحصين بن مالك :

« (و) ما كان في جَمعِ المُحِلّينَ فارسٌ يُبارِزُه في النَّقْعِ غيرُ حَبِيبِ » [3]

وهم كذلك ملحدون في رثاء أم عمران لابنها يوم دولاب :

« اللّهُ أيَّدَ عِمْراناً وَطَهَّرَهُ وكان عِمْرانُ يدعو اللّهَ في السَّحَرِ

يدعوه سِرّاً وإعلاناً ليرزقَهُ شَهادةً بِيدىْ مِلْحادةٍ غُدُرِ » [4]

وكفار في قول قطري بن الفجاءة في اليوم نفسه :

«فَلَوْ شَهِدتَّنَا يومَ ذاك وخَيلُنا تُبيحُ مِن الكفّارِ كلَّ حَرِيمِ » [5]

ووصفوا أنفسهم بالمهاجرين ، وهم يعنون هجرتهم عن ديار الكفر التي هي دار المسلمين . يقول حصين بن حفصة معاتباً قطري بن الفجاءة في رثائه لابن عم له قتله قطري :

---

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٤٠ . و (نايف) ص ١٧٩ مع اختلاف طفيف في اسم الشاعر وآخر البيت .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤١ .و (نايف) ص ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٩ و (نايف) ص ٩٣ .

وهذا الوصف قد استخدموه كثيراً في غير الرثاء . ديوان الخوارج (نايف) ص ٨٠ ، ٩٨، ١٩٨ .

(٤) ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٨ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٧٥ . وهذا التكفير أوضح ما يكون في شعرهم ، لكنه يجيء في أكثر الأحيان في موضوعات أخرى غير الرثاء حتى ليشعر المرء أن لهم ديناً خاصاً يصرحون به . ص ٧٠ ، ١٧٧، ٢٣٣ من المصدر نفسه .

«أما تَستَحِى يا ابنَ الفُجاة من التى	لَبستَ بها عاراً وأنتَ مُهاجِـــرٌ ؟»(١)

وطالما ذكروا فى مراثيهم غربة الدين ووحشة الحق واليقين ؛ ففى رثاء أيوب بن خولى لهدبة اليشكرى وآخرين نراه يختم قصيدته بقوله :

«فلم أرَ كالدُّنيا بها اغترَّ أهلُـهــا	ولا كاليقينِ استَوْحَشَ الدَّهرَ صاحبُه» (٢)

وهو من النقد الدينى الذى كانوا يوجهونه لأنفسهم حين يشعرون بالتقصير ، ويوجهونه للآخرين – على أساس مذهبى – وهم يظنون أنهم وحدهم أصحاب الحق وغيرهم أصحاب ضلال : ومنه قول امرأة من شيبان فى بعض قومها ممن قتلوا مع الضحاك :

« فتيةٌ باعـوا نُفوسَهـــمُ	لا وربِّ البيـتِ مـا غُبنـوا
ابتغَوْا مَرْضاةَ ربِّهــــمُ	حينَ ماتَ الدِّينُ والسُّنـــنُ »(٣)

٣ – ومن الأفكار المذهبية التى تبناها الأمويون وروجوا لها فكرة « الجبر » ؛ فالإنسان لا اختيار له وإنما هو مسير وفق مشيئة أعلى . وقد شاعت هذه الفكرة لدى بعض المذاهب ، وأثير حولها جدل كبير . أما الخوارج – وهم من أحزاب المعارضة – فقد تنبهوا لما وراء هذه الفكرة الدينية من أهداف سياسية تسعى لتبرير الحكم الأموى ، فرفضوها جملة وتفصيلاً . ونراهم فى بعض مراثيهم يعيرون خصومهم بها فى مثل قول عمرو بن الحصين فى قتلى قُدَيْد :

« أرمِى بهم مِن جَمْعِ قومى مَعْشراً	بُوراً أُولـــى جَبْريَّةٍ ومَعايبٍ» (٤)

ويقول فيهم أيضاً – فى القصيدة نفسها – :

« ما إنْ أَتينَ على أخِى جَبْريَّــــةٍ	إلا تـركنهمُ كأمسِ الذَّاهـــبِ

(١) ديوان الخوارج (نايف) ص ٥٢ . ومنه فى غير الرثاء قول البهلول بن بشر :
« فما أهلُ الدِّيارِ لنا بأهلٍ | ولا المالُ المُراحُ لنا بمالِ »
المصدر نفسه ص ٣٢ .
(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢١٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٧ .
(٤) ديوان الخوارج (نايف) ص ١٣٨ .

في كلّ مُعْتَرَكٍ لها مـــن هـامِهـمْ   فَلَقٌ وأيْدٍ عُلّقتْ بمَناكــــبِ ».

وأصحاب هذا القول لا يعلون من قيمة العمل لأنه مقدّر على العبد . أما الخوارج فيعلون من قيمته إعلاء كبيراً ، ويقيمون على أساسه الأفراد . لذلك وجدنا عمران بن حطان – وهو من كبار فقائهم – يقول مخاطباً نفسه وأبناء مذهبه حاضاً لها ولهم على العمل قبل مجيء الموت :

« فاعملْ فإنّكَ مَنْعِيٌّ بواحــــدةٍ   حَسْبُ اللّبيبِ بهذا الشّيبِ من ناعٍ»[1]

وفي وقفة تأملية مع الموت يشير سميرة بن الجعد إلى مسألة أخرى من المسائل التي شغلت الفكر المذهبي في العصر الأموي ، وهي فكرة العلو ؛ فقد نفتها المعتزلة – مع صفات أخرى لله – بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إن الله في السماء قد اعتلى فوق عرشه . وهو الظاهر من النصوص . ويبدو أن الخوارج قد أخذوا بهذا الرأي الأخير ، لا انتصاراً لأهل السنة ، وإنما لأنهم كانوا يتمسكون دائماً بظاهر النصوص[2] .

يقول سميرة :

« علا فوقَ عَرْشٍ فوقَ سَبْعٍ ودُونَـهُ   سماءٌ يَرى الأرواحَ من دُونها تَجْرِي»[3]

وتشير مليكة الشيبانية في رثائها للضحاك بن قيس وهو أحد زعمائهم المعروفين إلى أصل من أصولهم الكبيرة وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتقول :

---

(١) ديوان الخوارج ت . د . نايف معروف ص ١٢١ .

(٢) وبسبب تمسكهم بظاهر القرآن أباحوا نِكاح بنات الابن وبنات البنت لأنهم لم يجدوا تحريماً صريحاً لهن في آيتي التحريم بسورة النساء ﴿ حُرِّمتْ عليكم أمّهاتكم.........﴾ آية رقم ٢٣ ، ٢٤ .
أشار إلى قولهم بإجازة هذا النكاح ابن حزم في كتابه « الفصل في الملل والنحل » جـ ٢ ، ص ٩٠ . والبغدادي في « الفرق بين الفرق » ص ٣٢ . وهو قول الميمونية . وبسببه أيضاً قالوا بقطع يد السارق في القليل والكثير دون التفات لحد معين يقطع فيه (الصارم المسلول – لابن تيمية ص ١٨٤) وأسقطوا– الأزارقة – الرجم عن الزاني وحد قذف الرجال (الملل والنحل للشهرستاني جـ ١ ، ص١٢٩). وقد تلاعب بهم واصل بن عطاء من هذه الناحية وكانوا قد أخذوه في إحدى طرقهم فلما سألوه من أنت قال : « كافر يريد أن يسمع كلام الله » . لنص الآية في إجارته فلما أسمعوه شيئاً من القرآن قال : « حتى يبلغ مأمنه » فأبلغوه فنجا منهم . الكامل للمبرد . ت . محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته جـ٣ ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) ديوان الخوارج ت .د. نايف معروف ص ٧٢ .

« ذهبَ الّذى قد كان يأمرُنـــــا بالخَيرِ والمَعروفِ والذِّكْــــــرِ » (١)

وتقول فى رثاء عمها :

« أصــبَرْتُ عــن عَمّى الّـــــذى قـــد كـــــان بالمعروفِ آمرْ » ؟ (٢)

وهو المعنى نفسه الذى يقرره عمرو بن الحصين فى رثائه لأبى حمزة وأصحابه (٣).

٤ - يقل الندب فى شعر الرثاء لدى الخوارج بصورة ملحوظة بالقياس إلى مراثى غيرهم من أصحاب الفرق الأخرى . ويرتبط هذا - فى تصورى - ارتباطاً وثيقاً بما اعتقدوه من أنهم الفئة القليلة التى لا تزال على الحق وأن غيرهم قد حادوا عنه ، فقتلاهم شهداء فى الجنة وقتلى غيرهم فى النار ، وجدير بمن كان مصيره الجنة أن يُفرح له لا أن يبكى عليه .

وقد كان هذا الاعتقاد أيضاً وراء استبسالهم فى القتال وروحهم الحماسية العالية التى تستميت - على قلتها - أمام الجيوش ، فلا تفر ولا تتخاذل ولا تجبن ولا تتراجع وإنما تقاتل حتى الموت . وطالما رددوا فى قتالهم : « الرواح الرواح إلى الجنة » ، وطالما ذَكَّرُوا أنفسهم بأنهم شراة باعوا أنفسهم فى سبيل الله . حتى ليظن كثير ممن يقرأ تاريخهم أنهم كانوا يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على تحقيق الأهداف التى خرجوا من أجلها ، وحتى ليصبح الموت - فى أحايين كثيرة - إحدى هذه الغايات .

وتذكرنا مراثيهم تلك بمراثى المسلمين الأوائل فى أحد، ومراثى الفاتحين فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان . ويكاد رثاء حسان بن ثابت (٤) وصفية بنت عبد المطلب (٥) لحمزة رضى الله عنه يتكرر بعينه فى رثاء قتلاهم - غير أنهم توسعوا عن الأولين توسعاً

---

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٣٨ ، ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٠٢ .

(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٣٩ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٠١ .

(٣) ديوان الخوارج (نايف) ص ١٤١ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت - ت.د. سيد حنفى حسنين (دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٨٣م) ص٢١٩.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ت . مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ط ٢ (مكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة سنة ١٩٥٥م) المجلد الثانى ص١٦٧ .

كبيراً ، حتى صارت هذه المعانى سمة من السمات المميزة لهم ، لا تخلو منها قصيدة، وحتى أخفت -أو كادت - مشاعر الحزن والبكاء ، وحتى ليشعر من يقرأ تلك المراثى أنهم يزفون قتلاهم إلى الجنان ، فى الوقت الذى امتلأت فيه مراثى غيرهم - وبخاصة الشيعة - بالهلع والفزع واللهفة والإحساس الشديد بالفقد والضياع .

وأكاد أعتقد أنهم كانوا يعمدون إلى ذلك عمداً لتحقيق أهداف سياسية ؛ فهم قلة من ناحية ، وهم - على قلتهم هذه - قد اختاروا الخروج والمواجهة سبيلاً للتغيير والإصلاح ، ولا يمكن بحال لتلك الفئة القليلة أن تحقق أهدافها فى مواجهة خصوم عدة أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها منظمة ومكثفة إلا بتزيين الموت فى النفوس ، والتخفيف من وقعه بما وراءه من نعيم؛ ليستميت الباقون ويسلكوا الطريق نفسها التى سلكها السابقون دون تردد أو مراجعة للنفس أو توقف أو حتى اختيار ، فيستمر الخروج ، وتتواصل الحلقات . وهذا الأسلوب قديم فى مراثيهم ؛ نراه فى أيام معاوية وابنه يزيد فى رثاء كعب بن عميرة لأبى بلال حيث يقول :

« شَرَى ابنُ حُدَيرٍ نفسَه اللّهَ فاحتَوى ... جِناناً من الفردَوسِ جَمّاً نَعيمُها
وأسعَدَه قومٌ كأنّ وُجوهَهم ... نُجومُ دُجُنّاتٍ تجلّتْ غُيومُها
مَضَوا بسيوفِ الهند قِدماً وبالقَنا ... على مُقْرَباتٍ بادياتٍ سُهومُها »[1]

وفى رثاء الرُّهَين بن سَهْم له كذلك ولمن قتل معه :

أقاموا بدارِ الخُلْدِ لا يرتجيهمُ ... حَميمٌ كما يُرْجَى إيابُ المُسافرِ[2]

فهم قد أقاموا هنالك حيث لا سبيل إلى لقياهم فى هذه الدنيا ؛ فالموت يفصل بيننا وبينهم، ولا يمكن أن يلقاهم أحبابهم إذن إلا باختراق هذا الحاجز وهو الموت .

ونراه كذلك فى زمن عبد الملك بن مروان ؛ فى رثاء حصين بن حفصة لابن عمه الذى قتله قطرى حين اختلف معه فى الرأى ، وكان قطرى يؤثر الفرار ، فأخذ حصين يزين له الموت بكونه راحة من ناحية وقدراً من ناحية أخرى :

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٧٥ ، ٧٦ / ديوان الخوارج (نايف) ص ١٨٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧٧ و (نايف) ص ٦٢ .

« فَمِـتْ قَطَرِىُّ إنَّ فى المَوتِ رَاحةً　　وأنتَ لديه لا مَحــالةَ صائرٌ » [١]

وفى رثاء الجعد بن ضمام الدوسى لمطر بن عمران بن شور :

إنْ يقـتلوه فما فـازوا بمَـقْـتـلـهِ　　وقد أصابَ الَّذى رَجَّى وقد فازا »[٢]

ونراه بعد أيام عبد الملك فى رثاء حسان بن جعدة لبسطام اليشكرى الملقب بشوذب ولمن قُتلوا معه :

« إنّى لأَعـلَمُ أنْ قد أُنـزلـوا غُرَفاً　　مـن الجـنان ونالوا ثَمَّ خُدّامــا[٣]

وفى مواضع أخرى عديدة [٤] . وقد شاركت النساء فى ذلك ولم يتخلفن عن الرجال[٥] .

وهكذا يكثر ذكر المصير وما يؤول إليه قتلاهم من جنان ونعيم فى مراثيهم ، وكانوا يتعزون بذلك عن ألم الفقد ، ويزينون لأنفسهم طريق الجهاد . فى الوقت الذى يعيرون فيه غيرهم بأن قتلاهم فى النار . وهذا يكشف عن بعد مذهبى مؤداه أن كل المسلمين – فيما عدا الخوارج – كما سبق أن ذكرت – فى تصورهم – كفار ، وإلا ما استحقوا هذا المصير. يقول أحدهم فى يوم سولاف :

« وكائنْ تركنا يومَ سُولافَ منهمُ　　أُسارَى وقَتلَى فى الجَحيمِ مَصيرُها» [٦]

وعلى الرغم مما أبدوه كثيراً من التماسك فى مراثيهم إلا أنهم – وتلك طبيعة بشرية – شفوا عن أحزانهم ،وخاصة النساء، فى مواضع قليلة ، [٧] لا تنفى ما سبق أن قررناه من قلة الندب والبكاء .

---

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١١٨ و (نايف) ص ٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٠ و (نايف) ص ٢٢٧ وهى عنده لمجهول .
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٣ و (نايف) ص ٤٩ .
(٤) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٣٩ ، ١٤٠، ٢١٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ .
(٥) المصدر نفسه ص ٦٧ ، ص ٢٣٧ ، و (نايف) ص ٢٦ ، ٢٨ .
(٦) ديوان الخوارج ت . د نايف معروف ، ص ٢٢٦ .
(٧) المصدر نفسه ق ٨٢ ، ١٠٤ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ٢٣٢ من مراثى الرجال و ٢٦٠ : ٢٦٤ من مراثى النساء .

٥ – التأبين نوع من أنواع الرثاء – أو هو باب من أكبر أبوابه – وجهه الخوارج وجهة مذهبية لخدمة أغراض السياسة كذلك ؛ فهم يركزون فى تأبينهم دائماً على المعانى الدينية والمثاليات الخلقية الإسلامية ليخلعوا على قتلاهم صفة الجهاد المقدس وليضفوا على حروبهم مسحة من الشرعية وعلى رفضهم للخلافة القائمة نوعاً من التبرير . فقتلاهم دائماً صوّامون قوّامون صالحون أتقياء يخشون الله على كثرة عبادتهم ويفزعون إليه فى الملمات ، لأجله رفضوا الدنيا مع ما فيها من ملذات وأقبلوا على الموت إقبال من يؤثر الآخرة على الأولى . وهم قبل هذا وذاك شراة ، باعوا أنفسهم لله .

مثل هذه المعانى تتكرر كثيراً فى مراثيهم سواء فى ذلك الزعماء والقادة وذوو المكانة والعامة والأقارب والغرباء . نمط واحد يتكرر ، وقد يزاد فيه أو ينقص منه لكنه لا يخرج عن هذا الإطار . ومن الغريب أنهم فى مراثيهم للآخرين – على قلتها – حين تضطرهم الظروف إلى رثاء بعض المسلمين من غير الخوارج نراهم يضنون عليهم بهذه المعانى وتلك المثاليات ويكتفون بتكرار ما درج عليه الشعراء منذ القدم من وصف الموتى بالشجاعة والكرم وطيب الأصل وحماية الجار [١] . وإن خلع بعضهم على عمر بن عبد العزيز بعض المعانى الدينية كالعدل والاجتهاد فى إحياء سنن الأولين [٢] . لكنه لم يصل فى رثائه له –وهو الخليفة العظيم – إلى ما وصل إليه غيره فى رثاء مجهولين من عامتهم ، ويضن عليه بما يخلعونه على أمثال هؤلاء ممن لم يقم التاريخ لهم وزناً . وهذا الشاعر بالذات – وهو محارب بن دثار – كان فيما يبدو من معتدليهم ؛ لأنه يذكر فى أبيات أخرى [٣] مآخذهم عليه فى إرجائه علياً .

ونعود إلى تأبين قتلاهم فنرى الأصم الضبى يذكر فى بيتين شدة خوفهم من الله إذا ذَكَروه أو ذُكِّروا به ، وبكاء هم من ذكر الجحيم ، حتى إنهم كلما مروا على آية فيها حديث عنها أو تعريف بها صعقوا :

---

(٢) ديوان الخوارج ت . د نايف معروف ق ٣٦، ٥٤، ٢٤٢، ٢٤٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .
(٣) المصدر نفسه ق ٢٤٨ . وفى الطبقات لابن سعد (ط. دار الصياد بيروت سنة١٩٦٠م) جـ ٦ ص ٣٠٧ أنه كان من المرجئة الأولى الذين يرجون علياً وعثمان .

« صلّى الإلهُ على قومٍ شهدتُهـمُ ... كانوا إذا ذَكَروا أو ذُكِّروا شَهِقوا

كانوا إذا ذُكّروا نارَ الجَحيمِ بكَـوْا ... وإنْ تلا بعضُهم تَعْرِيفَها صُعِقوا»[1]

ويذكر الجعد بن ضمام طاعتهم لله حتى أحبهم ، وحسن عبادتهم له ؛ فهم شراة يعبدونه على جناحى الخوف والرجاء ، ويجادلون خصمهم بالقرآن حتى يبينوا لهم ضلالتهم ، وهم يعلمون أن الله يسمع ويرى :

« شبابٌ أطاعوا اللهَ حتّى أحبَّهـم ... وكلُّهم شارٍ يخافُ ويَطْمَـعُ

....

دَعَوا خَصْمَهم بالمُحْكَماتِ فبيّنوا ... ضَلالتَهم واللّهُ ذو العَرشِ يَسمعُ»[2]

ويركز عيسى بن فاتك فى رثائه لأبى بلال ومن قتل معه من الخوارج على تقواهم وشدة نسكهم ، حتى ليظن من يسمعه أن هؤلاء قد انصرفوا عن الدنيا وما فيها ولم يلتفتوا لما بها من نعيم ، ولم يذوقوا الراحة فيها ؛ فالليل يكابدونه فى العبادة ما بين ركوع وسجود ، لا يسفر عنهم النهار إلا وهم على تلك الحال ، شديدو الخوف من الله حتى لقد أطار خوفه النوم عنهم فقاموا الليل كله ، وأطالوا القيام وارتفعت أصواتهم تحت جنح الظلام بالنحيب والبكاء، يكاد أنينهم تتمزق منه الضلوع ، فى الوقت الذى ينعم فيه أهل الأرض بلذة الهجوع ، أما النهار فخرس عن الكلام ، لا يخوضون فيما يخوض فيه الناس وإنما تعلوهم السكينة والوقار ، يدفعهم شوقهم لله إلى النحيب فيرفعونه تارة ويخفضونه تارة أخرى ، لكنهم لا ينفكون عنه :

« إذا مـا اللّيـلُ أظْلمَ كابَدوه ... فيُسْفِرُ عنـهمُ وهـمُ رُكـوعُ

أطارَ الخوفُ نومَهمُ فقـاموا ... وأهلُ الأمنِ فى الدُّنيا هُجـوعُ

لهم تحتَ الظّلامِ وهـم سُجـودٌ ... أنينٌ مـنـه تنـفرجُ الضُّلوعُ

(٢) ديوان شعر الخوارج ت . د . إحسان عباس ص ١٤١ / ديوان الخوارج ت . د . نايف معروف ص ١٧٨ البيت الأول .

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٧ ، و (نايف) ص ٣٨ ، ٣٩ .

وخـُـرْسٌ بالنّهـــارِ لطُولِ صَمْتٍ　　　عليهم من سَكِينتـهِم خُشـــوعُ

يُعالُونَ النّحـيبَ إليــه شَوقـــاً　　　و إن خَفَضـوا فربُّهمُ سميعُ »[1]

ويضيف أحد الخوارج – فى رثائه لأصحاب له – مجموعة أخرى من الصفات كالشجاعة وحب الموت ؛ فهم الأسود بسالة عند القتال ، ولكنهم أمام الله كالأحبار من شدة الخشوع ، يخرجون إلى القتال متبسمين مستبشرين لثقتهم بالله حتى ليظن من يراهم أنهم يخرجون للقاء أحباب لهم لا إلى قتال شرس عنيف قد يفضى بهم إلى الموت ، فالموت الذى يخشاه الناس لا يمثل فى نفوسهم تلك الرهبة ، ومصاعب القتال ما هى عندهم إلا صغار :

« وهمُ الأســودُ لدى العَرينِ بَســالةً　　　ومن الخُشوعِ كأنّهم أحبـــارُ

« وهمُ الأســودُ لدى العَرينِ بَســالةً　　　ومن الخُشـوعِ كـأنّهم أحـبـارُ

يَمْضونَ قد كَسَروا الجُفونَ إلى الوَغى　　　مُتبسِّمينَ وفيـهم استبشـارُ

فكأنّمـــا أعـداؤهم أحـبـابُهم　　　فَرَحـــاً إذا خَطَرَ القَنا الخَطّار

يَردونَ حَوْمـاتِ الحِمـامِ وإنّهـا　　　تاللّهِ عندَ نفوسِهم لَصغارُ »[2]

قاليا للعيش ، زاهدا فى نعيم الدنيا لانه نعيم زائل لا يدوم ،وقد برى الصوم جسده حتى أبلاه[3] .

وكان مطر بن عمران فى رثاء محارب بن دثار له صواماً طويل القيام بالأسحار[4] .

ويكثر فى هذا الباب وصف الأجساد بالهزال، والوجوه بالشحوب والاصفرار . فهى الدليل العملى المحسوس الذى يقدمونه برهاناً على زهدهم ونسكهم وطول عبادتهم لله .

---

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٧٠ ، ٧١ / ديوان الخوارج (نايف) ص ١٥٤ / والأول والثانى مع بيتين آخرين بالكامل للمبرد جـ ٣ ، ص ٢٥٦ .

(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٥٧ و (نايف) ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٧ و (نايف) ص٦٥ .

(٤)ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٠٩ و (نايف) ص ١٩٠ .

ومنه قول أحدهم فى مقتل ثلاثة من رؤسائهم :

« فتيةٌ تعـــرفُ التّخشُّعَ فيهم كلُّهمْ حكّمَ القرآنَ غُلامــا

قــد يَرى لَحمَــه التّهجُّدُ حتى عادَ جِلْداً مُصفّراً وعظامــا »[1]

وقول حجية بن أوس :

« تَرى عافياتِ الطَّيرِ يَحجلنَ حَولَهم يُقلِّبنَ أجساماً قليلاً لُحومُها »[2]

فالطير تعفو أجسامهم لقلة ما بها من لحم . وهو يذكرنا بأبيات فروة بن نوفل الأشجعى التى تعرضنا لها فى الصدر .

٢

١ – لعل أبرز ما يميز حزب الخوارج باعتباره حزباً سياسياً ثورتهم على أن تكون الخلافة فى قريش وحدها أو فى بيت من بيوتها، ودعوتهم إلى ردها فى المسلمين كافة؛ فلا فرق بين قبيلة وأخرى ولا بين جنس وجنس، بل توسعوا حتى أجازوها فى العبيد[3]

وقد رأى غير واحد من الدارسين [4] أن ذلك يتسق مع ما دعا إليه الإسلام من المساواة والشورى . ورأينا نحن فى ذلك خروجاً على ما صرح به النبى صلى الله عليه وسلم ونص عليه من كون الخلافة فى قريش خاصة[5] وفى الأحرار دون الموالى والعبيد .

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢١٤ و (نايف) ص ٢٣٥ .

(٢) ديوان الخوارج (نايف) ص ٤٧ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٢٥ / الفصل فى الملل والنحل لابن حزم حـ٢ ص٩٠ .

(٤) د. أحمد الشايب (تاريخ الشعر السياسى) ص ٢٠٣ / عمر أبو النصر (الخوارج فى الإسلام) ص ٦٩ / فلهوزن (الخوارج والشيعة) ص ٢٩ ، ٣٦ / د. النعمان القاضى (الفرق الإسلامية) ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢٢١ .

(٥) من أشهر الأحاديث الواردة فى هذا الباب : « الأئمةُ من قُريش » . صححه الألبانى وقـال فـى تخريجه : « جاء بهذا اللفظ من حديث أنس بن مالك عند أبى داود الطيالسى فى مسنده (رقم ٢١٣٢) وغيره بإسناد صحيح على شرط البخارى . وله طريقان آخران عنه فى مسند أحمد والمستدرك وصحح أحدهما ووافقه الذهبى . ومن حديث برزة الأسلمى عند الطيالسى أيضاً (رقم ٩٢٦) وغيره وسنده حسن – ومن حديث على بن أبى طالب عند الطبرانى فى المعجم الصغير (ص ٨٥) والحاكم (٧٥/٤ و ٧٦) . وله شواهد كثيرة جداً . فقد قال الحافظ ابن حجرالعسقلانى : « وقد جمعت طرقه فى جزء ضخم عن نحو أربعين صحابياً » . وكأنه لذلك نقل عنه العلامة==

ورأينا فيه كذلك شيئاً من العصبية ضد قريش [1] ، بل ضد العرب عامة ؛ لأنهم تدرجوا فيها حيث جعلوها في البداية بين العرب ، ثم أجازوها بعد ذلك في كل الشعوب ، ثم رأينا فرقة من غلاتهم تبشر بنبي جديد يبعث من بين الموالي – على دين صابئة المجوس – وينزل عليه كتابه جملة واحدة ينسخ به شريعة النبي صلى الله عليه وسلم[2] .

وربما كان للشعوبيين دور في تلك التحولات ؛ فقد كانوا يعملون على استحياء طيلة العصر الأموي ، ولم يستطيعوا التعبير عن أنفسهم إلا من خلال مثل هذه الفرق .

وأيا ما كان الأمر فإن ما وصلنا من رثاء لا يعكس بشكل واضح رأيهم في الإمامة –

== القارى في كتابه شرح النخبة أنه حديث متواتر .... » . تخريج أحاديث فضائل الشام للربعي – محمد ناصر الدين الألباني ط ٤ (المكتب الإسلامي – بيروت سنة ١٤٠٥ هـ) ص٣٦،٣٥.

وقد عقد السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » ط٤ (المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م) ص ٩ فصلاً تحت عنوان : « بيان أن الأئمة مِن قريشٍ والخلافة فيهم » . أورد فيه أربعة أحاديث، منها الحديثِ السابقِ وزاد فيه : « ما حَكَموا فعدلوا ووعدوا فأوفوا واسترحموا فرحموا » . و« الأمراء من قريش أبرارها أمراء أبرارِها وفجّارها أمراء فجّارِها » . و«المُلك في قريشٍ » وقال بصدده : « إسناده حسن» . و « الخِلافة في قريشٍ .... » وقال فيه : « رجاله موثقون » .

وعد الشهرستاني (الملل والنحل جـ ١ ص ١٢٥) من بدع المُحَكِّمة الأولى وهم الذين خرجوا على عليّ عند قبوله التحكيم : « بدعتهم في الإمامة إذ جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش » .

وذكر البغدادي (الفرق بين الفرق ص ٣٧٢). في الركن الثاني عشر من أركان أهل السنة والجماعة قولهم : « من شرط الإمامة النسب من قريش » . وأشار إلى اختلافهم في هذا الشرط مع الخوارج الذين قالوا بإمامة زعمائهم من ربيعة وغيرها « عناداً منهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش » . أما ابن خلدون فقد ربط في مقدمته (جـ ٢ ص ٥٢٣ : ٥٢٧) بين هذا الشرط ووجود العصبية في قريش ، فإن زالت العصبية عنها – كما حدث بالفعل في عصور متأخرة – زال معها ، فالعبرة – على هذا الأساس – بالعصبية لا القرشية في حد ذاتها ، وأورد رأى من لم يشترطوا القرشية أصلاً من الفقهاء والمتكلمين ليدعم به فهمه الخاص لتلك النصوص .

(١) يقول الأستاذ محمد أبو زهرة : « ومن أعظم هذه الأمور التي حفزتهم على الخروج غير الحق الذي اعتقدوه أنهم كانوا يحسدون قريشاً على استيلائهم على الخلافة واستبدادهم بها دون الناس . والدليل على ذلك أن أكثرهم من القبائل الربعية التي قامت بينها وبين القبائل المضرية الإحن الجاهلية التي خفف الإسلام من حدتها ولم يذهب بكل قوتها » . المذاهب الإسلامية ص ١٠٣ .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ، ص ٣٠١ وهذه الفرقة تعرف باليزيدية وهم أتباع يزيد بن أنيسة الخارجي .

وهو الأصل السياسى الكبير الذى قام عليه مذهبهم - وإنما هى لفتات سريعة ، وأفكار تطرح بشكل غير مباشر . مثل خلعهم لقب الإمارة - إمارة المؤمنين - على بعض زعمائهم ، وهم بطبيعة الحال من غير قريش . ففى رثاء نافع بن الأزرق - من بنى دؤل ابن حنيفة - يقول أحدهم :

« فلئنْ أَميرَ المُؤمنينَ أَصابَــــه رَيْبُ المَنونِ فمَنْ يُصِبْهُ يَغْلَقِ »[1]

وهى المرة الأولى التى نجد فيها أحداً من غير قريش يُدعى بهذا اللقب فى مراثى العصر الأموى .

لكــن حتى مثل هذه اللفتات قليلة . ويبدو أنهم كانوا يتحرجون من إعلان رأيهــم فيها - على ما عرفوا به من صراحة - لاختلافه عن كل الفرق المعاصرة لهم ، ولما كانوا يدركونه من خطورة زحزحتها عن قريش وقد استقرت فيهم واعتادها الناس على هذا النحو منذ عهد أبى بكر رضى الله عنه . أما المسائل التى لم يتحرجوا من الخوض فيها - على ما كلفتهم من تضحيات - فهى تلك التى تتصل بنقد الأوضاع السياسية وسبل تغييرها والحث على هذا التغيير .

* * *

٢ - يخطئ فى تصورى من يدعى أن الخوارج لم يكن لهم برنامج سياسى محدد أو خطة يسعون إلى تحقيقها من أجل الحكم[2] . فهم منذ البداية ناقمون على الحكام وعلى أسلوب الحكم . وقد أعلنها خليفتهم الأول عبد الله بن وهب الراسبى واضحة صريحة حين قال لرسول علىّ قبيل النهروان :

---

(١) ديــوان الخوارج (نايف) ص ٢٣٠ . والكامل للمبرد جـ ٢ ص ٣٠٠ ، ونجد عتبـان بن وصيـلة يجرؤ بعد ذلك على مخاطبة عبد الملك بن مروان فيما يشبه التحدى ويصرح بإمارة شبيب ابن يزيد زعيم الصفرية للمؤمنين . ديوان الخــوارج (نايف) ص ١٠١ .

(٢) يجمد شريف سليم حيث يقرر أنهم « لم يهتدوا إلى مذهب سياسى يعتمدون عليه فى الخروج على الولاة كدعوى الأحقية فى الخلافة مثلاً » . ملخص تاريخ الخوارج (القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م)ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ وفى دائرة المعارف الإسلامية (مادة خوارج) أنهم لم تكن لهم « أية وحدة حقيقية فى أعمالهم السياسية أو العسكرية . ولم تكن لهم كذلك مجموعة متسقة من المبادئ ، وتظهر لنا مذاهبهم وكأنها آراء خاصة تقول بها فروع من الخوارج قائمة برأسها » .

نُقاتلُكم كي تَلزَموا الحقَّ وَحدَهُ ونَضرِبُكم حتّى يكونَ لنا الحُكْمُ »[1]

فقد حدد الغاية : « كي تَلزَموا الحقَّ » ، والوسيلة « نقاتلكم » ، وقرن بين الغاية وهى لزوم الحق وحده ووجود الحكم فيهم . وهذه الأخيرة بالذات نقطة خطيرة؛ لأنها تعنى عدم ثقتهم فى كل الحكام من غير الخوارج ، وتنفى فى الوقت نفسه ما تشدق به كثيرون من دعوى المساواة فى الخلافة وأنهم جمهوريو الأمة ؛ فهم لا يجيزونها فى غيرهم من المسلمين [2] لأنهم بمنتهى البساطة يعتبرونهم كفاراً . وقد أعلنوا – غير مرة – براءتهم من علىّ بدعوى قبوله التحكيم ، ومن معاوية و خلفاء بنى أمية [3] ، ولقبوهم بالأحزاب واعتبروهم مغتصبين . وربطوا بين براءتهم من هؤلاء الحكام وما يمكن أن نسميه بالنقد السياسى لبعض الأوضاع الخاطئة . فحبيب بن خدرة الهلالى يـرفض التحكيـم جملة ويخطئ من قبلوه . إذ إن الحق واضح ، وما دام الحق واضحاً فما جدوى حكم رجال هم فى تصوره مُلَعَّنونَ جبّارون دعاة ضلال؟

« يارَبِّ إنّهـمُ عَصَوكَ وحكّـمــوا فى الدِّينِ كلَّ مُلَعَّنٍ جَبّـارِ
يَدْعو إلى سُـــبُلِ الضّلالةِ والرَّدَى والحقُّ أبْلجُ مثلُ ضَوءِ نَهارِ » [4]

وآخر منهم يرمى حكام بنى أمية بالبغى والظلم :

« لا باركَ اللّهُ فى قومٍ أجازَ لهم حُكّامُهم أنْ أصابوا الحُرَّ جوّازا»[5]

وهى التهمة نفسها التى يرميهم بها عمران بن حطان وإن توسع فى افتقاد العدل – وهو أساس العيش – وغربة الحق وخذلان الدعاة إليه :

« أكْرِمْ بقومٍ بطونُ الطّيرِ قَبْرُهــمُ لم يَخلِطوا دِينَهم بَغْياً وعُدْوانـا

---

(١) ديوان الخوارج ت . د. نايف معروف ، ص ٨٧ .

(٢) وفى ذلك يقول الدكتور رفعت فوزى : « وإذا نظرنا إلى الواقع التاريخى وجدنا أنهم حصروا الخلافة فى فئة معينة ، تلك التى تؤمن بمبادئهم ، فلا يرشح للخلافة ولا ينتخب إلا رَجُل من الخوارج أنفسهم » . الخلافة والخوارج ص ١٥ .

(٣) ديوان الخوارج (نايف) ص ١٥ ، ٧٠ ، ٢٤٠ . (٤) ديوان الخوارج (نايف) ص ٤٣ .

(٥) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٠٩ و (نايف) ص ٢٢٧ .

حتّى متى لا نَرى عَدْلاً نعيشُ به ... ولا نَرى لدُعاة الحقِّ أعوانـــا ؟ (١)

وهذا الوتر عزف عليه كثير منهم فى غير الرثاء (٢) . كما عزفوا على أوتار أخرى كالجبروت وترك الحق وسن الضلال وبناء المقاصير والحرص الشديد على الحياة وأخذ الناس بالشبهات .(٣)

وكان للولاة نصيب من هذا النقد – وهم فى نقدهم للولاة إنما يسعون للنيل من الخلفاء بجانب النيل منهم – فابن زياد ذو جور وغدر وواحد من ذوى البغى والإلحاد(٤). والحجاج أخو الضلال وبقية ثمود خلجته عن الدين إحدى الخوالج (٥) . أما المهلب فكافر . (٦) وإن كانت له صورة أخرى تسمه بالشجاعة وتفضح خوفهم منه وتبين عن شدة فزعهم من لقائه (٧) . وهى صورة شك فيها الدكتور إحسان عباس واعتبرها ملحمة أزدية من عمل القصاص، وأطلق عليها عقدة المهلب (٨) . ونحن معه فى هذا الشك، حيث لا تستقيم هذه الصورة – على الأقل فى بعض أجزائها – مع سخطهم على الحكام وتزييف صورتهم فى أعين الناس .

٣ – وهم لا يكتفون بنقد الحكام والولاة ، بل ينقدون الرعية أيضاً فى انقيادهم لهم سواء كان هذا الانقياد ناتجاً عن خوف أو رضا ؛ إذ لامبرر لهما فى عرف الشراة . يقول الخيبرى – من أصحاب الضحاك بن قيس – فى رثائه لعبد الملك بن علقمة :

«طَغامُ النّاسِ ليسَ لهـــــم سَبيلٌ ... شَجانى يا ابنَ عَلْقَمةَ الطَّغامُ » (٩)

ويبدو أنه كان قد استيأس منهم فصب شكواه فى تلك النبرة الحزينة . ومثل هذا اليأس وتلك الشكوى نجدها فى رثاء داود بن عقبة لإخوان له وإن اختفى الحزن وحل محله الغضب :

(١) ديوان الخوارج (نايف) ص ١٣٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٣،١٥٣،١٤٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٩ ، ٨١ ، ٨٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ . ٢٣١ .
(٥) المصدر نفسه ص ٤٢ . ٧٠ .
(٦) المصدر نفسه ص ٥٢ .
(٧) المصدر نفسه ص ٢٣٠،١٦٢،١٦٠،٩٢ .
(٨) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٦ ، ٢٧ (مقدمة) .
(٩) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٦٩ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٥٩ .

« أولئكَ إخوانـــي مُنيتُ بِهُلْكِهم فلهْفى عليهم أن يُروا آخرَ الدّهرِ
مَضوا سَلَفا قَبلى وأُخِّرتُ بَعدَهـــم وَحيداً لأقوامٍ تنابلةٍ خُــــزْرِ»[1]

ويمتد النقد ليشمل فرقاً أخرى كالشيعة . فنرى حبيب بن خدرة يرميهم بخذلان الحسين رضى الله عنه ، ويعلن رأيه فى ثورة المختار ، فهم فى تصوره أضل من شيعة الدجال :

قتَلوا الحُسَينَ وأصبحـــوا ينْعَونه إنّ الزّمانَ بأهلـــه أطْـــوارُ
ما شيعةُ الدّجالِ تحتَ لوائـــــه بأضلّ ممّن قـــادَهُ المُخْـتـارُ»[2]

ويرميهم مرة أخرى بالتخاذل عن آل البيت والتقصير فى حقهم . ويصفهم بأنهم : «أولاد درزة » وهو تعبير يطلق على السفلة والسقاط :

« يا با حُسَينٍ لو شُراةُ عصابـــةٍ صَبَحُوكَ كان لوِرْدِهم إصـدارُ
إن يقتلوكَ فإنّ قتلَكَ لم يكـــنْ عاراً عليكَ ورُبَّ قتلٍ عـــارُ
يابا حُسَينٍ والجَديدُ إلى بلـــى أولادُ دَرْزَةَ أسلَمُوكَ وطـــاروا » [3]

وهذا يعنى أنهم كانوا ينظرون إلى الفرق الأخرى المعاصرة لهم ، ويعلنون رأيهم فيهم فى بعض الأحيان . وهذا أمر طبيعى لأنهم دخلوا مع هذه الفرق فى صراعات . وكان بنو أمية يضربونهم بالشيعة فى الكوفة والبصرة [4] . ولعل هذا ينفى ما ذكرته الدكتورة سهير القلماوى من أن شعرهم لم يتردد فيه صدى لحوادث الأمة السياسية إلا ما اتصل بهم ، ولا للأحزاب الأخرى المعاصرة لهم .[5]

وقد ذكر حجية بن أوس مشاركتهم لابن الزبير فى الدفاع عن مكة :

« فللّه عَيْناً مَنْ رأى مثلَ عُصبـــةٍ أقامَ بضبْعِ ابنِ الزُّبيرِ مُقيمُها»[6]

---

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢١١ و (نايف) ص ٦١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣١ و (نايف) ص ٤٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣١ ، ٢٣٢ و (نايف) ص ٤٢ وأبو حسين كنية زيد بن على .
(٤) تاريخ الطبرى ت . أبو الفضل إبراهيم ط ٤ (دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩) جـ ٥ ، ص ١٦٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٥) أدب الخوارج فى العصر الأموى ص ٤٥ .
(٦) ديوان الخوارج (نايف) ص ٤٧ .

وندم على عدم مشاركته لهم ندماً شديداً ، وعدها من الهفوات التي لا تقال. وهو من النقد الذى كانوا يوجهونه لأنفسهم عندما يشعرون بالتقصير :

« فَوا حَرَبا ألا أكونَ شَهِدتُهم بمكَّةَ والخيلان تَدْمى كُلومُها
نَدِمْتُ على تَرْكى رَجاءً وصَحْبَه وتلكَ لَعَمرى هَفْوَةٌ لاأُقالُها ».

وهذا الباب – باب نقد الخوارج أنفسهم نقداً ذاتياً أو نقداً عاماً – كبير ، ويدخل فيه نقد القادة ، مثلما فعل حصين بن حفصة السعدى فى لومة وتأنيبه لقطرى بن الفجاءة على فراره من المهلب وتشبهه بمن خرجوا عليهم من الحكام فى الظلم والجبروت :

« أيا قَطَرِىُّ بنُ الفُجاة أمالنا من النَّصْفِ شىءٌ غيرُ فِعْلِ الجَبابِرِ
أما تَسْتحِى يا ابنَ الفُجاةِ من الّتى لَبستَ بها عاراً وأنتَ مُهاجِرُ
أفى كلِّ يومٍ للمُهَلَّبِ أسلمتْ له شَفَتاكَ الفَمَّ والقلبُ طائرُ
فحتّى متى هذا الفرارُ حِذارَه أنتَ وَلِىٌّ والمُهلَّبُ كافِرُ » ؟[1]

ويدخل فيه أيضاً ما ذكروه من الشقاق الذى دب بينهم والخلاف الذى مزقهم إلى فرق كثيرة . ومنه قول حصين فى القصيدة نفسها :

« أما حَسْبُنا من عبْدِ رَبٍّ وصَحْبِه شَجىً ناشبٌ لم تبْتلِعْهُ الحَناجِرُ » ؟

وكان عبد ربه هذا قد انشق على قطرى بمجموعة كبيرة ممن كانوا معه وحاربه حتى أضعف كل منهما صاحبه ، فسقطا لقمة سائغة فى فم المهلب والجيش الأموى[2] . و منه قول قطرى :

« ففرَّقَ أمرى عبدُ رَبٍّ وصَحْبُه أدارَ رَحى مَوتٍ عليه مُديرُها
فقدْماً رأى منا المُهلَّبُ فُرصةً فها تلكَ أعدائى طويلٌ سُرورُها
وأعظمُ من هذا علىَّ مُصيبةً إذا ذَكَرَتْها النَّفسُ طالَ زَفيرُها

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١١٧ ، ١١٨ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٥٢ . وفى البيت الأول والثانى إقواء .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد – ت . أبو الفضل إبراهيم ط٢ (دار إحياء الكتب العربية – القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م) جـ٤ ص ٢٠٤ : ٢١٢ .

فراقُ رجال لم يكونوا أذلَّـــــةً   وقتلُ رجالٍ جاشَ منها ضَمِيرُها»[1]

ومنه أيضاً قول الأصم فى قتلى الجوسق :

« إنّى أَدِينُ بما دانَ الشُّـراةُ بـــــه   يومَ النُّخيلَةِ عندَ الجوسَـقِ الخَـرِبِ

النّافرينَ على مِنْهاجِ أوّلِهـــــم   من الخَوارِجِ قبلَ الشّكِّ والرِّيَبِ»[2]

ولعله يشير إلى الانقسام الأول الذى فرق الخوارج إلى أزارقة ونجدات وصفرية وإباضية بعد انصرافهم عن مكة وتركهم لابن الزبير ، فهو يجدد عهد الخوارج القديم – يوم النخيلة – قبل هذا الانقسام ، وهو ناجٌ فى تصوره عن الشك وفقد الثقة والارتياب فى الآخرين .

ويشير الضحاك بن قيس – أحد زعمائهم المشهورين من الصفرية – فى رثائه لبهلول وأصحابه إلى تفرق الخوارج عنه وخذلانهم له حتى لقد أصبحوا أعواناً عليه مع الأحزاب:

« لا تطردونى إذا ما جئتُ زائـرَكم   رَجَوْا الفَلاحَ وكونوا اليومَ إخوانا

بُدّلتُ بعــــدَ أبى بِشْرٍ وصُحْبَتِه   قوماً علىَّ معَ الأحْزابِ أعْوانـــا

كأنّهم لم يكونوا من صَحابَـتِـنـــا   ولم يكونوا لنا بالأمسِ خُـلاّنـا»[3]

ورَمْىُ بنى أمية وغيرِهم من الخصوم بالأحزاب كثير فى مراثيهم [4] . ولعلها تعيد إلى الأذهان صورة المسلمين الأولين وهم يجاهدون – على قلة عددهم وعتادهم –

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٣٣ / ديوان الخوارج (نايف) ص ١٦٦ . وهناك قصيدة مطلعها :

« كَفَى حَزَناً أنَّ الخَوارجَ أصبَحوا   وقد شُتِّتَتْ نِياتُهم فتَصدَّعوا »

(ديوان الخوارج ت . د. نايف معروف ص ٢٢١) لم يذكر منها المحقق سوى هذا البيت . ولعلها كانت تلقى ضوءاً أكبر على ما أصاب الأزارقة بعد موت زعيمهم نافع وتولى قطرى للأمر . لكنها ضاعت مع ما ضاع لهم من شعر .

(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٣٩ و (نايف) ص ١٧٧ و الأول بالكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٣٧

(٣) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٣٥ و (نايف) ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٦٠ ، ٢٢٢ و (نايف) ص ٢١٩،٨٢ ، ٢٢٨ .

صناديد الكفر من قريش وأحلافها من مشركى العرب وبطون يهود . وفيها غير قليل من الغمز ببنى أمية ، حيث كان أشرافهم فى ذلك الوقت كفاراً يقاتلون النبى والمسلمين؛ فهم الأحزاب يومها ، وهم الأحزاب- فى تصور هؤلاء الخوارج - حتى بعد أن صاروا مسلمين وصار منهم الخلفاء والوزراء والقادة .

وهكذا يعكس الرثاء واحدة من أهم الأمور التى تعرض لها الخوارج فى تاريخهم السياسى ، وهى مسألة الفرقة والانقسام[1]. وإن لم يأخذ بأيدينا- شأنه فى ذلك شأن سائر المسائل السياسية الأخرى التى عالجها - إلى التفاصيل . مما حدا بأحد الباحثين المعاصرين إلى القول بأن شعراءهم : « لم يشيروا بشعرهم - لا من قريب ولا من بعيد - إلى الفرق الخارجية التى افترقوا إليها إلا ماكان من أمر القعود » . [2] وأنهم على انقسامهم لم يبدوا كبير اهتمام بتلك الخلافات التى دبت بينهم [3] . وهو كلام خطير، لعل فيما قدمناه - وهو فى موضوع واحد من موضوعات شعرهم - ما يخفف من غلوائه ويدعو إلى إعادة النظر فيه .

٤ - بُعْدٌ آخر من الأبعاد السياسية التى دار حولها الرثاء فى شعر الخوارج -بعد رأيهم فى الحكام ونظام الحكم - وهو كيفية التغيير ؛ الوسائل التى يمكن من خلالها تغيير الحكم . وعلى الرغم من كثرة هذه الوسائل إلا أنها تنحصر لدى الخوارج فى وسيلة واحدة - ربما كانت وراء تسميتهم بهذا الاسم- وهى الخروج على الحكام الذين يسمونهم كثيراً بالظالمين ، وعلى الديار التى يعتبرونها ديار كفر . لا خروج معتزلة ، وإنما خروج ثوار عائدين، يستعرضون الناس فى خرجاتهم ، ويستبيحون المال ويقتلون الأطفال ، ويروعون الآمنين . خاصة الأزارقة حيث ذاقت منهم البصرة الأمرّين . وكثيراً

(١) ومنه أيضاً - بالإضافة إلى ما مر - ذكر رجل من جرم للخلاف الذى دب بين النجدات فى رثائه لزعيمهم الأول ورأس فرقتهم نجدة الحنفى (ديوان الخوارج ت . د. نايف معروف ص ٢٢٥) وق أشار فيه إلى ما تعرضوا له من فل إثر مبايعتهم لأبى فديك وخلعهم نجدة ، وكان هذا التفرق - فى رأيه - وراء ضياع الثغور . وهو يعنى ضياع الدولة نفسها ، تلك الدولة التى أقاموها باليمامة ولم تدم أكثر من سبع سنوات .

(٢) الخوارج فى العصر الأموى - د . نايف معروف ص ٢٨٦ .

(٣) الخوارج فى العصر الأموى - د. نايف معروف ص ٢٥١ .

ما دعوا فى مراثيهم إلى هذا الخروج ولقبوا أنفسهم بالشراة والمهاجرين ، وندموا على بقائهم خلف إخوان لهم سبقوهم فى هذا الدرب الشائك الطويل . فهذا حيان بن ظبيان – من متقدميهم – يرسم الطريق أمام اللاحقين فى رثائه لقتلى النهر :

« خَليليَّ ما بى من عَزاءٍ ولا صَبرٍ ولا إربةٍ بعـــــدَ المُصابينَ بالنَّهْرِ
سِوى نَهَضاتٍ فى كَتائبَ جَمَّـةٍ إلى اللّهِ ما تَدْعوا وفى اللّهِ ما تَفْرى »[1]

ويعترف حسان بن جعدة – من المتأخرين – فى رثائه لبسطام وصحابته أنهم بخروجهم وبموتهم فى سبيل ما خرجوا له ، قد أورثوهم مناراتٍ وأعلاماً . وهو يعنى – فى تصورى – أنهم قد بينوا لهم الطريق :

« بسـيِّهم قد تأسَّوا عنـــدَ شِدَّتهم ولم يُريدوا عن الأعداءِ إحْجامـا
حتَّى مَضَوا للَّذى كانوا له خَرَجـوا فأورَثونا مَناراتٍ و أعــــلاما » [2]

ولقد كان ثابت بن وعلة الراسبى – الذى يوصف بأنه من مخابيثهم وزعمائهم – واضحاً فى تصوره وتصويره للطريق حين قال :

« سأتْبعُ إخوانى وأحسو بكأسهم وفى الكفِّ عَضْبُ الشَّفْرتينِ مُهنَّدُ »[3]

وأوضح منه فى سنه للآخرين وحثهم عليه أحدهم فى قوله :

« وإن كنتَ تَبْغى عند ذى العَرْشِ حَظْوةً فلاتكُ إلاَّ مُرْهَفَ السَّيفِ شارياً »[4]

وكثيراً ما ربطوا بين الخروج والزهد فى الدنيا وحب الموت وإيثار ما عند الله من النعيم الذى لا يزول . يقول الحويرث الراسبى فى رثائه لصالح بن مسرح التميمى :

« أقولُ لنفسى فى الخَلاءِ ألومُهـــا هَـبِلْتِ دَعيـنى قد مَـلَلْتُ من العُمرِ
ومن عِيْشةٍ لا خـــــيرَ فيها دَنيئةٍ مُذَمَّمـــةٍ عِندَ الكِـرامِ ذوى الصَّبْرِ

(١) ديوان الخوارج ت . د . نايف معروف ص ٥٦ .
(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢١٣ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٤٩ .
(٣) ديوان الخوارج (نايف) ص ٣٦ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٢ .

سأركبُ حَوْباءَ الأُمورِ لَعلّنــــي ألاقى الّذى لاقى المُحرِّقُ فى القَصْرِ[(1)]

وهو يركز فى تزيينه الخروج على دوافع بعضها سياسى واجتماعى : «عيشة لا خير فيها » ، « دنيئة »، « مذممة عند الكرام » . وبعضها شخصى: «قد مللت من العمر ».

أما زياد الأعسم فيركز على الدوافع السياسية؛ حيث يرى : « فتنة صماء تبدى المخازيـا »، والحزبية حيث تفرّقَ الشراةُ ولاقوا كثيراً من البلايا . يقول زياد :

« تُعاتبُنى عِرْسى على أن أُطيعَهــا وقبلَ سُـليمى ما عَصَيْتُ الغَوانيا

فكُفِّى سُـليمى واتركى اللَّومَ إنَّنـى أرى فتنةً صَمَّاءَ تُبـدى المَخـازيـا

فكيفَ قُعودى والشُّـراةُ كمـا أرى عزينَ يُلاقونَ البَلايَا الدَّواهيـا» ؟[(2)]

ولم نجد فيما وصلنا من مراثيهم طريقة أخرى للتغيير ، حتى عند من كانوا يجيزون القعود ويأخذون به ، وهى طريقة عقيمة فى تصورى جعلت منهم حزباً محارباً منذ البداية وعرضتهم لسلسلة طويلة من المحن ، وكلفتهم وكلفت الدولة التى عاشوا فى كنفها خسائر فادحة. وطالما أسالت من الدماء وأزهقت من الأرواح، ثم هى فى النهاية لم تحقق شيئاً مما سعوا إليه من الناحية السياسية غير تنبيه الأذهان إلى بعض الأوضاع الخاطئة وضرورة تغييرها. وقد تنبهوا هم أنفسهم إلى عقم هذه الطريقة فاتجهوا إلى السرية والتنظيم فى عصور تالية . ونجحوا فى إقامة دولة ظلت وقتاً طويلاً فى المغرب العربى[(3)] .

٥ - حظى الرؤساء والقادة وذوو المكانة الدينية والسياسية بنصيب وافر من الرثاء والتأبين [(4)] . فهم القدوة من ناحية ، وربما أراد الشعراء من ناحية أخرى تخليد ذكراهم وإعطاء صورة مثالية للخوارج من خلالهم ، تبقى على مدى التاريخ ويرددها أبناء

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٩٥ ، ١٩٦ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٥٥.

(٢) ديوان الخوارج (نايف) ص ٦٥ . ولعلها جزء من رثائه لداود بن النعمان .

(٣) حقق هذه المسألة الدكتور / محمود إسماعيل فى كتابه : الحركات السرية فى الإسلام رؤية عصرية (مؤسسة روز اليوسف - القاهرة سنة ١٩٧٣م) ص ٢٥ : ٣٩ .

(٤) ديوان الخوارج (نايف) ق ٢٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٧ وهى فى رثاء : صالح بن مسرح وعبيدة بن هلال ومطر بن عمران بن شور وداود بن النعمان وجواز الضبى وبسطام اليشكرى المعروف بشوذب وأخيه هدبة وعبد الملك بن علقمة وملحان بن معروف والضحاك بن قيس ونافع بن الأزرق ونجدة الحنفى .

مذهبهم جيلاً بعد جيل . تبث العزم فى النفوس وتدفع الآخرين إلى الاعتزاز بالأولين والسير على المنهاج الذى ساروا عليه من قبل للوصول إلى ما وصلوا إليه وتحقيق ما عجزوا هم أنفسهم عن تحقيقه . وقد حاز أبو بلال مرداس بن أدية على القدر الأكبر من هذا الرثاء . (١) ولا غرو ؛ فقد كان من الصلاح والتقوى – حسب ما تصفه مراثيهم ويذكره له التاريخ – بدرجة قلما تتكرر أو يكون لها مثيل ، حتى تنازعته مذاهب عدة(٢)، وعَدَّهُ كلٌ من سلفه . شهد مع علىّ صفين ، وأنكر التحكيم ، ونجا فيمن نجا يوم النهروان (٣) . وعلى الرغم من مخالفته لكثير من معتقداتهم إلا أنهم كانوا يعظمونه لعبادته واجتهاده . أنكر على الخوارج فى البصرة سلوكهم الفوضوى الذى يشبه سلوك اللصوص والسفاحين ، وبرئ منهم كما أبرأ الوالى من دمهم (٤) . ولم يرض عن استعراضهم للناس واغتصاب أموالهم وقتلهم وقتل أطفالهم . ولم يرضَ كذلك عن اشتراك نسائهم فى القتال عن الرغم مما عرف عنهن من الحماس . خرج سنة٦٠ للهجرة فى أربعين رجلاً إلى الأهواز بعد أن قتل ابن زياد أخاه عروة ، فبعث ابن زياد بألفى رجل فى أعقابه ودارت بين الفريقين غير المتكافئين معركة عنيفة فى آسك انتصر فيها أبو بلال، وهى المعركة التى خلدها عيسى بن فاتك فى أبيات سخر فيها من الأمويين سخرية شديدة وحاول استغلالها فى الاستدلال على إيمان الخوارج وصدق قضيتهم(٥) . ولم يصبر ابن زياد على هذه الهزيمة فأرسل جيشاً آخر سنة إحدى وستين قوامه ثلاثة آلاف . ودار القتال ، فلما حانت الصلاة – وكانوا فى يوم جمعة – طلب أبو بلال من قائد جيش ابن زياد الأمان حتى يفرغوا من صلاتهم ، فآمنهم ، ثم لم يلبث أن حصدهم وهم ساجدون . وكان لمقتلهم على هذا النحو أثر بالغ فى نفوس الخوارج فتمثلوه قديساً وأكثروا فيه الرثاء ، وكان فيمن رثاه أم الجراح العدوية ، فأعلنت فى رثائها له ولشخص آخر يدعى عروة – ربما أخوه – أن مقتلهما سوف يكون بداية

(١) ديوان الخوارج (نايف) ق ٨١،٨٠،٢٥ ، ١٥٩ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٢٣٨، ٣٠٧ .
(٢) منها الشيعة والمعتزلة . الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .
(٣) الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٤٩ .
(٤) الخوارج والشيعة – فلهوزن – ترجمة د. عبد الرحمن بدوى (مكتبة النهضة المصرية– القاهرة سنة ١٩٥٨م) ص ٦٢ .
(٥) ديوان الخوارج (نايف) ص ١٥٦ .

لشر طويل. ورمت ابن زياد فيها بالغدر وإراقة دم المسلمين بغير حق :

« وما بعدَ مِرْداسٍ وعُرْوَةَ بيننــــا وبينكمُ شيءٌ سوى عِطْرِ مَنْشمِ

فلستَ بناجٍ من يدِ اللَّه بعدمــا هَرقتَ دماءَ المسلمينَ بلا دمِ » [١]

وذكرت امرأة أخرى من بنى سليط أنه جاد بنفسه لله ولم يفر عند التقاء الجيشين على قلة من معه .[٢]

وهو الوصف الذى طالما رددوه ، وكأنهم كانوا يفسرون به تسميتهم بالشراة، أو يدافعون عن هذا اللقب الذى خلعوه على أنفسهم .

ورثاه عيسى بن فاتك بأبيات خلع فيها عليه وعلى من معه كثيراً من المثاليات كطول القيام وكثرة العبادة والنسك والخوف الشديد من الله والسكينة والوقار ، وكأنه قد أراد – بطريقة غير مباشرة – التشنيع بمن قتلوه حيث يصدرها بقوله :

« ألا فى اللَّه لا فى النّاسِ شـالَتْ بداودٍ وإخوته الجُـــذوعُ

مَضَوا قتلاً وتَمْزيقاً وصلّبــــــاً تُحوِّمُ حولَهم طيرٌ وقوعُ»[٣]

وأشار كعب بن عميرة فى رثائه له إلى المنزلة العظيمة التى نالها عند الله والمدخل الكريم الذى أدخله [٤] وكأنه قد تحقق من ذلك !! وممن رثاه كذلك فأكثر فيه الرثاء عمران بن حطان وسوف نعرض له فى جزء تال .

٦ – خاض الخوارج حروباً كثيرة ضد جيوش الدولة الأموية وولاتها وابن الزبير . وعكست مراثيهم كثيراً من هذه الحروب [٥] ، وبخاصة ما تعرضوا فيها للهزيمة واستحر فيها القتل كيوم سِلّى وسِلَّبْرَى وكفرتُوثا ودَقُوقاء ودُولاب وخرَّة وجوخَى والقوادِس وزاذان

---

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٦٧ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٧ و (نايف) ص ٢٢٧ .

(٣) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٧٠ و (نايف) ص ١٥٤ والكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٥٦ .

(٤) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٧٥ ، ٧٦ و (نايف) ص ١٨٠ .

(٥) ديوان الخوارج ت .د. نايف معروف ق ٢٨ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٩٠ ، ١٨٨ ، ٢٣٥ ، ٣٠٢ ، ١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢، ٣٣٨ .

. وظل صدى للنُّخيْلة والنَّهْروان يتردد فى بعض الأحيان (١) .

ولم يكن الهدف من وراء ذكرهم لهذه الحروب مجرد رصدها أو إثارة البكاء بما نالهم من هزائم فيها ، وإنما كانوا يتوجهون من خلالها توجهات عدة تخدم أهدافاً سياسية أولها التشنيع بأعدائهم ، والتنديد بما صنعوه ، وإبرازهم فى صورة وحشية لا تعرف الرحمة ولا تحترم قوانين الحرب التى سنها الأولون . من ذلك قول الجعد بن ضمام :

« بنفسىَ قتلَى فى دَقُوقاءَ غُودِرتْ ... وقـــد قُطِّعتْ منها رءوسٌ وأذرُعُ

لتبْكِ نساءُ المسلمينَ عليهـــــــمُ ... وفى دُونِ ما لاقَينَ مبْكىً ومَجزَعُ » (٢)

وزياد الأعسم :

« سقى اللّهُ أجساداً تَلوحُ عِظامُهـــا ... بفُرضةِ مَوْقُوعٍ سَحاباً غَواديـــا » (٣)

ورجل منهم فى يوم سلى وسلبرى :

« بسِلّى وسِلّبْرَى جماجمُ فتيـــةٍ ... كرامٍ وصرعى لم تُوسَّدْ خُدودُها » (٤)

وعمرو بن حصين فى قتلى قديد :

« صرْعى فخاويةٌ بيوتُهـــــــــمُ ... وخَوامعٌ بجُسومِهم تَفْـــــرِى » (٥)

ومنها أيضا – غير التشنيع – الإثارة وتحريك المشاعر للانتقام :

« نَفاكم عن الجسْرِ المُهلّبُ عَنْـوةً ... وعن صَحْصحِ الأهوازِ نَفْياً مُشذَّبا

وأَنَحى عليكم يومَ أَرْبلَ نابَــــــــه ... وكان من الأيّامِ يوماً عَصبْصَـــبَا

فلن تَهْزموه بالمُنى فاصبروا لــــــه ... وقولوا لأمرِ اللّهِ أهْلاً ومَـــرحَبا

(١) ديوان الخوارج ـ ت . د. نايف معروف ق ٧٨ ، ١٢٨ ، ٢٠٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ .

(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٩٨ / و (نايف) ص ٣٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٧ و (نايف) ص ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٩٣ و (نايف) ص ٢٢١ / الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٣٢٦ . وفيه :

«...................... مصارع فتية ... . وجرحى .... »

(٥) ديوان الخوارج ت . د. نايف معروف ص ١٤٥ .

فما الدِّينُ كالدُّنيا ولا الطَّعنُ كالمُنى ولا الضُّرُّ كالسرَّا ولا اللَّيثُ ثعلبا»[1]

والوعيد :

فلستَ بناجٍ من يدِ اللّهِ بعدَما هرَقتَ دماءَ المسلمينَ بلا دمِ »[2]

والاعتذار :

- « وما قتْلٌ على شارٍ بِعارٍ ولكنْ يُقتلونَ وهم كِرامُ»[3]

- « فكلُّهمُ قد جادَ للّهِ مُخلِصاً بمُهْجتِه عندَ التقاءِ العَساكرِ »[4]

ويعتذرون في مواضع أخرى عديدة بعدم التقصير في جهاد الأعداء [5] ، والثبات وإيثار الموت على الفرار [6] و نفاذ أمر الله [7] ، وبما نالوه من الثواب وعظم الأجر [8] .

واستغل بعضهم تلك الأيام في نقد الخوارج أنفسهم وتوجيه اللوم لمن تقاعس منهم عن القتال ومن فر من ساحته وأسلم إخوانه لسيوف الأعداء متخلياً عن مبدأ من أهم مبادئهم وهو الاستماتة وبيع النفس في سبيل الله . وهم بذلك إنما يَشِفُّونَ عن بشرية فيها ما فيها من ضعف . تقول أم عمران في رثاء ابنها :

« ولّى صَحابتُه عن حَرِّ مَلْحَمَةٍ وشدَّ عِمْرانُ كالضِّرْغامةِ الهَصِرِ»[9]

وكثيراً ما تحسروا على البقاء بعد هؤلاء القتلى [10] . كما تحسر بعضهم على تخلفه عن تلك المشاهد وعده خذلاناً ؛ نحو قول سلامة بن عامر في رثاء الخطار :

---

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٣٠ و (نايف) ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٦٧ و (نايف) ص ٢٦ .
(٣) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٦٩ و (نايف) ص ٥٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ٦٧ و (نايف) ص ٢٢٧ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٢ و (نايف) ص ٢٢٨.
(٦) المصدر نفسه ص ٢١٣ و (نايف) ص ٤٩ .
(٧) المصدر نفسه ص ٢٣٦ و (نايف) ص ٢٣٦ .
(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٧ و (نايف) ص ٢٣٩ .
(٩) ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٨ / الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٩٦ .
(١٠) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٥٧ .

« فيا حَزَنى ألّا أكونَ شَهِدتُــه ... بزَاذانَ والخيْلان تَصْطَفِقــانِ »[1]

وقول حبيب بن خدرة فى رثاء ملحان بن معروف :

« كائنْ كمِلْحانَ فينا من أخى ثقةٍ ... أو كابنِ علْقمةَ المُسْتَشهِد الشّارى

من صادقٍ كنتُ أُصفيه مُخالَصَتى ... فبــاع داراً بأغلى صَفْقَـةِ الدّارِ

إخـوانُ صِدقٍ أُرَجّيـهم وأخـذُلُهم ... أشكو إلى اللّه خِذْلانى لأنصـارى

فصرتُ صاحبَ دُنيا لستُ أمْلكُها ... وصارَ صاحبَ جَنّاتٍ وأنهارِ »[2]

وقد تتحول نغمة الحزن والانكسار على مانالهم من هزائم فى تلك الأيام إلى نغمة أخرى قوية فيها فخر بما حققوه من انتصارات فى أيام أخر يضعونها بإزاء هزائمهم ، كما صنع المسلمون الأولون يوم أحد حين كانوا يفخرون فى رثاء قتلاهم بما صنعوه يوم بدر وما حققوه من النصر[3] . يقول عبيدة بن هلال :

« لَعَمرى لقَدْ بعنا الحياةَ وعيشَــها ... برضْوانِ رَبٍّ بالخلائقِ عالـمِ

غداةَ نَكرُّ المَشْرَ فيَّةَ فيهــمُ ... بسُولافَ يومَ المأزِقِ المُتَلاحِـم

فإنْ تكُ قتلَى يومَ سِلّى تَتابعــتْ ... فكمْ غادرتْ أسيافُنا من قَماقِم »[4]

وهكذا تحتفى مراثيهم بذكر أيامهم وما تعرضوا له فيها من الهزائم والانكسارات، وهى جزء من تاريخهم العسكرى . وهم كما سبق أن ذكرت لا يكتفون برصد المعارك، وإنما يتجهون نحو أهداف سياسية ؛كالتشنيع بالأعداء ، والتنديد بما صنعوه وإثارة المشاعر ضدهم ، وتعبئة النفوس للانتقام ، والاعتذار عما حل بهم كى لا يقع الباقون فى براثن اليأس والحيرة . كما اتجهوا بها نحو شيء من النقد الخاص كشفوا فيه عن السلبيات التى عرضتهم لما تعرضوا له ، وعيونهم متجهة نحو الأمام .

---

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٠٤ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٩ ، و (نايف) ص ٤٤ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ت . د. سيد حنفى حسنين (دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٣م) ص ٢٢١ .

(٤) ديوان الخوارج ت . د . نايف معروف ص ١٠٠ .

٣

نحاول فى هذا الجزء الوقوف مع مجموعة من شعرائهم أكثروا من الرثاء، وعبروا من خلاله عن الصراعات السياسية والمذهبية التى خاضها حزبهم ، بغية الوقوف على الملامح الخاصة لكل منهم وإبراز الدور الذى قام به فى هذا المجال، بغض النظر عن كونه من مشهوريهم أو من المغمورين . وهذا يعنى أننا سوف نتجاوز مجموعة كبيرة منهم شهروا بشعرهم عامة لكنهم لم يقدموا ما كان ينتظر منهم فى الفن الذى ندرسه كقطرى بن الفجاءة والطرماح[١] .

١ – وأول هؤلاء الشعراء عمران بن حطان . فلعمران هذا مكانة مرموقة بينهم وشهرة واسعة ومراث تتناسب معها . كان فى بداية أمره واحداً من أهل السنة والجماعة، فقيهاً من فقهائهم وراوية من رواة الحديث[٢] . نشأ بالبصرة . ولم تحدد لنا المصادر

---

(١) ليس لقطرى فى الرثاء غير ثلاث مقطوعات ، الأولى فى رثاء نافع بن الأزرق وعبيد الله بن بشير ابن الماحوز ، وهى فى سبعة أبيات . (ديوان الخوارج ص ١٦٠ ، ١٦١) ، والثانية فى بعض رجاله ممن شاركوا معه فى حرب المهلب وقتلوا فى تلك المعارك ، وهى أبيات قليلة تجىء فى ثنايا حديثه عما لحق به وبأصحابه من فرقة واختلاف وما حاق بهم من هزيمة . (المصدر نفسه ص ١٦٦) ، والثالثة فى ثنايا ذكره ليوم دولاب ، وهى كذلك أبيات قليلة تجىء بعد غزل وفخر . (المصدر نفسه ص ١٧٥).

أما الطرماح فعلى الرغم من وجود ديوان خاص به إلا أننى لم أجد له فيه ولا فى غيره من المصادر غير قطعة من ثلاثة أبيات فى رثاء من يسميه (عَدَبَساً) وهى بعيدة عن السياسة والمذهبية (ديوانه ص ١٦١) وأخرى فى خمسة أبيات يصف فيها بعض الشراة – على طريقتهم فى تأبين قتلاهم – ويتحسر على فراقهم له ويعلن زهده فى الحياة من بعدهم ورغبته فى اللحاق بهم (المصدر نفسه ص ١٥٧) . وفى قصيدته الفائية (ص١٥٦) نراه يتمنى الموت ويلح فى طلبه ، ويحدد الطريقة التى يتمنى أن يموت عليها :

« فأُقْتَلَ قَعْصاً ثُمَّ يُرْمَى بأعظُمى كضِغْثِ الخَلا بينَ الرِّياحِ العَواصِفِ »

والقبر الذى يرغب أن يحتويه :

« ويصبحَ لَحمى بين طيرٍ مَقيلُه دُوَينَ السَّماءِ فى نُسورٍ عَوائـــــف»

وهى من أشد قصائده « خارجية » إنَ جاز لنا هذا الوصف . لكنها – مع اقترابها منَ رثاء النفس – لا تدخل فى نطاق البحث .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ١٥٥ / تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (ط.الهند سنة ١٣٢٥هـ) جـ ٨ ص ١٢٧ . روى عن أبى موسى الأشعرى وعائشة وابن عباس وابن عمر . ويذكر ابن حجر أنه كان معدوداً من الثقات .

الزمن الذى ولد فيه . ويبدو أنه قد تشرى فى سن متقدمة فاختار الصفرية مذهباً وآثر القعود .

وهم يختلفون فى سبب تشريه ، فيرجعه بعضهم إلى قريبته التى أحبها–وكانت من الشراة – وتزوجها ليردها عن مذهبها فجنحت به إليه . ويرجعه آخرون إلى رجل مجهول جادله أيضاً ليرده عن مذهب الشراة فلم ينته المجلس إلا وقد صار منهم [1] .

والروايتان فى نظر الدكتورة سهير القلماوى متكاملتان [2] . وإن مالت كما مال غيرها [3] بعد ذلك إلى ترجيح الرواية الأولى .

وأيا ما كان الأمر فقد ابتلاه الله بهذا المذهب . وهو مايعبر عنه أبو الفرج الأصفهانى بقوله : « كان قبل أن يفتن بالشراة مشتهراً بطلب العلم والحديث حتى بلى بهذا المذهب فضل وهلك لعنه الله » [4] .

ويختلفون كذلك فى عودته مرة أخرى فى أخريات حياته عن مذهب الشراة[5] . وهو احتمال ضعيف لعلهم أرادوا به تبرير الرواية عنه . لكنهم – مع كثرة اختلافهم فيه – لا يختلفون فى المكانة التى بلغها بين أبناء مذهبه، فقد « كان رأس القعد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم » [6] . وهو «صاحب فتياهم ومفزعهم عند خلافهم » [7] . وقد أدرك الحجاج خطورته فسعى فى إهدار دمه واستصدر أمراً بذلك من عبد الملك بن مروان لتبدأ منذ تلك اللحظة صفحة من صفحات الهروب والاختفاء والتشرد

(١) الأغانى جـ ١٨ ، ص ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ .
(٢) أدب الخوارج ص ٧٨ .
(٣) د. النعمان القاضى فى كتابه « الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى » ص ٦٣٩ .
(٤) الأغانى جـ ١٨ ، ص ١٠٩ .
(٥) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى جـ ٨ ص ١٢٧ .
(٦) الكامل للمبرد جـ ٣ ص ١٦٧ .
(٧) البيان والتبيين للجاحظ – ت . د. عبد السلام هارون – ط ٣ (مكتبة الخانجى – القاهرة سنة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م) جـ ١ ص ٤٧ / الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٦٢ . وفيه: « وكان عمران ابن حطان فى وقته شاعر قعد الصفرية ورئيسهم ومفتيهم ، وللرهين المرادى ولعمران بن حطان مسائل كثيرة من أبواب العلم فى القرآن والآثار وفى السير والسنن وفى الغريب وفى الشعر » .

فى البلاد والمتابعة له فى كل مكان [١] ، حتى يدركه الموت سنة ٨٤ هـ على أرجح الأقوال [٢] .

أما مراثيه فقد استفرغها - أو كاد - فى أبى بلال مرداس به أدية . وقد مات أبو بلال سنة إحدى وستين هجرية ، وتركت وفاته أثراً كبيراً فى شعر الخوارج ، وظل صداه يتردد وقتاً غير قصير . وكان عمران شديد الحب له : «وليس يبعد أن يكون قد حضر مجالسه التى وصفتها كتب الأدب . بل ليس يبعد أن يكون لأبى بلال أثر فى تشريه ، فتشريه قريب العهد بمجالس أبى بلال » [٣] . ويبدو أنه قد تأثر به تأثراً شديداً فى حياته وشعره [٤] . وتأثر لموته تأثراً أشد فأفرغ فيه جل مراثيه وأعمقها فى الوقت ذاته . ومن هذه المراثى سينيته الشهيرة . وهو يبدؤها بالشكوى مما خلفه فراق مرداس فى نفسه من كلوم وجراح :

« أصبحتُ عن وَجلٍ منّى وإيجاسِ أشكو كُلومَ جراحٍ ما لها آسِى »[٥]

ولا يخفى ما فى البيت من إشارة إلى الخوف والفزع والإشفاق الذى تعبر عنه كلمتا : « وجل » و « إيجاس » بما يتناسب والموقف نفسه من ناحية ، وحال الشاعر - المشرد المطارد - على وجه الخصوص . فإلايكن لهذه الكلوم شفاء فلا أقل من البكاء ، ليخفف عنه بعض ما يشعر به من الآلام . ويتمنى أن يجعله الله كذلك الفقيد ، مما يدل ليس فقط على مدى حبه له وإنما أيضاً على حرص عميق على التشبه والاقتداء به :

« يا عينُ بَكّى لِمرْداسٍ ومَصْـرعِــهِ يا رَبَّ مِرْداسٍ الْحِقنى بمِرْداسِ »

ويلتفت إلى نفسه فيصور ما حل به نتيجة موت أبى بلال . ويستغل الموقف استغلالاً رائعاً فى نقد الناس - ولعله يعنى الخوارج أنفسهم - نقداً حزيناً شاكياً :

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ١٠٩ : ١١٤ / الكامل للمبرد جـ ٣ ص ١٦٨ : ١٧٢ .
(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر جـ ٨ ص ١٢٧ .
(٣) أدب الخوارج د. سهير القلماوى ص ٨٩ .
(٤) عالجت هذه النقطة الدكتورة سهير القلماوى بكتابها : « أدب الخوارج » ص ٨٩ وما بعدها .
(٥) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٥٨ / ديوان الخوارج (نايف) ص ١١٦ / الكامل للمبرد جـ ٣ ص ١٦٨ .

« تركْتَني هائماً أبكي لمرْزئـــة في منْزِلٍ مُوحِشٍ من بعد إيناسِ
« أنْكرتُ بعدَك مَن قد كنتُ أعْرِفُه ما النّاسُ بعدَك يا مِرْداسُ بالنّاسِ» .

ثم يذكر الموت وقدريته ، ويردد ما ذكره القدماء من أنه كأس تدور على الشفاه وأن الناس جميعاً سوف يذوقونه إنْ عاجلاً أو آجلاً . ثم يختم مرثيته كما بدأها ختاماً حزيناً يقرر فيه يأسه وعدم جدوى البكاء .

ولهذه المقطوعة موسيقى خاصة أشبه بالصفير ، تشارك فيها عناصر عديدة – كالسين المكسورة بعد مد فى قافية الأبيات ، وتكرار هذا الحرف وحروف أخرى كالصاد، وتكرار بعض الكلمات ذات الجرس الخاص المنسجم مع القافية ومنها كلمة « مرداس» التى يرددها فى بيت واحد ثلاث مرات والناس وكاس وأنفاس . وإيقاع البسيط الهادئ فى حركته ، والسهولة والصدق وبساطة التعبير والتلاؤم والانسجام – تشترك فى إحداث نوع من التأثير العميق الذى يهز النفوس هزاً .

ومثل هذا التأثير – وإن كان فى درجة أقل – نجده فى مرثية ثانية له فى أبى بلال . وهى نونية طويلة نسبياً ، بل هى أطول مراثيه على الإطلاق . يقف فى بدايتها وقفة طويلة مع الموت ، ويتوجه بالحديث إلى نفسه أو إلى جمرة حبيبته وزوجه أو إليهما معاً ؛ فقد صارا شيئاً واحداً ، حديث لوم وتأنيب يشف فيه عن بشريته ؛ حيث الصراع العنيف بين حبه للحياة وما تمليه طبيعة مذهبه من بيع الدنيا وما فيها والإقبال على الموت إقبال الشراة :

« إن كنتِ كارهةً للموتِ فارْتَحلى ثُمّ اطْلُبى أهلَ أرضٍ لا يَمـوتونا
فلستِ واجِـدةً أرضـاً بهـا بَشَرٌ إلّا يَروحـونَ أفْواجـاً ويَغْدونا
إلى القُبـورِ فـمـا تنفكُّ أرْبَعَـةٌ تُدْنِى سَريراً إلَى لَحْدٍ يُمَشّونا»[1]

ويذكر مرداساً وما أصابه وما أصاب إخوانه ، ويستشهد بموته وموت النبيين قبله على صدق ما يقول من حتمية الموت وعدم تفريقه بين شخص وآخر :

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٦٠ / ديوان الخوارج (نايف) ص ١٣٢ وزاد فيها بيتين .

« يا جَمْرَ قد ماتَ مِرْداسٌ وإخوتُهُ وقبلَ موتِهمُ مـــاتَ النّبيُّونـا

يا جَمْرَ لو سَلِمتْ نفسٌ مُطَهّـرَةٌ من حادثٍ لم يَزَلْ يا جَمْرَ يُعْيينا

إذنْ لدامتْ بمِرْداسٍ سَلامتُــــهُ وما نَعاهُ بذاتِ الغُصْنِ ناعُونــا».

ولا يخفى ما فى الأبيات من إشارة إلى حبه لمرداس واعتزازه به اعتزازاً يكاد يصل إلى حد التقديس . وهو بذلك إنما يعبر عن شعور الخوارج عامة . ثم يتجه إلى التشنيع بقاتليه وإلى شىء من الإثارة والتوثيب :

« نفسى فداؤكَ مِن مُلْقىً بمَهْمَلَـةٍ لم يصبحِ اليومَ فى الأجْداثِ مَدْفونا

قد كانَ مُهْتدياً يَهْدى الإلهُ بــــهِ (دوْماً) يُصلّى ولا يَهْوَى المُصلِّينا».

وهو يعنى المصلين (الذين هم عن صلاتهم ساهون) . ثم يستمر فى خلع الصفات الدينية المثالية عليه، ومنها ذكر المعاد والانصراف عن اللهو وما فى الدنيا من زيف يشغل أهلها عن الآخرة وما بعد الموت ويدفع إلى التكذيب . ويبين أثر موته لا فى نفسه فحسب وإنما فى طائفة الخوارج كلها حيث تركهم كاليتامى بلا أب . وفى ذلك إشارة إلى المكانة القيادية التى كان يشغلها مرداس فكراً وتطبيقاً . ويدعو له بالجنة على ما قدمه من أجل تلك الفئة ، وحسبه فى ذلك الإرشاد والتأليف :

« تركْتَنا كيتامَى بادَ والدُهـــم فلم يَرَوا بعدَه خفْضاً ولا لينـــــا

فاللّهُ يَجْزيكَ يا مِرْداسُ جنّتَـــه عنّا كما كنتَ فى الإرشادِ تُولينـــا

بَصّرتَنا شُبَهاً كانتْ تُؤلّفُنــــا إنّ المُؤلّفَ لا ينْفكُّ مَفْتونــــــا».

وفى لاميته – وهى الثالثة فى رثاء أبى بلال – يكاد عمران يتنازل عما عرف به من قعود ، فقد بغّض موت هذا الرجل إليه الحياة وزاده حباً فى الخروج ، فإذا الذى كان يخشى الموت يرجوه ، بل يرجوه على طريقة الشراة تحت ذرى العوالى لا فوق الفراش :

« لقــد زادَ الحَياةَ إلىّ بُغْضــاً وحـبّاً للخُروجِ أبـــو بلالِ

وعـــرْوةُ بعدَه سُقْياً ورَعْيــاً لعُرْوةَ ذى الفضائلِ والمَعالى

« أحـــاذرُ أنْ أموتَ على فِراشي وأرجو الموتَ تحتَ ذُرى العَوالي » .[1]

ويشيد بحتف أبي بلال ، فلم يك موته عاراً ، بل كان فخراً له . ولعلها دعوة إلى كل الشراة وبخاصة من يؤثرون القعود على الخروج أن يتأسوا بالطريق التى سار فيها ، وأن يستهينوا بالموت لا أن يحذروه ، يوجهها من خلال الحديث إلى نفسه :

« ولـــو أنّى علِمتُ بأنَّ حتّفى كحتّفِ أبِى بِلالٍ لم أُبالـــى »

ومن خلال إعلانه الزهد فى الدنيا ، وما يضمره لها من كره وضيق :

« فمـــنْ يكُ هَمُّهُ الدُّنيا فإنّى لها واللهِ رَبِّ البيْتِ قالـــى » .

وفى البيت لوم غير مباشر ، ونقد موجه دون تصريح .

ويذكر فى شعره وقعة ميجاس وما لاقاه إخوان له فيها ، ويمتدحهم بالمثاليات نفسها التى يمتدح بها الخوارج قتلاهم ؛ فقد طابت نفوسهم بالموت عند اشتداد القتال ، ولم يرضوا بالذل بعد أن عرفوا الحق – فى تصوره – واتبعوه :

« وإخوةٍ لهمُ طابتْ نفوسُهمُ بالموتِ عندَ التفافِ النّاسِ بالنّاسِ

واللهِ ما تَركوا من مَتْبَعٍ لهُدًى ولا رَضُوا بالهُوَيْنَى يومَ مِيجاسِ »[2]

ويستغل الموقف كعادته فى تأنيب المقعدين، وفيه تأنيب للنفس حيث كان رأساً لهم:

« أتعجَزونَ وترْجونَ اللّحاقَ بهم أنّى يكونُ ذَوو عَجْزٍ كأكياسِ » ؟

وغريب أمر هذا الشاعر الذى يزين الخروج فى كثير من مراثيه على النقيض مما كنا نتوقع . وفى الحق أن هؤلاء الصفرية ممن كانوا يجيزون القعود لم ينفوا أهمية الخروج ولم يقللوا من شأنه ، ولكنهم – على ما أظن ويؤيدنا فى هذا ما سقناه من أبيات لعمران – كانوا يحاولون التخفيف من غلواء الأزارقة الذين أوجبوه . فهو عندهم ليس واجباً . هذا كل ما فى الأمر . لكنه فى الوقت نفسه أقرب السبل للخلاص والتعبير عن

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ١٥٩/ ديوان الخوارج (نايف) ص ١٢٨، ١٢٩/ الكامل للمبرد جـ ٣ـص ١٦٨.ويفهم من البيت الثانى–ولم يرد فى الكامل– أن عروة قد مات بعده خلافاً لما يذكر المؤرخون فى حديثهم عن سبب خروجه، إلا أن يكون الترتيب عنده على المكانة والأهمية.

(٢) ديوان الخوارج (نايف) ص ١١٦ ، ١١٧ .

التمرد والرفض .

ونجد له بيتاً فى يزيد بن بعثر ، هو جزء من أبيات ضائعة . مما يدل دلالة قاطعة على أن ما بين أيدينا لا يمثل كل شعره فى الرثاء . ولعل وراء ذلك - بالإضافة إلى خارجيته - ما عرف به هو على نحو خاص من تمجيد لابن ملجم قاتل علىّ فى شعره ، واعتبار ما قام به نوعاً من الفداء . فما أكثر ما توالت الردود بلعنته ، وما أكثر ما صُبَّ فوق رأسه منها من المؤرخين والكتّاب على نحو ما فعل أبو الفرج وهو يتحدث عن تحوله إلى مذهب الشراة .

وهذه الأبيات هى فى الحقيقة رثاء ؛ لأنه لم يكن فى ذلك الوقت من الشراة ، ولم يعش ابن ملجم حتى تشرى عمران وقال هذه الأبيات ؛ إذ سرعان ما نفذوا فيه القصاص . وهو فيها يعلن رأيه - بل رأى الخوارج جميعاً - فى علىّ - ويمجد صنيع ابن ملجم ويعتبره قربة من القربات توجب له الجنة ، بل تجعله- فى تصوره - أوفى الناس ميزاناً عند الله .

« إنّى لأذكُرُه حيناً فأَحْسَبُـــــه ... أوفَى البَرِيَّةِ عندَ اللّه ميـزانـا

للّه درُّ المُرادىِّ الّـــــذى سَفَكَتْ ... كفّاهُ مُهْجةَ شرِّ الخَلقِ إنسانا

أَمْسى عَشيَّةَ غشّـــــاهُ بَضَرْبتهِ ... ممّا جَنَـــاهُ مِن الآثامِ عُرْيانا »[1]

ولعل فى قوله « إنى لأذكره » ما يؤكد أنها قيلت بعد الحادثة بوقت . ولعل البيت الأخير يشير إلى فكرة التكفير ؛ التكفير عن الخطايا والذنوب ، وهى فكرة مذهبية قليلة الظهور فى شعرهم . ويخلص عمران فى تأبين ابن ملجم إلى تقرير معنى من المعانى المذهبية وهو أن الخوارج وحدهم أصحاب الدين الحق ؛ فهم لم يخلطوه بما يفسده بغياً وعدواناً . وكأنه يعرض ببنى أمية ، حيث ينتقل بعد ذلك إلى نقد سياسى عنيف يذكر فيه ضياع العدل وافتقاد دعاة الحق إلى الأعوان :

« أَكْرِمْ بقومٍ بُطونُ الطَّيرِ قبرُهُمُ ... لم يَخْلِطوا دينَهم بَغْياً وعُدْوانا

(١) ديوان الخوارج ت . د. نايف معروف ص ١٣٢ / والبيت الأول مع آخر بالكامل للمبرد جـ ٣ ص ١٦٩ .

حتّى متى لا نَرى عَدْلاً نَعيشُ بـه   ولا نَرى لدُعاةِ الحقّ أعْوانـــــا» ؟

وهى فى تصورى من أشد مراثيه نزوعاً نحو السياسة والمذهبية ؛ فقد نال فيها من الخصوم شيعة وأمويين ، وأثار فيها المسلمين جميعاً بما ذكره فى علىّ كرم الله وجهه ، ومجد أبناء مذهبه تمجيداً شديداً . لذلك كثر المعارضون . وكثرت إشارات المؤلفين لها مصحوبة فى كل مرة يذكرونها فيها باللعنة له ولمن كانوا على رأيه من الشراة .

٢ – والشاعر الثانى الذى نقف عنده هو عمرو بن الحصين . ولم يك عمرو من المكثرين ، لكنه فيما يبدو كان أطولهم نفساً ؛ فهو صاحب أطول قصائدهم ، لا فى الرثاء فحسب ، وإنما فى شعرهم كله . وقد بلغت إحدى مراثيه ستة وخمسين بيتاً . وهو يمثل فرقة من فرقهم المعتدلة ، بل أكثر فرقهم اعتدالاً ، وهى الإباضية ، ويمثل من ناحية أخرى طائفة من الطوائف التى لا يُلتفت إليها كثيراً فى دراسة الخوارج وهى طائفة الموالى ؛ فقد كان مولى لبنى تميم . عاش فى أواخر العصر الأموى ، وأدرك أبا حمزة الشارى ورثاه بعد مقتله بقصيدته التى لفتت الأنظار بطولها . ولم يكتف فيها برثاء أبى حمزة وحده وإنما رثى معه مجموعة من قواد ثورته كعلىّ بن الحصين وأبرهة ابن الصباح وآخرين ؛ منهم من سماه ، ومنهم من لم يسمه . وهو يبدؤها –كالعادة– بالبكاء وإظهار المواجع والأحزان ، ولكن فى صورة حوار وتساؤل يدور بينه وبين من يسميه هنداً ، ولعلها نفسه يفصلها عنه فى لحظات الأرق والحيرة ؛ فسؤالها يأتى قبيل الفجر سؤال عارف لا جاهل يسأل للتخفيف والمواساة ، ولا تشاركه بالتساؤل فحسب وإنما تشاركه كذلك بتلك الدموع التى تجرى فوق خديها :

« هبّتْ قُبَيلَ تَبلُّجِ الفَجْـرِ   هنْدٌ تقـولُ ودمـعُهـا يَجْرى
إذ أبصـرتْ عَينى وأدمُعُهـا   يَنْهلُّ واكِفُهــا على النَّحْر
أنّى اعتراكَ وكنتَ عَهدِىَ لا   سَرِبَ الدُّموعِ وكنتَ ذا صبْر
أقَذًى بعينك ما يُفـارقُها   أم عـائرٌ أم مـالَهـا تُذْرِى
أم ذِكْرُ إخوانٍ فُجعتَ بهم   سَلَكوا سَبيلَهمُ على قَدْرِ» ؟[1]

(١) ديوان شعر الخوارج ت . د. إحسان عباس ص ٢٤٧ .
ديوان الخوارج ت . د. نايف معروف ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وهذا البيت الأخير يرويه الدكتور نايف في تحقيقه للديوان « .... على خبْرٌ » . وحسب هذه الرواية يضع الشاعر أيدينا على ما كانوا يعتقدونه من أنهم مهتدون سلكوا طريقهم على نور وبصيرة ، ولا يخفى ما في ذلك من غمز لعامة المسلمين ؛ إذ هم في تصور الخوارج يتخبطون في الضلال . ويتمنى الشاعر أن يسلكه الله طريقهم – ولعله يعنى ميتة كتلك التي ماتوا عليها – ويدعوه أن يشد من أزره بمزيد من التقوى :

« يا ربِّ أَسْلِكني سبيلَهـــــمُ ذا العرْشِ واشْدُدْ بالتُّقـــى أَزْرى
في فتيةٍ صبَرُوا نفوسَهـــــمُ للمَشْرَفِيَّةِ والقنـا السُّمْـــرِ » .

ويعرض في الأبيات (من ٩ : ١٨) لوحة فنية متكاملة يصور فيها هؤلاء الشراة تصويراً يحببهم إلى النفوس ويلفت الأنظار إلى نزاهتهم وتمسكهم بدين الله ؛ فهم لاشبيه لهم بين الناس في الوفاء بذمتهم إذا عقدوا والتعفف في كل الأحوال – وهي نقطة من النقاط التي يختلف فيها الإباضية مع الأزارقة ؛ حيث يبيح الأزارقة لأنفسهم أموال غيرهم ولا يرون الوفاء لهم لازماً ، بينما يلتزم الإباضيون بالوفاء بالعهود مع غيرهم مثلهم في ذلك مثل النجدات – ويستمر الشاعر في عرض لوحته ، فإذا هم مؤهلون للصلاح – وفيها إشارة إلى ما كانوا يلزمون به أنفسهم من التأدب – صمت في مجالسهم ، عليهم سكينة ووقار ، ترجف قلوبهم عند ذكر الله ، يتأوهون من خشيته كأن جمراً بين ضلوعهم يسرى ، تلقاهم فتحسبهم من شدة الخشوع قد صدروا عن الحشر ، فكأن بهم مرضاً أو مسهم طرف من السحر ، لا ينامون كما ينام الناس إلا لحظات قليلة يختلسونها بالليل ، يؤرقهم حذر العقاب والذعر من الله .

وهكذا تنتهي اللوحة ، ثم لا يلبث أن يبدأ لوحة أخرى . وتتوالى اللوحات حتى نهاية القصيدة مكرراً حينا ومفصلاً ومضيفاً حيناً آخر . ونراه يعمد إلى الفقرة الأخيرة من خطبة أبي حمزة الشهيرة – وهو الجزء الخاص بوصف أصحابه– فيقتطف منها معاني كثيرة ويضمن بعضها تضميناً .وهذا النمط من الشعر الذي يميل إلى التفصيل والاستقصاء والقص – والذي نلمحه في قصائد أخرى له كقصيدته في وقعة قديد [(١)]

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٥١ ق ٣١٤ ، و (نايف) ص ١٣٨ ق ١٨٧ .

– يعتبره الشايب أثراً مباشراً لمزاج فارسى أصيل [1] . وهو صحيح إلى حد ما ؛ إذ لا نستطيع أن ننكر أثر القرآن– وخاصة فى أسلوب القص – وأثر شعراء آخرين معاصرين له أو سابقين عليه مالوا إلى هذا النوع من الشعر من أصحاب الغزل كامرئ القيس وعمر ابن أبى ربيعة والوصف كرؤبة والعجاج وذى الرمة .

وينسب المرزبانى فى معجمه [2] . قطعة أخرى لمن يسميه بعمرو بن الحسن الإباضى من قصيدة يقول إنها طويلة فى رثاء الإباضية . ويذكر أنه كان مولى . فلعله شاعرنا وقد صحف اسم أبيه ، [3] ولعلها القصيدة السابقة خاصة أن المطلع هو نفسه البيت الثامن منها مع تغيير طفيف ، وفيها يظهر واضحاً أصل من أصولهم المذهبية وهو الذى أغرى الموالى بالانضمام إليهم ، فعبر عنه هذا الموالى وأفاض فيه . أعنى المساواة ليس فقط بين العرب والأعاجم، ولا بين القبائل ، بل كذلك – وهو ما يحوم الشاعر حوله – بين الأغنياء والفقراء ؛ فغنيهم لا يحتقر الفقراء بل يعطف عليهم ، وفقيرهم لا يحقد على الأغنياء بل يتعفف ، وكلاهما متجمل بطيب الخلق آمن من نبوات الزمان، إنه مجتمع مثالى ربما يسعى الشاعر إلى تحقيقه أو فى الأقل يدعو إليه لأننا لا نظن أنه كان موجوداً لأبناء حزبه بالفعل . ولعله ينقد أوضاعاً سائدة فى مجتمعات – هى فى اعتقادهم – منحرفة عن روح الإسلام

يقول عمرو:

« فى فتيةٍ شَرَطوا نُفوسَهُـــــمُ	للمَشْرَفيّةِ والقَنَـــا السُّمـرِ
مُتَراحِمينَ : ذوو يَسارِهـــــمُ	يَتَعطَّفـــونَ على ذوى الفَقْرِ

(١) تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى الهجرى ط ٥ (دار القلم – بيروت سنة ١٩٧٦م) ٩ ص ٢٢٠ .

(٢) معجم الشعراء ت . عبد الستار أحمد فراج (دار إحياء الكتب العربية – القاهرة سنة ١٩٦٠م) ص ٤٨ .

(٣) يقول الدكتور إحسان عباس : « أقدر أن هذه الأبيات جزء من القصيدة التالية ، والشاعر هنا اسمه عمرو بن الحسن وصاحب التالية عمرو بن الحصين ويقال الحسين. وهو عند البلاذرى (النسخة م ٣ : ١٤٣) عمرو بن الحسين » ديوان شعر الخوارج ص ٢٤٦) . وهذا أيضاً ما ذهب إليه الدكتور نايف معروف . ديوان الخوارج ص١٣٧ .

وذوو خَصاصتِهم كأنّهـــــم   مِن صِدْقِ عِفّتِهم ذوو وَفْرِ
مُتَجمِّلينَ بطيبِ خيمِهـــــم   لا يَهْلعون لنَبْوة الدَّهْـــر
فكذاكَ مُثْرِيهم ومُقْتِرُهـــــم   أكْرِمْ بمُقْتِرِهـــم وبالمُثْرِى»(١)

وهى المرة الأولى التى يعزف فيها أحدهم فى رثاء له على الوتر الخاص بالغنى والفقر والعلاقة بين الأثرياء والمعدمين .

٣ – وثالث من نقف معه شاعرة من بنى شيبان تدعى مليكة ، وقفت شعرها كله على الرثاء . ورثت فيمن رثت الضحاك بن قيس الذى استولى على العراق فترة من الزمن ولم يستول أحد من الخوارج عليها قبله ولا بعده(٢) . وبلغ من نفوذه أن صلى خلفه من قريش عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وسليمان بن هشام بن عبد الملك (٣) . وهو من الصفرية وكذلك شاعرتنا . وقد أمدت قبيلة بنى شيبان الصفرية بأعداد كبيرة من الأفراد وغير قليل من القادة ، وكانت بالنسبة لها كبنى تميم بالنسبة للأزارقة . وقد حرصت مليكة فى رثائها له على إبراز ما حل بالخوارج وما حل بها من فجيعة لعظم المصاب ، فهو كما تصفه لم يكن رجلاً عادياً وإنما كان سيداً ضخماً – وفى هذا الوصف ما فيه من التعظيم – حلو الشمائل ، حسن السريرة ، ماجداً ، شهماً ، وصولاً لأهل قرابته وأصحاب الجوار . تقول مليكة :

« مـا بالُ دَمْعِكِ دائمُ السَّجْـــمِ   مِـثْلَ الجُمـانِ وَهَى مِن النَّظْمِ
جلَّتْ مُصيبتُنا وقد عَظُمــــتْ   لَمَّا فُجِعتُ بسَـيِّدٍ ضَخْـــمِ
حُلْوِ الشّمـائلِ حينَ تَخْبُــــرُهُ   حَسَنِ السَّرِيرة مـاجِـدٍ شَهْـمِ
يصلُ القَرابةَ والجُـــــوارَ إذا   قَطعَ القَرابةَ صاحِبُ الظُّلْمِ»(٤)

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٤٦ و (نايف) ص ١٣٧ .
(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى – عنى بتصحيحه ومراجعته عبد الله الصاوى (دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف – القاهرة سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م) ص٢٨٢.
(٣) البيان و التبيين للجاحظ ت . عبد السلام هارون جـ ١ ص ٣٤٣ .
(٤) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٤٠ ، ٢٤١ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٠٣.

وفى عقد الجمان الذى وهى وافتقد النظم – وإن كانت تشبه به الدموع فى تحدرها – ما يشى بالحالة النفسية التى اعترتها بعد فقد الضحاك ، فكل شىء ممزق فى باطنها حتى تصورها للدموع ، وما ذلك إلا لماحل بالعشيرة نفسها وما أصاب قومها من التشتت والافتراق وإن لم تصرح بذلك . وفى تأبينها له بما أبنته من صفات نوع من تخليد الخوارج للأبطال ؛ حيث لم يكن يربطها به غير المذهب وقرابة بعيدة ترجع إلى كونهما أبناء قبيلة واحدة . وفى مقارنتها العجلى بين صلته لذوى رحمه ورعايته للجار وقطع صاحب الظلم لتلك الصلات غمز بآخرين لعلها تعنى بهم من هم على غير مذهبها ، فما أكثر ما وصفوهم بأنهم ظالمون . وهو ما يؤكده قولها فى البيت الأخير :

« ولأبكينّكَ عندَ مُجْتَمعِ الأملاءِ عندَ تَطاولِ الخَصْمِ ».

فصورة الخصم حاضرة فى ذهنها . ومما يزيدها ألماً وحسرة ويحفزها على مواصلة البكاء صورة الأشراف من قومها وهم يتعرضون لتطاول الخصوم فى المجتمعات حيث قد غاب الضحاك .

ولا تستطيع مليكة فى مقطوعة أخرى – يبدو أنها قالتها عقب موته مباشرة وهى لا تزال تحت تأثير الصدمة فى أقوى درجاتها – أن تتمالك نفسها فتملؤها ندباً وبكاء – على قلة الندب فى مراثى الخوارج عامة حتى النساء – وتفصل من نفسها شخصاً آخر – هو تعبير بلا شك عن التمزق الذى يعتريها – يأمرها بالصبر لتنال الأجر أجر الصابرين . لكنها تعجز عجزاً تاماً ولا تملك إلا أن تبين فى مرارة عما اعتراها نتيجة فقدها وفقد الخوارج له . تقول مليكة :

« قُولى مُلَيكُ عليكِ بالصَّبْرِ	تَسْتوجبينَ فضائلَ الأَجْرِ
قُولى فإنّكِ غيرُ كاذبةٍ	يا عُدّتى لنَوائبِ الدَّهْرِ
أوْرَثْتَنى كَمَداً يُؤرّقُنى	وتَلهُّفاً وحَرارةَ الصَّدْرِ
ومَرارةً فى العَيشِ دائمةً	وحَرارةً كحَرارةِ الجَمْرِ »(1)

(1) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٣٨ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٠٢ .

ثم تؤبنه في بيت واحد وهو البيت الأخير بأصل مذهبي وهو الأمر بالمعروف، ويلزمه بطبيعة الحال النهي عن المنكر، وإن لم تصرح به :

« ذَهبَ الَّذى قد كان يأمُرنا بالخَوفِ والمَعْروفِ والذِّكْرِ » .

وتقف مليكة باقي مراثيها على أهلها وذوى قرباها ، لا على اعتبار أنهم أقرباء فحسب، وإنما على اعتبار أنهم أيضاً من الشراة . وهذا يعنى أنها توجه مراثيها وجهة مذهبية . نلمح ذلك في رثائها لعمها ،حيث تؤبنه بما أبنت به الضحاك من الأمر بالمعروف في قولها :

« أصبرْتُ عـــن عَمِّى الَّذى قـــد كان بالمَعْروفِ آمِرْ »[1]

وتشير في القطعة نفسها إلى إخوانه الشراة وتصفهم بأنهم ذوو الفضيلة والبصائر :

«إخوانُه النَّفرُ الشُّراةُ ذوو الفَضيلة والبَصائِرْ» .

وتذكر في قطعة أخرى تأليفه للشمل وإعداده له ذُخْراً لنوائب الدهر وعثراته :

« جَزعاً على مَن كان يَجمعُ شَمْلَنا ونُعـــدُّه لنَوائبٍ وعِثَارِ » [2]

ولا تكتفى بالبكاء عليه وحدها ، بل تطلب من نساء الشراة أن يشاركنها فيه ، وكذا الرجال :

« فَلْتبكِ نِسْوانُ الشُّراةِ بعَبْـــرةٍ عندَ الحُروبِ وكُلُّ كَهْلٍ شارِ » .

ويذكرها فقده فقد إخوان له آخرين من أصحاب مذهبها فتؤبنهم – وتؤبنه معهم – بمعان دينية كالعفاف والوقار والتصدق على السائلين من الفقراء وذوى الحاجة ، وتمدح دينهم وتدينهم ، فهم خير عشائرهم بشهادة تلك العشائر .

« أينَ الَّذينَ إذا ذَكرتُ فِعالَهـــم عُرِفوا بحُسنِ عَفافةٍ ووَقـــارِ

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٩ و (نايف) ص ٢٠١ .

(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان)ص ٢٣٩ / و (نايف) ص ٢٠٢ .

أينَ الّذينَ إذا أتاهم سائـــــــــلٌ   بَذلوا له أمْوالَهم بيَســـــــارِ

أينَ الّذينَ إذا ذَكرْنا دينَهـــــــــم   قالتْ عَشائرُهم هُمُ أخيـارى» ؟

وفى رثائها لأخيها تركز كذلك على المعانى الدينية ؛ فتؤبنه بتلاوة الفرقان وصلة الرحم ورعاية الضعفاء واصطناع الخير ومقابلة الإحسان وكف الأذى وبذل المعروف (١) . وتنتقل فى قطعة ثانية من رثائه - كما انتقلت فى رثاء عمها - إلى رثاء نسوة من الشراة ، وهى المرة الأولى التى نجد فيها رثاء لهن . وكنّ يشاركن فى الحروب كما تذكر مليكة :

« قُولا لِمَنْ حَضَـرَ الحُـروبَ مِن النِّســاءِ الشَّــارِيــاتْ

أمْسَينَ بعدَ غَضـــــارةٍ   ونَعيمِ عَيْشٍ مُثْبَـتـــاتْ

مِن بعدِ عَيْشٍ ناعِــــمٍ   صارتْ عِظامُهمُ رُفــاتْ »(٢)

وهى لمحة طريفة ؛ أن تلتفت إلى المرأة الشارية، وقلما التفت إليها الشراة على ماكان لها من مكانة بينهم .

* * *

(١) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٣٨ / ديوان الخوارج (نايف) ص ٢٠٣ .
(٢) ديوان شعر الخوارج (إحسان) ص ٢٣٩،٢٣٨ و (نايف) ص ٢٠٠ .

الفصل الثانى
الشيعة
١

١ – تقوم النظرية السياسية عند الشيعة – على اختلاف فرقها – على أصل واحد كبير يجمع بينها وهو الإمامة ؛ فى من تكون ؟ وعلى أى أساس ؟ وكيف تنتقل من شخص إلى آخر ؟ والصفات الواجب توافرها فى الإمام . ثم هم يختلفون بعد ذلك فى الجزئيات والتفاصيل المتعلقة بهذا الأصل وخصوصاً ما اتصل منها بالصفات ، والسلسلة التى تتتابع فيها الأئمة بداية من علىٍّ رضى الله عنه وانتهاءً بإمام يغيب عند المتوقفة أو أئمة مستورة أو ظاهرة تتتابع فى سياق خاص عند كل فرقة على حدة .

فالإمامة فى أبناء على بن أبى طالب لا تخرج عنهم إلا بظلم أو تقية [١] . على أساس قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهى ميراث يستحقه أقرب الناس إليه . وتنتقل على هذا الأساس من خليفة إلى خليفة أو من إمام إلى إمام . مع أساس آخر لا ينفصل عن القرابة وهو الوصية أو النص؛ فهو الذى يفصل بين الأقرباء حين يتساوون فى درجة القرابة ، وهو الذى يحركها تارة جهة الإخوة وتارة جهة الأبناء والأحفاد ، وهو الذى ينقلها من فرع إلى آخر ، وهو الذى تلاعبت به الفرق فى نهاية المطاف حيث أصبح لكل فرقة سلسلة خاصة بها تزعم تكوينها على هذا الأساس . فالكيسانية ينقلونها من علىٍّ إلى ابن الحنفية مباشرة ، أو منه إلى الحسن فالحسين فابن الحنفية فابنه الملقب بأبى هاشم ، ثم يختلفون بعد ذلك باختلاف فرقهم ، وهى فرق كثيرة [٢]. والإمامية ينقلونها من علىٍّ إلى الحسن فالحسين فعلى بن الحسين فمحمد ابن على المعروف بالباقر فجعفر بن محمد الملقب بالصادق ، ثم يختلفون بعده [٣] . أما

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٥١ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٢ ، ١٥٥ .

(٣) الزينة فى الكلمات الإسلامية لأبى حاتم أحمد بن حمدان الرازى (منشور فى القسم الثالث من كتاب « الغلو والفرق الغالية » للدكتور عبد الله سلوم السامرائى بتحقيقه)– ط٢ (دار واسط للنشر – بغداد سنة ١٩٨٢) ص ٨٦ ، الفرق بين الفرق ص ٧٨ : ص ٨٣ ، الملل والنحل جـ ٢ ، ص ٤ ، ص ٥ .

الزيدية فينقلونها كالإمامية حتى الخليفة الخامس محمد بن على الباقر حيث يستبدلون به أخاه زيد بن على [1] .

وهذه السلاسل كما هو واضح تلتقى كلها فى أصل واحد ، هو على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم تفترق بعد ذلك فى نسله ؛ فقد اشترطت بعض الفرق أن يكون الإمام من أبناء فاطمة الحسن أو الحسين وقصرت الإمامة عليهم وحدهم دون أبناء على كالزيدية والإمامية ، ولم تلتزم الكيسانية بهذا الشرط فنقلتها إلى محمد بن الحنفية رضى الله عنه ثم نقلتها بعد ذلك إحدى فرقها إلى الفرع العباسى [2] . بل نقلتها فرقة أخرى إلى أبناء جعفر بن أبى طالب [3] .

وطغى هذ الأساس على الأساس الأول وهو القرابة عند بعض متأخرى الكيسانية فنقلوها إلى فروع أخرى لا تمت إلى بنى هاشم – بل لا تمت إلى قريش – بصلة [4] . وواضح أن هذه الطائفة قد خرجت عن الإطار الشيعى أو عن النظرية السياسية للشيعة فى الحكم وإن احتفظوا ببعض أصولها . وواضح أيضاً أن الشيعة قد تأثروا فى اعتمادهم على أساس القرابة وحصر الخلافة فى فئة معينة من قريش والقول بالنص وإنكار فكرة الانتخاب الحر التى اعتمدت عليها الخوارج والبيعة التى اعتمدت عليها الجماعة بمؤثرات أجنبية ؛ فارسية على وجه الخصوص . فأول من قال بذلك كله واحتج به فى عهد علىّ رضى الله عنه عبد الله بن سبأ [5] . وكان ابن سبأ مع يهوديته قد نشأ باليمن ، وكان للفرس كما هو معروف سلطان هنالك قبل الإسلام . وقد نقل مع القول بالوصية أفكاراً أخرى كالرجعة والغلو فى شخص الإمام، ولم ترج هذه الأفكار إلا فى العصر الأموى حيث نمت الشيعة فى أرض العراق ، بلاد الفرس قديماً ، ودخل فيها كثير من موالى الفرس . وهؤلاء الفرس كما يقول دوزى قد اعتادوا الخضوع المطلق ولم

---

(١) الزينة ص ٣٠٠ / الفرق بين الفرق ص ٥١ : ٥٨ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٩ : ١٦٦ ويذكر الشهرستانى (ص ١٦٠) أن الزيدية لم ينقلوها بالوصية وأجازوها فى كل أبناء فاطمة بشرط الخروج . وفى الزيدية كلام كثير سوف نعرض له فى الجزء الخاص بالكميت .

(٢) الزينة ص ٢٩٨ / الفرق بين الفرق ص ٦٠ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٨ .

(٣) الزينة ص ٢٩٨ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٦ .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٦١ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٦ .

(٥) الزينة ص ٣٠٥ / الملل والنحل جـ٢ ص ١٢ .

يعرفوا فى الحكم مبدأ غير الوراثة[١] . وعلى الرغم من هذا فقد وجدنا الشيعة يحتجون على صحة نظريتهم بأدلة نقلية يحاولون بوساطتها أن يضفوا عليها نوعاً من التأييد وأن يصبغوها صبغة دينية تنفى كونها مستمدة من حضارة أخرى وتحيطها بهالة من التقديس لتلقى القبول والرواج ولتجد لنفسها – وسط النظريات الأخرى القائمة – شيئاً من التسويغ والتبرير . وأغلب هذه الأدلة إما موضوع كحديث الغدير ، وإما محرف كقراءتهم لقوله تعالى فى سورة الشرح (فإذا فَرَغْتَ فانْصِبْ) بكسر الصاد ؛ أى انصب لهم إماماً[٢] ، وإما مؤولاً تأويلاً فاسداً[٣] ، فلو كانت هناك وصية بالفعل وعلمها الصحابة كما يدعون لما كانت السقيفة ، ولكان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان أسرع الناس إلى تنفيذها ،ولاحتج بها علىٌّ نفسه وهو يجادل معاوية فى كتبه ورسائله الكثيرة إليه بعد مقتل عثمان رضى الله عنه .

فإذا نظرنا فى شعرهم وجدنا صدى هذه النظرية واضحاً فى مراثى شهدائهم وقتلاهم يقول كثير :

« ألا إنّ الأئمّـــةَ من قُريــشٍ   وُلاةَ الحقِّ أربَعــــــةٌ سَواءُ

علىٌّ والثّلاثةُ مِن بَنيــــــــهِ   همُ أسْباطُه والأوْصِيـــاءُ » [٤]

وهو يعبر عن رأى الشيعة جميعاً فى أن الإمامة تبدأ بعلىّ ، ثم تنتقل منه إلى أبنائه ،

(١) عن كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين (لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٣٤٧هـ – ١٩٢٨م) جـ ١ ص ٣٣١ .

(٢) الزينة ص ٢٥٨ .

(٣) يقول ابن خلدون فى مقدمته جـ ٢ ص ٥٢٧ إنهم أخذوا يستدلون لعقيدتهم فى الإمامة وتنصيب النبى صلى الله عليه وسلم لعلىّ : « بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع، أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة ». ويقول ابن أبى الحديد –شيعى زيدى – فى شرحه لنهج البلاغة جـ١ ص ١٣٥ : « ..... والأخبار فى هذا كثيرة جداً ومن تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نص صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك ولا تتطرق إليه الاحتمالات كما تزعم الإمامية. وكل ما قالوه لا أصل له عند أصحابنا ولا يثبته أحد منهم ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله».

(٤) ديوان كثير عزة – جمعه وشرحه د. إحسان عباس (دار الثقافة – بيروت سنة ١٩٧١)ص ٥٢١ .

ويعبر عن رأى الكيسانية خاصة فى ضم ابن الحنفية إلى السبطين الكريمين الحسن والحسين . ونلاحظ أنه يستخدم لفظ « الإمامة » وهويعنى به الخلافة – زعامة دينية ودنيوية – حين ينسبها إلى على والحسن ، وزعامة دينية ، ودنيوية معطلة حين ينسبها إلى باقى الأوصياء . ولم يكن كثير وحده هو الذى يؤثر استخدامها ؛ فقد شاع هذا الاستخدام عند شعراء الشيعة جميعاً ، كما شاع عند الخوارج استخدام «أمير المؤمنين » وعند شعراء بنى أمية استخدام الخلافة ومشتقاتها . ولعلهم وجدوا فى الإمامة معنى أوسع وأكثر تناسباً مع النظرية السياسية الدينية التى ارتأوها فى الحكم أكثر من الخلافة والإمارة ؛ حيث هناك أئمة قد حيل بينهم وبين الوصول إلى الحكم ومع هذا ينبغى موالاتهم وطاعتهم والانقياد لهم ، وهناك خلفاء – ليسو أئمة – هم فى تصورهم مغتصبون ينبغى خلعهم والتبرؤ منهم ، فالخليفة الحق ينبغى أن يكون إماماً ، والأئمة هم « ولاة الحق » كما يقول كثير ، فلا تنبغى إلا فيهم . ونلاحظ أيضاً أنه يصرح بالوصية لهؤلاء الأسباط ، وهو المرتكز الذى اعتمدوا عليه فى إثبات أحقيتهم بالخلافة ، وهو أمر – فى تصوره – لاشك فيه ولا جدال ؛ حيث دعا إليه النبى صلى الله عليه وسلم . ولعله يعنى حديث غدير خم المتداول بكثرة فى كتبهم [1] . يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى فيه باستخلاف علىٍّ ، نصا صريحاً لا لبس فيه ولا التواء . يقول كثير فى القصيدة نفسها :

« فأنّى فى وَصيّتِـــه إليهم ... يكونُ الشّكُّ منّا والمــــــراءُ
بهم أوْصاهمُ ودَعا إليـــــه ... جَميعَ الخلْقِ لو سُمِعَ الدُّعاءُ» .

ونجد مثل هذا الصدى فى رجز له يذكر فيه ابن الحنفية بعد موته فيصفه بأنه ابن خير الناس، وهو يعنى علياً ، وأنه إمام الحق الذى لا يشكون فيه :

---

(١) الزينة ص ٢٥٦ ، ص ٢٥٧ وفيه بعد نص الحديث أبيات للسيد الحميرى يقول فيها معبراً عما كان فى يوم الغدير ناظماً معنى الحديث :

« وبخمَّ إذ قالَ الأمينُ بعزْمه ... قُمْ يا محمّدُ بالولايةِ فاخْطُبِ
وانْصبْ أبا حَسنٍ لقومِكَ إنّه ... هادٍ وما بلّغتَ إنْ لَمْ تنْصبِ
فدَعاه ثُمَّ دَعاهم فأقامـــــه ... فيهم فبينٍ مُصدِّقٍ ومكـذِّبِ
جَعلَ الوِلايـــةَ بعدَه لمهـذّبٍ ... ما كانَ يجعلُها لغيرِ مهذّبِ» .

« أنتَ ابنُ خيرِ النّاسِ مِن بعدِ النَّبِيْ
أنتَ إمامُ الحقِّ لسنـا نمتـري »[1]

ثم يدعم هذا الادعاء بأن أباه كان وصياً للنبى صلى الله عليه وسلم .

ومثل هذا أيضاً نجده عند أبى الأسود الدؤلى وهو من شعرائهم المتقدمين ؛ حيث يصرح بأن علياً كان وصياً ، بل يجعلها لقباً له يغنى عن ذكر اسمه فى الوقت الذى يذكر فيه النبى صلى الله عليه وسلم وبعض بنى هاشم بأسمائهم. يقول أبو الأسود :

« أُحِبُّ محمّداً حُبّاً شديداً   وعبّاساً وحَمزةَ والوَصِيّا » [2]

وعلى هذا النحو يمضى شعراء الشيعة فى وصف علىّ رضى الله عنه بالوصى كلما ذكروه فى مراثيهم أو احتجوا له أو لأحد أبنائه بالخلافة أو الإمامة الحقة كما يزعمون . ولا يكتفون بوصف علىّ وحده بها وإنما يخلعونها على كل الأئمة من بعده؛ لأن الإمامة لا تنتقل عند كثير من فرقهم إلا بها كما ذكرت ، لذلك رأينا السيد الحميرى – وهو من مخضرمى الدولتين وكان كيسانياً متطرفاً – يقول فى ابن الحنفية بعد موته وكان يدعى غيبته:

« ألا قُلْ للوَصِىِّ فَدَتْكَ نَفسِى   أطَلْتَ بذلكَ الجَبلَ المُقاما »[3]

ومن غريب أن نجد بعض مؤرخى الشيعة يذكرون أشعاراً قديمة يرجعونها إلى يوم الجمل فيها وصف لعلىّ رضى الله عنه بتلك الصفة [4] . وهى أشعار مصنوعة أرادوا بها تأصيل فكرةالوصية وإرجاعها إلى فترة الصدر. وقد لاحظ الدكتور الحوفى سمة الوضع فيها فقال ما نصه : «وهذه أشعار تبدو عليها سمة الوضع لأن مضمونها واحد

(١) ديوان كثير – ت . د. إحسان عباس ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

(٢) ديوان أبى الأسود الدؤلى ت . د. عبد الكريم الدجيلى (بغداد – سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م) ص ١٧٧ .

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٠١ / عيون الأخبار – المجلد الثانى ص ١٤٤ . وهو بكتاب «الفرق بين الفرق » للبغدادى ص ٦٣ مع خمسة أبيات أخرى لكثير . وقد رجح الدكتور إحسان عباس « ديوان كثير ص ٥٣٨ » ، والدكتور الحوفى « أدب السياسة ص ٢٠٧ هامش ١ » كونها للسيد الحميرى .

(٤) أعيان الشيعة لمحمد الأمين الحسينى العاملى (دمشق سنة ١٩٣٥م) جـ٣ ص ٨ .

وبحرها واحد ورويها مقصود فيه أن يكون متسقاً مع كلمة (الوصى) .... وإذا كان علىٌّ وصياً منذ عهد بعيد وهم يعلمون ذلك كما يعلمه فلماذا لم يستدل على استحقاقه الخلافة بما يعلم ويعلمون » ؟ [1]

إن فكرة الوصية وإن ظهرت منذ قال بها ابن سبأ فى عهد على إلا أنها لم تستغل عملياً ولم يرددها شعراؤهم محتجين بها إلا فى العصر الأموى ؛ حيث تبلور الفكر الشيعى واستقامت لهم نظرية خاصة فى الحكم .

٢ - كثيرة هى تلك الأحداث والصراعات السياسية التى دخلتها الشيعة فى العصر الأموى . وليس من شأننا تتبع تفاصيل أحداثهم وصراعاتهم الكثيرة ، وإنما نكتفى بالإشارة ونذكر بعضها فى إيجاز ثم نبين أثرها ونتتبع الصدى الذى خلفته فيما أبدعوه من رثاء .

وأول هذه الأحداث موت الحسن بن على بعد أن تنازل لمعاوية عن الخلافة فى عام الجماعة [2] .

فقد قيل إن معاوية قد اتفق معه على نقل الخلافة إليه لتكون فيه من بعده فلما مات الحسن قبل معاوية - ومع ما أحيط به موته من غموض - أشاع بعض المتطرفين من شيعته أنه مات مقتولاً بإيعاز من معاوية [3] . وقيل إنه دس السم إليه عن طريق امرأته . فاستغلها شعراؤهم للتنديد به . ومنهم من صرح بذلك ، ومنهم من وقف عند حدود الشك واكتفى بالإشارة والتلميح . ومن هذا الصنف الأخير الفضل بن العباس حيث تحول عن بكاء الحسن إلى معاوية وبين كيف أنه قد أفاد من موته ؛ فقد صار على حد تعبيره « آمناً ظاهر النخوة » ، وأنه قد استراح منه هو ومن معه فطالما أشجاه من قبل ،

---

(١) أدب السياسية فى العصر الأموى ص ٦٦ ، ٦٧ . وكذلك شك الدكتور أحمد أمين من قبل فى نسبة هذه الأبيات إلى قائلها . فجر الإسلام جـ ١ ص ٣١٩ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٩١ ، ١٩٢ . تاريخ الطبرى ت . أبو الفضل إبراهيم جـ٥ ص ١٦٥ . تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٤ ص ١٩٩ : ٢٠٨ / مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى ت . السيد أحمد صقر (دار إحياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٩٤٩) ص ٤٦ : ٧٧ . مناقب آل طالب للمازندرانى (النجف سنة ١٣٧٦هـ) جـ ٣ ص١٩٣:٢٠٥ .

(٣) وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٩٢ بإيعاز من يزيد .

وقد صارت الخلافة مرتعاً آمناً له يرتع فيه كيف شاء . وهو فى هذا كله يتهم فى غير تصريح . يقول الفضل :

« أصبَح اليومَ ابنُ هِنْدٍ آمِنــــاً ظاهِرَ النَّخْوَةِ إذ مــاتَ الحَســـنْ

رَحْمةُ اللّهِ عليه إنَّمـــــــا طالَمـا أشْجـــى ابنَ هِنْدٍ وأَرَنْ

استراحَ القومُ منه بَعـــــدَه إذ ثَوى رَهناً لأجْداثِ الزَّمـــنْ

فارْتَعِ اليومَ ابنَ هِنْدٍ آمِنــــاً أينما يَقْمُصُ بالعِيرِ السَّمَـــنْ »[1]

بينما نجد شاعراً آخر يصرح بموت الحسن مسموماً حيث يقول :

« تأسَّ فكم لكَ مِن سَلْـــوةٍ تُفرِّجُ عنكَ غَليلَ الحَـــزَنْ

بمَوتِ النَّبيِّ وقتْلِ الوَصِـــيِّ وقتْلِ الحُسينِ وَسَمِّ الحَسَنْ »[2]

ويبدو أنه كان متأخراً حيث يذكر مقتل الحسين ويشير إلى علىّ بالوصى . وفى الحق أن متقدميهم – وهم الذين عاصروا موته وكان أغلبهم من المعتدلين ـ لم يشيروا إلى مسألة سَمِّه هذه ؛ فقد رثاه سليمان بن قتة – وهو أحد التابعين وكان من أنصاره وأنصار أبيه – فبين أثر موته فى نفسه حتى لقد هم بتكذيب من نعاه . واكتفى بنقد الناس الذين خلف فيهم ، ووصف جوارهم بالغبن [3] .

واكتفى أخوه محمد بن الحنفية بتتبع أثر موته فى نفسه كذلك فقال من أبيات :

« أأَدْهنُ رأسى أم تَطيبُ مَجالِسى وخَدُّكَ مَعْفُورٌ وأنتَ سَليـــبُ

أأشْرَبُ ماءَ المُزْنِ من غَيرِ مائِـــه وقد ضَمَّنَ الأحشاءَ منكَ لَهيبُ »[4]

وقد فهم الدكتور القاضى من هذه الأبيات أنه « يصرح بموت أخيه مسموماً » [5].

---

(١) مناقب آل طالب للمازندرانى (النجف سنة ١٣٧٦ هـ) جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ، جـ ٣ ص ٦ .

(٣) مقاتل الطالبيين ص ٧٧ .

(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٤ .

(٥) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص ٣٤٣ .

ولعل هذا اللبس قد جاء من كلمة « منك » فى الشطرة الأخيرة ؛ فربما ظن أنه يعنى : «أحشاؤك » . وهى لا تعدو بيان السبب؛ فأحشاء الشاعر هى التى ملأها اللهيب بسبب موته . أما الخد المعفور فى التراب وكونه صار سليباً فلا تعدو بحال وصف حاله بعد موته وليس فيها إشارة لا من قريب ولا من بعيد إلى سمه .

ويُقتل حجر بن عدى ومجموعة أخرى من أشراف الكوفة ثاروا فى وجه أميرهم زياد ابن أبيه حين سُبَّ علىٌّ بن أبى طالب على المنابر [1] . فقد جمعهم زياد وأرسل بهم إلى معاوية فى الشام ومعهم وثيقة موقعة من الأعيان والعلماء والعامة بأنهم خلعوا يد الطاعة، فاستمهلهم معاوية وعفا عن بعضهم وقتل بعضهم .وكان فيمن قتل حجر بن عدى ذلك الصحابى الجليل . وقد حرك مقتله أوجاع المسلمين، حتى قيل إن ابن عمر كاد يخرج من عزلته بسببه وإن عائشة لامت فيه معاوية لوماً شديداً وإن معاوية نفسه ندم على قتله . وتصدى لرثاء حجر والتنديد بمن قتلوه مجموعة من أهل الكوفة ، منهم امرأة من كندة [2] ، وعبد الله بن خليفة ــ وكان من أنصاره ــ وفيه وفيمن قتل معه يقول من قصيدة طويلة :

« فَدعْ عنكَ تَذْكارَ الشَّباب وفَقْـدَه ... وآثارَه إذ بــــــانَ منكَ فأَقْصَــرا
وبَكِّ علـى الخُلاَّنِ لَمَّا تُخُرِّمُــــوا ... ولم يَجِدوا عن مَنْهلِ المَوتِ مَصْدرا
دَعَتْهم مَناياهم ومَن حانَ يَوْمُـــه ... مِن النّاسِ فاعلمْ أنّه لن يُؤخَّـــرا
ومـا كنت أَهْوَى بعـدَهم مُتَعلّـلاً ... بشيءٍ من الدُّنيا ولا أن أُعَمَّرا» [3]

وتتابع الأحداث ويرسل أهل الكوفة إلى الحسين يستقدمونه ليبايعوه خليفة ويخرجوا معه للمطالبة بحقه وخلع يزيد [4] . وتتوالى عليه كتبهم ، فيرسل ابن عمه مسلم بن

(١) الأغانى (ط. دار الكتب) جـ ١٧ ص ١٣٣ : ١٥٥./ تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٣٠٣ : ٢٨٠.
(٢) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٢٨٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٢ .
(٤) الإصابة جـ ٢ ص ١٤ : ٢٧ / تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٣٤٧ : ٤٧٠ / تهذيب ابن عساكر جـ ٤ . ص ٣١١ : ٣٤٣ / العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٧٦ : ٣٨٧ / الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٦٦ : ٢٧٥ / مقاتل الطالبيين ص ٧٨ : ١٢٢ . وكتاب استشهاد الحسين لابن كثير ، ورأس الحسين لابن تيمية . قرأهما وقدم لهما د. محمد جميل غازى .

عقيل ليستجلى الأمر ، ويبعث إليه مسلم يطمئنه ويستعجل قدومه ، ثم لا يلبث أن يُقتل على يد أمير الكوفة الجديد عبيد الله بن زياد ، ويقتل معه من كان ينزل فى داره . ويخرج الحسين إلى قدره لينال الشهادة فى كربلاء هو وعدد كبير من آل بيته . وتكثر المراثى فيه كما لم تكثر فى أحد من الشهداء ، وتمتلئ بالتنديد والإثارة والنقد السياسى الحاد. وسوف نتتبع هذا كله فى فقرات تالية مع مراثٍ أُخَر تلتقى ومراثى الحسين فى هذا الاتجاه .

ونشير هنا إلى عبارة أوردها أبو الفرج يقول فيها : « وقد رثى الحسين بن على – صلوات الله عليه – جماعة من متأخرى الشعراء أستغنى عن ذكرهم فى هذا الموضوع كراهية الإطالة . وأما من تقدم فما وقع إلينا شىء رُثى به . وكانت الشعراء لاتقدم على ذلك مخافة من بنى أمية وخشية منهم » [1] . ومن الغريب أنه يقول هذه العبارة بعد قصيدة قصيرة لسليمان بن قتة –وهو من المتقدمين – فى رثاء الحسين . كما أورد فى مواضع سابقة أبيات أخرى له [2] ، ولشاعر آخر لم يسمه [3] . وأورد فى الأغانى مجموعة أخرى من رثاء المتقدمين كأبى دهبل الجمحى [4] ، والرباب ابنة امرئ القيس ابن عدى الكلبى زوجه [5] . وقد عجت كتب الأدب والتاريخ بمراث كثيرة فيه وفيمن قتل معه . وهى مراث صحيحة لا يتطرق إليها الشك؛ حيث أوردها رواة ثقات . ولعله – وهو من الشيعة – أراد التأكيد على صرامة بنى أمية وتضييقهم الخناق على الشعراء فى رثاء ذلك الرجل العظيم فبالغ فى عبارته . ولعله كان يعنى شعراء آخرين من غير الشيعة وبخاصة من عرفوا بالولاء لبنى أمية فقد حال الخوف من السلطان بينهم وبين التعبير عن مشاعر الحزن التى حلت فى نفوسهم وفى نفوس المسلمين عامة لما أصاب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو لعله كان يعنى مراثى ذات طابع خاص تشبه مراثى العصور التالية من ناحية الطول والتفرد برثاء الحسين وحده والتغنى ببطولاته وفضله

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٢٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩١ ، ٩٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٨٤ .
(٤) جـ ٦ ص ١٦٧ .
(٥) جـ ١٦ص١٤٢ (ط. الدار). وهى بالكامل لابن الأثير جـ٣ ص٣٠٠ وشاعرات العرب ص ١٢٨ .

وفضل آل بيته وغيرها من السمات التى لم تظهر فى العصر الأموى إلا على استحياء ، كما أن بعض مراثيه كان يكتم وسوف نعرض لذلك فى جزء خاص بالمكتمات .

وممن رثاه عبيد الله بن الحر [(١)] . وابنة عمه عقيل بن أبى طالب [(٢)] . والمتوكل الليثى [(٣)] والمغيرة بن نوفل [(٤)] ، وعوف بن عبد الله الأزدى [(٥)] وأبو الأسود الدؤلى[(٦)] ، والكميت بن زيد فى مواضع عديدة بالهاشميات[(٧)] .

وبعد مقتل الحسين رضى الله عنه يظهر التوابون فى العراق [(٨)] . ويعقبهم المختار [(٩)] . وتدخل الفكرة الشيعية حيز التطبيق العملى . ويرتكز التوابون فى حركتهم على التكفير عما بدر منهم من خذلان لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحقيته بالخلافة واستدعائهم له ، والانتقام ممن اغتصبوا حقه وفعلوا به وبأهل بيته ما فعلوه فى كربلاء . وهاتان الركيزتان واضحتان أشد الوضوح فى خطبة زعيمهم سليمان بن صرد

(١) شعراء أمويون جـ ١ ص ١١٥ : ١١٧ / الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٣٩٣ .

(٢) النزاع والتخاصم للمقريزى ت . د. حسين مؤنس - (دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٨م) ص٢٩ والعقد الفريد لابن عبد ربه (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م) جـ ٤ ص ٣٨٣ ومناقب آل طالب جـ ٣ ص ٢٦٢.

(٣) شعر المتوكل الليثى ت .د. يحيى الجبورى (مكتبة الأندلس - بغداد سنة ١٩٧١م) ص٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٤) قرشى هاشمىٌ من بنى عبد المطلب . كان مع الحسين عليه السلام فأصابه مرض فى الطريق فعزم عليه الحسين أن يرجع فرجع فلما بلغه قتله رثاه . معجم الشعراء ص٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٥) معجم الشعراء للمرزبانى تصحيح الدكتور ف . كرنكو (مكتبة القدس - القاهرة سنة ١٣٥٤هـ) ص ٢٧٧ .

(٦) ديوان أبى الأسود ص ١٨٠ : ١٨٢ .

(٧)شرح هاشميات الكميت . ت . د. داود سلوم ود . نورى حمودى القيسى ط ١ (مكتبة النهضة العربية - بيروت سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م) ص ٣٤ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٦٥ . ١٧٠، ١٩٣.

(٨) تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٥٨٣ : ٦٠٥ / الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٧٣ / مروج الذهب جـ ٣ ص ١٠٠ : ١٠٤ .

(٩) أسد الغابة لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٣٦ / أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢١٤ : ٢٢٤ / البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٢٤٩ / تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ٣٨ : ١١٦ / الزينة ص ٢٩٤ : ٢٩٥ / الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٥٨ . ٦٣ : ص ٧١ / الفصل لابن حزم جـ ٤ ص ١٤١ / الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٣٥٦ : ٣٨٨ / مروج الذهب جـ ٣ ص ١٠٥ : ١٠٧ / الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٥٢ ، ١٥٣ وكتاب المختار الثقفى مرآة العصر الأموى للدكتور على حسنى الخربوطلى .

الخزاعى التى قالها أثناء الإعداد للخروج (١) . وقد صور عبيد الله بن الحر هذه المشاعر التى كانت تصطرب فى نفوس التوابين أصدق تصوير فى رثائه للحسين رضى الله عنه ؛ حيث الثورة على ابن زياد ووصفه بالغدر :

« يقولُ أميرٌ غادرٌ حقٌّ غــادرٍ ألا كُنتَ قاتلتَ الشَّهيدَ ابنَ فاطِمهْ » (٢)

والبراءة من الخلفاء الظالمين والنقمة عليهم والتلويح بخلع يد الطاعة :

« أتقتلُهم ظُلْماً وتَرْجو ودادَنــا فَدع خُطَّةً ليستْ لنا بمُلائمــهْ
لَعَمْرى لقد راغَمْتُمونا بقتلِهم فكم ناقِمٍ منَّا عليكم وناقمــــه
أَهُمُّ مِراراً أن أَسيرَ بجَحْفَــلٍ إلى فئةٍ زاغَتْ عن الحقِّ ظالمــهْ » .

والندم والحسرة على الخذلان والرغبة فى التكفير عما بدر منهم من تقصير فى حقه رضى الله عنه ومن تسليمه وآل بيته لجيش ابن زياد :

« ونَفْسى على خِذْلانه واعْتِزالِه وبَيْعةِ هذا النَّاكثِ العَهدِ لائمــهْ
فيا نَدَمِى ألاّ أكونَ نَصرْتُــــه ألا كُلُّ نفسٍ لا تُسدَّدُ نادمــهْ
وإنِّى لأنِّى لم أكنْ مِن حُماتِـه لَذو حَسرةٍ ما إن تُفارِقُ لازمــهْ » .

وتنتهى حركة التوابين بالفشل ، وتعود فلولهم إثر الهزيمة التى لاقوها من جيش الشام فى عين الوردة إلى الكوفة مرة أخرى ليتلقفها المختار بن عبيد الثقفى وليركب الموجة ثائراً باسم آل البيت داعياً هو الآخر إلى الانتقام من قتلة الحسين متخذاً الشعار نفسه : « يالثارات الحسين » . وقد تكلم الباحثون كثيراً فى مدى صدقه فى دعوته تلك أوكذبه . ومال كثيرون إلى أنه كان صاحب دنيا راغباً فى الوصول إلى السلطة ليحقق لنفسه مكانة كتلك التى حققها ابن الزبير فى الحجاز وعبد الملك فى الشام . وقد اتخذ من الولاء لآل البيت ستاراً لتحقيق أطماعه ومآربه . وكان يتقول على الأئمة ويدعى أنه يتحرك بوحى من ابن الحنفية ، أى أنه كان – كما صور للناس – المنفذ

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٥٩٤ .

(٢) شعراء أمويون جـ ١ ص ١١٥/ الكامل لابن الأثير صحح أصوله الأستاذ عبد الوهاب النجار (إدارة الطباعة المنيرية – القاهرة سنه ١٣٥٦هـ) جـ ٣ص٢٩٣ .

لسياسة ابن الحنفية والداعي له . ولم يكن الهاشميون يجدون غضاضة في اقتصاصه لآل البيت وإن أنكروا صلتهم به ،كما أنكروا ترهاته والمخاريف التي كان يموه بها على أتباعه؛ كالكرسي والحمام وادعاء الوحي والنبوة والقول بالتناسخ وغيرها من الأفكار الغالية . وانتهت حركته على يد الزبيريين كما انتهت حركة التوابين من قبل على يد بني أمية ، إلا أن المختار كان أكثر تنظيماً وأحكم تخطيطاً في ثورته من التوابين ، وقد وظف لها وسائل دعائية على درجة عالية من الذكاء ، وانتقم بالفعل للحسين من قتلته بالكوفة، وكان قد بدأ بالداخل على النقيض من التوابين الذين أرادوا الانتقام من الرءوس أولاً وهم الخلفاء والأمراء ثم التفرغ للأذيال فلم ينتقموا من هؤلاء ولم ينالوا أولئك، ولم تتعد حركتهم من الناحية السياسية التعبير عن التمرد والرفض . أما المختار فكاد يبسط سلطانه على العراق كله وما وراءه ، وانتصر على جيوش الدولة ، وضم إليه الموالي واستغل تذمرهم و تذمر الثائرين من أجل الحسين استغلالاً رائعاً وكاد يحقق آمال الشيعة لولا الانشقاق الذي دب في صفوف جنده بين العرب والموالي . وكان ابن الزبير من ناحيته يذكي هذا الانشقاق ويوسع هوته ويغري الأشراف بالانصراف عن المختار والانضمام إليه حتى نجح أخيراً في الإيقاع به بعد هزيمة جيشه وحصار طويل له ولمن تبقى معه في قصر الإمارة بالكوفة . وقتل مصعب عدداً كبيراً من أتباعه نزلوا على حكمه فوضع السيف في أعناقهم . ويقال إنهم كانوا بين ستة آلاف وثمانية آلاف فقال شاعرهم عقبة الأسدي من أبيات يرثيهم فيها ويشهر بابن الزبير :

« قَتَلْتم ستّةَ الآلافِ صبْراً ... معَ العَهْدِ المُوثَّقِ مُكْتَفِينـــا
جَعلْتم ذِمّةَ الحَبَطيِّ جِسْراً ... ذَلولاً ظَهْرُه للواطِئينـــا
وما كانوا غَداةَ دُعوا فَغُرُّوا ... بعَهْدِهمُ بأَوَّلِ حائنينـــا
وكنتُ أَمَرْتُهم لو طاوَعُوني ... بضَرْبٍ في الأَزِقّةِ مُصْلِتينا »[1]

(1) تاريخ الطبري جـ ٦ ص ١١٦ . ويبدو أن هذا العدد مبالغ فيه؛ لأن البغدادي يذكر أنهم كانوا أربعمائة حاصرهم مصعب في دار الإمامة بالكوفة ثلاثة أيام حتى نفد طعامهم فاستقتلوا في اليوم الرابع فقتلهم وفيهم المختار . « الفرق بين الفرق » ص ٧١ . ولم يشر إلى نزول طائفة أخرى على حكم مصعب كما أشار الشاعر والطبري .

وهو يشير إلى اختلافهم أثناء الحصار بين النزول على حكم مصعب أو إشهار السيوف فى وجهه ومواصلة القتال . ويوجه فى البيت الأول لوماً عنيفاً إلى ابن الزبير يشبه ذلك اللوم الذى وجهه إليه ابن عمر حين قال : « والله لو قتلت عدتهم غنماً من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً » (١) . وكان مصعب قد اعتذر عن قتلهم بأنهم « كانوا كفرة سحرة » .

وتمضى الأحداث ويخرج زيد بن علىّ فى العقد الثالث من القرن الثانى الهجرى (٢) . وقصته شبيهة بقصة جده الحسين رضى الله عنه مع اختلاف الشخوص والزمان . وتنتهى حركته مثلما انتهت حركة الحسين بتخاذل الأنصار عنه ثم قتله . ويبالغ خصومه فى النكاية به وبشيعته فيصلب جسده بالكناسة . ويقتل ابنه من بعده ، وتتجدد أوجاع الشيعة ، وتخلف مأساته شعراً يشبه الشعر الذى خلفته مأساة كربلاء (٣) .

* * *

٣ - تحمل مراثى الشيعة بين جوانبها وفى طياتها نقداً سياسياً ، لبنى أمية ممثلى الدولة الحاكمة وولاتهم بالعراق ، وابن الزبير وأخيه مصعب، والخوارج والمرجئة، ولأنفسهم أيضاً. وهو نقد حاد عنيف، يصدر عن نفوس غضبى، ويمثل روح التمرد والثورة. ويصل فى بعض الأحيان إلى حد التكفير، وهو أقسى ما يُرمى به الساسة فى دولة ترتبط فيها السياسة بالدين ارتباطاً وثيقاً. وهو نقد عام يصبون فيه جام غضبهم ويعربون عن سخطهم أكثر مما يهتمون بالتفصيل. ومع هذا نستطيع أن نخرج من مراثيهم تلك بصورة واضحة لخصومهم كما يرونهم هم أوكما يتمثلونهم فى لحظات الغضب والتمرد والسخط. وقد يصيبون أحياناً ، وقد يبالغون ويبعدون فى أحايين كثيرة. وقد يرمون فى مقتل، وقد يطوفون ويحومون كثيراً . ويبقى بعد ذلك شعرهم وثيقة سياسية لها مدلولها الخاص. فبنو أمية فى تصورهم جبابرة يعمدون إلى إذلال رعيتهم، بينما

(١) تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ١١٤ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٢٩ : ٣٣١ / تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ١٨٠ ، ١٩٠ / طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٣٢٥ / الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٢٤٠ : ٢٤٨ /. مروج الذهب جـ٣ ص ٢١٧ : ٢٢٠ / مقاتل الطالبيين ص ١٢٧ : ١٥١ .

(٣) تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ١٩٠ / مقاتل الطالبيين ص ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥.

يتقلبون هم فى رغد العيش والنعيم.

تقول امرأة من كندة فى رثاء حجر بن عدى :

« ترفّعتِ الجبـــابرُ بعدَ حُجْرٍ وطابَ لها الخَوَرْنقُ والسَّديرُ »[1]

وهم ذوو سطوة يخشى عليها الأتقياء ؛ فشيخهم بالشام – تعنى معاوية – لا يتورع عن قتل الخيار ، يعينه فى ذلك وزير – تعنى ابن أبيه – من شر أمته:

« أخافُ عليكَ سَـــطْوةَ آلِ حرْبٍ وشيْخاً فى دِمشْقَ له زَئِيـــرُ

يَرى قتلَ الخيارِ عليه حقّــــاً له من شرِّ أُمَّته وَزيــــرُ».

وبمقتل حجر رضى الله عنه افتقد المسلمون دريئتهم لرد الظلم ؛ ظلم الحاكم الذى يصفه عبد الله بن خليفة الطائى بأنه « ملك » ويأبى أن يخلع عليه لقب الخليفة ، وافتقدوا أيضاً صوت الحق الناطق بالتقوى والرافض لكل ظلم وضيم :

« فيا حُجْرُ مَن للخيْلِ تُدْمَى نُحورُها وللمَـــلِكِ المُـغْزى إذا ما تَغَشْمَرا

ومَن صادِعٌ بالحَقِّ بَعدَكَ ناطِـــقٌ بتَقْوى ومَن إن قيلَ بالجَورِ غيَّرا» ؟[2]

ويصف عبيد الله بن الحر – فى رثائه للحسين – عبيد الله بن زياد بالغدر . وكان معاوية قد ضم إليه الكوفة فصار حاكماً عاماً على العراق :

« يقـــولُ أميرٌ غادرٌ حَقُّ غـــادِرٍ ألا كنتَ قاتلتَ الشَّهيدَ ابنَ فاطمهْ»[3]

ويرمى فى القصيدة نفسها بنى أمية بالضلال ؛ فهى فئة قد زاغت عن الحق، وهى فئة ظالمة :

« أَهُمُّ مِراراً أن أَسيرَ بجَحْفَـــلٍ إلى فئةٍ زاغَتْ عن الحَقِّ ظالِمـــهْ»

ويرميهم أبو الأسود الدؤلى بالغدر والخيانة . وتمتزج صورتهم فى مخيلته بقوم عاد

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص ١٥٤ / تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٢٨٠ / الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٦ ص ٢٢٠ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٢٨٢ .

(٣) شعراء أمويون جـ ١ ص ١١٥ .

وثمود ؛ حيث يتمنى لهم نهاية كنهاية هاتين القريتين الظالمتين اللتين أهلكهما الله . ويصف حكمهم كذلك بالملك ،غير مفرق بينهم وبين بنى زياد لمكانة هؤلاء فيهم . يقول أبو الأسود :

« أقولُ وذاكَ مِن جَزَعٍ ووَجْـدِ ... أزالَ اللّهُ مُلْكَ بَنى زِيـــــادِ
وأَبعدَهم بما غَدَروا وخانـــــوا ... كما بَعدتْ ثَمودُ وقَومُ عـادِ
ولا رَجعتْ رِكائبُهم إليهـــــم ... إلى يومِ القيامةِ والتَّنـــــادِ »[1]

وتعكس هذه الأبيات رغبة الشيعة فى زوال الحكم الأموى . وهى رغبة عبرت عنها الكلمات أكثر مما عبرت عنها السيوف ؛ فما أكثر ما تخاذلوا عن نصرة الثائرين من آل البيت وأسلموهم فى أحرج اللحظات . لذلك وجدناهم يوجهون إلى أنفسهم نقداً لاذعاً لا يقل فى حدته عن ذلك الذى وجهوه للأمويين . وكانوا يجمعون بينهما فى بعض الأحيان ، مثلما فعل أبو دهبل الجمحى ؛ حيث وصف فى إحدى مراثيه للحسين وآله بنى أمية بأنهم «عصابة» ونوكى تأمروا فأفسدوا الإسلام . ورمى الشيعة – بل رمى المسلمين جميعاً – بالتقصير فى حق آل البيت ؛ فهم « سكارى » نائمون ، يضيع الحق فلا يأبهون ، وتصير قناة الدين فى كف ظالم ولا يتحركون :

« نَبيتُ سُكَارى مـــــنِ أُميَّةَ نُوَّماً ... وبالطَّفِّ قَتْلَى ما يَنامُ حَميمُهــــا
وما أَفْسَدَ الإسلامَ إلاّ عِصــابــــةٌ ... تَأَمَّرَ نَوْكاها ودامَ نَعيمُهــــــــا
فصارتْ قَناةُ الدِّينِ فى كَفِّ ظالِمٍ ... إذا اعْوَجَّ منها جانب لا يُقيمُها »[2]

ومثل هذا اللوم الحاد الموجه إلى الشيعة على الخذلان والتقصير والذى ينال فى

---

(1) تاريخ ابن عساكر جـ ٧ ص ٢١٦ / ديوان أبى الأسود ص ٢٤١ (بالذيل) البيت الأول والثانى مع اختلاف فى الألفاظ. ويرميهم أبو الأسود فى أبيات أخرى (ص ١٨٢) بالجبروت والنفاق يقول فى رثاء بعض بنى هاشم :

« كونوا لهمْ جُنَناً وذُودُوا عنهمُ ... أشياعَ كُلِّ مُنافِقٍ جَبّـــــارِ »

كما يرميهم (ص ٣٠٢) بالولوغ فى دم المسلمين وابتزازهم والاستئثار دونهم بالدنيا:

« صبغتْ أميّةُ بالدماء أكُفَّـــــا ... وطَوتْ أميَّـةُ دوننا دنيـانــــــا » .

(2) الأغانى (ط. الدار) جـ ٧ ص ١٣٨ .

الوقت نفسه من الخصوم نراه عند أبى الأسود حيث يقول فى رثاء الحسين :

«ألستِ تَرَينَ بنى هاشـــــم   قد افنَتْهُموا الفئةُ الظّالمـــه» ؟ (١)

وعند الكميت . وفيه يقول :

« فلم أرَ مَخْذولاً أجلَّ مُصيبـــــةً   وأوْجبَ منه نُصْرةً حينَ يُخْذَلُ

يُصيبُ به الرّامونَ عن قَوس غيرِهمْ   فيا آخِراً سَدّى له الغَىَّ أوَّلُ » (٢)

ويقول :

« فلم أرَ مَوْتورينَ أهلَ بَصيـــــرةٍ   وحقٌّ لهم أيْدٍ صِحاحٌ وأرجُـــلُ

كشيعته والحربُ قد ثُـقِّفَتْ لهـــا   أمامَهمُ قدْرٌ يَجيشُ ومِرْجَـــــلُ

فريقانِ هذا راكبٌ فى عـــــداوةٍ   وباكٍ على خِذلانه الحقَّ مُعْـــوِلُ

فما نفعَ المُستأخرينَ نَكيصُهـــــم   ولا ضرَّ أهلَ السّابقـــاتِ التّعجُّلُ » .

ويتسع نقدهم ليشمل المسلمين جميعاً ناعياً عليهم الرضا بالظلم والخنوع والخضوع لمن يسومونهم خسفاً وذلاً ، والسكوت عما يحيق بآل البيت . وكأنهم قد اتخذوا من مآسى آل البيت وسيلة لتحريك الرعية نحو التمرد والعصيان . وطالما ذكروهم فى مثل هذه المواقف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فماذا سيقولون له حين يلقونه يوم الحساب وقد ضيعوا وصيته فى آل بيته ؟ يقول أبو الأسود :

« ماذا تقولونَ إن قالَ النّبىُّ لكـــم   مـاذا فَعلتم وأنتـــم آخِرُ الأُمـــم

بعتْرتى وبأهلى بَعدَ مُفْتقَــــــــدى   منهـــم أُسارى وقَتْلَى ضُرِّجوا بـدمِ

هل كانَ هذا جزائى إذ نَصَحتُ لكم   أن تَخْلُفونى بسُوءٍ فى ذوى رَحِمى» ؟ (٣)

(١) ديوانه ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) شرح الهاشميات ص ١٦٧ ومابعدها . ويعنى بـ « الأول » معاوية ، و« الآخر » هشام بن عبد الملك و « الرامون عن قوس غيرهم » الذين شاركوا فى قتله دفاعاً عن ملك يزيد .

(٣) مناقب آل طالب للمازندرانى جـ ٣ ، ص ٢٦٢ من كلام لزينب بنت على . وقال معلقاً إن هذا الشعر « ينسب إلى زين العابدين وإلى أبى الأسود الدؤلى أيضاً » . ولم أجده فى ديوان أبى الأسود . وهو بالكامل لابن الأثير (جـ ٣ ص ٣٠٠) . مع اختلاف طفيف دونما نسبة .

وتقول أسماء بنت عقيل :

« ماذا تقولونَ إن قالَ النّبيُّ لكــــم يومَ الحِسابِ وصِدْقُ القولِ مَسمــوعُ
خذَلْتمُ عِتْرتى أو كنتمُ غَيَبـــــاً والحقُّ عندَ وليِّ الأمرِ مَجمْـــــوعُ
أَسْلَمتُموهُ بأيدى الظّالمين فـمــا منكم له اليومَ عندَ اللّهِ مشْفــوعُ »[1]

وهى تضيف إلى الخجل الذى سوف ينتابهم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمانهم من الشفاعة .

ويرمى ابن الأحمر الأمة كلها بالضلال فى إحدى قصائده التى كانت تكتم فى عهد بنى أمية ؛ حيث يقول فى آخرها :

« فيا أُمّةً تاهتْ وضـلّتْ سَفَاهةً أنيبوا فأَرْضوا الواحدَ المُتَعاليا »[2]

ولعله يعنى بالإنابة إلى الله وإرضائه أن يتحرك هؤلاء للإطاحة بالحكام كما يفهم من أبيات سابقة . فهؤلاء الحكام ملعونون عندهم لسبهم علياً وبنيه وتطاولهم على آل البيت ، هم ومن اتبعهم من السوقة وتورط معهم فى هذا الإثم . يقول أحدهم :

« لَعَنَ اللّهُ مَن يَسُبُّ عَـليّـاً وبَنيه مِن سُوقةٍ وإمــــامِ »[3]

ويقول السيد الحميرى فيمن شاركوا فى قتل زيد بن على :

« لَعَنَ اللّهُ حَوْشَبَـــــا وخُراشاً ومَزْيَــــــدا
ويَزيداً فإنّــــــه كانَ أعْتى وأعْتَـــــدا
ألفَ ألفٍ وألْـــفَ ألْـــفٍ مِن اللّعْنِ سرْمَـــداً »[4]

(1) مناقب آل طالب جـ ٣ ص ٢٦٢ .

(2) مروج الذهب للمسعودى – ت . محمد محيى الدين عبد الحميد (المكتبة التجارية – القاهرة سنة ١٩٦٤م) جـ ٣ ص ١٠١ .

(3) ديوان كثير – ت . د. إحسان عباس ص ٥٣٧ . وقد ذكر المحقق اختلاف المصادر فى نسبته مع أبيات أخرى لكثير عزة وكثير بن كثير السهمى . وهى للأخير على الأرجح. وقد نسبها الجاحظ فى البيان و التبيين جـ ٣ ص ٣٥٩ لعبد الله بن كثير السهمى بينما اكتفى فى الحيوان جـ ٣ ص ١٩٢ بقوله : « وقال كثير أو غيره من بنى سهم .... » الأبيات .

(4) تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ١٩٠ .

وهم أهل شرك فى قوله امرأة ترثى أباها :

« أَدْرَكَتْه سُيوفُ قومٍ لِئـامٍ مِن أُولي الشِّرْكِ والرَّدى والشُّرورِ»[1]

ووزيرهم يوسف بن عمر كافر جبار فى رثاء فضل بن العباس لزيد بن على :

« تَعدَّى الكافرُ الجبَّارُ فيـه فأَخرجَه مِن القَبرِ اللَّحِيـدِ » [2]

وهذا أقسى ما يرمى به الحكام كما سبق أن ذكرت فى دولة كان للدين فيها المكانة الأولى . وهو المبرر الذى يقدمه شعراء الشيعة للإطاحة بهم ؛ حيث لا تجوز خلافة الكفار . وهم فى هذا يلتقون مع الخوارج وإن لم يبلغوا مبلغهم فى التكفير ، حيث كان التكفير عند الخوارج عقيدة شملت كل حكام بنى أمية، بينما هو عند الشيعة وسيلة ، ولم يبلغ حد الاعتقاد إلا عند الغلاة منهم، ولم يشمل إلا من كانت له يد فى مقتل أحد من آل البيت .

ويمتد النقد كذلك ليشمل فرقاً أخرى معاصرة كالزبيريين والخوارج والمرجئة ؛ فابن الزبير يجبر بنى هاشم بالحجاز على بيعته بعد موت معاوية، ويكثر القتل فيهم والتنكيل بهم دونما اعتبار لحرمتهم وحرمة المكان الذى يقتلهم فيه :

« فياراكباً إمَّا عَرَضتَ فبلِّغنْ كَبيرَ بَنى العوَّامِ إن قيلَ مَن تَعْنِى

تُخبِّرُ مَن لاقيْتَ أنَّكَ عائـذٌ وتُكْثِرُ قتْلاً بينَ زَمْزَمَ والرُّكـنِ»[3]

وهو يحاول النيل مما كان يدعيه عبد الله بن الزبير فى عهد معاوية وابنه يزيد من أنه « عائذ بالبيت » ويفضح التناقض بين ما يوحى به هذا الادعاء من التدين والمسالمة وبين الفعل القائم على التعذيب والتنكيل . ولعله قد بالغ فى النيل منه ، ولا غرو فقد وصفه آخر بأنه « سامرى ملحد » [4] .

وكان بين الفرقتين صراع دموى حاد فى العراق . وقد مرت أبيات عقبة الأسدى فى تعيير مصعب بقتله ستة آلاف من أصحاب المختار صبراً مكتفين.

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٣٧ . (٢) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى جـ ٣ ، ص ٨٥ ونسبهما لأبى وجزة مولى الزبير .

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٧٢ .

وفى الخوارج يقول السيد الحميرى :

« خَوارِجُ فارَقوه بنَهْرَوانٍ ... على تَحْكيمه الحَسَنِ الجَميلِ
علَى تَحْكيمه فعَمُوا وصَمُّوا ... كِتابَ اللّه فى فَم جبْرَئيل
فمالُوا جانباً وبغَوا عليه ... فما مالُوا هُناكَ إلى مَميل
فتاهَ القومُ فى ظُلَمٍ حَيارى ... عُماةً يَعْمَهونَ بلا دَليلِ
فَضلُّوا كالسَّوائم يومَ عيدِ ... تُنَحَّرُ بالغَداة وبالأَصيلِ
كأنَّ الطَّيرَ حولَهمُ نَصارَى ... عُكوفاً حولَ صُلْبانِ الأَبيلِ »[1]

وهو يصفهم بالبغى والضلال ، ويتخذ من موقفهم من الإمام علىّ يوم صفين مرتكزاً لوصفهم بهاتين الصفتين اللتين تفندان دعواهم بأنهم «الفئة التى لا تزال على الحق» والتى ترغب فى العودة بالأمة إلى ما كانت عليه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبى بكر وعمر .

ويجمعهم فى مقطوعة أخرى مع المرجئة . ويعود بالإرجاء إلى أصله السياسى ؛ وهو التوقف فى أمر على وعثمان رضى الله عنهما . ويصف مثل هذا التوقف بالضلال خصوصاً بعد أن توسع فى العصر الأموى فشمل الحزب الحاكم والأحزاب المعارضة :

« خَليلَىَّ لا تُرْجِيا واعْلَما ... بأنَّ الهُدى غيرُ ما تَزْعُمان
وأنَّ عَمَى الشَّكِّ بَعدَ اليَقينِ ... وضَعْفَ البَصيرة بَعدَ العِيان
ضَلالٌ فلا تَلْجَجا فيهما ... فبئستْ لَعَمْرُكما الخَصْلَتان
أيُرْجَى علىٌّ إمامُ الهُدى ... وعُثْمانُ ما أَعْنَدَ المُرْجِيان
ويُرْجَى ابنُ حَرْبٍ وأشياعُهُ ... وهُوجُ الخَوارِجِ بالنَّهْرَوان
يكونُ إمامَهمُ فى المَعادِ ... خَبيثُ الهَوَى مؤمنُ الشَّيْصَبان »[2]

ويتخذ النقد الشيعى بعداً قبلياً فى بعض مراثيهم . ولا يتعدى حينذاك لوم القبائل

(١) مناقب آل طالب جـ ٢ ص ٣٧١ ، ٣٧٢ . (٢) الأغانى (ط. الدار) جـ ٧ ص ٢٥٩ .

المشاركة فى الحركات المضادة لهم والمتورطة فى دمائهم . وقد يجىء هذا اللوم فى صورة هادئة . وقد يشتد فيتحول إلى شكل جارح من أشكال الهجاء . ومن هذا النقد القبلى قول سليمان بن قتة فى غنى إحدى قبائل قيس بالعراق وكانت قد تورطت فى مقتل بعض آل البيت يوم الطف :

« وعند غَنِيٍّ قَطْرَةٌ مِن دمائنــا سَنَجْزِيهِمُ يوماً بها حيثُ حَلَّتِ » [1]

ومنه قول رجل من بنى ليث وقد تغلبت فيه نزعته المذهبية على عصبيته القبلية فهجا قبيلته حين تورطت فى مقتل زيد بن على :

« ألم تَرَ لَيْثاً ما الّذى خَتَمَــتْ به لها الوَيلُ فى سُلْطانها المُتَزايِــلِ
لقد كَشَفَتْ للنّاسِ لَيْثٌ عن اسْتِها أخيراً فصارتْ ضُحْكَةً فى القَبائلِ
كِلابٌ عَوَتْ لا قَدَّسَ اللّهُ أمرَهــا فجاءتْ بصَيْدٍ لا يَحِلُّ لآكِـلِ » [2]

وهكذا تتعدد أوجه النقد السياسى فى مراثى الشيعة فتشمل الحزب الحاكم بما فى ذلك الوزراء والأمراء ، والأحزاب الأخرى المعارضة كحزب الزبيريين والخوارج والفرق ذات الطابع المذهبى والسياسى المسالم كالمرجئة ، بل تمتد لتشمل الشيعة أنفسهم على ما كان منهم من تقصير وخذلان ، والأمة الإسلامية كلها وإن خصت بعض القبائل بنصيب وافر منه ، وخصوصاً تلك التى تورطت فى دماء آل البيت .

٤ – على النقيض من الخوارج يكثر الندب والبكاء فى شعر الشيعة كثرة ملحوظة . بل لعله أكثر ألوان الرثاء شيوعاً عندهم ؛ لكثرة المآسى والمحن التى مروا بها من ناحية ، ولأنهم كانوا يلتفون حول أشخاص يعظمونهم تعظيماً شديداً ويوقرونهم توقيراً قد يصل إلى حد التقديس . بينما كان الخوارج يلتفون حول أفكار ومبادئ يؤمنون بها ، وكانت حياتهم الدنيا موصولة بالآخرة فنظروا إلى الموت نظرتهم إلى ممر أو معبر يحملهم من مكان إلى مكان؛ من الأدنى إلى الأعظم ، فاستبشروا به وأقبلوا عليه إقبالا شديداً ، بل كانوا يحرصون عليه فى بعض الأحيان أكثر من حرصهم على الحياة ، وطالما تنادوا

(١) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٢٢٣ / مقاتل الطالبيين ص ١٢٢ .
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٥٥ .

بالرواح إلى الجنة وتغنوا بما ينتظرهم فى الآخرة من النعيم . ولعل الخوارج كانوا أقرب إلى روح الإسلام فى هذه النقطة . وتشابهت مراثيهم مع مراثى المسلمين الأولين فى أحد وفى حركة الفتح العظيم . على أن الشيعة كانوا يوظفون - فى تصورى - هذا الندب توظيفاً سياسياً ويستغلونه استغلالاً رائعاً فى الإثارة والتوثيب . لذلك كانوا يبالغون فى البكاء . وكان هذا البكاء من ناحية أخرى متنفساً لما يجدونه فى نفوسهم من أحزان متراكمة خلفتها كثرة ما مروا به من محن وما حاق بهم من هزائم على المستوى السياسى . إضافة إلى المكانة العظيمة التى كان يشغلها هؤلاء الأشخاص فى قلوبهم وفى قلوب المسلمين جميعاً وأكثرهم من آل البيت [1].

مجموعة متشابكة إذن من العوامل كانت وراء كثرة هذا اللون من الرثاء فى شعرهم. وأهم ما يعنينا منها اتجاههم نحو الإثارة والتوثيب فهو الذى دفعنا إلى افراد هذه الفقرة له.

ولعل هذا التوجه فى شعرهم قديم ، نلمحه فى رثاء الكندية لابن عدى حيث تقول فى موته وقد أبرزته فى صورة مثيرة إلى حد بعيد، فيها نراه وهو يذبح - على مكانته وجلالته - كالبعير :

« ألا يا ليتَ حُجْراً ماتَ مَوْتاً ولم يُنْحَرْ كما نُحِرَ البَعِيـــرُ » [2]

ومثل هذا نجده يكثر فى مراثى الحسين ، ثم من بعده فى حفيده زيد بن على. ففى الحسين يقول خالد بن غفران وقد جاءوا برأسه إلى الأمير فى خرقة تنز منها الدماء:

« جاءوا برأسِكَ يا ابنَ بِنْتِ مُحمَّدٍ مُتزمــِّلاً بدمائه تزْميـــــلا
وكأنَّما بكَ يا ابنَ بِنْتِ مُحمَّـــــدٍ قَتلوا جِهارا عامدينَ رَســـولا
قتلوكَ عَطْشاناً ولم يترقَّبــــــــوا فى قَتْلِكَ التَّأويلَ والتَّنْزيـــلا

(١) وكان الأئمة من ناحيتهم يغذون هذا الاتجاه ويوجهون الشعراء إليه توجيهاً . روى الكشى عن أبى عبد الله جعفر بن محمد الباقر أنه قال : « ما من أحد قال فى الحسين شعراً فبكى وأبكى إلا أوجب الله له الجنة وغفر له » . رجال الكشى (ط . مؤسسة الأعلمى بكربلاء - العراق - بدون تاريخ) ص ٢٤٦ .

(٢) الأغانى جـ ١٧ ص ١٥٥ / تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٢٨٠ .

ويُكبِّرون بأنْ قُتلتَ وإنَّمـــا   قتلوا بكَ التَّكبيرَ والتَّهليلا »[1]

وغير خاف ما فى الأبيات من إشارة إلى مكانة الحسين لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو « ابن بنت محمد » ، وقد كررها مرتين فى بيتين متتاليين ، ولأخلاقه العظيمة التى تشبه أخلاق النبوة ، فكأنهم إذ قتلوه قتلوا رسولاً . وعلى الرغم من هذا فلم تشفع له هذه أو تلك بل كانوا فى قتله قساة لا يعرفون الرحمة ، منعوا عنه الماء ولم يمهلوه حتى يتحققوا من أمره ويحكموا فيه بما تقضى آى الكتاب ، ومن غريب أنهم كانوا يكبرون وهم يقتلونه وبمقتله قُتل التكبير والتهليل .

أما زيد فقد نبشوا قبره وأخرجوه منه بعد أن قتلوه ، ثم صلبوه بالكناسة، وظل جسده معلقاً فوق العمود ، يتلعبون به ظلماً وعتواً . يقول فضل بن العباس :

« ألا يا عينُ لا ترْقَى وجُودِى   بدَمْعكِ ليسَ ذا حِينَ الجُمـودِ

غداةَ ابنُ النَّبىِّ أبو حُسَيْــنٍ   صَـلِيبٌ بالكُناسة فوقَ عُـودِ

يَظلُّ على عَمُودِهمُ ويُمْسِـى   بنَفْسى أعْظُمٌ فوقَ العَمـودِ

تَعدَّى الكافرُ الجبَّارُ فيــه   فأخْرجَـهُ مِن القبرِ اللَّحِيـدِ

فظلّوا ينْبِشونَ أبا حُسَيْــنٍ   خَضيباً بينَهم بدمٍ جَسِيـدِ

فطالَ به تَلعُّبهم عُتُــوّاً   وما قَدَروا على الرُّوحِ الصَّعيدِ»[2]

وفيه يقول السيد الحميرى من أبيات :

« إنّهم حارَبوا الإلهَ وآذَوا مُحـمَّدا

شَـرِكوا فى دَمِ المُطهَّر زَيْدٍ تعنـُّدا

ثُمَّ عالَوهُ فَوقَ جذْعٍ صَريعاً مُجرَّداً » [3]

---

(1) تاريخ ابن عساكر جـ٥ ص ٨٥ . وفى الحسين مراث عديدة تسير فى هذا الاتجاه منها قصيدة سليمان بن قتة (مقاتل الطالبيين ص ١٢١ ، ١٢٢) والسيد الحميرى (الأغانى ط . الدار جـ ٧ ص ٢٤٠ ، ٢٤١) والرباب (الأغانى ط . الدار جـ ١٦ ص ١٤٢ - شاعرات العرب ص ١٢٨) .

(2) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

(3) تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ١٩٠ .

وهو يضيف إلى صلبهم له بعد قتله تجريدهم له من الثياب ، ويجعل من حربهم له حرباً لله وإيذاء لرسوله .

ويخرج يحيى بن زيد بعد ذلك فلا يزيد مصيره على مصير أبيه . ويجيئون به موثقاً في السلاسل والحبال فيردد شاعرهم :

« أليسَ بعَينِ اللّه ما تَصنعونهُ   عَشيّةَ يَحْيَى مُوثَقٌ في السّلاسلِ ؟»[1]

وتعدد نائحتهم قتلى بني هاشم من صُلب علي وأخيه عقيل بالطف ، فتذكر أنهم كانوا تسعة من صلب علي، وتسعة من صلب عقيل ، وفي رواية ستة من صلب علي وخمسة من صلب عقيل :

« عَينُ جُودي بعَبْرةٍ وعَويـــلِ   واندُبي إنْ نَدبْتِ آلَ الرّســـولِ

تِسْعةٌ منهم لِصُلْبِ عَلـــيٍّ   قد أُصيبوا وتِسْعَةٌ لعَقيـــلِ »[2]

ويقارن أبو ثميلة الأبار في رثائه لزيد بن علي بين حال الناس وقد أمنوا وآل محمد وقد أصابهم ما أصابهم من قتل وتشريد :

« والنّاسُ قد أَمِنوا وآلُ مُحمّـــدٍ   من بَينِ مَقْتولٍ وبَينِ مُشَـــرَّدِ

نُصُـــبٌ إذا أَلْقَى الظَّلامُ سُتُـــورَهُ   رَقَدَ الحَمامُ ولَيْلُهم لم يُرْقَـــدِ »[3]

ويصف سليمان بن قتة أبيات آل محمد وما حل بها من خراب ، ويذكر أن ما أصابهم بالطف أذل رقاب المسلمين جميعاً ، وأن الرزية فيهم عظمت عن كل رزية وجلت عن كل مصاب :

« مَرَرْتُ علَى أَبياتِ آلِ مُحمّـــدٍ   فلم أَرها أَمْثالَها يومَ حُلّـــتِ

---

(1) مقاتل الطالبيين ص ١٥٥ .

(2) النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم للمقريزي ت .د . حسين مؤنس (دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٨ م) ص ٥٩ / العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٨٣ مع اختلاف في الألفاظ والبيت الثاني : « ستة منهم .... وخمسة لعقيل) .

(3) مقاتل الطالبيين ص ١٥١ . وهو مثل قول كثير بن كثير (مجمع الأمثال جـ ١ ص٣٨٣ / الحيوان للجاحظ جـ٣ ص ١٩٤) :

« يأمَنُ الطَّيرُ والظِّباءُ ولا يَـأْ   مَنُ رَهْطُ النَّبيِّ عندَ المَقـــامِ » .

فلا يُبْعد اللّهُ الدّيارَ وأهلَهــــا ... وإنْ أصْبحَتْ منهم برَغْمى تَخلّتِ

ألا إنّ قتْلَى الطّفّ من آلِ هاشِمٍ ... أذلّتْ رِقابَ المُسْلمينَ فذلّـــتِ

وكانوا غياثاً ثُمّ أضْحَوا رزيّـــةً ... ألا عَظُمتْ تلكَ الرّزايا وجلّـــتِ»[1]

ويرى آخر أن بنى أمية نصبت العداء للنبى وآل بيته مذ كان الإسلام ؛ فلكل عظيم من بنى هاشم خصم عنيد من عبد شمس :

« عبدُ شَمْسٍ قد أضْرمَتْ لبنى ها ... شِمٍ حرْباً يَشيبُ منه الوَليـــدُ

فابنُ حرْبٍ للمُصْطفَى ، وابنُ هِنْدٍ ... لِعلَىٍّ وللحُسَيْنِ يَـــزيـــــدُ»[2]

ويتحول البكاء إلى دعوة صريحة للثورة من أجل الثأر ؛ ثورة تطيح ببنى أمية ووزرائهم وأمرائهم فى كل مكان ، من ذلك قول عبد الله بن الزبير الأسدى فى رثاء هانئ بن عروة ومسلم بن عقيل :

« فإنْ أنتمُ لم تثْأروا بأخيكـــمُ ... فكونوا بَغايا أُرْضِيتْ بقَليـــلِ»[3]

يقول ذلك بعد ما وصف مقتلهما وصفاً مثيراً ، نذكر منه :

« إذا كنتِ لا تَدْرينَ ما الموتُ فانْظُرى ... إلى هانئٍ فى السُّوقِ وابنِ عَقيلِ

إلى بَطَلٍ قد هَشّمَ السّيفُ وَجْهَـــهُ ... وآخَرَ يَهوِى من طَـمارٍ قَتيـــلِ

ترَىْ جَسَداً قد غَيّرَ الموتُ لونَـــــهُ ... ونَضْـــحَ دمٍ قد سالَ كُلَّ مَسيـلِ

أصابهُمـــا أمرُ الأمير فأصْبَحـــا ... أحاديثَ مَن يَسعَى بكُلّ سَبيـلِ».

وكان ابن زياد قد أمر بمسلم فألقى به من أعلى القصر بعد أن ضُرب عنقه وفُصل رأسه عن جسده ، وحبس هانئ بن عروة وضرب وجهه بالقضيب.

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى جـ ٣ ص ١٤، ١٥ / الكامل للمبرد جـ١ ص ٢٢٣ / الاستيعاب جـ ١ ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ وسماه سليمان بن قته (بالنون لا بالتاء) . ونسبها دعبل بن على لأبى رمح الخزاعى . الإصابة جـ ٤ ص ٧٥ .

(٢) النزاع والتخاصم ص ٥٩ .

(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٠٨ / النزاع والتخاصم ص ٣٠ .

وتتجلى الدعوة الصريحة للثورة ممتزجة بالندب والبكاء فى رثاء فضل بن العباس لزيد ابن على عليه السلام ؛ حيث يقول بعد أن يذكر ما فعلوه بزيد من قتل وصلب :

« وكـيفَ تَضِنُّ بالعبَرات عَينى | وتَطْمعُ بَعـدَ زَيدٍ فى الهُجـودِ
وكـيفَ لهـا الرُّقـادُ ولم تُرائى | جيـادَ الخَيلِ تَعْدو بالأُسـودِ
تَجَمَّعُ للقَبـائِلِ من مَعَدٍّ | ومن قَحْطـان فـى حَلَقِ الحَديـدِ
كـتـائبُ كلَّما أرَدتْ قَتيـلاً | تَنـادتْ : أنْ إلـى الأعْداء عُودى
بأيديهم صَفـائحُ مُرْهَفـاتٌ | صَوارِمُ أُخلِصتْ مِن عَهدِ هُودِ
بهـا نَسْقِى النُّفـوسَ إذا التقَينا | ونَقْتـلُ كـلَّ جبَّارٍ عَنيـدِ
ونُحْكِمُ فـى بَنـى الحكَمِ العَوالى | ونَجْعلُهم بهـا مِثلَ الحَصيـدِ
ونُنْزِلُ بـالُمعيـطيـينَ حَرْبـاً | عمـارةُ منهمُ وبنو الوَليـدِ
وإن تُمكِنْ صُروفُ الدَّهرِ منكم | ومـا يأتى مِن الأمـرِ الجَديدِ
نُجـازِيكم بما أوْلَيْتُمـونا | قِصـاصـاً أو نَزيدُ علَى المَزيدِ
ونَتْرُككُمْ بـأرضِ الشَّام صَرْعَى | وشتَّى مِن قَتيـلٍ أو طَرِيدِ »[1]

وهى من أكثر المراثى تحريكاً لمشاعر الغضب والثورة ، وأوضحها رغبة فى التشفى والانتقام والثأر لقتلاهم من الفئة الحاكمة بالشام . وقد تجىء هذه الدعوة فى صورة غير صريحة كقول عبيد الله بن الحر فى قتلى كربلاء :

« فقدْ فازَ الأُلَى نَصروا حُسيناً | وخابَ الآخَرونَ أُولُو النِّفاقِ »[2]

فهو يعرض بمن تخلى عنه من سائر المسلمين خلال وصفه لمن خذلوه من شيعته وأسلموه لجيش ابن زياد بالنفاق ، أو هكذا يفهم كل من يسمع هذا البيت أو تتردد فى أذنيه هاتان الصفتان ؛ صفة الفلاح والفوز لمن نصروه، وصفة النفاق لمن تخلوا عنه وأسلموه ، فتتحرك مشاعره بصورة تلقائية نحو الغضب له والرغبة فى الثورة من أجله ومن أجل من قتل معه من آل البيت سواء أكان من الشيعة أو من عامة المسلمين ،

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٢) شعراء أمويون جـ١ ص ١١٠ .

فتلك قضية لا تخص الشيعة وحدهم. وقد حركت مثل هذه الأبيات على الرغم من خفاء الدعوة فيها طائفة من أهل الكوفة فثاروا سنة ٦٥هـ على أميرهم وارتطموا بجيوش الدولة ، وهم الذين عرفوا فى التاريخ باسم التوابين ، وهم الذين بنى المختار بن عبيد ثورته على أنقاض حركتهم .

٢

الفكرة الشيعية هى فى حقيقة الأمر فكرة سياسية ذات طابع دينى ، وهذا الطابع الدينى يتخذ صورة مذهبية خاصة تميزه عن المذاهب الأخرى المعاصرة له ، وهو ما يعنينا بحثه وتتبع أثره فيما خلفوه من رثاء فى هذا الجزء من البحث .

١ - لعل أبرز ما يميز الشيعة من الناحية المذهبية حب آل البيت وتوليهم وبغض خصومهم والبراءة منهم والتخلى عنهم . وهو ماعبر عنه الشهرستانى بـ « « التولى والتبرى » وجعله واحداً من الأسس الجامعة بينهم على تعدد فرقهم واختلافهم كالقول بالعصمة ووجوب الإمامة [١] .

وهذا الحب فى حقيقة الأمر لم يكن خاصاً بالشيعة ؛ فالمسلمون جميعاً يحبون آل البيت عملاً بقول الله عز وجل : (قُلْ لا أَسْأَلُكم عليه أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ فى القُرْبى) [٢] . وامتثالاً لأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم التى أشار فيها إلى فضلهم وفضل علىّ عليه السلام . إلا أن الشيعة قد بالغوا فى هذا الحب حتى خرجوا به عن حدوده المعقولة . ورتبوا عليه أشياء باعدت بينهم وبين العقيدة الإسلامية الخالصة ؛ كوقف الإمامة عليهم والتبرى من كل إمام ليس منهم واعتباره كافراً مغتصباً ، وهو مارموا به أبا بكر وعمر وعثمان[٣] ، وسائر خلفاء بنى أمية ، والارتفاع بهم عن مستوى البشر وإنزالهم منزلة الآلهة عند بعض متطرفيهم ممن قالوا بالتناسخ والحلول [٤] .

يتحول الحب إذن فى المعتقد الشيعى لآل البيت إلى صورة خاصة ، يميزها عن حب سائر المسلمين لهم ما أضفوه عليه من القداسة والغلو والمبالغة الشديدة فيه . فهو دين - ونقيضه كفر - فى قول الحزين الكنانى :

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٥١ .   (٢) الشورى من الآية ٢٣ .
(٣) يستثنى من ذلك بعض الزيدية حيث أجازوا خلافة المفضول مع وجود الأفضل . الزينة ص ٣٠١ / الفرق بين الفرق ص ٤٣ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥١ .
(٤) الملل والنحل جـ٢ ص ١٢ .

« مِن مَعشَرٍ حُبُّهم دِينٌ وبُغضُهمُ كُفرٌ وقُربُهمُ مَنجًى ومُعتَصمُ »[1]

وهو كفارة للذنوب فى قول كثير :

« أترونَ ذَنباً أن نُحبَّهـــــم بلْ حُبُّهمْ كفَّارةُ الذنـــبِ »[2]

وهو مدعاة لدخول الجنة بغير حساب . من هنا كان تقولهم على النبى صلى الله عليه وسلم : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان » . وعلى الإمام جعفر فى الشهادة للسيد الحميرى مع ما قيل عنه من شربه للخمر : « وما خطر ذنب عند الله أن يغفره لمحب على بن أبى طالب ؟ إن محب علىّ لا تَزِلُّ له قدم إلا ثبتت أخرى »[3] .

ومن هنا أيضا كان تقديسهم لعلى كرم الله وجهه وسب خصومه والخوض فى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم [4]. وقد بلغ من تقديسهم له حد القول بأنه «أفضل الخلق فى الآخرة وأعلاهم منزلة فى الجنة وأفضل الخلق فى الدنيا....وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فإنه عدو لله سبحانه وتعالى وخالد فى النار مع الكفار والمنافقين»[5]. حتى عد أحد الباحثين هذا التقديس نقطة البدء الحقيقية فى التشيع[6]. واعتبر آخرون ترتيب الخلفاء حسب ترتيبهم الزمنى وطريقة النظر إلى الصحابة

---

(١) زهر الآداب للحصرى القيروانى (القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ) جـ ١ ، ص ٧٣ .

(٢) ديوان كثير ت . إحسان عباس ص ٤٩٤ . وهو فى البيان والتبيين جـ ٣ ص ٣٦٠ مع أبيات أخرى لعبد الله بن كثير السهمى .

(٣) مختار الأغانى جـ ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ / رجال الكشى (مؤسسة الأعلمى بكر بلاء –العراق – بدون تاريخ ص ١٤٣ . وعبارة الأغانى (ط. الدار) جـ ٧ ص ٢٥٢ : «فما ذنب على الله أن يغفره لآل على إن محب على لا تزال له قدم إلا ثبتت له أخرى »

(٤) ويكاد شعر بعضهم كالسيد الحميرى يكون وقفاً على ذلك . وفيه يقول أبو الفرج : «كان شاعراً متقدماً مطبوعاً ... وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فى شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم ..... وله طراز من الشعر قلما يلحق أو يقاربه ، ولا يعرف له من الشعر كثير وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم » . الأغانى (ط. الدار) جـ٧ ، ص٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جـ ٤ ص ٥٢٠ وجـ ٢٠ ص ٢٢٦ : « تفضيل الشيعة على الناس كافة » .

(٦) د. على سامى النشار فى كتابه : « نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (ط . القاهرة سنة ١٩٦٥م) جـ ٢ ص ٢٠ .

أحد السمات الفارقة بين السنة والتشيع ؛ فمن قدم أبا بكر فعمر فعثمان على عليٍّ ولم يتكلم فى الباقين إلا بخير فقد خرج من التشيع أوله وآخره [(١)].

ولم يترك الشيعة فرصة إلا عبروا فيها عن هذا الحب وتلك المكانة التى كانوا ينزلونها علياً هو والأئمة من آل بيته وبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصوصاً فى المواقف التى كانت تستدعى الرثاء ؛ لما تفرضه من صدق وصراحة ينأيان بهم - إلى حد ما - عن التقية التى كانوا يأخذون أنفسهم بها فى بعض الأحيان ، ولما تحركه فى أنفسهم من أشجان ومواجع تجعلهم يبالغون فى إظهار هذا الحب ، وكأنهم يتحدون بذلك خصومهم وينفثون عن بعض ما يشعرون به من غيظ ، على نحو ما فعل أبو الأسود الدؤلى فى رثاء عليٍّ حيث يقول :

« يقـولُ الأَرْذَلونَ بنو قُشَيْــر　　　طَوالَ الدّهرِ لا تَنْسى عَلَيّـا

فقلتُ لهم وكيفَ يكونُ تركى　　　من الأعمالِ ما يُقْضَى عَلَيّـا

أُحبُّ مُحَمَّداً حُبّاً شَديـداً　　　وعَبّاساً وحَمْزَةَ والوَصِيّـا

وجَعْفَرَ إنّ جَعْفَرَ خَيْرُ سِبْـطٍ　　　شَهيداً فى الجنانِ مُهاجِرِيّـا

بنـو عمِّ النّبىِّ وأقْرَبـوهُ　　　أَحَبُّ النّاسِ كلِّهمُ إليّـا

فإنْ يكُ حُبُّهم رُشْداً أُصِبْـهُ　　　وفيـهم أُسْوَةٌ إنْ كان غَيّـا

همُ أهلُ النّصيحةِ مِن لَدُنّـى　　　وأهل مَوَدّتى مـا دُمتُ حَيّـا

هَوًى أُعْطيتُه لمّا استَـدارتْ　　　رَحَى الإسلامِ لم يَعْدِلْ سَوِيّـا

أُحِبُّهمُ لحُبِّ اللّهِ حتّـى　　　أَجىءُ إذا بُعثتُ علَى هَوِيّـا» [(٢)]

وهو - شأن متقدمى الشيعة - يتوسع فى مفهوم القرابة حتى تشمل بنى هاشم جميعاً ، فيعد منهم العباس وحمزة وجعفر . ويجعل حبهم من حب الله- وفى رواية

---

(١) نظام الخلافة بين أهل السنة والتشيع د. مصطفى حلمى ط ١ (دار الدعوة للطبع والنشر - الإسكندرية سنة ١٩٨٨م) ص ١٥٤ .

(٢) ديوانه ص ١٧٦ : ١٧٨ .

كحب الله – ويصفه بأنه حب قديم كان منذ أدرك الإسلام ، وأنه حب ثابت لم ينحرف ولم يتغير . ويرد على بعض العثمانية من بنى قشير– ويصمهم بالأرذلين – فى لومهم له على حب علىّ – وثباته عليه ، فيذكر أنه من خير أعماله ؛ لقرابة علىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويجاريهم على طريقة القرآن فى مجادلة الخصوم ؛ فإن يكن حب علىّ وآل بيته رشداً فقد أصابه ، وإن كان غياً فليس بمخطئ – على رواية – لأنه لم يخسر شيئاً فيه ، وله فيه أسوة – على رواية الديوان – وهم بعد هذا كله أهل نصيحته ، وسوف يبقى حبهم مادام حياً .

ويؤبن أيمن بن خريم آل البيت تأبيناً يستشف منه مدى حبه لهم وتعظيمه إياهم ؛ فالنهار يقضونه تعباً وصوماً ، والليل يقطعونه فى الصلاة والانكباب على كتاب الله ، وولايتهم ثابتة بالقرآن وبما لهم من فضل وطهارة وزكاة –ولعله يشير إلى طريقتهم فى الحكم حين يتولون أمر الناس فهم يحكمون بمقتضى القرآن وما تفرضه أخلاق المطهرين الأخيار – وقد عرف ذلك خصومهم فابتلوهم بأشد ما يبتلى به الرجال وأنزلوا بهم الكوارث والمحن فبكتهم حتى الجبال . ويعلن فى آخرها ما لا يفوت شيعى إعلانه فى مثل هذا الموقف من أنهم خير الناس وأنهم لا يستوون مع غيرهم ولا يستوى غيرهم معهم كما لا تستوى الأرض والسماء .وكأنه يعرض ببنى أمية أو خصوم آخرين. يقول أيمن :

« نَهارُكمُ مُكابَدَةٌ وصَوْمٌ	ولَيْلُكمُ صَلاةٌ واقْتِراءُ
وَلِيتُم بالقُرانِ وبالتَّزَكِّي	فأَسْرَعَ فيكُمُ ذاكَ البَلاءُ
بَكَى نَجْدٌ غَداةَ غَدٍ عليكم	ومَكَّةُ والمدينةُ والجِواءُ
وحُقَّ لكلِّ أرضٍ فارَقُوها	عليكم لا أبالَكُمُ البُكاءُ
أأجعلُكم وأقواماً سَواءً	وبَيْنَكُمُ وبَيْنَهُمُ الهَواءُ
وهُمْ أرضٌ لأرجُلِكم وأنتم	لأرؤسِهم وأعيُنِهم سَماءُ » (١)

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

ولا يتورع كثير عزة عن التصريح بما يعتقده الشيعة جميعاً من أفضلية عليٍّ على الصحابة أجمعين ، فيقول في ابن الحنفية بعد موته أو اختفائه كما يدعى :

« أنتَ ابنُ خيرِ النّاسِ مِن بَعدِ النّبيِّ » [1] .

وقريب من هذا ما نجده عند السيد الحميرى؛ حيث يقول فى ابن الحنفية أيضاً :

« لقد كانَ ابنُ خَوْلةَ غيرَ شكٍّ ... صفَاءَ ولايتى وخُلوصَ وُدّى
فما أحدٌ أحَبَّ إلىَّ فيما ... أُسرُّ وما أبوحُ به وأُبدى
سِوي ذى الوَحْيِ أحْمَدَ أو عَلىٍّ ... ولا أزْكَى وأطْيبَ منهُ عِندى» [2]

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا كل شعر يعلنون فيه عن مذهبهم فى حب آل البيت ، فلا تكاد مراثيهم تخلو منه بشكل أو بآخر إلا فى النادر القليل . وحسبنا ما تقدم ففيه الكفاية والدليل .

٢ - الرجعة والغيبة مسألتان رئيستان فى المعتقد الشيعى ، وركيزتان هامتان فى إيمانهم بالمهدى المنتظر وهى عقيدة ثالثة يفهمونها فهماً خاصاً لخدمة أغراض سياسية .

قال بالرجعة والغيبة - أول من قال - عبد الله بن سبأ بعد مقتل الإمام علىٍّ رضى الله عنه ؛ حيث أنكرموته وذكر أنه رفع إلى السماء وأنه يجىء فى السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه وأنه سوف يعود ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً، وقال بعودة النبى صلى الله عليه وسلم وتعجب ممن يؤمن بعودة المسيح ولا يؤمن بعودة محمد وهو يقرأ قول الله عز وجل ﴿ إنَّ الَّذى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعادٍ ﴾ [3]. ويبدو أن ابن سبأ قد تأثر فى مقولته تلك بمؤثرات يهودية [4] ، مثلما تأثر

---

(١) ديوان كثير ت . د. إحسان عباس ص ٤٩٦ .

(٢) الأغانى (ط. الدار) جـ ٧ ص ٢٣٤ .

(٣) الزينة ص ٣٠٥ ، الفرق بين الفرق ص ٢٤٧، ٢٤٨ ، الملل والنحل جـ ١٢ ص ١٢/ الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٤ ص ١٣٨ . والآية بالقصص ٨٥ . وبقيتها : (قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٤٩ / الفصل لابن حزم جـ ٤ ص ١٣٨ .

بمقولته فى الوصية [١] . ولم يشع قوله فى تلك الفترة الباكرة وكاد يختفى [٢] ، ولم يعد إلى الظهور من جديد إلا على أيدى الكيسانية [٣] . حتى عدها بعض الباحثين المصدر الأول له[٤].

وقد اعتقدت كل فرق الشيعة تقريباً هذا المعتقد - باستثناء جمهور الزيدية- وإن اختلفوا فى الأشخاص الغائبة المنتظرة [٥] ، كما اختلفوا فى كون الرجوع عن غيبة أو موت [٦] .

واستدلوا ببعض القصص القرآنى ؛ كقصة أهل الكهف ، وقوم موسى حين صعقوا ، والذى مر على قرية ، والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وبقول النبى ﷺ : « كَائِنٌ فِى أُمَّتِى مَا كَانَ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ والقُذَّةِ بالقُذَّةِ » ، وبقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَينِ و أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَينِ ﴾ وآيات أخرى [٧] . كما احتجوا بما جاء فى الأحاديث النبوية من ذكرٍ للمهدىّ وإن تزيدوا فيها كما تزيد فيها الأمويون والعباسيون من بعد . وقد بحث هذه النقطة بحثاً مفصلاً الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه « أدب السياسة فى العصر الأموى » [٨] . وأكد على العلاقة الوثيقة بين هذا المعتقد والواقع السياسى ؛ فالذى لاشك فيه « أن الاضطهاد الذى حاق بالشيعة قد أرث هذه العقيدة ؛ لأن وراءها أملاً يريحهم وعزاء عما يلقون من حرمان وإعنات وتخففاً من أثقال العنف السياسى وآلام المحن والحروب والثورات » [٩] . وهذه العلاقة لاحظها من

(١) الزينة ص ٣٠٥ / الملل والنحل جـ ٢ ص ١٢ .
(٢) وخصوصاً أن الأئمة من آل البيت كانوا ينفونه ويكذبونه . مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٣٠ / الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٩٧ وفيه أن رجلاً قال للحسن بن على : «إن هذه الشيعة تزعم أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة » فقال رضى الله عنه : « كذب والله هؤلاء الشيعة . لو علمنا أنه مبعوث قبل يوم القيامة ما زوجنا نساءه ولا قسمنا ماله» .
(٣) الزينة ص ٣١١ .
(٤) د. أحمد أمين فى كتابه « ضحى الإسلام » جـ ٣ ص ٢٣٦ .
(٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٤ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٦) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٣٠ ، ٥٣٢ .
(٧) الزينة ص ٣١١ ، ٣١٢ .
(٨) ص ٧٠ : ٨١ .
(٩) أدب السياسة ص ٢٠٥ .

قبل مجموعة من الباحثين [1] . والذى نستخلصه ونؤكد عليه نحن أيضاً أن الشيعة بعد مقتل الإمام علىّ وتنازل الحسن عن الخلافة واستشهاد كثير من آل البيت على رأسهم الحسين عليه السلام فى كربلاء لم يبق أمامهم إلا تجديد ما ادعاه ابن سبأ من قبل كيلا يضيع الأمل فى عودة الخلافة إلى البيت العلوى فقالوا بغيبة الأئمة ، وأنهم سوف يعودون ليطهروا الأرض من الجور والفساد ويحرروا الأمة من ظلم الحكام ويقيموا دولة الله فى الأرض وينتقموا من خصومهم شر انتقام . ووجدوا فى حديث المهدى - وهو حديث صحيح من بعض طرقه - مادة جاهزة فجعلوه واحداً من هؤلاء الأئمة . ولأن المهدى يجيء فى آخر الزمان وهؤلاء الأئمة قدماتوا فقد قال بعضهم بالعودة بعد الموت ، وقال آخرون بالغيبة ولم يعترفوا بموتهم . وقد ترك هذا المعتقد أثراً واضحاً فيما خلفوه من رثاء وبخاصة عند شاعرى الكيسانية الكبيرين كثير عزة والسيد الحميرى؛ فكثير هو صاحب الأبيات الشهيرة التى تتردد فى كتب الأدب والفرق والتاريخ كلما استدلوا على مذهبهم فيه ، وهى التى قالها فى ابن الحنفية بعد موته سنة إحدى وثمانين ومنها قوله:

« وَسِبْطٌ لا يذوق الموتَ حتّى	يَقودَ الخيـلَ يَقْدُمُها اللّـواءُ
تَغَيَّبَ لا يُرَى عنهم زَمانـــاً	بِرَضْوَى عندهُ عَسَـلٌ وَماءُ» [2]

وفيها يعلن إيمانه بعودة ابن الحنفية على رأس جيش كبير ، وينفى موته لأنه يعتقد - كما يعتقد أكثر الكيسانية - بغيبته ، ويحدد المكان الذى يغيب فيه وهو جبل «رضوى» ، ويلمح إلى الهيئة التى عليها وهى فيما يبدو هيئة منعمة ؛ حيث يجرى بين يديه نهر من عسل وماء، أو لعله يعنى أنه يأكل ويشرب مثلما يأكل الناس ويشربون ، فهو حى مثلهم .

---

(١) منهم الدكتور أحمد أمين فى كتابه : « ضحى الإسلام » جـ ٣ ص ٢٤١ / والدكتور أحمد الشايب (تاريخ الشعر السياسى) ص ٢٢٨ / والدكتور عبد الحسيب طه حميدة (أدب الشيعة) ص ١١٠ .

(٢) ديوان كثير ت . د. إحسان عباس ص ٥٢١ / الزينة ص ٢٩٦ / عيون الأخبار المجلد الثانى ص ١٤٥ / الفرق بين الفرق ص ٦٢ و ١٦٣ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٥.

وفيه أيضاً يقول من رجز له :

« ما مُتَّ يا مَهْدِىُّ يا ابن المُهْتَدى
أنتَ الَّذى نَرْضى به ونرْتَجِـــى» [1] .

وهو يؤكد على حقيقتين هامتين فيما نحن بصدده ؛ أولاهما أن ابن الحنفية هو المهدى الذى ترضى به الكيسانية وتعلق عليه رجاءها ، والثانية أنه حى لم يمت ولن يموت حتى يحقق لها هذا الرجاء . ولعله يعنى إقامة خلافتهم والانتقام لهم من حكام بنى أمية ، وهو ما يتجلى بصورة أوضح فى قصيدة ثانية تنسب له وللسيد الحميرى يشكو فيها طول غيبته وما حل بمن والوه واعتقدوا إمامته بعد اختفائه بشعب رضوى ، ويرسل إليه مع الشكوى السلام، ويضيف أن الملائكة تزوره وتراجعه الكلام ، ويؤكد عدم موته وعودته مرة أخرى لتمام الأمر ، وعندئذ سوف يرى الجائرون راياتهم تترى وجيوشهم تتتابع فى نظام :

« ألا قلْ للوَصِىِّ فَدَتْكَ نَفسِــى ... أطلتَ بذلكَ الجَبَلَ المُقامـا
أضرَّ بمَعْشرٍ وَالَوكَ منــــــا ... وسمَّوكَ الخَليفةَ والإمـامـا
وعادَوا فيكَ أهلَ الأرضِ طُـــراً ... مُقامُكَ عنهمُ ستِّينَ عامـا
وما ذاقَ ابنُ خَـوْلَةَ طَعْـمَ مَـوتٍ ... ولا وارتْ له أرضٌ عظامـا
لقد أمْسَى بمُورِقِ شِعْبِ رَضْـوى ... تُراجِعُه المَلائكةُ الكَلاما» [2]

ويتوسع السيد الحميرى فى مفهوم الغيبة، فلا يجعلها خاصة ببعض أئمتهم ، وإنما يجعلها عامة فى الناس . يفهم ذلك من رثائه لأخيه حيث يقول :

«يا ابن أُمِّى فَدَتكَ نَفسِى ومالِى ... كنتَ رُكْنِى ومَفْزَعِى وجَـمالِى
ولَعَمْرِى لئنْ تركتُكَ مَيتـــاً ... رَهنَ رَمْسٍ ضَنْكٍ عَليكَ مُهَالِ
لَوَشيكاً أَلْقاكَ حَيّاً صَحيحـــاً ... سامِعاً مُبْصِراً علَى خَيرِ حَـالِ
قد بُعِثْتم مِن القُبورِ فأُبْتُـم ... بَعدَما رَمَّتِ العِظامُ البَوالِـــى

(1) ديوان كثير ص ٤٩٦ .

(2) عيون الأخبار المجلد الثانى ص ١٤٤ لبعض الرافضة / الفرق بين الفرق ص ٦٣ لكثير / وهى بالأغانى (ط. الدار) جـ ٩ ص ١٤ للسيد الحميرى .

أو كَسَبْعِينَ وافداً مع مُوسَــــى عــاينوا هائلاً مِن الأهْـــوالِ

حــيــنَ رامــوا مِن خُبْـثِـهم رُؤيـةَ اللّـه وأنّـى بـرؤيـةِ المُـتـعـالِـــى

فَرَمـاهم بِصَعْقةٍ أحرقتهــــم ثُمَّ أحْياهم شَديدُ المحـــالِ»[1]

وواضح أنه يستشهد بما حدث لبعض بنى إسرائيل من إحياء بعد الصعق على صحة معتقده . وهو ما يفعله مرة أخرى فى قصيدة ثانية يذكر فيها عودة الناس - ولكلمة الناس هنا دلالتها فيما ذهبنا إليه من توسيعه لمفهوم الغيبة - إلى الدنيا قبل يوم الحساب . ويستدل على ذلك بما أخبر به الله عن أناس حيوا من بعد الموت . ولم يحدد من هؤلاء الناس ، وإن كنا نعرف قبلاً أن الله قد أخبر عن أهل الكهف والعزير عليه السلام وغيرهم مثل ذلك . يقول السيد الحميرى :

« إلى يومٍ يَئوبُ النّاسُ فيـه إلى دُنْياهمُ قَبلَ الحِســـابِ

أَدينُ بأنّ ذاك كذاكَ حَقّـاً وما أنا فى النُّشورِ بذى ارْتيـاب

لأنّ اللّهَ خبّرَ عن رجـــالٍ حَيَوا مِن بَعدِ دَسٍّ فى التُّرابِ» [2]

ويفصل فى مرثية ثانية ما أوجزه كثير من قبل فى المهدى ، ويعلن فى صراحة أنه سوف يقيم « دولة » يحكم فيها بالعدل ويقتص لشيعته ممن تعدوا عليهم ويعتلى بهم خصومهم فى كل مكان . يقول فى آخرها :

« ومالِى أنْ أمُرَّ به ولكــنْ أُؤمِّلُ أنْ يؤخّرَ يومُ فَقــدِى

فأُدْرِكَ دَوْلةً لك لستَ فيـها بجَبّارٍ فتُوصَفَ بالتّعَـــدِى

علَى قَومٍ بَغَوا فيكم علينـــا لتُعْدِى منهمُ يا خيـرَ مُعْدِى

لِتَعْلُ بنا عليهم حيثُ كانوا بغَوْرٍ من تِهامةَ أو بنَجْـــدِ» [3]

* * *

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٤٠٧ .

(٢) المصدر نفسه والصحيفة .

(٣) الأغانى (ط. الدار) جـ ٧ ص ٢٣٤ . ومثل هذا نجده عند معاذ الهراء (معجم الشعراء ص ٢٨٠) ودعبل بن على الخزاعى (معجم الأدباء جـ ١١ ص١٠٥ ، ١٠٩) وغيرهما من شعراء العصر العباسى . مما يدل على أن هذا المعتقد لم يمت مع الزمان بل أخذ طريقاً تصاعدياً وازداد رسوخاً فى نفوس الشيعة ، حيث خاب أملهم فى عدل بنى العباس وهم أبناء عمومتهم .

٣ – من الأفكار المذهبية التى بثها الغلاة فى الفكر الشيعى وروجوا لها فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى – غير الغيبة والرجعة – القول بعصمة الأئمة والتناسخ والحلول. وهى أفكار غريبة على المجتمع الإسلامى، جلبها هؤلاء الغلاة من بيئات أجنبية وحاولوا بواسطتها ضرب الإسلام من داخله . وقد وجدوا فى الشيعة التربة الخصبة الصالحة لنمو هذه الأفكار، فعملوا من خلالهم وأظهروا الولاء لآل البيت ، وتأولوا آيات الكتاب تأويلاً خاصاً يخدم أهدافهم ، وألصقوا بعلى وذريته أقوالاً كثيرة هم منها براء لتثبيت مزاعمهم فى نفوس الشيعة من ناحية وتبغيضهم إلى العامة من ناحية أخرى[(١)].

أما العصمة – وهم يريدون بها عصمة أئمتهم من الخطأ جملة وتفصيلاً وعدم جوازه عليهم فى الأحوال كلها فلا تصدر عنهم صغيرة أو كبيرة – فإحدى النقاط الجامعة التى أشار إليها الشهرستانى بين الشيعة على اختلاف مذاهبها وإن استثنى – كما استثنى آخرون– الزيدية منها [(٢)] .

وقد أفاض المحدثون فى الأصل الذى انحدرت منه ، وهو أصل أجنبي بطبيعة الحال. وأرجعها أكثرهم إلى الحضارة الفارسية واعتبروها نزعة كسروية[(٣)] .

واستدل الشيعة – وبخاصة الإمامية – على تلك العقيدة بأدلة عقلية كثيرة ، منها أن الامام مبلغ للشريعة وحافظ لها من الزيادة والنقصان ولا يمكن أن يؤدى تلك الوظيفة على وجهها إلا إذا كان معصوماً ، ولو جاز عليه الخطأ لاحتاج إلى هاد يهديه ولاحتاج

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ ٤ ص ٥٠ ، ٥١ . وفى ذلك يقول محمد بن على الباقر الإمام الخامس عندهم : « ثم لم نزل أهل البيت نستغل ونستضام ونقصى ونمتهن ونحرم ونقتل ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء فى كل بلدة فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا مالم نقله وما لم نفعله ليبغضونا إلى الناس » .

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٥١ .

(٣) أبحاث فى السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدوية فى ظل خلافة بنى أمية – فان فلوتن ت . د. إبراهيم بيضون ص ١٣٠ : ١٣٢ / أدب الشيعة د. عبد الحسيب طه حميدة ص ٨٨ : ٩٠ / تاريخ الشعر السياسى د. أحمد الشايب ص ٢٢٨ / الشيعة والسنة – إحسان إلهى ظهير ص ٥٥ : ٦٤ / العقيدة والشريعة – جولد تسيهر ت . محمد يوسف وآخرين ص ٢١٩ ، ٢٢٠ / فجر الإسلام – أحمد أمين جـ ١ ص ٣٢٣ / فى الشعر السياسى د. عباس الجرارى ص ١٢٢ .

من يهديه إلى هاد آخر وهكذا يتعدد الدور وتمتد السلسلة (١) . ومن غريب أنهم إذ يصفون أئمتهم بها ينفونها عن الأنبياء والمرسلين ؛ فهؤلاء محاطون بالوحى يردهم إلى الصواب أما الأئمة فلا وحى لهم (٢) . وقد أثبتوا لأئمتهم علماً لَدُنِّيّاً يقتبسونه من الله مباشرة أو ينبت فى صدورهم كما تنبت الكمأة أو يستمدونه من علىٍّ فلايزال يتنقل فيهم ، وقد استمده علىّ بدوره من النبى صلى الله عليه وسلم (٣).

والتناسخ هو أيضا من الأفكار المتطرفة التى أشرنا إليها فى بداية الحديث، وهم يعنون به انتقال الأرواح بين الأجساد ؛ فهى لا تزال تتنقل من جسد إلى آخر . وهى عقيدة أجنبية وافدة دخلت الفكر الشيعى عن طريق الغلاة (٤) . وبها قالت الكيسانية (٥) . والهاشمية (٦) ، والغالية (٧) ، والبيانية (٨)، واستغلتها الرافضة استغلالاً سياسياً فى نقل الإمامة من قريش (٩) .

ويقابلنا مصطلح آخر يخلط بينه القدامى وبين التناسخ ، ويستخدمونهما أحياناً على أنهما مترادفان ، وهو الحلول . على أنه فى تصورنا عقيدة ثالثة تشبه التناسخ فى أشياء ويميزها عنه أشياء ؛ فكلاهما انتقال للروح ، إلا أنهما يختلفان فى كون التناسخ انتقالاً لروح بشرية فى أجساد بشرية أخرى أو أجساد أقل درجة من الأجساد البشرية كالحيوان والنباتات والحشرات والهوام. بينما الحلول خاص بانتقال روح الله إلى أجساد بشرية يظهر فيها أو يتجلى بالجزء أو الكل (١٠) . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١) أعيان الشيعة جـ ٣ ص ٢٢ / أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ص ٢٠ / أدب السياسة للحوفى ص ٦٧ / تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام . د. محمد على أبو ريان ص ١٤٤ وما بعدها / فى الشعر السياسى د. عباس الجرارى ص١٢١، ١٢٢.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٨٦ / الملل والنحل جـ ٢ ص ٢١ .

(٣) الزينة ص ٣٠١ الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٤.

(٤) الزينة ص ٣٠٨ / الفرق بين الفرق ص ٢٨٩ : ٢٩١ / الملل والنحل جـ ٢ ص ١٣ / مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٢٥ / فجر الإسلام جـ ١ ص ٣٣٠ .

(٥) الفصل جـ ٤ ص ١٣٩ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٢ وجـ ٢ ص ١٣ .

(٦) الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٦ .

(٧) الملل والنحل جـ ٢ ص ١٢ .

(٨) الفرق بين الفرق ص ٦١ ، ٢٥١ .

(٩) أصول الدين لعبد القاهر البغدادى (نشر مدرسة الإلهيات - استنبول سنة ١٣٤٦هـ) ص ٢٧٦ .

(١٠) الغلو والفرق الغالية فى الحضارة الإسلامية د. عبد الله سلوم السامرائى ص ١٢٦.

وهى عقيدة مسيحية ترجع إلى قولهم باللاهوت والناسوت [١] . نقلها أول من نقلها ابن سبأ حيث ألّهَ هو وأتباعه علياً وقالوا بحلول جزء إلهى فيه[٢]. ثم شاعت بعد ذلك فى فرق الشيعة المتطرفة [٣] .

وهذه العقائد الثلاث – العصمة والتناسخ والحلول – أريد بها هدم الإسلام وأركانه كما سبق أن ذكرت . وقد بيّنَ الدكتور أبو ريان وجه الخطورة فى القول بالعصمة؛ حيث دفع الشيعة دفعاً إلى رفض القياس والمصالح المرسلة واجتهاد العلماء وما نص عليه القرآن من شورى واجبة فى شئون المسلمين[٤]. يضاف إلى ذلك ما أرادوه سياسياً من وقف الخلافة على أئمتهم وإلزام الرعية بالانقياد لهم انقياداً أعمى . وبين الدكتور عبد الله سلوم السامرائى وجه الخطورة فى المعتقدين الآخرين ؛ فالقول بالتناسخ يدفع إلى إنكار المعاد [٥] . وفى هذا يقول الأشعرى : « ويقولون ليس قيامة ولا آخرة وإنما هى أرواح تتناسخ بالصور » [٦] . ويقول الشهرستانى : « ....وكفروا بالقيامة لاعتقادهم أن التناسخ يكون فى الدنيا والثواب والعقاب فى هذه الأشخاص »[٧] .

والقول بالحلول يلغى مبدأ التوحيد والنبوة والرسالة [٨] . فما الحاجة إلى نبى إن كان الله يتجسد فى خلقه ؟ وما جدوى الرسالة إن كان الله يتكلم على لسان أئمتهم ؟ وماذا يضير إن عبدوا هؤلاء الأئمة وفيهم ما فيهم من روح الله؟

وننظر فى الرثاء فنجد صدى هذه الأفكار المتطرفة والعقائد الغريبة الوافدة. ففى مقتل

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٤٩ / مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٣٠ .
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٩١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ / الزينة ص ٢٧١ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٢ ، ١٥٧ .
(٤) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٥٦ . ولعله أفاد فى ذلك من قول ابن الجوزى فى التعليمية – وهى اسم من أسماء الباطنية – : « لقبوا بذلك لأن مبدأ مذهبهم إبطال الرأى وإفساد تصرف العقول ودعاء الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم ». تلبيس إبليس – للحافظ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى . ت . د. أحمد حجازى السقا – (مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – بدون تاريخ) ص ١٥٣ .
(٥) الغلو والفرق الغالية ص ١١٣ . (٦) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١١٩ .
(٧) الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٧ . ويقول أبو حاتم الرازى – أحد دعاة الإسماعيلية : «وقالوا بالأدوار والكرات فى هذه الديار ، وزعموا أن لادار غيرها . والقيامة عندهم خروج الروح من بدن إلى بدن آخر إن خير فخير وإن شر فشر » . الزينة ص ٣٠٨ .
(٨) الغلو والفرق الغالية ص ١٢٨ .

زيد بن على يقول فضل بن العباس بعد توعد قاتليه :

« ولستُ بآيسٍ مِن أنْ تَصيروا   خَنازيراً وأَشْباهَ القُـــرودِ »[1]

وهى درجة من درجات التناسخ تعرف بالمسخ [2] . وفى رثاء زيد أيضاً – على ما عرف به وعرف به أتباعه من اعتدال – يقول محمد بن بشير :

« وأنّى لنا أمْثالُ زَيدٍ وحَـدُّهُ   مُبلّغُ آياتِ الهُدى وأمِينُها » ؟ [3]

وهو يكشف عن صفتين من صفات الفكر الشيعى فى الإمام بنوا عليهما عقيدتهم فى القول بعصمته ؛ حفظ الشريعة فهو أمين آيات الله أو المؤتمن على الكتاب ، وهداية الأمة بالتبليغ ؛ تبليغ ما آتاه الله من علم لدنى وفهم خاص لظاهر القرآن وباطنه وما ورثه عن الأئمة السابقين وورثوه هم أيضاً عن علىّ وورثه علىٌّ عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد قال بعضهم بالوحى ومالوا إلى الاعتقاد بنبوة بعض أئمتهم [4] . وفى ضوء هذا قد نفهم قول شاعرهم فى ابن الحنفية :

« لقد أمْسى بمُورقِ شِعْبِ رَضْوَى   تُراجِعُه المَلائكةُ الكَلامـــا »[5]

وهو يذكرنا بمراجعة جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم فى خلوته مرة كل عام . ونفهم أيضاً قول السيد الحميرى على ما فيه من احتراز :

« فما أحدٌ أحَبّ إلىّ فيمـــــــا   أُسِرُّ وما أَبُـوحُ به وأُبــــدى

سِوى ذى الوَحْىِ أحْمدَ أو علـــىٍّ   ولا أزْكَى وأطْيبَ مِنهُ عِنْدى »[6]

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٥٠ .

(٢) للتناسخ أربع درجات « النسخ والمسخ والفسخ والرسخ » . الملل والنحل جـ ٢ ص١٣ . أما النسخ فانتقال الروح من بدن إنسان إلى بدن إنسان آخر. وأما المسخ فانتقالها إلى البهائم والسباع والطير، وأما الفسخ فانتقالها إلى الحشرات والهوام ، وأما الرسخ فانتقالها إلى الشجر والنبات. الزينة ص ٣٠٨ .

(٣) شعراء أمويون جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٤) الزينة ص ٢٧١ / الفرق بين الفرق ص ٦١ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ / الفصل جـ ٤ ص ١٤١ .

(٥) الأغانى (ط. الدار) جـ ٩ ص ١٤ / عيون الأخبار م٢ ص ١٤٢ / الفرق بين الفرق ص ٦٣ .

(٦) الأغانى (ط. الدار) جـ ٧ ص ٢٣٤ .

فعطف عليّ على ذى الوحى وجه يتقى به خصمه ، وعطفه على أحمد –وهو غير ممتنع – يجعل من العلمين تفصيلاً لما أجمله فى : « ذى الوحى » فيكون عليٌّ صاحب وحى . وبه قالت طائفة من الكيسانية (١) .

وقد تكون التقية – وهى إحدى معتقداتهم الأساسية ؛ حيث اعتبروها تسعة أعشار الدين وقالوا لا دين لمن لا تقية له – وراء تحفظهم وقلة مجازفتهم بالتصريح فى مراثيهم عما اعتقدوه من العصمة والتناسخ والحلول ، خشية الارتطام بالمجتمع الإسلامى الذى لم يكن من السهل قبوله مثل هذه الأفكار أو السكوت عليها فى تلك الفترة الباكرة ، وخوفاً من تشنيع خصومهم بهم والحيلولة بينهم وبين الوصول إلى ما يطمحون إليه(٢) .

* * *

٤ – فى وسط مشبع بأفكار كتلك الأفكار المتطرفة ، ومع ما تعرضت له الشيعة فى العصر الأموى من مآسٍ ومحن وتعرض له زعماؤهم وأئمتهم من بطش وقتل وتنكيل ، وما فرضته السياسة من كبت وقهر وتضييق وجدت الخرافة طريقها إلى الفكر الشيعى ، ولعبت الأساطير دورها فى صياغة هذا الفكر وتوجيهه إلى حد بعيد . وانعكس هذا بطبيعة الحال على رثائهم وبخاصة مراثى الحسين عليه السلام . فمقتله هو ومن معه فى كربلاء لعنة مسبوقة عند أبى الأسود الدؤلى :

« عَلِمتَ بأنَّهمُ مَعْشَــــــرٌ ... لهمْ سَبَقتْ لَعْنَةٌ جائمهْ» (٣)

وقاتلوه ملعونون فى الكتب القديمة على لسان موسى وسليمان وعيسى:

« أيها القاتلون جَهْلاً حُسَيناً ... أبْشِـروا بالعَذابِ والتَّنْكيلِ

كلُّ أهلِ السَّماءِ يَدْعو عليكم ... مِـن نَبِىٍّ ومَلاكٍ وقَبيـــلِ

---

(١) الفصل جـ ٤ ص ١٤١ .

(٢) يدل على ذلك أبيات ذكرها البغدادى : « الفرق بين الفرق » ص ٢٧٢ وابن قتيبة : «عيون الأخبار » المجلد الثانى ص ٤٥ لواحد كان من غلاتهم ثم تنصل منهم وانفصل عنهم وفضح بعض معتقداتهم . وفيها يذكر تأليه إحدى طوائفهم لجعفر بن محمد المعروف بالصادق واعتباره نبياً عند طائفة أخرى ، وإيمانهم بالجفر وهو جلد ادعوا أن جعفراً أودعهم إياه وفيه علم كل ما يحتاجون إليه من الغيب .

(٣) ديوانه ص ١٨١ .

قد لُعنتم على لِسانِ ابـنِ داو دَ ومُوسَى وَحامِلِ الإنْجيلِ»[1]

وتروى كتبهم أنهم وجدوا فى كنيسة لوح ذهب مكتوب فيه :

« أتَرجو أمّةٌ قتلتْ حُسَينـــاً شَفاعةَ جَدِّه يومَ الحِساب » ؟ [2]

وذلك قبل أن يبعث النبى بثلاثمائة سنة . وتذكر أن قلماً من حديد خرج على قاتليه وهم يحملون رأسه من حائط فى الطريق وكتب هذا البيت بالدم وكانوا قد انغمسوا فى المعاصى وشرب النبيذ[3] . وقد احمرت الأرض واخضر العلق فناحت عليه الجن وندبته بقولها :

« احْمرّتِ الأرضُ مِن قتْلِ الحُسَينِ كما اخْضرّ عِندَ سُقوطِ الجوْنةِ العَلَقُ

يا ويلَ قاتله ، يا ويلَ قاتلـــــــــــــه فإنّهُ فى شَفيـــرِ النّارِ يَحْترِقُ»[4]

وبكت السماء معولة حتى احمرت أطرافها وظلت الحمرة ملازمة لها أربعين يوماً ، وظل بكاء الأرض عليه كذلك :

« بَكـتِ الأرضُ فَقْدَهُ وبكتْـــــــــــهُ باحْمِرارٍ له نَواحِــــى السّماءِ

بَكتا فَقْدَهُ اربَعينَ صَباحــــــــــاً كلَّ يومٍ عندَ الضُّحَى والمسَاءِ»[5]

ولا يمكن أن يفسر هذا الشعر بالذهول الذى اعترى الناس لهول المصاب. وإن أمكن ففى أبيات قليلة لبعض معاصريه مثل قول ابن قتة :

« ألم تَرَأنّ الشّمسَ أضْحتْ مَـرِيضةً لفَقْدِ حُسَينٍ والبِلادُ اقْشعرّتِ» ؟[6]

وقول ابن بشير :

« نَعاهُ لنا النّاعِى فظلّنا كأنّنا نَرَى الأرضَ فيها آيةٌ حانَ حِينُها

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٤٦٧ وابن الأثير جـ ٣ ص ٣٠١ .
(٢) مناقب آل طالب جـ ٣ ص ٢١٨ / الاستيعاب جـ١ ص ٣٨٠ .
(٣) مناقب آل طالب جـ ٣ ص ٢١٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢١٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢١٣ . ونسبهما للسيد الحميرى .
(٦) مقاتل الطالبيين ص ١٢١ .

وزَالتْ بنا أَقْدامُنا وتقَلَّبــــتْ ظُهورُ رَوابِيها بنا وبُطونُهــــا

وآبَ ذوو الألباب منّا كأنّمــا يَرونَ شِمالاً فارقَتْها يَمينُهـــا [1]

وإنما تفسر فى ضوء ما قررناه من الاعتقاد فى الخرافات والاعتماد على الأساطير اللذين شابا الفكر الشيعى وزحفا إليه من بيئات أجنبية مع الأفكار المتطرفة نتيجـة الضغط السياسى والقمع والاضطهاد . وقد أشار جولدتسيهر إلى شىء من هذا القبيل حين ذكر أنهم استعاروا الأسطورة القديمة التى تنسب حمـرة الشـمس إلى دم أدونيس وصاغوا على منوالها ما رددوه فى الحسين [2].

٣

لا تكاد هاشمية من هاشميات الكميت [3] تخلو من رثاء ؛ فهو أحد المحاور الرئيسة التى ارتكز عليها فى صياغة الهاشميات ، بالإضافة إلى المدح والهجاء وشىء من الوصف والفخر والاعتذار ، وكلها ينبع من مصدر واحد ويصب فى مصب واحد ؛ هو الدفاع عن قضية آل البيت والاحتجاج لهم والانتصار لمذهبه الشيعى . إذن فرثاؤه غير منفصل عن باقى الموضوعات إلا ريثما ينفصل الهدف عن الوسيلة ، وهو رثاء غير تقليدى ، لأنه نأى به - كما نأى بتلك الموضوعات - عن أن يكون مقصوداً لذاته - ندباً وتأبيناً وعزاء - فهو رثاء يخدم قضية سياسية مذهبية . لذلك وجدناه لا يكتفى برثاء معاصريه - كما هو المعتاد فى هذا الفن - وإنما يجدد مراثى القدماء من بنى هاشم وآل

---

(١) شعراء أمويون جـ ٣ ص ١٩٨ .

(٢) العقيدة والشريعة ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين (دار الكاتب المصرى - القاهرة سنة ١٩٤٦ م) ص ٢٢٠.

(٣) الكميت بن زيد أشهر شعراء الشيعة فى العصر الأموى على الإطلاق . ولم تأت هذه الشهرة من كثرة ما خلف من شعر حزبى شيعى فحسب وإنما أيضاً لمنهجه الخاص فى الانتصار لمذهبه والدفاع عنه والاحتجاج له . وهو إلى جانب شهرته ومكانته المتميزة يمثل قطاعاً لم نقف عنده إلا لماماً هو قطاع الزيدية - أقرب فرق الشيعة إلى السنة والجماعة وأكثرها اعتدالاً - فقد كان فقيهاً من فقهائها . (خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى جـ ١ ص ١٤٤) . وكان فى الوقت نفسه راوياً من رواة الحديث . (الأغانى جـ ١٧ ص ٣١) . وله - خلافاً لمعاصريه - ديوان خاص جمع فيه شعره الحزبى وهو المعروف بالهاشميات .

البيت ، فيرثى النبى صلى الله عليه وسلم [١] ، ويرثى على بن أبى طالب [٢] ، ويرثى الحسن [٣] ، والحسين [٤] ، وآخرين كابن الحنفية والعباس [٥] .

ونرجح أنه صاغ هذه المراثى فى سن متقدمة يدل على ذلك قوله :

« يَحسَبْنَ لى فى السِّنينَ خَمْسينَ تكْـ ـبيرى والأَرْبَعينَ أَحْتَسِبُ »[٦]

فهن ينظرن إليه على أنه ابن الخمسين ، بينما يرى هو نفسه فى الأربعين. وعلى صحة أى من التقديرين يكون قد ودع أكثر من ثلثى عمره ، ويكون التاريخ قد جاوز عامه المائة ؛ لأنه ولد فى السنة التى قتل فيها الحسين وهى سنة ٦٠ هـ . [٧]

وقد افتضح أمر الهاشميات فى عهد هشام بن عبد الملك بعد أن وشى خالد القسرى أمير العراق به [٨] . وكانت ولاية خالد بين عامى ١٠٥و ١٢٠هـ . واكتشفها خالد أو هكذا تذكر المصادر فى فترة متأخرة من ولايته، وسواء أكان خالد عرف بها وسكت عنها تمشياً مع سياسته السرية فى العطف على آل البيت وتشجيع شيعتهم فيما يهدفون إليه من الإطاحة ببنى أمية أو لم يعرفها إلا بعد أن تحرش بالكميت فى أخريات أيامه فلا يمكن أن تبقى طى الكتمان – مع ما عرف به الأمويون من حيطة وحذر ومراقبة للشيعة وخصوصاً بالكوفة – هذه الفترة الطويلة التى يذكرها المؤرخون حين تجعلها إحدى

---

(١) شرح هاشميات الكميت ت .د. داود سلوم ، د. نورى حمودى القيسى ط ١ (مكتبة النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٣م) هـ ١ (٤٥ – ٥٧) ص ٢٦ : ٢٨ / هـ٢ (٤٠ – ٥٦) ص ٦٠ : ٦٦ / هـ ٣ (٣١ – ٦١) ص ١١٠ : ١١٩ / هـ ٦ (١ : ٧) ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) المصدر نفسه هـ ١ (٦٠ – ٧١) ص ٢٩ : ٣٣ / هـ ٢ (٩١ – ٩٨) ص ٨١ : ٨٤ / هـ ٦ (٦ – ١٢) ص ١٩٦ : ١٩٨ .

(٣) المصدر نفسه هـ ١ (٧٢) ص ٣٣ ، هـ ٢ (٩٩ ، ١٠٠) ص ٨٤ .

(٤) المصدر نفسه هـ ١ (٧٣ : ٧٧) ص ٣٣ ، ٣٤ / هـ ٢ (١٠١ – ١٠٤) ص ٨٤ ، ٨٥ / هـ٤ (٤٧ : ٦٢) ص ١٦٥ : ١٧٠ / هـ ٥ (٢٩ : ٣٣) ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٥) المصدر نفسه هـ ٢ (١٠٥ : ١١٠) ص ٨٥ : ٨٧ والهاشميات ١١،١٠،٩ وكل منها بيتان ص ٢٠٣ : ٢٠٥ فى زيد بن على .

(٦) المصدر نفسه ص ١١٠ . ويدل على ذلك أيضاً ما كان يكرره فى مطالع هاشمياته من وصف نفسه بالشيب ص ٤٣ ، ١٠٩ ، ١٨٨ .

(٧) الأغانى جـ ١٧ ص ٤٠ .

(٨) المصدر نفسه ص ٣ ، ٤ .

الروايات أو تجعل بعضها من شعر الشباب ، بل أول ما قاله من شعر [1] . وهى من أنضج شعره . وحتى على صحة هذه الرواية فإنه يكون قد قال هاشمياته على فترات متباعدة – وهو احتمال ضعيف – ففى بعضها دعوة لزيد بن على واعتذار عن عدم الخروج معه فى حركته التى خاضها سنة ١٢٢ هـ وفى بعضها رثاء له .

١ – قضية الشيعة – كما سبق أن ذكرت – قضية سياسية فى المقام الأول، أساسها الخلافة وتقرير حق بنى هاشم فيها واعتبار بنى أمية بفرعيهم السفيانى والمروانى مغتصبين . وقد شغلت هذه القضية حيزاً كبيراً من رثاء الكميت فى الهاشميات . بل لا نذهب بعيداً إذا قلنا إن الهاشميات قد قيلت أساساً من أجل هذه القضية دفاعاً وإثباتاً وتحليلاً ، ودعماً وتعليلاً بالأدلة النقلية والعقلية يسوقها الدليل خلف الدليل ، ويسلك فيها طريقاً مخالفة لما اعتاده الذوق العربى ، مستعيناً بما أوتى من ثقافة وتعلمه من منطق على أيدى المتكلمين . حتى عدوه شاعراً خطيباً [2] ، وأخرجه بعضهم من دائرة الشعراء[3] . ولسنا هنا بصدد الدفاع عنه . وإنما أردنا فقط الإشارة إلى الأسلوب الجديد الذى سوف يسلكه فى الرثاء كما سلكه فى سائر الهاشميات وهو يتناول قضية الخلافة أو الإمامة والمسائل السياسية المتعلقة بها .

وفى سبيل كسب هذه القضية والإقناع بها توسل الكميت بوسائل عدة ؛ منها ما يمكن أن نسميه بالموازنة بين بنى هاشم وبنى أمية موازنة تعتمد على مقاييس الدين والدنيا معاً ، ومنها نظرية الوراثة وحق ذوى القربى ، ومنها استخلاف النبى لعلىٍّ دون الصحابة وهو ما يعرف بالوصية والنص . ولنبدأ بالنقطة الأخيرة . يقول الكميت :

• وأَصفاهُ النَّبِيُّ علَى اخْتِيـــارٍ	بما أَعْيَى الرَّفوضَ له المُذيعا
ويومَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَديرِ خُـــمٍّ	أَبانَ له الوِلايةَ لو أُطيعـــا
ولكنَّ الرِّجالَ تَبايَعُوهـــــــا	فلم أَرَ مِثلَها خَطَرًا مَبِيعـــا

---

(١) الأغانى جـ١٧ ص ٢٨ .

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٥ / خزانة الأدب جـ ١ ص ١٤٤ .

(٣) أمالى المرتضى جـ ١ ص ٥٩ .

فلم أبلغ بهم لَعْناً ولكن أساءَ بذاكَ أوّلُهم صَنيعا

فصارَ بذاكَ أقربُهم لعَدْلٍ إلى جَوْرٍ وأحْفَظُهم مُضيعا

أضاعُوا أمرَ قائدِهم فضَلّوا وأقومهم لدى الحَدَثانِ رِيعا»[1]

وهى المرة الأولى التى نجد فيها ذكراً مفصلاً لحديث الغدير ، وكانوا من قبل يكتفون بالإشارة وتلقيب على بالوصى دونما تفصيل . وجاء السيد الحميرى من بعد ففصل أكثر من الكميت ، ولكن بعد أن عبّد الكميت له الطريق. يقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى فى ذلك اليوم لعليٍ تصريحاً ، ولم يكتف بذلك بل أخذ عليهم عهدهم وإصرهم بتوليه[2] . وهو أصل من الأصول التى قامت عليها الإمامية وسائر فرق الشيعة [3] . ولذلك تناولوا الصحابة بالسب ولعنوا الشيخين ورموهما بالكفر لاغتصابهما حق على [4] . أما الزيدية فقد جوزوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل فاكتفوا بتفضيل علىّ على أبى بكر وعمر ، وقالوا إن الصحابة فوضوا الأمر لأبى بكر « لمصحلة رأوها وقاعدة دينية راعوها » [5] . فلم يتورطوا فى سبهما ولم يخوضوا فى الصحابة بما لا يليق . وهو ما عبر عنه الكميت هنا وإن اعتبرهم – كما اعتبرتهم بعض فرقهم كالسليمانية [6] ـ خاطئين . وعبر عنه فى قصيدة أخرى بقوله :

« أهوَى عَليّاً أميرَ المؤمنينَ ولا أرْضَى بشَتْمِ أبى بَكْرٍ ولا عُمَرا

(١) شرح الهاشميات ص ١٩٧ ، ١٩٨ . ولا يخفى ما فى البيت الثالث من رفض واستنكار لفكرة البيعة التى اتكأ عليها أهل السنة وغيرهم فى مسألة الخلافة والحكم .

(٢) الزينة لأبى حاتم الرازى ص ٢٥٦ : ٢٥٨ .

(٣) الكافى فى الأصول للكلينى (ط. إيران) باب :دعائم الإسلام جـ ٢ ص ٢٠ وفيه : «.... عن فضيل عن أبى جعفر عليه السلام قال : بنى الإسلام على خمس ، الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ... ولم يناد بشيء ما نودى بالولاية يوم الغدير» . وفى رواية أخرى ص ١٨ : « قال زرارة : فقلت : وأى شيء من ذلك أفضل ؟ فقال الولاية أفضل » . / الملل والنحل جـ ١ ص ١٥١ وجـ ٢ ص ٢ ، ٣ / الشيعة والسنة لإحسان إلهى ظهير ص ٤٩ : ٥٠ .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٥١ : ٥٣ ، ص ٧٣ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٦١ : ١٦٣/ الشيعة والسنة ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٥) الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٠ .

(٦) الفرق بين الفرق ص ٥٤ / مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٤٣ / الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥

ولا أقولُ وإنْ لم يُعْطِيا فدكــــاً بنتَ الرّسولِ ولا ميراثَه كَفَــرا

اللّهُ يَعلمُ ماذا يأتيانِ بـــــــه يومَ القيامةِ من عُذرٍ إذا اعتَذَرا» [1]

ويكثر فى رثائه تلقيب علىّ بالوصىّ . ولعله يدعم بذلك ما ذكره بشأن الغدير ويعبر عن اعتقاد الشيعة فيه . يقول الكميت :

« والوَصِيُّ الّذى أمالَ التَّجُوبِيُّ به عَرشَ أُمَّةٍ لانْهِدامِ » [2]

ويقول فى القصيدة نفسها :

« والوَصِيُّ الوَلِيُّ والفارِسُ المُعْلِمُ تَحتَ العَجاجِ غَيرُ الكَهامِ»

وعلى الرغم من اكتفاء الزيدية بالوصية لعلىّ ، وعدم اشتراطها فى انتقال الإمامة من بعده ؛ حيث أجازوها فى كل أبناء فاطمة شريطة أن يعلن الفاطمى عن نفسه بالخروج ويكون مؤهلاً لها علماً وشجاعة وزهداً وسخاء نجد الكميت يصف الحسن بوصىّ الوصىّ فى قوله :

« ووَصِيُّ الوَصِيِّ ذى الخُطّةِ الفَصْلِ ومُرْدِى الخُصُومِ يومَ الخِصامِ » .

ويفهم من قوله – وإن لم يصرح به – أنه كان يشترطها كسائر الشيعة من غير الزيدية . وهى ليست المرة الأولى ولا الأخيرة فى مخالفته للزيدية ؛ فسوف تلقانا مخالفات أخرى تجعلنا نجزم بأنه كان يدافع عن الشيعة حزباً متكاملاً ، لا عن الزيدية فحسب ، وأنه لم يلتزم الزيدية التزاماً تاماً . ولذلك اختلفوا فيه [3] .

(١) شرح الهاشميات ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩ .

(٣) فهو من « الزيدية » عند كثير من المحدثين كالدكتور أحمد محمد الحوفى « أدب السياسة فى العصر الأموى » ص ٦١ ، ٤٧٩ والدكتورة سهير القلماوى « أدب الخوارج فى العصر الأموى » ص ١٢٨ والدكتور شوقى ضيف « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٢٢٩ ، ٢٥٥ والدكتور محمد مصطفى هدارة « الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى » ص ٩٩. و « اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى » ص ٣٧٥ . والدكتور النعمان القاضى « شعر الفرق الإسلامية فى العصر الأموى » ص ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٩٩ . ومن «الغالية »عند الجاحظ حيث يقول : « وكان الكميت شيعياً من الغالية وكان الطرماح من الصفرية» . البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٦ . وفى ذلك تقول الدكتورة سهير القلماوى – على الرغــم==

ولا يكتفى الكميت فى احتجاجه لآل البيت بحديث الغدير – وهو من الأدلة النقلية – وما بنته عليه الشيعة من القول بالوصية والنص ، وإنما يستعين بأدلة أخرى عقلية يستمدها هذه المرة من قوانين الوراثة . وكثيراً ما اتكأوا قبله على مسألة القرابة إلا أنهم لم يزيدوا على ما توجبه تلك القرابة من حقوق كالمودة والحب وهو ما يفهم من قوله عز وجل : (قُلْ لا أسألُكم عليه أجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ فى القُرْبَى) . أما الكميت فقد استغل هذه القربى فى الاستدلال على وجوب الخلافة فيهم استدلالاً لا يقل فى أهميته عن مسألة الوصية والنص . ويحتال على ذلك كما سبق أن ذكرت بثقافته الفقهية وبخاصة ما اتصل منها بالمواريث ، والكلامية حيث تأثر شيخه زيد بن علىّ بآراء المتكلمين [1] .

وقد مر بنا قوله :

« ولا أقولُ وإنْ لم يُعْطِيا فَدَكــاً   بِنتَ الرَّسولِ ولا مِيراثَه كَفَرا »

مما يدل على أنه لم يعتقد كما اعتقد أبو بكر وعمر وأهل السنة والجماعة بأن النبى

== من اعتبارها الكميت زيدياً – : « قد يفهم من الغالية مجرد المغالاة ، ولكنا نرجح أن الجاحظ عنى بها الفرقة المعينة من فرق الشيعة لأمرين : الأول أنه عالم بهذه الفرق علم من له مذهب خاص فى الاعتزال فلا ينتظر منه أن يستعمل اللفظ الاصطلاحى فى معناه الأصلى دون إشارة إلى هذا ، والثانى أنه وضع الغالية فى هذا النص مقابلة للصفرية كما وضع الشيعة مقابلة للخوارج » . أدب الخوارج ص ١٢٨ هامش ١ ، وقد أشارت إلى أن أبا الفرج الأصفهانى اعتبره من « الرافضة » المرجع نفسه ص ١٢٧ . ولم أجد عند أبى الفرج ما يدل على ذلك . واعتبره الدكتور عبد الحسيب طه حميدة من « الإمامية » « أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى » ص ٩ مقدمة وص ٢٤٨ . مع تمييزه فى الكتاب نفسه بين الإمامية والزيدية ص ٥٧ ، ٥٨ . ويبدو أن هذا التمييز خاص بالعصر العباسى – وهذا استنتاج منا لم يصرح هو به – لأنه فى موضع آخر اعتبر الزيدية من الإمامية ص ٢١ عند حديثه عن أطوار الشيعة (الطور الثانى) . إلا أنه فى كلا الحالين لم يصرح بكونه زيدياً فى الوقت الذى صرح فيه أكثر من مرة بكونه إمامياً وعده ممثلاً لها . كما اعتبره د. داود سلوم فى مقدمة تحقيقه للديوان من « الغالية » متابعاً فى ذلك الجاحظ وإن جعلها صفة للزيدية بمعنى الغلو والمغالاة . والذى نراه أنه كان زيدياً ، ولايتعارض هذا – فى تصورى – مع ما ذكره الجاحظ ، لأن الزيدية فرق كثيرة بعضها غالية كالجارودية . « الزينة » ص ٣٠١ و « الفرق بين الفرق » ص ٥٢ . وهم يكفرون أبا بكر وعمر ويعتقدون بالرجعة وينتظرون بعض أئمتهم ولا يعترفون بموتهم ويعدون منهم المهدى المنتظر . وسوف نجد عند الكميت بعض هذه الأفكار فى دراستنا للجانب المذهبى . ويذكر الدكتور شوقى ضيف (التطور والتجديد ص ٣١٥) أن الجاحظ قد نسبه إلى « الغالية » إرضاء للعباسيين فى عصره . وهذا الرأى يعوزه دليل .

(١) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٦٠ .

لا يورث وأن ما تركه صدقة لقول النبى ﷺ : «إنّنا لا نُورَثُ» وقوله : «لا نُورَثُ ، ما تَرَكنا صَدَقَةٌ»(١) ولعله لم يصح لديه الحديث. وربما قرأه كما كانت الشيعة تقرأه بنصب كلمة «صدقة» على الحالية لا الإخبار . لذلك لم يجد فى البيت التالى عذراً للشيخين إذا وقفا أمام الله يوم القيامة للحساب . وما دام النبى بشرا فهو يورث كسائر البشر فى رأى الكميت حيث يقول :

«فِدًى لكَ مَوْروثاً أَبى وأبو أبى — ونَفسِى ونَفسِى بَعدُ بالنّاسِ أَطْيَبُ»(٢)

وإن تقرر هذا فليس هناك من هو أحق بالخلافة من بنى هاشم لقرابتهم من النبى وخصوصاً أبناء علىّ . ومن غريب – فى تصوره – أن بنى أمية يحتجون على الناس بقرابتهم ويعتبرون الخلافة ميراثاً فيحكمون الناس بخاتمهم ، ثم يدفعون بنى هاشم عنها وهم – بناء على هذا الأساس – أحق بها منهم :

«بحَقّكُم أمسَتْ قُرَيشٌ تَقُودُنا — وبالفَذِّ منها والرَّديفينِ نُرْكَبُ

.... — ....

وقالُوا وَرِثْناها أَبانا وأُمَّنا — وما وَرَّثَتْهم ذاكَ أُمٌّ ولا أَبُ

يَرَونَ لهم فَضْلاً علَى النّاسِ واجِباً — سَفاهاً وحَقُّ الهاشِميينَ أَوْجَبُ

ولكنْ مَوارِيثُ ابنِ آمِنةَ الّذى — به دانَ شَرْقِىٌّ لكم ومُغَرِّبُ».

فالميراث ميراث النبى وليس ميراث معاوية أو مروان . وقد ورثه النبى لأحفاده فهو فيهم لا يخرج عنهم إلا بغصب . وقد تتابع على هذا وصفه للأمويين بالظالمين وآل الجور والمغتصبين .

«يقولونَ لم يُورَثْ ولولا تُراثُهُ — لقد شَرِكَتْ فيه بَكِيلٌ وأَرْحَبُ

وعَكٌّ ولَخمٌ وَ السَّكُونُ وحِمْيَرٌ — وكِنْدةُ والحَيّان بَكْرٌ وتَغْلِبُ

ولانْتَشَلَتْ عِضْوَينِ منها يُحابِرٌ — وكانَ لعَبدِ القَيسِ عِضوٌ مُؤَرَّبُ

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ط ١ (مكتبة المعارف – الرياض سنة ١٤١٢ هـ / سنة ١٩٩١م) المجلد الخامس ص ٦٦ .

(٢) شرح الهاشميات ص ٥٥

ولانْتَقلتْ من خِنْدفٍ فى سُواهمُ	ولاقْتَدَحـت قَيسٌ بها ثُمَّ أثْقَبوا
وما كانتِ الأنصارُ فيها أذلَّـــةً	ولا غُيَّباً عنـــها إذا النّاسُ غُيَّـبُ
همُ شَهِدوا بَدْراً وخيْبرَ بَعدَهـــا	علـيها بأطْرافِ القَنا وتَحَدَّبــــوا» .

وهو يبدأ بنفى الدعوى التى قام عليها عدم الاعتراف بحق بنى هاشم فى الخلافة ؛ فهى دعوى غير معقولة فى تصوره ؛ لأنها لو صحت لصح معها انتقال الخلافة فى غير قريش ، ولنالت تلك القبائل التى يعددها من قحطان وعدنان نصيباً فيها ، بل لما وسع الأنصار السكوت عنها مع فضلهم وسابقتهم وما قدموه للإسلام من أعمال جليلة لا تنكر. ومادام الأمر كذلك فليس هناك إلا نتيجة واحدة؛ وهى أن الأساس فى الاستخلاف مدى القرابة من النبى، وبنو هاشم أقرب الناس إليه، فهم أحق بها من غيرهم :

« فإن هيَ لم تَصلُحْ لحيٍّ سِواهمُ	فإنّ ذوى القُرْبى أحقُّ وأقربُ » .

وهو استنتاج معقول لولا ما يتطرق إلى المقدمة من شكوك لا يعنينا مناقشتها قدر ما يعنينا الإشادة بهذه المقدرة فى الاحتجاج وتلك البراعة فى الاستدلال والإشارة - مرة أخرى - إلى أنه اتجه فى رثائه إلى إثبات حق بنى هاشم بطرق مختلفة ؛ منها طريقة قديمة توسع فيها كانت تعتمد على النقل؛ وهى القول بالوصية ، وطريقة جديدة استمدها من بيئة المتكلمين ؛ وهى التى تعتمد على العقل اعتماداً كبيراً ، واتكأ فيها على ما لديه من علم خاص بالمواريث. وتأتى الموازنة بين بنى هاشم وبنى أمية لتشكل محوراً ثالثاً من المحاور التى دار حولها واعتمد عليها فى الانتصار لقضيته وقضية الشيعة عامة. وفيها يصب جام سخطه على الأمويين ويظهرهم فى صورة تنأى بهم عن استحقاق الخلافة وتجعلهم غير صالحين لولاية أمر المسلمين بالمقاييس كلها الدينية والدنيوية . فى الوقت الذى رسم فيه صوراً تفيض إجلالاً ومحبة للأئمة الهاشميين ؛ فعلىٌّ بن أبى طالب على سبيل المثال :

« كانَ أهلَ العَفافِ والمَجدِ والخَيْـ	ـرِ ونَقْضِ الأُمورِ والإبْرامِ»[1]

(١) شرح الهاشميات ص ٢٩ .

ويوم أن قتلوه قتلوا حاكماً ليس كباقى الحكام :

« قَتَلوا يومَ ذاكَ إذْ قَتلــــــوهُ   حَكَماً لا كغابرِ الحُكّـــــام

رَاعياً كانَ مُسْجِحاً ففَقَدْنـــــا   هُ وفَقْدُ المُسيمِ هُلْكُ السَّوامِ » .

وهو فى مرثية أخرى نعم طبيبُ الداء من أمر أمته ونعم ولىّ الأمر بعد النبى صلى الله عليه وسلم ونعم الراعى لرعيته :

« ونِعْمَ وَلِىُّ الأمــرِ بَعدَ وَلِيِّـــهِ   ومُنْتَجعُ التَّقْوى ونِعْمَ المُؤدَّب »[1]

وهو من هو شجاعة وكرماً :

« له سُتْرتا بَسْطٍ فكَفٌ بهـــذه   يُكَفُّ وبالأُخرى العَوالى تُخضَّبُ » .

وهكذا الحسن ففيه مصادق لاسمه ، وقد رأب الله به صدع الأمة ، وبه حزم وجود وعفاف [2] . وكذا الباقون منهم والذين لا يزالون على قيد الحياة؛ فهم مصابيح وملاذ وملجأ وأمان [3] .

* * *

٢ – يعتمد الكميت فى بعض مراثيه – كما اعتمد غيره من شعراء الشيعة – على الإثارة وتحريك المشاعر والأحاسيس ؛ استفظاعاً لما حل بآل البيت من قتل وصلب ونفى وتشريد ، وتوثيباً للمسلمين للثورة من أجل الثأر . وهو فى ذلك يتكئ على مخاطبة الوجدان أكثر من اتكائه – كما كنا نرى فى الاحتجاج والاستدلال – على مخاطبة العقل . ويجىء مقتل الحسين وما صحبه من أحداث فى كربلاء فى المكانة الأولى ، ويحتل الصدارة فى هذا الجانب الباكى الذى لا يقف فيه البكاء عند إظهار المواجع والأحزان وإنما يتعداه إلى الإثارة والتوثيب ، وهو ما أسميناه بالندب السياسى ، ويقابلنا أول ما يقابلنا فى هاشميته الأولى حيث يقول :

« وقَتيلٍ بالطَّفِّ غُودِرَ منـــــهُ   بينَ غَوغاءِ أُمَّـــةٍ وطَغــام

---

(١) شرح الهاشميات ص ٨٢ .

(٢) شرح الهاشميات ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٧ .

تَركبُ الطّيرُ كالمَجاسِدِ منـــــهُ	معَ هابٍ مِن التُّرابِ هَيـــــام
وتُطيلُ المُرزّئاتُ المَقاليـــــــــ	ـتُ عليه القُعودَ بَعدَ القيـــــامِ
يَتعرّفنَ حُرّ وَجْهٍ عليــــــــه	عُقْبَةُ السَّرْوِ ظاهراً والوَســـامِ
قَتلَ الأَدعياءُ إذ قَتلـــــــوهُ	أكْرمَ الشّاربينَ صَوْبَ الغَمامِ[1]

فقد قتل الحسين على الرغم من مكانته على أيدى مجموعة من غوغاء الأمة وطغامها ، وترك جسده الكريم معفراً تنال الطير منه وتبكيه النساء بكاء مراً وقد أرهقهن القيام فجلسن حوله ينظرن إليه فى حسرة نظرة الوداع . لقد قتلوا أكرم المسلمين طراً وخير أرضٍ تشربت من رسول الله . ويعرض الكميت فى البيت الأخير بأمير العراق عبيد الله بن زياد فهو دعى من الأدعياء، وببنى أمية لأنهم هم الذين استلحقوا أباه .

وفى الهاشمية الثانية استفظاع أشد لما حل بالحسين على يد ابن زياد وجيشه ، حتى ليعد الكميت مقتله أكبر حدث أصيبوا به. ويذكر جسده وقد قطعته السيوف ، ولحمه وقد تناثر دون أن يجد من يدفع عنه ، وخده وقد تعفر بالتراب . ولا يغيب عنه – مثل المرة الماضية – صورة النساء الوله وهن يطفن حوله باكيات :

« ومن أكبرِ الأحداثِ كانتْ مُصيبةً	علينا قَتيلُ الأدعياءِ المُلَحَّــبُ
قَتيلٌ بجَنْبِ الطَّفِّ مِن آلِ هاشِـــمٍ	فَيالكَ لَحْماً ليسَ عنـهُ مُذَبِّبُ
ومُنعفَرُ الخَدَّينِ مِن آلِ هاشِــــــمٍ	ألا حبَّذا ذاكَ الجَبيــنُ المُترَّبُ
قَتيلٌ كأنَّ الوُلَّهَ النُّكْدَ حَولَــــــهُ	يَطُفنَ به شُمَّ العَرانينِ رَبرَبُ »[2]

ويذكر فى الهاشمية الرابعة منعهم الماء عنه ودفعهم له ولمن معه عن الفرات حتى يقتلهم العطش أو يبلغ بهم الجهد مبلغه فيسهل حصدهم ، ولم يرفع الحسين على خيلهم منصلاً فلم قتلوه وقتلوا من معه ؟! ويمضى الكميت فيعدد أسماء بعض القتلى مع إشارة سريعة للصورة التى قتل عليها. وهى صور مثيرة . ولعل أكثرها إثارة صورتهم وهم يحصدون حول الحسين كما يحصد البقل :

(١) شرح الهاشميات ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) شرح الهاشميات ص ٨٤، ٨٥ .

« كأنَّ حُسَيناً والبَهاليلَ حولَــهُ لأسيافِهم ما يَخْتلى المُتبقّــلُ »[1]

وصورة الخيل وهى تخوض فى دم آل البيت وتتلون به من كثرة سيله :

« يَخُضنَ بهم مِن آلِ أَحْمدَ فى الوَغى دَماً ظَلَّ منهم كالبَهيمِ المُحجَّلُ »

ولعل هذه الصورة قد أثارته هو نفسه على نحو أشد مما كان عليه فى أول الأبيات فجرد سيفاً قاسياً من النقد على من خذلوه من شيعته ، وعلى الحكام من بنى أمية ، وعلى ابن زياد ، وعلى من تهافتوا على قتله من أجل الدنيا وطمعاً فيما فى أيدى من يملكونها حتى صاروا كالذؤبان [2] . وانتهى بالتهديد والوعيد مشترطاً جمع القلوب حتى يحقق الله على أيدى الثائرين ما يأملون من القصاص والانتقام :

« فإنْ يَجْمع اللهُ القُلوبَ ونلْقَهم لنـا عـارِضٌ مــن غَيـرِ مُزْنٍ مُكلَّلُ
لناعارِضٌ ذُو وَابلٍ أُطْلقتْ لــــه وكــاءَ رَدَى الأبطالِ عزّلاءُ تَسْـجَلُ
سَرَابيلُنا فى الرّوعِ بيضٌ كــأنّهـا أضا اللّوبِ هزّتْها مِن الرّيحِ شَـمالُ
علَى الجُودِ مِن آلِ الوَجيهِ ولاحِقٍ تُذكّرُنا أوتارَنا حينَ تَصْهَــــــلُ
نَكِلْ لهم بالصاعِ مِن ذاكَ أصْوُعاً ويأتيهمُ بالسَّجْلِ مِن ذاكَ أسْجُلُ »[3]

ومثل هذا نجده فى الهاشمية الخامسة وإن كان قد أوجز فيها [4] . وقد أشار فى نهايتها إلى ما يبتغيه صراحة ، وهو أبعد من الثأر والانتقام ؛ إنه يبتغى العدل ، وهو مالا يختلف معه مسلم عليه . ولكنهم قد يختلفون معه فى الفئة التى يتحقق على أيديها هذا العدل وخصوصاً أنه ربط بينه وبين امتلاكه – وهو فرد فى مذهب – للبلاد شرقاً وغرباً:

« أُؤمِّلُ عَدْلاً عَسى أنْ أنــــــا لَ ما بَينَ شرْقٍ إلى مَغْـــــرِبِ ».

وكأنه ينطق فى هذا البيت على لسان آل البيت ويعبر عن قضيتهم فى إيجاز من منظور شيعى ؛ فلو كان هناك عدل لكانوا هم الحكام . وهو مايؤكده فى البيت التالى لهذا البيت :

(1) شرح الهاشميات ص ١٦٦ .
(2) المصدر نفسه ص ١٦٧ : ١٧٠ .
(3) المصدر نفسه ص ١٧١ : ١٧٢ .
(4) المصدر نفسه ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

« رفعتُ لهم ناظِرَىْ خائـــفٍ   علَى الحقّ يَقْدَعُ مُسْترهَـــبِ » .

ويعبر أيضاً عن قضية الشيعة حيث لا يزالون يؤملون فى هذا العدل وفيما يترتب عليه من وصول أئمتهم إلى الحكم وامتلاكهم للبلاد .

وهناك مراث أخر تسير فى هذا الاتجاه ، كرثائه لعلىّ بن أبى طالب[1] ، وزيد بن على[2] . لكنه لا يبلغْ فيها ما بلغه فى رثاء الحسين ولا يضيف فيها شيئاً جديداً يختلف عما ذكرناه .

* * *

٣ – تتجه مراثى الكميت فى الهاشميات وجهة مذهبية يغلب عليها الاعتدال. ويحتل حب آل البيت – على طريقة الشيعة المبالغ فيها – المكانة الأولى فى هذا الاتجاه؛ فبذكرهم يجد البراءة والشفاء .

يقول بعد أن يذكر النبى صلى الله عليه وسلم وعلياً والحسن والحسين :

« وأبو الفَضلِ إنّ ذِكْرَهمُ الحُلْوَ بِفِىَّ الشّفاءُ للأسقامِ » [3]

وبحبه لهم يعيد النظر فى علاقاته الاجتماعية فيقيمها على أسس جديدة لا تنفع فيها الأنساب أو القرابة وحدها :

« فيهمُ كـــنتُ للبعيدِ ابنَ عَمّ   واتّهَمـــتُ القريبَ أىَّ اتّهامِ » .

وقد غطى هذا الحب على كل شىء فلم ير أحداً يستحق التقدير غيرهم ، بل صار يهزأ بالأشراف مالم يكونوا من شيعتهم ومحبيهم :

« ورأيتُ الشّريفَ فى أعْينِ القَومِ (م)   وَضيعاً وقَلّ منهُ احْتشامى» .

وفيهم لا يبالى بلوم اللائمين وإن أرغم الله أنوفهم وألصقها بالتراب :

« ما أُبالى ولن أُبالى فيهـــــم   أبداً رَغْمَ ساخطينَ رَغـــامِ» .

فهم شيعته وقسمه ، وحسبه بذلك قسماً ونصيباً :

---

(١) شرح الهاشميات ص ٦٥ ، ٧٠ .   (٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣ : ٢٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥ .

« فهمُ شيعتى وقِسْمى مِن الأُمّةِ حَسْبى مِن سائرِ الأقسامِ » .

وقد أخلص الله له هواه ، وبالغ فيه ومده إلى أقصاه ، وحفظه فلم يمل ذات اليمين أو الشمال :

« أَخْلصَ اللّهُ لى هَوايَ فما أُغْرِقُ نزْعاً ولا تَطيشُ سِهامى» .

ويعلن الكميت فى الهاشمية الثانية أن حبهم قربة يتقرب بها – كما كان الشيعة يتقربون من قبل – إلى الله :

« إلى النَّفَرِ البيضِ الذّينَ بحُبّهم إلى اللّهِ فيما نابَنى أتقرّبُ » (1)

ويعجب ممن يرون هذا الحب عاراً فيحسبونه عليه :

« بأىِّ كتابٍ أم بأيّةِ سنّـــــةٍ ترى حُبّهم عاراً علىَّ وتَحْسَبُ» ؟

وهو واحد من بنى أمية بطبيعة الحال الذين ضيقوا عليه وعلى الشيعة الخناق وزرعوا فى قلوبهم الخوف وبذروا الشك فى النفوس :

« ألم تَرنِى مِن حُبِّ آلِ مُحمَّدٍ أروحُ وأغْدو خائفاً أترقّـــــبُ
كأنّىَ جانٍ مُحدثٌ وكأنّمـــا بهم يُتّقَى مِن خَشْيةِ العُرِّ أجْرَبُ» .

ولكنه على الرغم من هذا لا يفتأ يذكرهم ويجدد عهده لهم ويتغنى به وبحبه لهم فى كل وقت وحين :

« لهم مِن هَوايَ الصَّفْوُ ما عشتُ خالصاً ومِن شِعْرِىَ المَخْزونُ والمُتنخَّلُ
فلا رَغْبتى فيهم تَغيضُ لأهْبَــــةٍ ولا عُقْدتى فى حُبّهم تتحـلّلُ
ولا أنا عنهم مُحدِثٌ أجْنبيَّــــةً ولا أنا مُعْتاضٌ بهم مُتبَـــدَّلُ» (2)

وتأتى الولاية والتقية والغيبة والمهدوية فى درجة تالية للحب . فعلىّ ولىّ فى قوله :

« والوَصِىُّ الوَلِىُّ والفارسُ المُعلِمُ تَحتَ العَجاجِ غيرُ الكَهامِ » (3)

وهو معتقد شيعى يدخل فيما أسماه الشهرستانى بـ « التولى والتبرى » . لكنه لا

(1) شرح هاشميات الكميت ص ٤٥ . (2) المصدر نفسه ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(3) المصدر نفسه ص ٣٠ .

يبلغ ما بلغه بعد على أيدى المتصوفة فى شيوخهم وأئمتهم . وقد لا يتعدى ولاية الأمر– وهى فكرة إسلامية عامة – كما أبان فى قوله :

« ونِعْمَ ولِىُّ الأمرِ بَعْدَ وَلِيِّهِ ... ومُنْتجَعُ التَّقوى ونعمَ المُؤَدّبُ » [1]

يعنى عليّاً بعد النبى صلى الله عليه وسلم . أو أن يكون مولى لله [2] ، وهى فكرة إسلامية أيضاً وعقيدة عامة فى علىّ كرم الله وجهه إلا عند الخوارج والمتوقفين . ويؤيد هذا ما عرف به الكميت من اعتدال .

أما التقية فقد صرح بها – مخالفاً الزيدية التى ينتمى إليها – فى أكثر من موضع . منها :

« ونَضْحِىَ إيّاهُ التَّقيّاتُ منهمُ ... أُداجى علَى الدّاءِ المُريبِ وأُدْمِلُ

وإنّى علَى أنّى أرى فى تَقِيَّـــةٍ ... أُخالِطُ أَقْواماً لِقَومٍ لَمزْيـــلُ » [3]

وقوله :

« بل هَوايَ الّذى أُجِنُّ وأُبْدى ... لِبَنى هاشِمٍ فُروعِ الأنـــامِ » [4]

فهو يبدى هواه لبعض ويستره عن بعض ، أو يبديه حيناً ويستره حيناً آخر [5] .

وقوله وقد نسبها إلى بعضهم دون تصريح :

« وَجَدنا لكم فى آلِ حاميمَ آيةً ... تأوَّلها منّا تَقِىٌّ ومعْـــــرِبُ » [6]

والذى نراه أن الكميت قد أخذ بها متأثراً بالإمامية من شيعة الباقر أخى زيد عليهما السلام وطبقها على نفسه فى أوقات كثيرة صانع فيها بنى أمية ومدحهم وأخذ

---

(١) شرح هاشميات الكميت ص ٨٢ ، وقوله ص ١٩٧ :
« ويومَ الدَّوْحِ دَوْحِ غديرِ خُمٍّ ... أبانَ له الوِلايةَ لو أُطيعا » .

(٢) يدل على ذلك قوله ص ١٩٦ :
« حَطُوطاً فى مَسَرَّتِه ومَوْلًى ... إلى مَرْضاةِ خالِقِهِ سَرِيعاً » .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٥ ، ١٨٦ ،

(٤) المصدر نفسه ص ١٢ .

(٥) وهو مثل قوله : « مُعْلِناً للمُعالِنينَ مُسِرّاً ... للمُسِرِّينَ غيرَ دَحْضِ المَقامِ » .
شرح الهاشميات ص ٣٦ .

(٦) المصدر نفسه ص ٥٥ .

جوائزهم. وأيا ما كان الأمر فقد ظهر صداها فى شعره على النحو الذى بينا . وهى من أهم العقائد الشيعية التى كفلت لهم الاستمرار وجعلتهم أخطر على بنى أمية من الأحزاب الأخرى المعارضة .

ومن العقائد التى أبان عنها فى الرثاء مخالفاً الزيدية ومتفقاً مع الفكر الشيعى العام مسألة المهدى الذى يقيم دولتهم . وقد أشار إليها فى قوله :

« وقالتْ مَعدٌّ أنتَ نَفْسكَ صابراً | كما صَبَروا أىُّ القَضاءين يَعْجَلُ
أَمَوتاً علَى حَقٍّ كماماتَ منهمُ | أبو جَعْفرٍ دُونَ الّذى كنتَ تَأملُ
أَمِ الغايةَ القُصْوى الّتى إن بَلَغتَها | فأنت إذاً ما أنتَ والصَبْرُ أَجملُ »[1]

والغاية القصوى التى يضعها بإزاء الموت منتظراً إحداهما « أى القضاءين يعجل» كما يقول هى المهدى أو دولتهم ،كما قال شارحه عن آخرين . وأشار إليها أيضا فى قوله :

« وإن أَبلُغِ القُصْوى أَخُضْ غَمَرَاتها | إذا كَرِهَ الموتَ اليَرَاعُ المُهلَّلُ » [2]

وفسر الشارح القصوى بالقائم ؛ وهو المهدى المنتظر الذى سوف يخرج من مكة ويبايع أصحابه ويبايعونه على الموت ويخرج بهم لقتال الكافرين . ويفهم بعض هذا من قوله « أخض غمراتها » إذا كره الجبان الموت . ولعله كان أكثر تصريحاً فى قوله :

« ويَلعنُ فَذَّ أُمَّته جِهاراً | إذا ساسَ البَرِيَّةَ والخَليعا
بمَرْضىٍّ السِّياسة هاشِميٌّ | يكونُ حيَاً لأُمَّته رَبيعا
ولَيثاً فى المَشاهد غيرَ نِكسٍ | لتَقويم البَرِيَّة مُسْتطيعا
يُقيمُ أُمورَها ويَذُبُّ عنها | ويَترك جَدْبَها أبداً مَريعا» [3]

فهو – أولاً – هاشمى ، وثانياً ذو سياسة مرضية تخالف سياسة الأمويين؛ حيث يلعن فذهم – معاوية – وخليعهم – الوليد بن عبد الملك – وثالثاً شجاع قوى قادر على تقويم البرية وإصلاح ما اعوج منها، مقيم للأمور كما ينبغى، ربيع لأمته محيل جدبها خصباً.

(1) شرح الهاشميات ص ١٨٢ .
(2) المصدر نفسه ص ١٨٤ .
(3) المصدر نفسه ص ١٩٩ .

وقد مر قوله :

« أُؤمِّلُ عَدْلاً عسى أن أنـا   لَ ما بيْنَ شَـرْقٍ إلى مَغـربِ»

ولعله العدل الذى يملأ به المهدى الأرض بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

ويظهر صدى ضعيف لفكرة الغيبة فى قوله فى ابن الحنفية :

« وسَمِيُّ النَّبِيِّ بالشِّعْبِ ذى الخَيفِ طَرِيدُ المُحِلِّ بالأَحرامِ » [١]

إلا أنه لا يلبث أن يزول باعترافه فى مرثية أخرى بموته ؛ حيث يقول بعد أن يذكره ويذكر معه آخرين :

« مَضَوا سلَفاً لابُدَّ أنَّ مَصيرَنا   إليهم فَغادٍ نَحوَهم مُتأوِّبُ » .[٢]

ومثل هذا الصدى الخافت نجده فى مرثية أخرى لفكرة التناسخ أو انتقال الروح الواحدة فى الأجساد حيث يقول :

« ما بَينَ حَوّاءَ أنْ نُسِبتَ إلى   آمنةَ اعْتَمَّ نبْتُكَ الهَـدبُ

قَرْناً فَقَرْناً تَناسَخوكَ لكَ الفِضَّةُ مِنْها بَيضاءُ والذَّهَبُ» [٣].

ولعلها الأصل فيما قالت به الصوفية بعد من انتقال الحقيقة المحمدية فى الأصلاب الطاهرة من لدن آدم حتى أبيه ، وهى التى تفترض خلقه قبل خلق آدم وتذكر أن الله خلق الكائنات من نوره .

أما العصمة – وقد قال بها غيره من شعراء الشيعة – فلانجد لها صدى يذكر فى مراثيه . بل نجد إلحاحاً على وصف الأئمة بالعلم والزهد والشجاعة[٤] . وهى الصفات الأربع التى اشترطتها الزيدية فى الإمام الفاطمى لكى تجب له الإمامة مع الإعلان عن نفسه والخروج لمواجهة القاسطين .[٥]

* * *

(١) شرح الهاشميات ص ٣٥ .   (٢) المصدر نفسه ص ٨٦ ،
(٣) المصدر نفسه ص ١١٢ .   (٤) المصدر نفسه ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٨٢ ، ٨٤، ١٩٩ .
(٥) الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٠.

الفصل الثالث

الـــزبـيـــريون

يحلو لبعض الباحثين إرجاع تاريخ هذا الحزب إلى الفترة التى أطيح فيها بعثمان وما أعقب مقتله رضى الله عنه من أحداث . ويربطون بين خروج الزبير بن العوام إلى البصرة يوم الجمل وبين نشأته ربطاً وثيقاً (١) . وهو فى تصورى بعيد ؛ فحركة الزبير شىء والتفاف المسلمين حول ابنه عبد الله فى أواخر عهد معاوية شىء يختلف عنه اختلافاً كبيراً فى الدوافع والظروف التى أحاطت به والملابسات . لم تكن حركة الزبير إلا من أجل الثأر لعثمان والقصاص له من قاتليه ، ولم يكن الزبير وحده هو الذى يقودها وإنما كان معه طلحة وعائشة وغيرهما من كبار الصحابة ، وقد انتهت بانتهاء أصحابها بعد أن حققوا غرضهم فى إقليم واحد من أقاليم الدولة الإسلامية وحالت الهزيمة التى لحقت بهم على يد علىّ كرم الله وجهه بينهم وبين المضى فى سائر الأقاليم ، وقُتل الزبير وقتل طلحة واعتزلت عائشة السياسة وترك الآخرون الأمر لعلىّ ومعاوية . أما عبد الله فعلى الرغم من مشاركته فى تلك الحركة ، وعلى الرغم من دفاعه قبل ذلك عن عثمان يوم الدار ، إلا أنه لم يرث عن هؤلاء الثلاثة حزباً ، ولم يكن فى ذلك الوقت إلا مجرد ثائر اضطرته الهزيمة إلى السكوت والانسحاب من المعترك تاركاً الأمر لأصحابه ولمن يتصارعون حوله من أجل غايات أخرى . وتمضى خلافة علىّ كلها دون أن نسمع أو نجد له ذكراً ، اللهم إلا حين شارك مكرهاً مع أربعة آخرين فى الشهادة على التحكيم(٢) . ثم بايع بعد ذلك معاوية مع غيره من المبايعين بعد مقتل على وتنازل الحسن عن الخلافة . وكان معاوية يبالغ فى الحفاوة به وفى تكريمه ويغدق عليه فى العطاء (٣) . ولم تكن تلك سياسته معه وحده وإنما كانت سياسة عامة يتبعها مع أبناء كبار الصحابة

---

(١) د. أحمد محمد الحوفى (أدب السياسة فى العصر الأموى) ص ١١٤ / د. عباس الجرارى (فى الشعر السياسى) ص ٧٩ . د. على حسنى الخربوطلى (عبد الله بن الزبير) ص ٢٦ ، ٤١ . /د. على عبد المعطى ود. محمد جلال شرف (الفكر السياسى فى الإسلام) ص ١٢٧ . / د.النعمان القاضى (الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى) ص ٢٢٣ ، ٢٦٤ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٦٧ / وقعة صفين ص ٥٣٩ .

(٣) تاريخ ابن عساكر جـ٧ ص ٣٩٨ / الفخرى ص ٩٢ .

فى الحجاز . إلا أنه كان يعامل عبد الله بشىء من الحذر، وكان يصفه بأنه خب ضب يجثم جثوم الأسد ويراوغ مراوغة الثعلب (١) . وكثيراً ما حذر ابنه منه كما حذره من الحسين وابن عمر (٢) . وفى هذا دلالة على ما كان لعبد الله من مكانة تخشى ومؤهلات ترشحه للخلافة وتجعله مزاحماً ليزيد إذا ما فكر معاوية فى استخلافه من بعده.

وحدث بالفعل ما توقعه معاوية ؛ فقد كان عبد الله من أشد المعارضين لفكرة الاستخلاف هذه حين عرضها على أهل المدينة فى المرة الأولى سنة ٥٠هـ (٣) . وكان لهذه المعارضة ، ولوجود الحسن بن علىّ على قيد الحياة واقتراح زياد بالتمهل والتروى دور فى تأجيلها ، ثم عاد فأعلنها بعد فترة من جديد وهو أكثر استعداداً وتأهباً حين واتته الفرصة بموت الحسن رضى الله عنه، وهو العقبة الكبرى التى كانت تحول بينه وبين إمضائها ؛ لما أعطاه فى عام الجماعة من عهود (٤) . أما المعارضة فقد أعد لها عدتها وسافر بنفسه إلى المدينة بعد أن أخفق عامله هناك فى إقناع المعارضين . ودار بينه وبينهم أكثر من حوار . واختلفت وسائله معهم بما عرف عنه من سياسة وذكاء . ثم نجح أخيراً فى الحصول على البيعة وعاد إلى الشام (٥) .

وتتحول الخلافة منذ تلك اللحظة – ولأول مرة فى تاريخ المسلمين – إلى نظام ملكى وراثى . بالإضافة إلى ما كان يحيط به معاوية نفسه من أبهة ويتخذه من مقاصير، وما ابتدعته السياسة فى عصره من أساليب تختلف عما كانت عليه الحال فى عهد الراشدين ؛ ومنها إحياء العصبيات القديمة والاتكاء عليها فى تثبيت الحكم .

ووسط هذه الظروف وتلك الملابسات تولد حزب عبد الله بن الزبير أو حزب المعارضين من أبناء الصحابة أو حزب الحجاز، لينادى بعودة الخلافة مرة أخرى إلى صورتها الأولى، وليزداد مع الأيام وضوحاً ورسوخاً .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .
(٢) المصدر نفسه والصفحات .
(٣) الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٥٦ .
(٤) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤.
(٥) عبد الله بن الزبير د. على حسنى الخربوطلى ص ٦٦ : ٧٢ .

١ – خرج عبد الله بن الزبير من المدينة حين علم بموت معاوية ، واتجه إلى مكة وامتنع بها وسمى نفسه « العائذ بالبيت »، وخرج من بعده الحسين بن عليّ رضى الله عنه [١] .وكانا قد رفضا إعطاء البيعة ليزيد فيمن رفضها من أبناء الصحابة كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر . وعبر هذا الأخير عن وجهة نظرهم بقوله : « تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل » ؟ [٢] أى أن هذا النظام الذى فرضه معاوية وألزم به المسلمين ليس – فى تصوره – نظاماً إسلامياً وإنما هونظام بيزنطى . كما عبر عن وجهة نظرهم أيضا عبد الله بن الزبير حين قال لمعاوية: « نخيرك بين ثلاث خصال ... تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر ... قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر .... واصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أمية فاستخلفه . وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أمية»[٣] . وقد بين رضى الله عنه أسس انتقال الخلافة حسبما فعل النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون . وليس من بينها تلك التى أرادها معاوية ، وإن كان لمعاوية رضى الله عنه وجهة نظره فى ذلك [٤] . وهذا يعنى أن خلافة يزيد لم تتم حسب الأصول التى

---

(١) كان خروج الحسين بعد عبد الله بليلة واحدة . تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٣٤١ . وفى رواية أخرى أنهما خرجا فى ليلة واحدة . المصدر نفسه ص ٣٤٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٥٠ .

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٥٢ / العواصم من القواصم ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٤) وقد أبان عنها ابن خلدون فى مقدمته جـ ٢ ص ٥٥٣ بقوله : « والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم » . كما أبان عنها الشيخ محب الدين الخطيب بقوله : « عدل عن الوجه الأفضل – ولعله يعنى ما اقترحه ابن الزبير عليه – لما كان يتوجس من الفتن والمجازر إذا جعلها شورى . وقد رأى القوة والطاعة والنظام والاستقرار فى الجانب الذى فيه ابنه » . العواصم من القواصم ص ٢٢٩ هـ ٢٣٠ . وكان رضى الله عنه يقول : « اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ، وإن كنت إنما حملنى حب الوالد لولده وأنه ليس لما صنعت به أهلاً فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك » . تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٢٠٦.

ينبغى مراعاتها فى نظر ابن الزبير وكذا فى نظر غيره من المعارضين . من هنا نفهم سبب رفضه إعطاء البيعة له مع أنه بايعه قبل ذلك فى حياة أبيه، ونفهم أيضاً سبب فراره إلى مكة ؛ فقد كان يظن أنه سوف يجد بها الملاذ الذى يحميه من إعطاء البيعة مرة أخرى مجبرا تحت ضغط الولاة الأمويين . وكان رضى الله عنه يرى فى بعض القرشيين من هو أصلح لهذا الأمر من يزيد كالحسين رضى الله عنه . لذا فقد اقترحها عليه وأبدى استعداده لمبايعته (1) . لا على طريقة الشيعة فى قولهم بالوصية والنص وإنما على طريقة الصحابة السابقين من المهاجرين والأنصار فى مراعاة الكفاءة مع القرشية ومراعاة الظروف والأوضاع السياسية ،كما حدث فى تقديمهم لأبى بكر رضى الله عنه(2) .

أما الحسين فقد خرج إلى مصيره المحتوم فى كربلاء . وبقى ابن الزبير وحده فى مكة ممثلاً للمعارضة بعد أن بايع ابن عباس وابن عمر ليزيد ومات ابن أبى بكر (3) . وأصبح فى نظر نفسه أكثر القرشيين استحقاقاً للخلافة بما له من مؤهلات بعد استشهاد الحسين رضى الله عنه . لكنه لم يعلن ذلك بل أظهر زهده فيها ، وجعل الناس يقارنون بين زهده وورعه وتقواه وما يسمعونه عن يزيد - إن صدقاً وإن كذباً - من الانغماس فى اللهو والترف والفجور فيزدادون اقتناعاً به وإقبالاً عليه . والتف بعضهم حوله وزاد التفافهم حين انتصر على جيش أموى صغير قاده أخوه - عمرو بن الزبير وكان موالياً للأمويين - من أجل إجباره على البيعة ليزيد (4). وعلا أمره فى المدينة حين عاد وفدهم من عند يزيد ووصفوا لهم ما وجدوه عليه وأعلنوا خلعه فتابعوهم على ذلك(5) وبايع أكثرهم لابن الزبير ولم يلتفتوا لرسل يزيد ، بل تمادوا فحاصروا من بالمدينة من الأمويين فى بيت أحدهم ثم أخرجوهم مجبرين، فكانت وقعة الحرة بأحداثها المرة القاسية(6) . وكان أول رثاء سياسى يلقانا فى نشأة هذا الحزب الجديد .

ومراثى الحرة - على خطورة هذا اليوم فى تاريخ المسلمين وتاريخ الزبيريين على وجه

(1) تاريخ الطبرى جـ5 ص 383 / استشهاد الحسين لابن كثير ص 58 .
(2) الملل والنحل للشهرستانى جـ 1 ص 160 ، 161 .
(3) تاريخ الطبرى جـ5 ص 343 وما بعدها .
(4) البداية والنهاية جـ8 ، ص 147 : 149 ، 151 .
(5) تاريخ الطبرى جـ 5 ص 480 .
(6) المصدر نفسه ص 482 : 495 .

الخصوص – قليلة . وهى تأخذ اتجاهات ثلاثة : ندم ،وفخر ، وإثارة. أما الندم فممتزج بالحسرة والإحساس بالتقصير وبخاصة عند من فروا من الميدان وتخلوا عن إخوانهم وأسلموهم لجيش الأمويين . وقد عبر عن هذا الاتجاه أصدق تعبير « عبد الله بن مطيع» وكان كما يقول المصعب بن عبد الله من أعظم رجال قريش جلداً وشجاعة[1] . ومع هذا فقد فر مع الفارين . وظلت هذه الذكرى تراوده وتقض عليه مضجعه وتدفعه إلى التكفير. ولم يمنعه الخوف من أن يوصف بالجبن – وهو أقسى ما يخشاه ذوو الشجاعة – من الاعتراف الصريح بما كان منه فكان يقول :

« أنا الَّذى فَرَرتُ يومَ الحَرَّهْ

والشَّيخُ لا يَفِرُّ إلاَّ مَرَّهْ

لأَجْزِيَنَّ كَرَّةً بفَرَّهْ»[2]

وما أكثر ما كرَّ مع ابن الزبير فى حروبه الطويلة مع الأمويين حتى قتل فى الحصار الأخير الذى فرضه الحجاج عليه فى مكة .

وعلى النقيض من هذا الشعور نجد شعوراً آخر يتعالى على الهزيمة ويرتد فى عنف حتى يصير فخراً خالصاً لا أثر فيه للضعف والانكسار ؛ فإن كانوا أصيبوا يوم الحرة على يد الأمويين فطالما قتلوهم على الإسلام وهم لا يزالون مشركين وبخاصة يوم بدر ، يوم آبوا بأسلابهم وتركوهم بين قتيل وذليل . يقول عبد الرحمن بن سعيد بن زيد :

« فإن يَقْتلونا يومَ حَرَّةِ واقِمٍ فنحنُ علَى الإسلامِ أَوَّلُ مَن قَتَلْ

ونحنُ قَتَلناكم ببَدرٍ أَذِلَّةً وأُبْنا بأَسْلابٍ لنا منكم نَفَلْ»[3]

ويضيف : إن كل شئ هين ما نجا عبد الله بن الزبير وبقى سالماً . وكأنه الأمل الذى يعولون عليه فى الخلاص :

« فإنْ يَنجُ منها عائذُ البيتِ سالماً فكلُّ الَّذى قد نالَنا منكمُ جَلَلْ» .

(١) نسب قريش ص ٣٨٤ .

(٢) المصدر نفسه والصحيفة / العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٨٩ / الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص٢٥ .

(٣) نسب قريش ص ٣٦٦ .

وعائذ البيت لقبه الذى عرف به ، وهو اللقب المحبب إلى نفسه وإلى أنصاره وحوارييه، وهو الذى حبب كثيراً من الناس فيه .

وتأتى الإثارة مع الندب والبكاء فى رثاء « عبد الله بن الزُّبير » (بصيغة المبالغة لا التصغير) ليعقوب بن طلحة وآخرين . وهو من الشعراء الذين تحولوا بعد ذلك إلى الأمويين وهجا ابن الزبير هجاء مراً . ويبدو أنه كان غائباً عن المدينة فى ذلك اليوم ؛ فقد جاءه من أسماه بـ « الكروس » بالخبر المشئوم الذى أثار الوجيعة فى قلبه وفى قلوب المسلمين جميعاً حزيناً كاظماً ينعى له شباباً من خيرة شباب المدينة فظلت منازلهم ما بين رومة والبقيع خاوية من بعدهم . لقد ذهبوا وذهبت معهم لذة العيش ، فلا الحياة تشتهى ولا الموت يجىء سريعاً فيريح :

« لَعَمْرِى لقد جاء الكَرَوَّسُ كاظماً ... علَى خَبَرٍ للمُسلمينَ وَجِيعِ
شَبَابٌ كيَعْقوبَ بنَ طَلْحةَ أقْفَرَتْ ... مَنازِلُهم من رُومةٍ فبَقِيعِ
فواللّه ماهذا بعَيشٍ فيُشتَهَى ... هَنِىٍّ ولا مَوتٍ يُرِيحُ سَرِيعِ »[1]

ومع ما فى الأبيات من نغمة باكية حزينة نجد الإثارة ؛ فى تضخيم الأحداث وتهويلها وسحب أثرها على المسلمين جميعاً ، وفى وصف القتلى بأنهم «شباب » ولم يكونوا جميعاً بطبيعة الحال كذلك ، وفى حرصه على ذكر المنازل الخاوية والقسم الذى صدر به البيت الأخير ليدل على زهده فى العيش، وتخيل الراحة فى الموت ، وتحسره على ألا يكون سريعاً .

وهكذا تسير مراثى الحرة فى الاتجاهات الثلاثة التى أشرنا إليها ؛ وهى الحسرة والندم، والفخر والإشادة ، والإثارة . إلا أنها على تنوعها وتعدد اتجاهاتها لا تتناسب – فى تصورى – والحدث الجليل الذى أصيب به أهل المدينة وأصيب به الزبيريون فى بداية حركتهم السياسية وسلسلتهم الدامية مع الأمويين .

٢ – ثم كانت « مرج راهط » حلقة ثانية بعد فشل الحصار الذى ضربوه حول ابن

(١) نسب قريش ص ٢٨٢ . وهى بديوانه المجموع ص ٩٦، ٩٧ مع اختلاف فى الترتيب وبعض الألفاظ .

الزبير وموت يزيد وتصارع آل البيتين السفياني والمرواني على السلطة ؛ فقد أتيح لعبد الله في تلك الفترة أن يمد نفوذه في الحجاز كله وتأتيه البيعة من مصر والعراق وبعض أقاليم الشام [1] . وينحصر الأمويون أو يكادون في الأردن وحده، ثم يعقد مؤتمر الجابية، ويتولى الخلافة مروان بن الحكم ليصبح للمسلمين خليفتان . ويبدو وشيكاً حدوث الصراع أو تجدده بين بني أمية والزبيريين . ويستطيع مروان استرداد الأجزاء التي فقدها الأمويون بالشام ، ويحقق انتصاراً حاسماً على قبائل قيس الموالية لابن الزبير في موقعة المرج [2] .

وقد خلفت هذه الموقعة مراثي كثيرة بالنسبة للزبيريين . وكان الاتجاه الغالب عليها هو العصبية القبلية وإبراز مالها من دور في التقلبات السياسية والتحكم في مسار الخلافة وتوجيهها ؛ فقد اعتمد الأمويون اعتماداً كبيراً على قبائل اليمن وبخاصة قبيلة كلب ، وكانت هذه إحدى النقاط التي ارتكز عليها الزبيريون في حملاتهم السياسية التي شنوها على الأمويين . إلا أنهم عندما دخلوا المعترك السياسي من ناحيته الحربية لم يجدوا هم الآخرون بدأ من الاعتماد على العصبية، فاتكأوا على قبائل قيس المعادية لليمنية بالشام . وكان الضحاك بن قيس الفهري – زعيم القيسية – ذا مطامع شخصية ، وكان يأمل في الوصول إلى الخلافة عن طريق الزبيريين، فوقف إلى جانبهم وخاض المعارك تحت رايتهم. ثم تقلب مع التقلبات السياسية وحضر مؤتمر الجابية فانفض عنه كثير من أشياعه، ولما لم يخدم هذا المؤتمر أغراضه ويحقق ما أطمعه فيه الأمويون – وكانوا قد حاولوا استمالته إليهم – عاد إلى حربهم من جديد ولكن بعد أن ضعفت قواه وتكشفت بعض نواياه ، فكانت الهزيمة المرة التي مني بها ومني بها الزبيريون معه والتي انتهت بعودة الشام مرة أخرى إلى النفوذ الأموي كتلة واحدة متماسكة ارتكزوا عيها في استرداد مصر ثم العراق .

ولعل أبرز شعراء الزبيريين في تلك الأحداث زفر بن الحارث، وكان قائداً من قواد قيس ، وهو الذي تولى أمرها بعد مقتل الضحاك ، وله يائية رائعة ناقضها بعض شعراء

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٥٣٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣٤ وما بعدها .

اليمنية [1] ، فيها شموخ وإباء – على الرغم مما حل بحزبه – ودعوة صريحة لاستمرار القتال وهزء وسخرية بمروان بن الحكم وبوعيده له ولمن معه ، فهل يعقل أن تذهب كلب بما حققته من انتصار وما أوقعته بقيس دون أن تنالها الرماح ؟ لقد أبقت تلك الوقيعة شرخاً ليس من السهل رأبه ، وقتلى لا يمكن بحال قبول الديه فيهم ، وعاراً كاد يلحق به ويُذهب كلّ حسناته حين فر فرار المضطر . فلا صلح حتى يثأر لنفسه ولقبيلته وحتى تثأر من نساء كلب نساؤه ، ولا كلمة إلا للسيف :

« أتَذهبُ كَلْبٌ لم تَنَلْهـا رِمـاحُنا	وتُتْرَكُ قَتلى راهِطٍ هىَ مـاهيـا
لَعَمْرى لقـد أبْقتْ وَقيعةُ راهِـطٍ	لحَسّانَ صَدْعـاً بيننا مُتَنائيـا
أَبعـدَ ابنِ عَمْرٍو وابنِ مَعْنٍ تَتـابَعـا	ومَقْتلِ هَمَّامٍ أُمَنّى الأمـانيـا
فلم تُرَ منّى نَبـوةٌ قَبلَ هـذِهِ	فِرارى وتَرْكى صـاحِبىّ ورائيـا
عَشيّـةَ أَعْدو بالقِرانِ فـلا أرى	مِن النّاسِ إلاّ مَن علىّ ولاليـا
أَيَذهبُ يومٌ واحدٌ إنْ أسأتُـه	بِصالحِ أيّامى وحُسْنِ بَلائيـا
فلا صُلْحَ حتّى تَنْحِطَ الخَيلُ بالقَنا	وتثأرَ من نِسْوِ ابنِ كَلْبٍ نِسـائيـا
ألا ليتَ شِعْرى هل تُصيبنّ غـارتى	تَنوخاً وَحَيّىْ طَيّءٍ من شِفائيا » ؟ [2]

وتغطى العصبية القبلية فى هذه القصيدةعلى كل الاعتبارات السياسية الأخرى . وكذلك الحال فى رثاء « عويف القوافى » للجعد بن عمران بن عيينة وقتلى فزارة حين أوقع بهم حميد بن حريث بن بحدل الكلبى . وفيه يذكر أن ما حدث من قتال وما نتج عنه من قتل كان بقضاء الله ، ويتمنى أنه لم يعش حتى ذلك اليوم الذى جذ عضده وأوهن قواه وكره العيش له وبغضه فى الحياة :

« مَنا اللّهُ أن ألْقى حُمَيْدَ بنَ بَحْدلٍ ... بِمَنْزِلةٍ فيها إلى النّصفِ مُعْلَمـا

---

(1) تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٥٤٢ ، ٥٤٣ .
(2) تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٥٤١ . وأورد بعضها أبو الفرج فى الأغانى جـ ١٩ ص ١٩٦ ، ١٩٧ والتبريزى فى شرح الحماسة جـ ١ ص ١٥٣ .

لكيما نُعاطيه ونبلو بيننـــــا سُرَيْجِيَّةً يُعْجِمنَ في الهامِ مُعْجَمـا
ألا ليتَ أنّي صادَفَتْني منيّتـــي ولم أرَ قتْلى العـامِ يا أمَّ أسْلَمـــا
ولم أرَ قتْلى لم تدعْ لى بَعدَهـــا يدَين فمـا أرجو من العَيشِ أجْذمـا
وأُقسمُ ماليثٌ بخفَّانَ خـــادرٌ بأشْجعَ من جعْدٍ جَـناناً ومَقْدَما»(١)

وهى نغمـة تخـتلف كثيراً عن النغـمة السابقة التى كنا نجدها فى رثاء زفر ؛ حيث تحل الاستكانة واليأس محل الثورة والغضب ولا نلمح إلا الاستسلام الواهن الحزين ، وإن كان كلاهما يتحرك فى إطار واحد ؛ وهو الإطار القبلى.

ويُقتل النعمان بن بشير الأنصارى سنة ٦٤هـ على يد أتباع مروان بن الحكم من اليمنية لتحوله عن الأمويين ومبايعته لابن الزبير أثناء الفتنة التى أعقبت موت يزيد. فيرثيه « الضحاك بن فيروز الديلمى » بمقطوعة قصيرة يذكر فيها جوده وكرمه ويهيب بنفسه أن تستيقظ مما هى فيه – ولعله يهيب من خلال ذلك بالمسلمين – ولا تمنعه يمنيته من التنديد باليمنيين ورميهم بالغدر . يقول الضحاك :

« أصحوتَ أم سَلَبتْ فؤادَكَ دوْسَرٌ أم أنتَ عن أبياتِ دوْسَــرَ أزْوَرُ
زَعَموا بأنَّ أخا التَّفضُّلِ والنَّــدى قتلتْه غَدْراً إذ تَعاوتْ حِميَـــرُ
غَدَروا بنُعْمانَ بنِ سَعْدٍ غَــدْرةً ولرَأسُ حِمْيَرَ مثلُها أو أكثرُ » (٢)

وهو من القلائل الذين غلبت على عصبيتهم القبلية اعتبارات أخرى كالولاء المذهبى والعامل الدينى ؛ حيث كان النعمان صحابياً جليلاً ذا مكانة غير منكورة حتى عند أهل الشام .

* * *

٣ – ارتطم الزبيريون فى العراق بالشيعة والخوارج . ولأن الانتصار كان حليفهم فى أغلب الأحيان فلم تخلف تلك المعارك مراثى تذكر إلا فى النادر القليل ؛ كرثاء « سراقة

(١) شعراء أمويون جـ٣ ص ١٥٢ .
(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى جـ٥ ص ١٤٧ .

ابن مرداس » لأبي بكر بن مخنف (١) .وفيه استفظاع لمقتله على أيدي الخوارج وتنديد بمن أسلموه وفروا عنه من أنصاره وبيان لأثر الهزيمة وما حل به من قتل في شيعته وتابعيه . أما الكثرة البالغة من المراثي فتلك التي نتجت عن ارتطامهم بالأمويين مرة ثانية في دير الجاثليق . وفيها قُتل زعيمهم بالعراق والرجل الثاني في دولتهم بعد عبد الله؛ مصعب بن الزبير . وكان مصعب هذا كريماً جواداً بخلاف ما عرف عن أخيه. وقد التف حوله شعراء كثيرون في حياته ، ورثاه بعد موته كثيرون، واتخذت مراثيه ومراثي من قتل معه طابعاً سياسياً يظهر فيه التحريض على خصومهم من الأمويين ؛ نحو قول أحد أهل المدينة – من عدوان – لعبد الله بن الزبير وكان قد توجه إليه بالخطاب معزياً :

« لئن مُصْعَبٌ خَلاَ عليكَ مَكانُهُ ... لقد عاشَ عندَ النّاسِ غيرَ مُليمِ
وإن مُصْعَبٌ خَلاّكَ والحربَ بَعدَهُ ... فأنتَ لَدَى الهيْجاءِ غيرُ سَؤومِ
فَشَمِّرْ إلى الأعْداءِ وانْهَضْ بقُوّةٍ ... فإنّكَ عندَ البَأْسِ غيرُ ذَميمِ
وثِقْ بولِيِّ المُؤمنينَ فإنّما ... يُحامِي علَى الأحْسابِ كُلُّ كَرِيمِ» (٢)

وفيه إشارة إلى مكانة مصعب في دولتهم ، ودعوة صريحة إلى مواصلة القتال للثأر والانتقام من ناحية، ومن ناحية أخرى لصد خصومهم الذين لن يكتفوا بطبيعة الحال بما حققوه من نصر في العراق، وإنما سوف تمتد أعينهم –كما حدث بالفعل – إلى الحجاز حيث يقيم عبد الله . وتظهر في مراثيهم له كذلك التنديد بالأمويين ، فهم ليسوا أهلاً للأمانة وتحمل أعباء الخلافة ، بل هم كالذئاب . يقول أحد بني أسد :

« ألم تَرَ أنّ الحَقَّ قد ماتَ مُصْعَبٌ ... دفَنّاه واسْتَرعى الأمانةَ ذِيبُ

(١) تاريخ الطبري جـ ٦ ص ١٢٢ ، ١٢٣.

(٢) الجزء المنقول بالعربية عن كتاب الموفقيات لأبي عبد الله الدمشقي بكتاب :
" Die Familie El-Zubeir. Von F. Wüstenfeld. " P.80.

ومثله قول موسى شهوات :
« قد مَضى مُصْعَبٌ فولّى حَميداً ... وابنُ مَرْوانَ آمنٌ حيثُ سارا
مُصْعَبٌ كانَ منكَ أورى زِنادا ... حين تخشى القبائلُ الأقتارا» .
أنساب الأشراف القسم الثاني من الجزء الرابع ص ٣٤٣ .

فهبّنا أُناساً أهلَكتْنا ذُنوبُنـــا   أما لثَقيفٍ عثْرةٌ وذُنــــــوبُ»[1]

فقد مات مصعب . وهذا أمر لاشك فيه حيث دفنوه بأيديهم . وكان موته نقطة التحول الحقيقية فى ميزان الصراع بين بنى أمية والزبيريين . بل كان بداية النهاية لأفول نجم آل الزبير وتفرد بنى أمية بالسلطة وقيادة الأمة الإسلامية . لكنهم فى نظر الشاعر غير جديرين بتحمل تلك الأمانة . وفى البيت الثانى رؤية دينية تربط بين هلاك الأمم والفساد الذى يستشرى نتيجة الذنوب ، ولعله كان يتوقع النهاية السريعة للأمويين بتسليطهم للحجاج وأمثاله. فما أكثر عثرات ثقيف وما أشد ذنوبها . وإن كان قد صاغ ذلك فى صورة غير مباشرة اعتمد فيها على الاستفهام والتوطئة الممهدة للاستنتاج بماحلّ بهم والقياس عليهم .

ويفرغ أسدى آخر غضبه على من فر أثناء القتال ويشيد فى ثنايا ذلك بثبات مصعب وصبره وشجاعته التى لم يجحدها حتى أعداؤه فى مقطوعة منها:

« أتاهُ حِمامُ الموتِ وَسْطَ جُنوده   فَطاروا شِلالاً واستَقى بذَنــوب

ولو صبَروا نالوا الحَيـــاةَ وسُؤْدَداً   ولكنّهم طاروا بغَيرِ قُلــــوب»[2]

وفى البيت الثانى لفتة رائعة واعتراف شبه صريح بأهمية تلك المعركة فى تاريخ الزبيريين ؛ فقد كان انتصارهم فيها – لو تحقق – كفيلاً بتثبيت خلافتهم وملكهم الذى امتد فى فترة قصيرة مذهلة . لكنهم لم يصبروا بل طاروا بغير قلوب وأسلموا قائدهم إسلاماً ذليلاً ففقدوا الحياة الكريمة والسؤدد وصاروا تابعين خاضعين .

وكما نددوا بالفارين عن مصعب أشادوا بمن صبروا معه ودافعوا عنه حتى أصابهم ما أصابه ، كإبراهيم بن الأشتر ، وفيه يقول الأقيشر :

---

(1) الوحشيات لأبى تمام ص ١٤٦ . وشبيه بهذا فى التنديد ببني أمية قول عرفجة بن شريك :

« ما لابنِ مروانَ أعمى اللّهُ ناظرَه   ولا أصابَ رغيباتٍ ولا نفَـــلا

يرجو الفَلاحَ ابن مروانٍ وقد قتلت   خيلُ ابنِ مروانَ حرّاً ماجداً بطَلا

بابنِ الحواريّ كم مِن نعمةٍ لكـم   لو رامَ غيرُكم أمثالَها شغَــــلا

حمّلتم فحملتم كلّ معضلـــــة   إنّ الكريم إذا حمّلتَـــــهُ احتَمَلا »

أنساب الأشراف القسم الثانى من الجزء الرابع ص ٣٤٣ ./ الكامل لابن الأثير جـ٤ ص١٥ .

(2) الموفقيات ص ٨٠ ، ٨١ / الأغانى جـ ١٩ ص ١٣١ مع اختلاف طفيف .

« سأبكي وإن لم يبكِ فتيانُ مَذْحِجٍ ... فتاها إذا الليلُ التمامُ تأوّبا
فتى لم يكُنْ في مرّة الحَرب خاملاً ... ولا بمُطيعٍ في الوغى مَن تهيّبا
أمالَ بخوّارِ العنان لجامَهُ ... وقالَ لمَن خفّتْ نعامتُه اركَبا
أبانَ أنوفَ الحيّ قحطانَ قتلُه ... وأنفَ نزارٍ قد أبانَ فأوْعَبا
فمَنْ كانَ أمسى خائناً لأميره ... فما خانَ إبراهيمُ في الحَرب مُصْعَبا »[1]

وقيل لم يصبر مع مصعب من أهل الكوفة غيره ، وكان ذا مكانة مرموقة عالية كما أشار البيت قبل الأخير ، وذا شجاعة فائقة أظهرتها حروبه الكثيرة فى الكوفة مع المختار ثم مع الزبيريين من بعده .

وفى البيت الأخير إشارة إلى خيانة . ولعله يعنى خيانة القواد الذين كاتبهم عبد الملك واشترى ولاءهم بالمال قبل القتال . وقد حذر إبراهيم مصعباً منهم وطلب منه قتلهم أو استبعادهم على أقل تقدير ، لكنه لم يلتفت إليه خوفاً من البلبلة وتمزق الصفوف فى الوقت الحرج الذى سبق القتال ، فكانوا وبالاً عليه، وكانوا من العوامل الرئيسة فيما حاق بهم من هزيمة .

وممن أشادوا به كذلك وامتدحوا صبره ورثوه فيمن رثوا من قتلى الدير «يحيى بن مبشر» ، أحد بنى ثعلبة بن يربوع التميمى ، وفيه يقول أبو السفاح – بكير بن معدان اليربوعى – من أبيات :

« لما جَفا المُصعَبَ خُلانُهُ ... أدّى إليه الليلَ صاعاً بِصاعْ
مَن لم يكنْ ساءَ فقد ساءني ... تركُ أُبينيكَ إلى غيرِ راع »

---

(١) الموفقيات ص ٧٧ / الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٥ ونسبها لعبد الله بن الزبير الأسدى . وفى الإشادة بمصعب وثباته يوم قتل وشجاعته وعزة نفسه يقول الأقيشر فى مقطوعة أخرى :

« حَمَى أنفَه أن يقبلَ الضيمَ مصعبٌ ... فماتَ كريماً لم تذمّ خلائقُه
ولو شاءَ أعطى الضيمَ مَن رامَ هضمَه ... فعاشَ ملوماً في الرجالِ طرائقُه
ولكن مضى والموتُ يبرقُ خالُه ... يساوره مرّاً ومرّاً يعانقُه
فولّى كريماً لم تنلْه مذمّةٌ ... ولم يكُ وغداً تطّبيه نمارقُه ».

أنساب الأشراف القسم الثانى من الجزء الرابع ص ٣٤٣ . / والكامل لابن الأثير ، جـ٤ ص١٥ .

إلى أبى طَلْحةَ أو وَاقِـــــــدِ وذاكَ عِندى حَقٌ عَينِ الضَّياعْ » (١)

ورثاه جرير(٢) ، غير أنه كان مدفوعاً فى رثائه له بانتمائه القبلى . ولم يكن جرير وحده من الشعراء الأمويين الذين رثوا قتلى الحزب الزبيرى فى دير الجاثليق ،؛فقد شاركه فى ذلك « عبد الله بن الزبير » (٣) ، وأبو العباس الأعمى » (٤) ، إلا أنهما كانا يتجهان فى رثائهما اتجاهاً شخصياً ويصدران فيه عن ولاء فردى تمليه الصداقة والوفاء .

* * *

٤ – سقط الحزب الزبيرى بسقوط عبد الله بن الزبير واستسلام أصحابه بعد حصار طويل فرضه الحجاج عليه فى مكة . ولم يكن هذا الحزب ذا صبغة مذهبية تتيح له البقاء ، أو فلسفة خاصة تبقى ببقاء المبادئ التى تقرها والأصول التى ترسخها فى النفوس . كان أشبه شيء بالثورات السياسية على الرغم من استمراره عقداً كاملاً ومن نجاح زعيمه فى بسط نفوذه على جزء كبير من البلاد وإعلان خلافته فيها . فما إن سقط هذا الزعيم حتى سقط الحزب كله . بل ربما سقط الحزب قبل سقوطه حين حاصره الأمويون فى الحجاز ثم تقدمت جيوشهم نحو مكة فانفضت من حوله الجموع وتركته ليواجه فى قلة مصيره المحتوم .

ونبحث فى شعرهم – وكنا نتوقع أن يكثر الرثاء – فلا نجد إلا مراثى قليلة تحمل فى طياتها بذوراً لنوع جديد من الرثاء ؛ هو ما عرف فيما بعد برثاء الدول والممالك . وربما كانت الأوضاع السياسية الجديدة هى التى ألجمت ألسن الشعراء وهو يبحثون عن ملجأ أو ملاذ أويسعى بعضهم لينال العفو عنه من الحكام الجدد وليكفر لديهم عن ماضيه بالتخلى عن مبادئه أو السكوت على أقل تقدير .

وممن رثاه مخلصاً أخوه جعفر ، وكان يقاتل معه حتى جمد الدم على يديه وشاهد بعينيه الناس وهم ينصرفون عنه ويدخلون فى أمان الحجاج طالبين الصفح منه ، فندد

(١) الموفقيات ص ٧٧ ، ٧٨ . وأبو طلحة وواقد مولیان ليحيى كان أوصى إليهما .
(٢) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ت .د. نعمان محمد أمين طه (دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م) جـ ٢ ص ٤٤٤.
(٣) شعر عبد الله بن الزبير – جمعة وحققه د. يحيى الجبورى ص ٥٧–٥٨ .
(٤) الأغانى (ط. الدار) جـ ١٦ ص ٣٠٣ / الموفقيات ص ٨٠ .

بهم وأشاد بموقفه وموقف القلة التى ثبتت معه فى قوله :

« لَعَمرُكَ إنّى يومَ أجلتْ ركـائبى	لأطْيبُ نفساً بالجلادِ لدى الرُكْنِ
ضَنينٌ بمن خلفى شحيحٌ بطاعتى	طـرادُ رجالٍ لا مُطارَدَةِ الحُصْنِ
غَداةَ تحامتنا تجيبٌ وغافـقٌ	وهَمْدانُ تبكى من مُطارَدَةِ الضُّبْنِ»[1]

وأبو دهبل الجمحى وكان والياً فى فترة من الفترات لعبد الله بن الزبير وكان منقطعاً له ولآل بيته، وفيه وفيمن قتل معه حول البيت يقول محرضاً عليا قريش :

« أتاركةٌ عُلْيا قُريشٍ سَراتَهـا	وساداتها عندَ المَقامِ تُذَبَّـحُ
وهم عُوّذٌ باللّه جيرانُ بيتـه	به مُعْصِمونَ أن يُباحوا ويُفْضَحوا» ؟[2]

وعمرو بن معمر الهذلى وقد ذَكَرَهُ مقتل عبد الله بن الزبير بأخيه مصعب فراح يرثيهما معاً، ويذكر كيف أنه قد ناصح مصعباً فى حياته وآثره على عبد الملك بن مروان ولم يتقرب إلى عبد الملك كما تقرب غيره من الشعراء ، وكيف رمته الحادثات بسهمها فأصابته وأودى به الدهر ، ثم أودى بعبد الله وأصبح جسده « شلواً ملحباً » . ويخرج من هذا كله بحكمة موجزة وهى أن الموت جرعة لا بد أن يحسوها كل امرئ مهما اجتهد فى البعد عنها وحاول الفرار. وهذا المعنى طالما تردد فى الرثاء ، ولعله يستصوب به صنيع عبد الله ومصعب؛ فما دام الموت واقع لا محالة ولا مفر منه ولا مهرب فلا أقل من أن يموت الإنسان كريماً مضحياً بالدنيا فى سبيل ما اعتنقه وآمن به . يقول عمرو من أبيات :

« وكنتُ امرأً ناصحتُهُ غيرَ مُؤْثـرٍ	عليه ابنَ مـرْوانٍ ولا مُتَقَرِّبـا
إليه بما تَقْذَى به عَينُ مُصْعَـبٍ	ولكنّنى ناصحتُ فى اللّهِ مُصْعَبـا
إلى أن رَمَتْه الحادثاتُ بسَهْمِهـا	فللّهِ سَهْماً ما أسَدَّ وأصْوَبـا
فإن يكُ هذا الدّهرُ أوْدى بمصْعَبٍ	وأصبحَ عَبْدُ اللّهِ شِلْواً مُلَحَّبـا

---

(١) الأغانى (ط. الدار) جـ ١٥ ص ٦ .   (٢) أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣٧٧ .

فكلُّ امرئٍ حاسٍ من الموتِ جُرْعةً   وإن حـادَ عنها جُهْدَهُ وتَهيَّبـا»[1]

وظل بعض الشعراء على وفائهم لآل الزبير؛ كأبى وجزة ، وكان يذكرهم فى شعره ويذكر أيامهم والعهد الذى كانوا يحكمون فيه - وكان أبو وجزة منقطعاً لعبد الله بن عروة بن الزبير، وكان عبد الله له مكرماً وربما كان هو الذى يشجعه عليه - ومنه قوله:

« سَلِ الجُرْدَ عنهم وأيّامهـا   إذا امتَعَطوا المُرْهَفات الخفافـا

يموتونَ والقتلُ داءٌ لهـم   ويَصْلَونَ يومَ السِّيافِ السِّيافـا

إذا فَرَّجَ القتلُ عن عِيصِهـم   أبى ذلكَ العيصُ إلاّ التفافـا

مَطـاعيمُ تحمَدُ أبيـاتُهـم   إذا قَنَّعَ الشّاهقاتُ الطّحافـا

وأجْبَنُ مـن صافِرٍ كلْبهـم   إذا قَرَعتْهُ حَصاةٌ أضافـا» [2].

وفيه يذكر كرمهم - بخلاف ما كان بنو أمية يشيعون عنهم - وشجاعتهم فى القتال وإقدامهم على الموت فى غير رهبة أوخوف .

ولعل ابن يسار - وقد ظل على زبيريته - كان يسير فى هذا الاتجاه فى رثائه لبعض آل الزبير؛ كمحمد بن عروة، وفيه يقول من قصيدة :

« فلئن تَركتُكَ يا مُحمَّدُ ثاوياً   لبِما تَروحُ معَ الكرام وتَغْتـدى

فإذا ذهبتُ إلى العَزاء أرومُـهُ   لأرى المُكاشِحَ بالعَزاء تَجلُّـدى

منَعَ التّعزّى أنّنى لفراقِـه   لَبِسَ العَدوُّ علىَّ جلدَ الأربـد

ونأى الصَّديقُ فلا صَديقَ أُعِدُّهُ   لدفاعِ نائبةِ الزّمانِ المُفْسَـد»[3]

وهو يذكر رواحه فيمن راح من الكرام ، وهم آل بيته فيما نرجح ، وشماتة

(1) معجم الشعراء ص ٤٤ . ولم يذكر المرزبانى غير هذه الأبيات . وفى تصديره لها بقوله : « هو القائل يرثى عبد الله ومصعباً ابنى الزبير من أبيات : .... » ما يوحى بأنه لم ينقلها كاملة . ولم أجدها فى مصادر أخرى . ولعل هذا يفسر تركيزه على مصعب فربما وقف مع عبد الله فى الأبيات الأخرى التى أغفلها المصدر .

(2) الأغانى (ط. الدار) جـ ١٢ ص ٣٥٢ .

(3) ديوان إسماعيل بن يسار النسائى - جمعه د. يوسف حسين بكار ط١ (دار الأندلس - بيروت سنة ١٩٨٤م) ص ٣٣ .

الكاشحين وتطاول الأعداء ، وهم الخصوم الذين صارت بأيديهم مقاليد الأمور . وفيه يقول أيضاً من قصيدة :

« فتولّيتُ مُوجَعاً قد شجاني ‏ ‏ قُرْبُ عَهْدٍ به وبُعْدُ تلاقي

(عارفاً بالزّمان) أعْلَمُ أني ‏ ‏ لابسٌ حُلّةً بعيشٍ رِماقِ

ولَعَمري لقد أُصِبتُ بفَرْعٍ ‏ ‏ ثاقبِ الزّند ماجدِ الأعراقِ »[1]

فهو فرع من تلك الفروع التى كان يستظل بها وينعم بالعيش فى فيئها ثم جذ ليواجه العيش وحده غريباً موجعاً لا يحمل بين جنباته إلا الشجن والحزن وذكريات عهد قريب .

وسوف نجد عند عبيد الله بن قيس الرقيات أمثلة أخرى أكثر وضوحاً وأشد عمقاً لهذا النوع من الرثاء .

٥ – يعد عبيد الله بن قيس الرقيات شاعرالحزب الزبيرى بلا منازع وأكثر شعرائه تعبيراً عنه وعن آرائه السياسية وأفكاره الثورية وأحداثه التى مر بها ومعاركه التى خاضها عبر تاريخه القصير المليء – على قصره – بالمعارك والأحداث . وهو داعيته إن جاز هذا التعبير ولسانه المدافع عنه . وشعره فى جملته شعر سياسى وخاصة الرثاء . ولعل تاريخه مع هذا الحزب يبدأ منذ بداية تكوينه أو بعد ذلك بقليل ؛ فقد قتل فى هذه المعركة بعض آله المقربين وكان غائباً فلما بلغه مقتلهم رثاهم بأكثر من قصيدة ، وأعلن فى رثائه سخطه على بنى أمية وأسماهم صراحة بالفئة الظالمة واستفظع ما صنعوه بالمدينة من قتل وسلب ، وجاءت قصائده أشبه بـ(العديد) وكأنها صنعت ليناح بها كما يقول الدكتور طه حسين ؛ [2] بإيقاعها وتقفيتها ولغتها وصورها وروح الحزن التى تسرى بها وتتقطر من كل جوانبها ، يقول ابن قيس الرقيات فى إحدى هذه القصائد :

« ذهبَ الصِّبَى وتركْتُ غَيّتِيَهْ ‏ ‏ ورأى الغَواني شَيبَ لِمّتِيَهْ

وهَجَرنني وهَجَرْتُهنّ وقد ‏ ‏ غَنِيَتْ كَرائمُها يطُفْنَ بِيَهْ

(١) ديوانه ص ٤٦ . وهو فى نسب قريش ص ٢٤٧، ٢٤٨ لأخيه إبراهيم .

(٢) حديث الأربعاء (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧م) جـ ١ ص ٢٥٤ . وقد لاحظ ذلك أيضاً الدكتور الشايب فى كتابه « تاريخ الشعر السياسى » ص ٢٥٩ ، ٢٦١ .

إذ لِمَّتى سَوْداءُ ليسَ بهـــا   وَضَحٌ ولم أُفْجَعْ بإخوتِـيَـهْ

الحاملينَ لِواءَ قومِهـــمُ   والذّائدينَ وَراءَ عَوْرتِيَـــهْ»[1]

ثم يذكر بعد هذا المدخل الباكى ماحل بالمدينة من أحداث أوجعت وطرقت بعنف صفحة حياته الهادئة الوادعة الآمنة، فتركته بلا حول؛ كطائر يطير بلا ريش أو جمل يسير بلا سنام :

« إنَّ الحَوادثَ بالمَدينة قـــد   أوْجَعْنَنى وقَرَعْنَ مَرْوتِيَـه

وجَبَبْنَنى جَبَّ السَّنام فلـــم   يَتركْنَ رِيْشاً فى مَناكبيَهْ».

ويذكر الكتاب الذى أتاه بنعيهم وهو يتهيأ للرحيل، ويعدد بعض من نعاهم إليه وأثر ذلك كله فى نفسه :

« وأتى كِتابٌ مِن يَزيدَ وقـــد   شُـــدَّ الحِزامُ بِسَرْجِ بَغْلَتِيَـهْ

يَنْعَى بنى عَبْدٍ وإخوتَهـــم   حَـــلَّ الهَلاكُ علَى أقارِبِيَـهْ

ونَعَى أُسامةَ لى وإخوتَـــه   فظَلِلتُ مُسْتَكّاً مَسامعيَـــهْ

كالشّارِبِ النَّشوانِ قَطَّـــرهُ   سَمَلُ الزِّقـاق تَفيضُ عَبْرتِيَـــهْ

سَدِماً يُعزّينى الصَّحيحُ وقـــد   مَرَّ المَنونُ علَى كَرِيمتِيَـــهْ

كيفَ الرُّقادُ وكلّما هَجَعَـــتْ   عَينى ألَمَّ خيالُ إخوتِيَـــهْ

تَبكِى لهم أسماءُ مُعْوِلـــةً   وتقولُ لَيْلَى : وارَزِيَّتِيَـــهْ»

لكنه لا يلبث أن يتحول فى الختام إلى شخص ثائر يتهدد فى عنف هؤلاء القاتلين من بنى أمية، ويتوعدهم بالانضمام إلى جيوش الثأر ، ولعله يعنى جيوش المعارضين من الملتفين حول ابن الزبير، أو جيوش الموتورين من آل المدينة وكانوا – إلا قليلاً منهم – على هواه ، بل حل بهم ما حل من أجله :

« واللّه أبرَحُ فى مُقدَّمـــةٍ   أهْدِى الجُيوشَ علىَّ شِكَّتِيَـهْ

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات . ت . د. محمد يوسف نجم (دار صادر للطباعة والنشر – بيروت – سنة ١٩٥٨) ص ٩٧ ، ٩٨ .

حتّى أُفجَّعَهم بإخوتِهم وأَسوقَ نِسْوتَهم بنِسْوَتيهْ

ويذكر فى قصيدة ثانية هذه الأحداث بطريقة مشابهة ؛ حيث يبدأ بانصراف حبيبته عنه وزهدها فيه بعدما تغير لونه وتخونه الدهر وشيب رأسه، ويجعل من ذلك مدخلاً للحديث عما حل بالمدينة ، لكنه لا يبالغ فى الإثارة ، فيشير إلى اليتامى والأرامل ويصف القتلى بالصلاح ، ويعدد بعضهم وهم من العظماء وذوى المكانة ، فلا يكتفى بذكر أقاربه كما فعل فى القصيدة السابقة ، بل يضم إليهم الحسين ، وهو فيما نرجح سبط النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان قد قتل قبيل هذه الأحداث بكربلاء ، فأضاف مقتله للتشهير ببنى أمية، حيث كانوا هم أيضا وراء هذا القتل ، وليخلص فى النهاية بتلك النتيجة التى يصفهم فيها بالفئة الظالمة . يقول فى آخر الأبيات :

« وبكّى حُسَيناً حُسَينَ الطّعانِ إذا الخَيلُ لم تَنْقلبْ سالمهْ
رِجالُ النُّوَيعِم لم يَنْكُلوا جِلاداً عن الفئةِ الظّالمهْ»[1]

ولم تكن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى يذكر فيها الحسين ؛ فقد رثاه مع قتلى الطف فى قصيدة أخرى ، وربط بين رثائه كذلك والتنديد ببنى أمية ، ولم يقف عند حد التنديد ، وإنما أظهر فى صراحة عداوته لهم ورغبته فى الإطاحة بهم . يقول ابن قيس :

« كيفَ نَومى علَى الفراشِ ولمّا يَشْمَلِ الشّامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهِلُ الشّيخَ عن بَنيه وتُبْدى عن بُراها العَقيلةُ العذراءُ
أنا عنكم بنى أُميّةَ مُزْوَرٌّ وأنتم فى نَفسِىَ الأعداءُ
إنّ قَتْلَى بالطَّفِّ قد أَوْجَعَتْنى كانَ منكم لئن قُتِلتم شِفاءُ»[2]

وقد بكى فى هذه القصيدة قريشاً ونعى تمزقها بسبب الأهواء السياسية ، وذكر البيت الحرام وما أصابه من تحريق على أيدى بنى أمية وأعوانها من القبائل اليمنية وبناء ابن

(١) ديوانه ص ١٠٢ والنويعم : ربيعة بن أهيب بن ضباب . والرجال المقصودون هم المذكورون فى الأبيات السابقة على هذين البيتين . وفى الخيل التى لم تنقلب سالمة ما جعلنا نرجح أنه يعنى الحسين بن علىّ عليه السلام لأنه هو الذى خرج ولم يعد سالماً.

(٢) ديوانه ص ٩٥، ٩٦ .

الزبير له من جديد .

وعاد يذكر الحرة مرة أجرى في قصيدة ثالثة بعد غزل كيدى فضح فيه عاتكة بنت يزيد بن معاوية امرأة عبد الملك بن مروان، وقد دفعه ذكر الحرة إلى ما يشبه العتاب لما أصاب قريشاً من تشتت وانقسام :

« تُذَكِّرني قتلَى بحرَّةِ واقِـــم … أُصيبتْ وأرْحاماً قُطِعنَ شـوابكـا

وقد كانَ قومي قبلَ ذاكَ وقومُها … قد اوْرَوا بها عوْداً من المَجْد تامكا

همُ يرتُقونَ الفتقَ بعدَ انْخراقـه … بحلمٍ ويَهْدونَ الحَجيجَ المَناسكـا

فقُطّعَ أرْحامٌ وفُضَّتْ جماعـةٌ … وعادتْ روَايا الحلْمِ بعدُ ركائكـا »[1]

وكانت قرشية ابن قيس تعلو به أحياناً على النظرة الزبيرية المحدودة ، بل ربما كان اتباعه لابن الزبير من أجل تلك القرشية ورغبة كل منهما في إعادة مجد قريش والحجاز، ولعل نقمته على بني أمية ورفضه لخلافتهم في أول الأمر على الرغم من قرشيتهم يرجع إلى اعتمادهم على القبائل اليمنية وانتقالهم بالخلافة إلى الشام ، ثم زادت نقمته حين استباحوا المدينة وقتلوا أقاربه كما قتلوا الحسين عليه السلام قبل ذلك في كربلاء .

ثم يمضي ابن قيس في القصيدة نفسها مازجاً بين الغزل والرثاء بطريقة عجيبة ، وكلاهما يخدم غاية واحدة، هي السياسة بطبيعة الحال، وإن كان قد آثر الرمز هذه المرة على التصريح ؛ فهو يبحث عن دواء ، والطبيب في تصوره بالعراق ، وبالشام جيوش يمنية تحول بينه وبين الشفاء ، وقد سبق لهم أن أوقعوا بأصحابه يوم المرج :

« فمَنْ مُبْلغٌ عنّي خَليليَّ آيــةً … عُيَينـةَ أعني بالعراقِ ومالكـا

فهل مِن طَبـيبٍ بالعراقِ لَعلّـهُ … يداوى كَريماً هالكاً مُتَهالكـا

فلولا جُيـوشُ الشّام كانَ شفـاؤهُ … قَريباً ولكنّي أخافُ النّيازكـا

أخافُ الرّدى مِن دُونِها أن أرُومَهـا … وأرهـبُ كَلْباً دُونَها والسّكاسكا

رِجالٌ همُ الأقْتالُ مِن يومِ راهـطٍ … أجازوا الغِوارَ بيننَا والتّسافُكـا »

(١) ديوانه ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

يقرأ هذه الأبيات محب الغزل فيراها امتداداً لما أصابه من سقم بسبب عاتكة وخصوصاً أنه يخاطب شاعرين عرفا بالغزل؛ هما عيينة ومالك ابنا أسماء بن خارجة. وأقرؤها فأرى فيها امتداداً لما ذكره عن قتلى الحرة وما أصاب قريشاً من تصدع كاد يودى بمجدها؛ فبالعراق مصعب، وعليه يعول الزبيريون، ورأس الحية بالشام لا يحول بينهم وبينها إلا قبائل اليمن من «كلب» و «السكاسك» ولولا هؤلاء لقضوا عليها ووصلوا إلى الخلافة وتحقق الشفاء. ويؤكد هذا - فى تصورى - ما يذكره بعد ذلك من رفض للسلم ونبش للذحل القديم وحديث صريح عن مصعب وعن بيعتهم له:

« فلا سلمَ إلاَّ أن نَقودَ إليهـــــمُ	عَناجيجَ يَتْبَعنَ القِلاصَ الرَّواتكـــا
إذا حثَّها الفرسانُ رَكْضاً رأيتَهـــا	مَصاليتَ بالذَّحْلِ القَديمِ مَداركا
تَدارَكُ أُخْرانا ونَمْضى أمامَنـــا	ونَتْبعُ مَيمونَ النَّقيبة ناسكـــا
إذا فَرغتْ أظْفارُهُ مِن قَبيلـــةٍ	أمالَ علَى أُخْرى السُّيوفَ البَواتكا
علَى بيعَةِ الإسلامِ بايَعنَ مُصْعبـــاً	كَراديسَ مِن خَيلٍ وجَمْعاً ضُبارِكا»

والفهمان واردان، لا يمنع أحدهما الآخر. والوجهة السياسية فيهما واضحة غاية الوضوح. ووصف مصعب بالنسك والتقوى سوف يظهر كثيراً فى مراثيه له. وفى تصحيح بيعته ووصفها بـ « بيعة الإسلام » تعريض ببيعة مروان وابنه عبد الملك فقد أخذاها بالسيف.

ولم تكثر مراثى ابن قيس مثلما كثرت فى مصعب وقتلى الدير. وهو كسائر الزبيريين يتجه فيها نحو الإثارة والاستفظاع والتنديد؛ فجسده بمسكن « عارى الأوصال » لا تعوده إلا السباع، وقد خلت منازله فصارت أطلالاً بالية، وبقى وحده فى العراء بعد أن رحل الرفاق عنه وتركوه ثاوياً للريح تنعاه السحائب والغمام:

« نَعَت السَّحائبُ والغَمامُ بأَسرِها	جَسَداً بمَسْكِنَ عارىَ الأوصـــالِ
تُمْسى عَوائدَهُ الســــِّباعُ ودارُهُ	بمَنازلٍ أطْلالُهنَّ بَوالــــــى
رَحَل الرِّفاقُ وغادَروهُ ثاويـــاً	للرِّيحِ بَينَ صَبا وبَينَ شَمــالِ » (١)

---

(١) ديوانه ص ١٩١ .

لقد أصيبوا فيه مصاباً لم يصابوا بمثله ، فهو ابن حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع هذا فلم تشفع له مكانته عند أهل العراق فخانوه وأسلموه كعادتهم ولم يصونوا له عهداً، وانفضت عنه شيعته حين جد الجد ونالت ربيعة ما كانت تتمناه ؛ فقد غدرت به مضر العراق وأمكنتها منه فأصابت وترها، وهى التى كانت من قبل ذليلة منقادة مطيعة :

« إنّ الرّزِيّةَ يَـــــوم مَسْـــ	ـكَنَ والمُصيبةَ والفَجيعــــهْ
بابنِ الحَـــوارِىّ الّـــذى	لم يَعْدُه أهلُ الوَقيعــــهْ
غَدَرتْ به مُضَـــرُ العــرا	قِ وأمْكنتْ منه رَبيعــــهْ
فأصَبتِ وتْرَكِ يا ربيـــــ	ـعُ وكُنت سامعةً مُطيعــــهْ
يا لَهــفَ لو كانتْ لــــه	بالطّفّ يومَ الطّفّ شيعــــهْ
أوْ لم يخُونوا عَهــــدَهُ	أهلُ العراقِ بنو الّلكيعــــهْ
لَوجَدْتموهُ حيـــنَ يَغْـ	ـضَبُ لا يُعرِّجُ بالمُضيعهْ[1] .

ويمضى ابن قيس على النغمة نفسها يعزف ألحاناً ثائرة حزينة ، يفضح فيها قبائل العراق من بكر وتميم ومضر ، ويخص أهل البصرة والكوفة بنصيب وافر من التنديد ، ويشير إلى دور مصعب فى قتال الخوارج ، ويصفهم بما اعتاد المسلمون وصفهم به من المروق والخروج عن الدين ، ويربط فى براعة بين نهاية الحزب الزبيرى - وهو ما كان يتوقع حدوثه بعد استرداد عبد الملك للعراق - وزوال حرمة الإسلام وتعرض أهله للذل والخسف والهوان . فكأنهم خط الدفاع عن الإسلام والمسلمين فى وجه بنى أمية ، يصونون حرمته ويذودون عنه :

« لقد أوْرثَ المِصْرَيْنِ خِزْياً وذِلّةً	قتيلٌ بدَيرِ الجاثلـيقِ مُقيــمُ
تولَّى قِتالَ المارِقينَ بنفْســـهِ	وقد أسْلَماهُ مُبْعَدٌ وحَميــمُ
فما نَصَحتْ للّه بَكْرُ بنُ وائــلٍ	ولا صَبَرتْ عندَ اللّقاءِ تَميــمُ
ولو كانَ بَكْرِيّاً تَعطّفَ حوْلَـــهُ	كَتائبُ يَغْلِى حَمْيُها ويَــدومُ

(١) ديوانه ص ١٨٤ .

ولكنّه ضاعَ الذّمامُ ولم يكــــنْ ... بها مُضَرىٌّ يومَ ذاكَ كريـــمُ
جزى اللّهُ كُوفياً هُناكَ مَلامــةً ... وبَصْرِيَّهم إنَّ المُليمَ مُليـــمُ
وإنَّ بني العَلاَّت أَخْلَوا ظُهورَنــا ... ونحن صريحٌ بَـينَهم وصَميــمُ
فإن نَفْنَ لا يَبقَوا أولئكَ بَعدَنــا ... لذى حُرْمةٍ في المسلمينَ حَريمُ»[1]

وهذا المعنى الأخير يقرره أيضا فى قوله :

« فإن يَهلِكْ فَجَدُّكمُ شقِـــيٌّ ... وعَيشُكمُ وأَمْنُكمُ قليـــلُ
وإن يَعْمَرْ فإنّكمُ بخيــــر ... عليكم من نَوافلِه فُضــولُ»[2]

وفيها يصفه بأنه خير الناس بعد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير :

« أتاكَ بياسرَ النَّبأُ الجَليـــلُ ... فلَيْلُكَ إذ أتاكَ به طويــلُ
أتاكَ بأنَّ خيرَ النّـــاسِ إلاَّ ... أميرَ المؤمنينَ بها قَتيـــلُ».

ويؤبنه تأبيناً طويلاً بالشجاعة والكرم ، وكأنه يدفع ما كان بنو أمية يرمون به الزبيريين من الجبن والبخل ، ولا يفوته أن يشير أثناء ذلك إلى دور مصعب فى القضاء على المختار ، ويصف المختار بأنه كان كذاباً أصاب الناس شره فخلصهم مصعب منه ومما كاد ينشره من هلاك :

« أليسَ بصاحبِ الكذّابِ لمّا ... أصابَ النّاسَ شؤبوبٌ وَبيــلُ
وكادَ نساؤهم يَلْقَينَ غَيّـــاً ... تُركنَ وفَرَّ عنهنَّ البُعـــولُ» ؟

ويختفى عبد الله بعد مقتل مصعب ولا نكاد نسمع عنه أو نجد له ذكراً . وتمضى الأحداث ، ويلفظ الحزب الزبيرى أنفاسه الأخيرة بمكة ، ويقتل عبد الله فلا يرثيه ولا يذكر تلك النهاية المؤلمة فى شعره وإنما يظل فى منفاه ساكناً صامتاً ، حتى إذا نال الأمان وعفا عنه عبد الملك عاد إلى حنينه القديم وذكر الزبيريين فى شعره ورثى عهدهم القديم، فيما اعتبرناه من قبل رثاء للممالك أو بذوراً لهذا اللون الجديد من الرثاء . ومنه

(١) ديوانه ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٣ .

قوله من قصيدة بعد مطلع غزلي :

« إن تَرَيني تغـيَّرَ اللَّونُ منّي ... وعَلا الـشَّيـبُ مَفْرِقـي وقَذالي

فظِلالُ السُّيـوفِ شيّبنَ رأسي ... وطِعاني في الحَربِ صُهْبَ السِّبالِ

واغـترابي عن عـامِرِ بنِ لؤيٍ ... ببـلادٍ كـثـيـرةِ الأقـتـالِ

كلَّ يومٍ ألقى ابنَ شانئـةٍ ليسَ (م) عن الشرِّ مـا اسـتطاعَ بآلي

حـولَه قـومُه وقـومي بأرضٍ ... حَرَمٍ دُونَهـم حَنينُ الشّمـالِ

ومُلوكٍ فـارقتُهـم أفْرَدوني ... وصُروفُ الأيّامِ بي واللّيـالي

أقْفَرتْ منهـمُ الفَراديسُ فـالغُو ... طـةُ ذاتُ القُرى وذاتُ الظِّلالِ

فَضُمَيـرٌ فـالماطِرونَ فـحَوْرا ... نُ فقـارٌ بسـابِسُ الأطلالِ

لم تُجبنى منها الطُّلولُ ولم أمـ ... ـلِكْ دُموعاً تَسيلُ كالأوْشالِ

وتذَكّرتُ مَعْشـرى وهم كـا ... نوا مُلوكـاً في سـالِفِ الأحـوالِ

مُلْكُهُمْ صـالحٌ ودَهرُهُمْ دَهْـ ... ـرٌ نَقِيٌّ وشرُّهُمْ غيـرُ عالي

كلّمـا أوجـفتْ إليـهم رِكـابي ... رَجَعتْ منهمُ بأهلٍ ومـالِ »[1]

وفيه يذكر غربته وضعفه وعجزه وقلة ناصره ، وينعى تلك الأيام التى عاشها في ظل آل الزبير ، ويصفهم بأنهم كانوا ملوكاً ، ولعله لم يجرؤ على وصفهم بأنهم كانوا خلفاء ووزراء ، ولعله أيضاً رغبة في التعمية والاحتياط ذكر مواضع بالشام ليوهم سامعيه أنه إنما يقصد ملوك بني أمية . ولم يعرف عنه أنه اتصل بأحد منهم قبل عبد الملك . وما أجمل ربطه في آخر الأبيات بين صلاح الملك ونقاء الدهر وطيبه وانعدام الشر وقلته ، وهى لفتة سياسية بارعة لم يجرؤ فيها على التصريح بفساد أحوال الرعية على أيدى ملوك ليسوا في تصوره صالحين، استأثروا بالأمر بعد زوال عهد أصحابه ومواليه الذين كانوا يكرمونه كلما أوجفت إليه ركابه ويغدقون عليه بالعطاء .

وشبيه بهذا الرثاء السياسى المعمى ما كان يضعه في مطالعه الغزلية نحو قوله :

(١) ديوانه ص ١١٣ ، ١١٤ .

« أقفرت الرَّقَّتان فالْقَــلَسُ فهوَ كأن لم يكنْ به أَنَــسُ
فالدَّيرُ أقْوَى إلى البَلِيخ كمـا أقوتْ مَحاريبُ أُمَّةٍ دَرَســوا
أمسَى بَحوماتِهـا العَدوُّ وفـى أعلى أعالى حُصونِها حَرَسُ »(١)

وما كان يصنعه في مديحه للأمويين نحو قوله :

« يا حبَّذا يثربٌ وَلذَّتُهـــا من قَبلِ أن يَهْلكوا ويَحْتَربـوا
وقَبلَ أن يَخْرُجَ الَّذينَ لهـم فيها السَّناءُ العَظيمُ والحَسَـبُ
بَغَتْ عليهم بها عَشيرَتُهـم فَعُوجلوا بالجزاءِ واطَّلبـــوا »(٢)

فمن هؤلاء الذين خرجوا وبغت عليهم عشيرتهم وكانوا ذوى حسب عظيم؟ هل هم بنو أمية إذ أخرجهم أهل المدينة فعاجلهم يزيد بالجزاء ؟ أم الزبيريون إذ خرجوا على الحكام وشقوا يد الطاعة ولم تمهلهم عشيرتهم ليحققوا ما كانوا يبتغون ؟ كلا المعنيين محتمل ؛ لأنه كعادته فى بعض الأحيان يترك التعبير مواربا ، والفئتان مذكورتان فى صدر الأبيات ، وقوله «يهلكوا » واختياره لـ « يخرج » دون الإخراج يجعلنى أميل إلى أنه يعنى الزبيريين وإن عمّى عنهم خوفاً وتقية .

* * *

٦ - أعشى همدان شاعر كوفى تقلبت به الأهواء كما تقلبت بكثير من شعراء الكوفة فى العصر الأموى ؛ فقد « كان مع الأمويين على الخوارج ، وكان مع الشيعة على بنى أمية ، ومع الزبيريين على المختار ، وأخيراً خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج فكانت بينهما حروب طويلة انتهت بأسره وقتله » (٣) .

وكانت له مكانة مرموقة فى قبيلته همدان حتى عدوه شيخها ، وبين اليمنية بالكوفة حتى وصفوه بأنه شاعرهم وفارسهم بها (٤) . ولعل هذه المكانة التى ولدتها العصبية والفروسية والشعر هى التى تفسر لنا تقلباته السياسية ؛ فهو واحد من الأشراف الذين

(١) ديوانه ص ١٢٥ . (٢) ديوانه ص ٤ .
(٣) المكتمات من صور الشعر السياسى فى العصر الأموى د. كاظم الظواهرى (دار الصحوة للنشر - القاهرة سنة ١٩٨٧ م) ص ٩٣ .
(٤) الأغانى (ط. الدار) جـ ٦ ص ٤٢ .

كانت لهم مصالح خاصة يضعونها فوق كل اعتبار ويتحركون وفق مقتضياتها كلما تغيرت الأوضاع ، فيستميلهم التشيع – حركة سياسية لا عقيدة مذهبية – فى بداية الأمر ، ثم لا يجدون غضاضة فى متابعة بنى أمية حين يفرضون سلطانهم على العراق ويقاتلون معهم ضد الخوارج لا عن عقيدة أيضاً ولا عن اقتناع بأحقيتهم فى الحكم واستئثارهم بالخلافة دون بطون قريش ، وحين يضعف سلطان بنى أمية بعد موت يزيد ويعلو نجم ابن الزبير لا يجدون غضاضة أيضاً فى مبايعة ابن الزبير ، وينضمون إلى أخيه مصعب فى قتال الخوارج والمختار ، ثم تنتهى حركة ابن الزبير إلى ما انتهت إليه ويفرض عليهم الحجاج أقسى أنواع الكبت ويسيمهم خسفاً وذلاً ويسير فيهم سيرته المعروفة عنه فى معاملة الخصوم فتنفجر ثورة ابن الأشعث . وقد شارك شاعرنا فى ذلك كله . فلماذا إذن ندرسه ضمن الزبيريين ؟ نقرر أولاً أن هذه التقلبات لم تكن ناتجةعن معتقد مذهبى ؛ فلم يكن الأعشى شيعياً حين اشترك مع الشيعة ضد الأمويين ، بل كان على عقيدة أهل السنة وكان أحد الفقهاء القراء المقربين إلى الشعبى [1] . وقد تحول عن تأييد الشيعة بل قاتل متطرفيهم كالمختار وأتباعه من الكيسانية ووصفهم بأنهم سبئية [2] . وثانياً أنه لم يكن أموياً كذلك ، ولم ينل حظوة لديهم حين رحل إليهم بالشام فى ولاية مروان بن الحكم [3] . وكأنهم كانوا يدركون حقيقة موقفه المناوئ لهم والمنطوى على بغض شديد وعدم اقتناع بأحقيتهم وطريقتهم فى الحكم . وقد تحول عنهم كما تحول عن الشيعة وقاتلهم فى صفوف الزبيريين .

وثالثاً أن الحركة الزبيرية قد استهوته استهواء كاملاً حتى بعد انتهائها بالعراق ، ولم يتحول عنها إلى غيرها ، بل ظل على عدائه للأمويين وقاتلهم فى صفوف ابن الأشعث

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٣٣ وكان زوج أخت الشعبى وكان الشعبى زوج أخته .

(٢) وهو صاحب الأبيات المشهور التى يقول فيها :

« شهدت عليكم أنكم سبئية ... وإنى بكم يا شرطة الشرك عارف

وأقسم ما كرسيكم بسكينة ... وإن كان قد لفت عليه اللفائف

وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعت ... شبام حواليه ونهد وخارف »....

إلى آخر الأبيات وفيها يعلن براءته من المختار وشيعته ومتابعته لعبد الله بن الزبير . تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٣) الأغانى (ط. الدار) جـ ٦ ص ٤٩ ، ٥٠

وكان من أشد المحرضين [1]. ولم يخرج آل الزبير عن عقيدة أهل السنة والجماعة وهى العقيدة نفسها التى وصفناه بها وأشرنا إليها من قبل .

ورابعاً أن شعره فى الزبيريين ينطق بالولاء لهم بما لا يدع مجالاً للشك فى زبيريته وبخاصة مراثيه وهو صاحب أطول مرثية فى مصعب بن الزبير، ولا نبالغ إن قلنا إنها من أجود ما قيل فيه . وفيها يذكر الهموم واعتيادها له بالليل، والأرق لما أصاب من معه من أمر جليل فادح مشيب يحرك الدموع ويثير الوجيعة فى النفوس . ويدعو - بعد تلك التوطئة -على من غدروا به من أتباعه ومن تكالبوا عليه وقتلوه :

« ألا مَن لهَمٍّ آخرَ اللّيلِ مُنْصِبِ	وأمْرٍ جَليلٍ فادحٍ لِـى مُشيِّبِ
أَرِقتُ لما قد غالَنى وتَبادَرتْ	سَواكِبُ دَمعِ العَينِ من كلِّ مَسْكَبِ
فقُلتُ وقد بلّتْ سَوابقُ عَبرتى	رِداءَى مَقالَ المُوجَعِ المُتحوِّبِ
ألا بَهْلَةُ اللّهِ الذى عزّ جارُه	علَى النّاكِبينَ الغادرين بمُصْعَبِ
جَزى اللّهُ عنا جَمعَ قَحطانَ كلَّها	جَزاءَ مُسِىءٍ قاسطِ الفعلِ مُذْنِبِ
وجَمْعَ مَعَدٍّ قومِه غابَ نَصرُهم	غداتئذٍ عنه وربِّ المُحَصَّبِ » [2]

ومن غريب أنه على الرغم من مكانته فى قبيلته همدان يتعالى على عصبيته ليرمى قحطان بالإساءة والظلم . وتتراءى له الأحداث وكأنها تدور فى إطار قبلى ؛ فجمع قحطان وهم الخصوم يقابلهم جمع عدنان وهم الأنصار. ويؤبن مصعباً تأبيناً رائعاً يركز فيه على الصفات الدينية المؤهلة - فى تصوره وتصور الزبيريين - للخلافة، كالحلم والتقوى والهدى والسلم بالإضافة إلى الحسب الرفيع والخبرة والذكاء ، وقبل هذا وذاك القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى إطار حملته على من خانوه وفروا عنه :

« جَزاهم إلهُ النّاسِ شرَّ جَزائه	بخِذْلانِ ذى القُربَى الأريبِ المُدرَّبِ
إمامِ الهُدَى والحِلْمِ والسِّلمِ والتُّقَى	وذى الحَسَبِ الزّاكِى الرّفيعِ المُهذَّبِ»

(1) الأغانى (ط. الدار) جـ ٦ ص ٤٩ ، ٥٠ .
(2) الموفقيات ص ٨٢ .

ويخص أشراف العراق بنصيب كبير من تلك الثورة ، فيصفهم بأنهم شر قوم على ظهر الأرض، فقد مكروا بمصعب ولم يستجيبوا للصريخ حين دعاهم إلى مواصلة القتال لدفع العدو عن البلاد ، بل كان كل منهم ينصح صاحبه بالتخلى عن مصعب ويتواصون بالابتعاد عنه . وهو موقف سلبي غريب فضحه الأعشى مع كونه – كما سبق أن ذكرت – كان واحداً من هؤلاء الأشراف :

« لَحَى اللّهُ أَشْرافَ العِراقِ فإنَّهــم ... همُ شرُّ قَومٍ بَينَ شَرقٍ ومَغْرِبِ

همُ مَكَروا بابنِ الحَوارِىِّ مُصْعَــبٍ ... ولم يَسْتجيبوا للصَّريخِ المُثَـوِّبِ

دَعاهم بأن ذُودوا العِدا عن بلادِكـم ... وأموالِكم بكلِّ أبيضَ مِقْضَــبِ

فَوَلَّوا يُنادِى المَرءُ منهم عَشيـــرَهُ ... ألا خَلِّ عنهم لا أبالَكَ واذْهَبِ» .

ويعدد بعضهم ويذكر فيمن يذكر حجار بن أبجر العجلي ومحمد بن عمير بن عطارد الدارمي وعتاب بن ورقاء الرياحي وزياد بن عمرو العتكي ويزيد بن رويم الشيباني والهيثم ابن الأسود النخعي . ويأتي وجه الغرابة في موقف هؤلاء الأشراف من الصراع بين الزبيريين وبني أمية وسلبيتهم وعدم استجابتهم لابن الزبير من كونه كان يدعوهم إلى أن يذودوا عن بلادهم وأموالهم كما يقول الأعشى ، فهي دعوة إلى استقلال العراق وتحرره من حكم الشام ، وطالما استجابوا لمثل هذه الدعوات بغض النظر عن صاحبها وهويته على مدى العصر الأموى . بيد أنهم كانوا ينظرون إلى الأمور نظرة أخرى غير نظرة الأعشى التي أثر فيها حبه لمصعب وولاؤه للحزب الذي ينتمي إليه، وهي النظرة المصلحية التي قدرت انتصار الأمويين في آخر الأمر بما لمسوه من مقدمات ترجح كفتهم على كفة آل الزبير ، ومنها انتزاع العراق ومصر وتوحد صفوفهم على يد عبد الملك الذي جاء بنفسه على رأس جيش كثيف لقتال مصعب في معقله ، وكان مصعب قد أرهقته الحروب الطويلة مع الخوارج والمختار ، ونالت أتباعه الهزيمة المشهورة في مرج راهط فانفض عنه أكثرهم . لكن هذا اللوم لا ينسى الأعشى أن يشيد – وهو في خضم ثورته – بمن يستحقون الإشادة ممن ثبتوا على موقفهم وتمسكوا بعهودهم وذادوا عن مصعب حتى الموت فيثني عليهم ثناء جميلاً ، ومنهم « فياض بكر بن وائل » ولا

ندرى من هو على وجه التحديد ، وإبراهيم بن الأشتر النخعى قائد جيوشه ، وعيس ابنه الذى ضرب أروع آيات البطولة فى الشجاعة والوفاء ، ويصف المعركة وصفاً طويلاً دقيقاً يتابع فيه الأحداث الهامة ، حتى لتصير القصيدة سجلاً رائعاً لذلك اليوم العصيب فى تاريخ الزبيريين . ويركز على موقف ابن الأشتر ونصيحته لمصعب بالتشديد على الأشراف والتخلى عن بعض قواده ممن اشترى عبد الملك ولاءهم بالمال ورشاهم قبل اندلاع القتال أو سَجْنهم حتى تنتهى المعركة . وكان حرياً بمصعب أن يستجب له لكنه خشى الفرقة فآثر الدخول بهم وهو يعلم مقدماً ما سوف يصنعون ، وهو ماينفرد به الأعشى عن غيره ممن تعرضوا لهذا اليوم من الشعراء . ولعله وفاه حقه وصفاً وتحليلاً وكشفاً وتعرية وإشادة وتمجيداً . لذلك طالت القصيدة عن المعتاد حتى بلغت فى الموفقيات ثمانية وخمسين بيتاً .

وممن قُتل فى حروب الزبيريين ضد المختار محمد بن الأشعث ، وهو يمنى كالأعشى ، وكان الأعشى من أخوال ابنه عبد الرحمن صاحب الثورة المشهورة[1] . وقد رثاه بقصيدة طويلة كذلك وإن لم تبلغ فى طولها ما بلغته قصيدته فى مصعب . وكان فى رثائه له يندفع وراء عصبيته القبلية وهواه السياسى وانتمائه الحزبى . وقد ذكر فى آخرها ما تعرض له هو الآخر من خيانة رجاله وفرارهم عنه أثناء القتال فى الوقت الذى التفت فيه الموالى حول المختار ، وتكالبوا عليه ، وعلى الرغم من هذا لم يستسلم بل ظل يقاتل حتى قتل :

« فيا أَسَفَى يومَ لاقَيْتَهـــم	وخانتْ رِجالَكَ فُرَّارُهـــا
وأقبلت الخيلُ مَهْـــزومـــةً	عشاراً تُضَرَّبُ أدبارُهـــا
بشَطِّ حَروراءَ واسْتَجمعـــتْ	عليك المَوالى وسَحَّارُهـــا
فأَخْطَرْتَ نَفسَكَ مِن دُونِهـــم	فحازَ الرَّزِيئةَ أَخْطارُهـــا » [2]

وفى الأبيات إشارة واضحة إلى دور الموالى فى حركة المختار واعتماده عليهم اعتماداً كبيراً .وكان هذا سبباً فى انصراف الأشراف عنه وانضمامهم إلى مصعب بن الزبير كما

(١) الأغانى (ط. الدار) جـ ٦ ٢ص ٤٦ .
(٢) تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ١٠٣ .

انضم محمد بن الأشعث وكثير من رجال همدان . وفيها إشارة أخرى إلى موقف الأعشى من المختار بل موقف الزبيريين عامة منه فهو « سحار» ذو بدع ومخاريق وترهات.

وقد أبان عن موقفه منه فى أبيات أخرى نعى فيها بعض أهله ، ولم يمنعه حزنه عليهم من إظهار الشماته به لما لقيه على أيدى الزبيريين من خزى وعار ولما حل بشيعته من صغار :

« فَبَشِّرْ شيعةَ المُخْتارِ إمّـــا ... مَرَرتَ على الكُوَيْفةِ بالصَّغـــار
أَقَرَّ العَينَ صَرْعاهم وفَـــلٌ ... لهمْ جَمٌّ يُقتَّل بالصَّحـــارى
وما إن سرَّنى إهلاكُ قومِـى ... وإن كـــانوا وجَدِّكَ فى خِيـــارِ
ولكنِّى سُرِرْتُ بمـــا يُلاقِـى ... أبـــو إسْحاقَ مِن خزيٍ وعـــارِ»(١)

وذكر فى مرثية أخرى لأشراف قومه ما حل بهم من هزيمة على أيدى المختار ، ورماه فيها بالكفر صراحة وعد صنيعه ظلماً، وتعجب من ذلك الدهر الذى انقلبت فيه الموازين حتى صارت شبام تحسهم بالسيوف خلف هذا الشيعى المتطرف :

« فما راَعَنا إلا شـــبامٌ تَحُسُّنا ... بأسيافها لا أُسقيتْ صَوبَ هاضِبِ
فقُتِّلَ مِن أَشْرافنا فى محالهـــم ... عَصائبُ منهم أُردفتْ بعَصائـــبِ
فكم مِن كَمِيٍّ قد أبارتْ سُيوفُهم ... إلى اللّه أشكو رُزْءَ تلكَ المَصـــائبِ
أَيَقْتُلُنا المُختارُ ظُلْماً بكُـفْـــرِهِ ... فيالكَ دَهراً مُرْصَداً بالعَجائـــبِ»(٢)

ومما يدل على شدة انتمائه الحزبى هجاؤه فيها لإبراهيم بن الأشتر النخعى وكان فى ذلك الوقت يحارب فى صفوف المختار ، بل كان قائداً كبيراً من القواد الذين اعتمد عليهم اعتماداً تاماً فى حروبه ضد الزبيريين . وهوالذى رثاه بعد ذلك وأشاد به فى قصيدته التى رثى بها مصعباً حين تحول إلى صفوف الزبيريين وقاتل تحت لوائهم بعد انتهاء حركة المختار . يقول الأعشى :

(١) تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ٩٨ . وأبو إسحاق كنية المختار .
(٢) الأخبار الطوال للدينورى (ليدن سنة ١٨٨٨ م) ص ٣٠٨ . وأنساب الأشراف للبلاذرى جـ ٥ ص ٢٣٥ عدا الثانى والثالث.

« جزَى اللّهُ إبراهيمَ عن أَهلِ مِصْرِه   جَزاءَ امْرِئٍ عن وِجْهةِ الحقِّ ناكبِ
سَما بالقَنا مِن أَرضِ ســاباطَ مُرْقِلاً   إلى المَوتِ إرْقالَ الجِمالِ المَصاعِـبِ
فَصَبَّ علَى الأَحْياءِ مِن صَوبِ وَدْقِه   شآبيبَ مَوتٍ عُقِّبتْ بالحَرائـبِ ».

فهذا الهجاء الذى يتهمه فيه بالضلال والقسوة والبطش يتناقض تماماً مع ما ذكره في القصيدة الأخرى من إشادة بمواقفه ومدح له . ولم يكن فى هذا وذاك ينظر إليه باعتباره شخصاً مفرداً ، وإنما ينظر إلى من خلال موالاته أو معاداته للحزب الذى ينتمى إليه . وهو ما يدفعنا إليه التأكيد مرة أخرى على زبيريته على الرغم من تقلبه بين الأحزاب المختلفة وتنقله بين الشيعة وبنى أمية قبل اتصاله بالزبيريين .

* * *

الفصل الرابع
الأمــويـــون

١ - تعددت مراثى الأمويين فى الخلفاء بدءاً من معاوية بن أبى سفيان خليفتهم الأول . وقد رثاه غير واحد من الشعراء منهم عبد الله بن الزبير الأسدى وابن همام السلولى وابنه وولى عهده يزيد . أما ابن الزبير فقد اكتفى فى رثائه له ببيان أثر موته فى أهله، وركز على النساء فإذا هن مفزعات باكيات ، ولهول المصاب وشدته فقد اعتراهن أولاً ما يشبه الذهول ، ثم ابيضت منهن الشعور واسودت الوجوه ، ورحن بعد ذلك يضربن الوجوه ويلطمن الخدود وينحن عليه نوح من اختطف الدهر واحدها ، ويشاركهن - وقد خص بعضهن بذكر الأسماء فأشار إلى هند ورملة - الرجال فى العويل و البكاء :

« رَمَى الحَدَثانُ نسْوةَ آلِ حَرْبٍ بمقْدارٍ سَمَدْن له سُمُـودا

فَردَّ شُعورَهنَّ السُّودَ بيضــاً وردَّ وجوهَهنَّ البيضَ سُودا

فإنَّكَ لو رأَيتَ بُكاءَ هِنـــدٍ ورَمْلَـةَ إذ تَصُـكَّان الخُدودا

سَمِعتَ بُكاءَ باكية وبـــاكٍ أبانَ الدَّهرُ واحِدَها الفقَيدا » (١)

وأما ابن همام وكان « له جاه عند السلطان ووصلة بهم .... وكان عند آل حرب مكيناً حظياً فيهم » (٢) ، فقد أتاح له هذا الجاه وتلك المكانة أن يخوض فى مسائل سياسية دقيقة يتعلق بعضها بالخلافة وولاية العهد ، وألا يكتفى بالندب و البكاء وتأبين معاوية بما أبنه به من الجود و الحلم و الأمانة و الإيمان وحسن التدبير للأمور وحب الرعية له وحمدها لفعاله ، وإنما يتجه معهما نحو العزاء :

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ج ٢ ، ص ٣٩٤ . وهى فى ديوانه المجموع ص ١٤٣ ، ص ١٤٤ مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ . وقد نسبت فى « ذيل الأمالى للقالى » ص ١١٥ و « شعراء مقلون » ص ١٩١ ، ص ١٩٢ للكميت بن معروف ، و « فى المنازل و الديار » ص ٤٦٩ لأيمن ابن خريم ، وفى « معجم الشعراء » ص ١٧٧ لفضالة بن شريك ، وجعلها المرزبانى فى رثاء يزيد بن معاوية ، وهو وهم منه .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام . ت . محمود محمد شاكر جـ ٢ ص ٦٢٥.

« تعزَّوا يابنى حَربٍ بصَبرٍ   فمنْ هذا الَّذى يرْجو الخُلُودا » ؟ (١)

البداية جيدة ، فالعزاء و الصبر فى الشطرة الأولى مقترنان بقدرية الموت فى الشطرة الثانية وحتميته وأن أحدا لا يستطيع الخلود أو البقاء . و التوجه واضح من أول كلمة فى النص : « تعزوا » وهى دعوة إلى التماسك و التحكم فى النفس حيال المصاب مهما بلغت شدته ، تصدر من شخص متماسك. لم يفقد قدرته على مواجهة الأمور بما ينبغى ، ولم تنسه الأحزان أن هناك خلافة تنتظر من يقوم بها ويحمل أعباءها ، وخصوصاً تتحرك أنظارهم صوبها ويعملون فى الخفاء من أجل الوصول إليها وإزاحة بنى حرب عنها . وينطلق بعد هذا البيت إلى التأبين فيصدره بالقسم ويكثر فيه من التوكيد بوسائل مختلفة منها قد و الاستثناء و التقديم و التأخير ، ويدور حول معان دينية كالأمانة والإيمان وجهاد الأعداء ، ودنيوية كالحلم و الجود و الشجاعة و البيان وحب الرعية له وحمدها لفعاله :

« لَعَمْرو مُناخِهنَّ ببطنِ جَمْعٍ   لقد جَهَّزْتمُ ميْتاً فَقيــــدا

لقد وارَى قَليبُكمُ بَيانـــــــاً   وحِلْماً لا كِفاءَ له وجُـودا

وجَدْناهُ بَغيضاً فى الأعـــادى   حَبيباً فى رَعيَّته حَميـــدا

أميناً مُؤمِناً لم يَقْضِ أمــــراً   فيُوجَدُ غِبُّهُ إلاَّ رَشيـــــدا

فقد أضحَى العدوُّ رخِىَّ بــالٍ   وقد أمسَى التَّقىُّ به عَميدا » .

ويدعو الله أن يرد للمسلمين خلافة آل حرب من جديد ، وهو يعنى يزيداً بطبيعة الحال ، ويدعوهم إلى أن « يحاموا عليها » ويدفعوا عنها بقوة « إذا غمزت » أو طمع فيها الطامعون :

« فَعاضَ الله أهلَ الدِّين منكم   وردَّ لنا خلافتَكم جديـــــدا

مُجانبةَ المُحاقِ وكُلِّ نَحــسٍ   مُقارِنةَ الأيامنَ و السُّعـــودا

خلافةَ ربِّكم حاموا عليهـــا   إذا غُمزت خَنابسةً أُســـودا

تُعلِّمُها الكُهولُ المُرْدَ حتَّــى   تَذِلَّ بها الأكُفُّ وتَسْتَقيـــدا

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٦٥٦ وأوردتها مصادر أخرى ذكرها المحقق بالهامش رقم ١ . وفى الكامل للمبرد جـ ٤ ص ١٢ أربعة أبيات منها .

إذا ما بانَ ذو ثقبـــةِ تلقت أخا ثقةٍ بها صنَعاً مُجيــدا »

ولا يكتفى — فى أبيات تالية — بتلقف يزيد لها عن أبيه ، فنراه يأمر معاوية الثانى بأن يتلقفها هو الآخر عن يزيد . وهو تبرير واضح للخط الملكى الذى أدخله معاوية فى نظام الحكم . والمجهول فيه :

«مُعاوىَ إنْ تَلْقَ الَّذى كنــتَ لاقياً وتُمسى بكَ الدُّنيا مَضتْ فتوَلَّتِ
فأىَّ فَتىً لاقت شَعُوبُ ومـــدْرَه وأىَّ كَريمٍ فى قَليبكَ دَلَّـــــت
سأبْكيكَ للدّنيا و للدِّينِ إنَّنـــى رأيتُ يَدَ المَعروفِ بَعْدَكَ شُـلَّــت
فما عِشْتَ مَوْتوراً ولا مِتَّ خامِلاً وماكانتِ النَّفسُ الحَبيبةُ مُلَّـتِ[1]»

وهو يتوجه بالخطاب إليه وكأنه لا يزال ماثلاً أمامه ، ويؤبنه بتلك المعانى الرائعة التى كشفها فى ألفاظ معدودة موجزة « فتى » ، « كريم » . إلا أنها على إيجازها تحمل إيماءات كثيرة — يؤكدها ويفصلها فى البيتين الأخيرين — منها حب الرعية له ، واستحواذه على القلوب بقوة شخصيته وما أسداه من بر ومعروف؛ فقد شلت « يد المعروف» بعده ، ومات رضى الله عنه وكان ذا « نفس حبيبة » دون أن تمله النفس على الرغم من طول مدته واتساع فترة حكمه وعاش كذلك مهاباً غير موتور ولا خامل، وأصيب بموته المسلمون فى دينهم ودنياهم معاً لا فى دنياهم فحسب . وهى أشبه بالشهادة يضعها هذا المجهول بين يدى التاريخ .

وفى رثاء يزيد له نراه يبدأ بالبريد وكيف جاء بالخبر المشئوم — مما يدل على أنه لم يكن موجوداً حيث كان معاوية فى ذلك الوقت — وكيف أنه قد أثار فى قلبه الفزع حتى قبل أن يفضه ويعرف ما فيه ، وعلى الرغم من احتيالهم وترفقهم به حيث لم يخبروه أن معاوية قد مات وأنه قد أثبته الوجع إلا أنه استشعر الشر ، ومادت به الأرض أو كادت ، فلما ورد باب القصر ووجده منطبقاً وسمع الصراخ داخله هدَّ قلبه فانصدع :

« جاءَ البَريدُ بقِرْطاسٍ يَخُبُّ به فأوْجَسَ القَلْبُ مِن قِرْطاسه فَزَعا

(١) أمالى اليزيدى ، ص ٥١ . وقد صدرها بقوله : « وقرأ عمى على ابن حبيب أيضاً وأنا أسمع.......... » .

قُلنا لكَ الوَيلُ ماذا فى صَحيفتكم	قالَ الخَليفةُ أَمسَى مثْبَتاً وَجِعـا
مادتْ بنا الأرضُ أو كادتْ تَميدُ بنا	كأنَّ ما عزَّ من أركانها انْقلَعـا
من لم تزَلْ نفسُه تُوفِى على وَجَـلٍ	تُوشِكْ مقاديرُ تلكَ النَّفسِ أن تقَعا
لـمَّا وَرَدْتُ وبابُ القَصرِ مُنطَبِـقٌ	لصَوتِ رَمْلةَ هُدَّ القَلبُ فانْصَدعـا »[1]

وهو كابن الزبير يكتفى فى رثائه لمعاوية ببيان أثر المصاب ، بل يضيق الدائرة فلا يجعلها تتعدى نفسه. وهو معذور فى ذلك لأنه لا يرثى فى معاوية الخليفة وإنما يرثى فيه الأب . وهذا الشرخ الذى يذكره فى البيت الأخير و الذى أحدثه موت أبيه فى قلبه أصدق بكثير مما قاله غيره ، كل ما قالوه . ولعله يشير به بطريقة غير مباشرة إلى ما أصاب بنى أمية ـ وقد اختطف الموت عميدهم ومؤسس حزبهم ـ من خلل وضعف .

ويدور الزمان فإذا الراثى مرثى، ويموت يزيد فيرثيه الأخطل شاعر بنى أمية كما كان يحلو لعبد الملك أن يلقبه بعد ذلك . وكان موت يزيد فى حوارين ـ وهى من تدمر على مرحلتين ـ سنة ٦٤ هـ. ونجد الأخطل فى رثائه له يشير إلى المكان الذى دفن به ، والذى قام بدفنه وهو خالد ابنه ، ويؤبنه بالقوة و المجد ، ويدعو لقبره بالسقيا ، ويبين أثر موته فى زوجه ومواليه ؛ فهى مسلبة تبكى عليه وهم يصيحون إذ يرونها ويسمعون بكاءها . أما النساء اللائى يعدنها فقد أفقدهن المصاب وعيهن فرحن يعربن لها عن حزنهن بالتخفف من الثياب ، ولعله يعنى تمزيقها :

« لَعَمْرى لقد دَلاَّ إلى الَّلحدِ خالدٌ	جنازةَ لا كابى الزِّناد ولا غُمْرِ
مُقيمٌ بحَوّارينَ ليسَ يَريمُهـا	سَقَته الغَوادى من ثَوىً ومن قَبْرِ
تَصيحُ المَوالى أن رَأوا أُمَّ خالـدٍ	مُسلَّبةً تَبكى على الماجد الغَمْرِ
إذا جاءَ سِرْبٌ من نساءٍ يَعُدنَهـا	تَـعرَّين إلا من جلابيبَ أو خُمْرِ »[2]

وفى موت مروان وعبد الملك نجد الفرزدق يذكر تأمينهما له حين فر إليهما من زياد ورعايتهما له وتفضلهما عليه بالجود و العطاء . لذلك فهو يبكى عليهما بكاء شديداً وتفيض عيناه بالدموع . ونراه يشيد بدورهما فى القضاء على الخصوم ممن شقوا العصا ـ

(١) الأغانى جـ ١٧ ،ص ٢١١ ص ٢١٢ . وكان يزيد آنذاك بالصائفة .
(٢) ديوان الأخطل (ت. فخر الدين قباوة) ص ٥٣٣ .

يعنى الزبيريين وغيرهم – وردهم قصراً واشتفائهم للمظلومين [1].

وفى الوليد بن عبد الملك نجد جريراً يطلب من عينه أن تجود بالدموع فما لها مدخر بعد موت الوليد. ونراه يستعظم المصيبة ويتتبع أثرها فى بنيه فإذا هم – وقد فقدوا أباهم – كالنجوم هوى من بينها القمر . ولأن الموت قدر فإن أحداً منهم – ويخص بالذكر عبد العزيز وروح وعمر وكانوا شهوداً – لم يستطع دفع المنية عنه :

« يا عَينُ جودِى بدَمعٍ هاجَهُ الذِّكَرُ ... فما لدَمعِكِ بَعدَ اليومِ مُدَّخَـــرُ

إنَّ الخلَيفةَ قد وارى شَمائلَـــــهُ ... غَبراءُ مَلْحودةٌ فى جُولِهـــا زَوَرُ

أمسَى بنوهُ وقد جلَّتْ مُصيبتُهـــم ... مثلَ النُّجومِ هَوى مِن بَينِها القَمَرُ

كانوا شُهوداً فلمْ يَدْفعْ منيَّتَـــهُ ... عَبْدُ العَزيزِ ولا رَوْحٌ ولا عُمَـــرُ » [2]

أما العباس فكان بـ « ديرِ القَسْطَلِ » وقد روعه الخبر حين أتاه :

« قد شَفَّنى رَوْعةُ العبَّاسِ مِن فَزَعٍ ... لمَّا أتاهُ بديرِ القَسْطَلِ الخبَرُ » .

وفى المقطوعة التفات إلى الأحياء – نتيجة اهتمامه بتتبع أثر المصاب – أكثر من الميت نفسه .

وفى سليمان نجد الفرزدق – وقد رثاه بمقطوعة قصيرة – يذكر عدو المنية عليه وهو الضعيف الذى لا يطيق لها قتالاً و تعهدها باختطاف محبيه ، وكيف أنها قد اختطفت هذه المرة ملكاً أغر متوجاً ، « ورث النبوة بدرها وهلالها » ، أغنى العفاة وملأ نائله البلاد [3] . ونجد عويف القوافى يرثيه كذلك بمجموعة من الأبيات يشغل فيها بتأبينه بما أفاضه فى فترة خلافته من الخير العميم ويدعو من يليه أن يسير على نهجه ليعم الخير المسلمين [4].

ولم يحظ أحد من خلفاء بنى أمية بمثل ما حظى به عمر بن عبد العزيز من الرثاء،

(1) ديوان الفـرزدق (ط . الصـاوى) جـ ١ ص ٤٣ و (ط . باريس) جـ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ و(ط .بيروت) ص ٥٨ .

(2) ديوان جرير ت . د. نعمان محمد أمين طه جـ١ ص ٢٤٢ .

(3) ديوان الفـرزدق (ط . الصـاوى) جـ٢ ص ٦٣٢ و (ط . باريس) جـ٢ ص ١٥٩ و (ط . بيروت) ص ٤٣٣ .

(4) شعراء أمويون جـ ٣ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

وقد كان محبوباً من الرعية وكانت له فيهم مكانة يعرفها حتى الخصوم . وهذا الحب وتلك المكانة لم يأتيا بطبيعة الحال من فراغ ، فقد كان عالماً وديِّناً ، وكان يسير فى حكمه على نهج الراشدين عدلاً وورعاً وزهداً وتقوى حتى عدوه خامسهم [1] ، وفاض الخير فى عهده وأمن الناس حتى إن المرأة كانت فيما يقال تترك غنمها فلا تقربها الذئاب.

ونراهم فى مراثيهم له يدورون حول المعانى الدينية أكثر من غيرها ، ويركزون بصفة خاصة على العدل الذى تفرد به ــ فى رأى الخصوم ــ وبز فيه ــ عند شعراء بنى أمية ــ من سواه من الملوك . أما جرير فنراه يدور حول خيريته ؛ فهو خير من حج بيت الله واعتمر . وهى على ما أفهم من ذكر الحج و العمرة خيرية فى الدين وإن لم يمنع هذا كونها فى الدنيا أيضاً . حمّله الله أمر الأمة فاصطبر له وقام فيه خير قيام . من هنا كان حزن الناس عليه ومشاركة الطبيعة لهم فى تلك الأحزان :

« تَنْعَى النُّعاةُ أميرَ المؤمنينَ لنــــا ... يا خيرَ مَن حَجَّ بيتَ الله واعْتَمَرا

حُمِّلتَ أمْراً عَظيماً فاصطَبَرتَ لـه ... وقُمتَ فيه بأمرِ اللَّه يا عُمَــــرا

فالشَّمسُ كاسِفةٌ ليستْ بطالعةٍ ... تَبكِي عليكَ نُجومَ اللَّيلِ و القمَرا» [2]

ونراه يؤثر استخدام « أمير المؤمنين » على ما كانوا يستخدمونه بكثرة فى رثاء غيره من الملك ومشتقاته . ويذكرنا هذا اللقب بجده العظيم عمر بن الخطاب أول من لقب به فيما يقال. وفى قوله « حملت ..... » ما يذكرنا كذلك بالراشدين ؛ حيث كانت

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد لابن الجوزى . ضبطه وشرحه وعلق عليه نعيم زرزور (دار الكتب العلمية ــ بيروت سنة ١٩٨٤ م) ص ٧٢ الباب الثالث عشر « فى ذكر أنه من الخلفاء الراشدين المهديين » .

(٢) ديوان جرير جـ ٣ ص ٧٣٦ . وفى نصب النجوم و القمر دلالة على استمرار بكاء الشمس ؛ فهى تبكى عليه ــ وهذا قول الكسائى ــ الشهر و الدهر . وفيه قول آخر بعيد ذكره الشارح عند تفسيره للبيت . وهذا البكاء الذى يذكره قيل إنه مكتوب فى التوراة . سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص ٣٢٩ « الباب الحادى و الأربعون : فى ذكر ما روى أن السماء و الأرض بكتا عليه » . وفيه : «عن خالد الربعى قال مكتوب فى التوراة أن السماء تبكى على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً . وعنه أيضاً : « قرأت فى التوراة أن السماء و الأرض تبكى على عمر بن عبد العزيز أربعين سنة » . ولعل جريراً قد بلغه بعض هذه الآثار فعمد إلى نظمها . وهى تذكرنا بمراثى الشيعة فى الحسين عليه السلام .

الخلافة عندهم حملاً وعبئاً أو مسئولية خطيرة فيها من التكليف أكثر مما فيها من التشريف ، لذلك كانوا يتهربون منها وينأون ـ قدر استطاعتهم ـ عنها .

ويشير آخر إلى عدله ـ رضى الله عنه ـ وزهده ، فقد كان كما يقول : « قسطاس الموازين » ، ولم تكن الدنيا غايته ولا مبتغاه فلم يهتم كغيره من الملوك بمظاهر اللهو والترف ، وهو بعد : « قوام الملك و الدين » . فلا أقل من أن يدعوا له ـ كعادتهم ـ بعدم البعد :

« قد غيّبَ الدّافنونَ الّلحدَ إذ دَفنوا ... بدَيرِ سَمْعانَ قسطاسَ المَوازينِ
مَن لم يَكُن هَمُّهُ عَيْناً يُفجِّرُهـــا ... ولا النَّخيلَ ولا رَكْضَ البَراذينِ
أقولُ لما أتاني ثَمّ مَهلكُــــــــهُ ... لا يَبْعَدَنّ قِوامُ المُلكِ و الدِّيـنِ » (١)

وفى هذا الرجاء المستحيل ، وتصريحه فى أول بيت بأنهم إذ دفنوه دفنوا العدل ، ما يعكس مخاوفاً لما يحمله المجهول وما سوف يجىء به الغد حين يتولى الأمر سواه .

وفى رثاء آخر له ـ نسبه بعضهم إلى كثير ، و المبرد إلى رجل من خزاعة ، والأخفش و جزم به إلى قطرب النحوى (٢) ـ نراه يذكر القبور وقد أنست به بعد أن دفنوه بها ، و الديار وقد خلت منه حتى صارت كالقبور . خراب حل بالمسلمين إذن ورزء جليل ومصاب عم الناس جميعاً فـ « كلهم مأجور فيه » ومأتم فى كل دار:

« أمّا القُبورُ فإنّهنّ أوانِـسٌ ... بجُوارِ قَبرِك والدّيارُ قُبـورُ
جلّتْ رَزيئتُه فعَمّ مُصابُــه ... فالنّاسُ فيه كلُّهم مأجورُ

(١) الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٢٧٧ و العقد الفريد جـ ٤ ص ٢٨٥ وهى بسيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٣٦ ، وقد أوردها ابن الجوزى بروايات متعددة نسبت فى بعضها لابن عائشة وفى بعضها لرجل من موالى أهل المدينة .

(٢) أما كونه لكثير فبعيد وإن رثى عمرَ بن عبد العزيز بقصائد أخرى . وقد أشار المبرد إلى أن هذا الشعر ـ ونسبه لرجل مجهول من خزاعة ـ كان ينحل على كثير . وقد وضعه محقق ديوان كثير مع مجموعة أخرى تحت عنوان « أبيات منسوبة لكثير » وهى التى لم ترد بطبيعة الحال فى المخطوطات. ونسبتها بعض المصادر له ونسبتها أخرى لغيره . ونحن نميل إلى ما جزم به الأخفش حيث قال: «الشعر لقطرب النحوى وهو الذى صح عنه » . وفى نسخة أخرى : « الذى صح عندنا أن هذا الشعر لقطرب النحوى » . الكامل للمبرد جـ٤ ص ٢٩ . وفى « شعراء أمويون » جـ٢ ص ٣٤٧ تخريجات أخرى .

والنّاسُ مأْتَمُهم عليه واحدٌ   فى كلّ دارٍ رنّةٌ وزَفيرُ »[1]

لكنه يعود فيربط بين الحياة والذكر الحسن، ويرى من هذه الناحية أن عمر لايزال حياً بين المسلمين بصنائعه الكثيرة وأعماله العظيمة التى يلهج بها الناس فى كل مكان وبثنائهم عليه – حتى من لم يوله خيراً منهم – لأنه رضى الله عنه كان جديراً بالثناء:

« رَدّتْ صنَائعُه إليه حَياتَــه   فكأنّه من نَشرِها منشُورُ
يُثْنِى عليكَ لسانُ مَن لم تُولِـه   خيراً لأنّكَ بالثّناءِ جَديرُ» .

وفى رثاء محارب بن دثار له تأبين دينى رائع بإحيائه لكثير من شرائع الحق وإقامته لها، وتلهف فردى وجماعى عليه وعلى من سبقوه ودفنوا قبله فى المكان الذى دفن فيه من آبائه. ويرى – وهذا فى تصورى مما يؤكد أمويته فى تلك الفترة على الأقل – أنه لم يكن بدعاً فى حكمه وإنما كان يسير على نهج آبائه وأنه لم يأل جهداً فى تتبعهم وترسم خطاهم :

«كم من شَرِيعة حَقٍّ قد أقَمتَ لهم   كانت أُميتتْ وأُخرى منكَ تُنْتَظرُ
يالَهفَ نَفسى ولَهفَ الواجدينَ معـى   على النُّجومِ الّتى تَغْتالُها الحُفَـرُ
ثلاثةٌ مارأتْ عَينٌ لهم شبَهـــاً   يَضُمُّ أعظمَهم فى المَسْجد المَـدَرُ
فأنتَ تتبعُهم لم تألُ مُجْتَهِـــداً   سقْياً لها سُنَناً بالحَقّ تُقْتَفَـــرُ»[2]

ثم يقرر ذلك المعنى الذى طالما ذكروه فى الرثاء وهو أن الموت قدر وأننا عاجزون حياله، فلو كان يملك صرف الموت عنه – ويلقبه بـ «عمر الخيرات» – لفعل :

« لو كنتُ أمْلكُ والأقْدارُ غالبةٌ   تأتى صبَاحاً وتَبياتاً وتبْتكِـــرُ
صرَفتُ عن عُمَرَ الخيراتِ مَصْرَعَهُ   بدَيرِ سَمْعانَ لكن يَغْلبُ القَدَرُ»

وهذا الحب الكبير الذى يعبر عنه أصدق تعبير رغبته فى صرف الموت – وإن كان مستحيلاً – عنه لم يكن شعور محارب فحسب ، وإنما كان شعوراً عاماً فى المسلمين. لذا رأينا بعض خصوم بنى أمية يشاركونهم فى رثائه. وممن رثاه من هؤلاء

(١) الكامل للمبرد جـ ٤ ص ٢٩ .
(٢) الأمالى لأبى على القالى جـ٣ (الذيل والنوادر) ص٣٪ سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص ٣٣٦.

الخصوم كثير عزة وقد بلغت مرثيته ثلاثين بيتاً [1]. وعلى الرغم مما يمكن أن يقال فى تحوله عن الشيعة إلى الأمويين إلا أننا نؤثر تنحيته عن هذا الفصل - ونكتفى بالإشارة - لما نعلمه من جواز التقية عندهم وتوسلهم بها للوصول إلى مآرب شخصية ومنافع دنيوية، ولأنه - بعد هذا - يصدر فى تصورى عن ولاء فردى ولا يضيف جديداً يختلف عما ذكرناه.

وفى الوليد بن يزيد نجد ابن ميادة - وكان الوليد له مكرماً فى حياته - يشير بإصبع الاتهام إلى تورط بعض بنى مروان فى قتله، ويؤبنه بكرمه وسماحته وحَدَبِه على الضعفاء والفقراء ومكانته فى قريش، ويتلهف عليه تلهفاً شديداً [2].

ومرثيته هذه - على قصرها - تلقى الضوء على ماكان يجرى داخل البيت الأموى فى أواخر عهدهم من تنافس على الخلافة وصراع وانقسام. وقد عجل هذا كله بنهاية مدتهم وانقضاء عهدهم، فلم يَخلُف الوليدَ غيرُ ثلاثة، ولم يفصل بين مقتله وتولى بنى العباس للخلافة غير سبعة أعوام فحسب.

٢- ويجىء رثاء الأمراء والقواد والعمال ورجال الدولة فى درجة تالية. وقد حظى الأمراء - يتصدرهم عبد العزيز وبشر ابنا مروان ومسلمة بن عبد الملك - بالنصيب الأوفر. وبرز من بين القواد نصر بن سيار وعمر بن سعد بن أبى وقاص وآل المهلب قبل أن يثور يزيد، ومن بين العمال ورجال الدولة زياد ابن أبيه والحجاج وطلحة الطلحات وسعيد بن عثمان ورياح.

أما عبد العزيز فقد رثاه نصيب بن رباح وحده ثلاث مرات. أشار فى الأولى إلى المكان الذى مات فيه - وهو قرية بصعيد مصر تسمى سُكَّر كان ينزلها ويتخذها متنزهاً وحين وقع الطاعون خرج إليها فلم يعد إلى الفسطاط مرة أخرى وأدركه الموت هناك - والأثر الذى خلفه فى نفسه، فقد أصيب بسببه مصيبة ليس له بها قبل، وذكر أن كل مصاب بعده هين مستخدماً فى ذلك كلمة من كلمات التضاد وهى كلمة «جلل»، وأقسم ألا ينسى هذا المصاب ولا البكاء على صاحبه ما أسمعته حنينها الإبل، ثم أشار إلى أنهم إذ حملوه إلى مثواه لم يعلموا ولم يعلم النعش الذى وضعوه فيه حقيقة

(١) ديوان كثير عزة - تحقيق د. إحسان عباس ص ١٧٧ : ١٧٩
(٢) الأغانى جـ ٢ ص ٣٢٣.

ماحملوا وكأنه يعجب كيف ساروا به إلى القبور وكيف ارتضت لهم أنفسهم أن يغيبوه في التراب:

«أُصبتُ يومَ الصَّعيدِ مِن سُكَرٍ ... مُصيبةً ليسَ لي بها قِبَلُ

تالله أنسى مُصيبتي أبداً ... ماأسْمَعتني حَنينَها الإبلُ

ولا التَّبكّي عليه أعولُه ... كلُّ المُصيباتِ بَعدهَ جَلَلُ

لم يَعلَم النَّعشُ ما عليه مِن الـ ... عُرفِ ولا الحَاملونَ ما حَمَلوا

حتّى أجنّوه في ضَريحِهِمُ ... حتَّى انتهى من خَليله الأجَلُ»(١)

وفى الثانية – وقد أنشدها بعد ذلك عبد الملك حين استنشده ما قاله فى أخيه – نراه يميل إلى التأبين. ويبدو أنه قالها فى وقت متأخر عن المرثية السابقة. لذا خفت حدة البكاء وبدا أكثر تماسكاً وأخذ يعرض فى أناة تجربته الخاصة مع عبد العزيز ؛ فقد أكرمه ورعاه وشمله بعنايته، وما حلت ركابه به إلا أرضاه فأثنى عليه وأثنت عليه معه الركاب، ثم عريت من بعده وصارت ذراها على حد تعبيره لمن لاقت من الناس منظراً، وهو يعنى بطبيعة الحال نفسه وإن خلع شعوره على شيء خارجى يعادل موضوعياً – كما يقول المعاصرون – تلك النفس التى ذاقت مرار الرق والاستعباد قبله والكرامة فى كنفه ثم عادت لتحس بالضعف والذل والاغتراب بعده. ونراه كذلك (يفلسف) إن جاز التعبير بعض أفكاره، وهى ليست فلسفة بالمعنى الصحيح وإنما ثمرة تجربة وحصاد عمر ؛ فالماضى الذى يمر لا يعدله ولا يوازيه الحاضر ولا ماسوف يليه. وكأن الحياة تنتقل إلى الأسوأ ، وليس أدل على هذا – بالنسبة له – من موت أحبابه وأصحابه وأهل الفضل والنعمة عليه الواحد تلو الآخر وتركهم إياه ليواجه فى الغابرين مصيره متفردا مغترباً، فإن يبك عبد العزيز – وهو واحد من هؤلاء – فهو معذور فى البكاء عليه ، وإن يصبر ويغلب الأسى فجدير بمثله الصبر. ويقرر فى البيت الأخير تميز المرثى عمن سواه، فإن تكن المنايا قد نلن منه فهو المصطفى والمتخير من أهله يعنى بنى أمية أو آل مروان. يقول نصيب:

«عَرَفتُ وجَرّبتُ الأمُورَ فما أرى ... كماضٍ تَلاهُ الغابرُ المُتأخِّرُ

---

(١) شعر نصيب بن رباح – جمعه د. داود سلوم (مطبعة الإرشاد – بغداد سنة١٩٦٧)ص١١٣، ١١٤

ولكنَّ أهلَ الفضلِ من أهلِ نعْمتى — يمرُّونَ أسْلافاً أمامى وأغْبُـــــــرُ
فإن أبْكه أُعذرْ وإن أغْلِبِ الأســـى — بصَــبْرٍ فمثلى عندَما اشْتَدَّ يَصبِــرَ
وكانت رِكابى كلَّما جئتُ تنْتحى — لديكَ وتُثْنى بالرِّضا حينَ تَصْـــدُرُ
فقد عَرِيتْ بَعدَ ابنِ لَيلَى فإنَّمـــا — ذُراهَـا لِمنْ لاقتْ منِ النَّاسِ مَـنْظَرُ
ولو كانَ حيَّاً لم يزَلْ بدُفُوفِهـــا — قُرادٌ لعزْبانِ الطَّرِيقِ ومنْقَـــــــــرُ
فإن كُنَّ قد نلْنَ ابنَ لَيلَى فإنَّـــه — هوَ المُصْطفَى من أهلِه المُتَخيَّـــــرُ[1]

وفى الثالثة وهى صغيرة يجمع بين الأب عبد العزيز وابنه الخليفة عمر ويبدأ كالمرة الأولى بالندب ويقرر أنه إذ يبكى عليهما فهو أحق من غيره ببكاهما لما كان لهما من فضل عليه، ويأخذ فى البيت الثانى فى بيان هذا الفضل، ويذكر فى الثالث والرابع أنه لم يكن يتصور أن يعيش بعدهما وكان يظن أنه إذا تيقن من موتهما لحق بهما وقضى عليه، لكن منيته تراخت، وكأنه قد كتب عليه أن يمارس العيش ويحيا على غير رغبة منه فى الحياة :

« بكيتُ ابنَ لَيلَى وابنَه ورأَيْتنى — أحقَّ الأُلَى كانوا مَعى بِبُكاهُما
هما حَذَيانى الخيرَ حتّى تشعَّبتْ — غُصونى بنَبتٍ ناضرٍ فى ثَراهُمـا
وكنتُ أرى أنّى إذا أُبتُ لَيْلـــةً — من الدَّهرِ قد أيقنتُ ألّا أراهُمـا
سأَقْضِى فلم أفعلْ ولكنْ مَنِيَّتى — تَراخَى إناها بَعدَ حينِ إناهُمـــا »[2]

ويرثيه الفرزدق – وقد بلغه موته حين قدم الشام – بقصيدة قصيرة يتجه فيها نحو التأبين ، فقد يئس الأرامل وطالبوا العرف حين جاءهم الخبر بموت ابن ليلى بأرض النيل؛ فكم عمهم فضله ونائله ومعروفه. وتشغله صورة هؤلاء وقد انتهوا عند بابه بعد إذ دفنوه وأخذوا يبكون ويتحسرون على فقده، ثم صورتهم وهم يقفون على قبره يستغفرون له ويقبلون التراب الذى حوى عظمه كما يقبل الحجر الأسود فى البيت الحرام. ويعجب فى آخر الأبيات كيف دفن – وكأن مثله لايدفن – واحتواه اللحد، فلله أرض تضمنته

---

(١) شعر نصيب ص ٨٧ ، ٨٨ . — (٢) شعر نصيب ص ١٣٩ .

وأجنته[1].

ورثى الفرزدق كذلك بشر بن مروان بقصيدة جيدة سوف نعرض لها فى جزء تال.

وممن رثى بشراً أيضاً الحكم بن عبدل الأسدى وكان منقطعاً إليه وكان بشر «يأنس به ويحبه ويستطيبه وأخرجه معه إلى البصرة لما وليها» . فلما مات جزع عليه جزعاً شديداً ورثاه بسبعة أبيات يغلب عليها الندب، وتتبع أثر المصاب فى نفسه ؛ فقد أصبح مهموماً كثير الوساوس متعجباً للدهر وتصرفه:

«أصبحتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدرِ   مُتَعجِّباً لتَصرُّفِ الدَّهْرِ[2] .

لقد ظل يبحث فى البلاد عن فتى يكون ذخراً له ومسعداً ومعيناً فى النائبات، فما إن ظفرت يداه به – وهو يعنى بشراً – حتى اختطفه الموت:

«مازلتُ أَطلُبُ فى البلادِ فتًى   ليكونَ لى ذُخراً مِن الذُّخْرِ

ويكونَ يُسعدنى وأُسعِدُهُ   فى كلِّ نائبةٍ مِن الأَمْرِ

حتَّى إذا ظَفِرتْ يَدایَ بِهِ   جاءَ القَضاءُ بحيْنِه يَجْرى»

فهو لذلك فى هم متصل يباكره بعضه ويجيئه بعضه فى المساء، ولايملك حياله إلا الصبر؛ فالصبر فى رأيه خير دواء للهموم، وهو بعد لم يستعظم فراق بشر من فراغ وإنما بعد أن جربه ورأى فضله:

« إنِّى لفى هَمٍّ يُباكِرُنى   منهُ وهَمٍّ طارقٍ يَسْرى

فلأَصْبِرنَّ وما رأيتُ دوًى   للهَمِّ غيرَ عزيمةِ الصَّبْرِ

واللّهِ مااستعظمتُ فُرْقتَهُ   حتَّى أحاطَ بفضْلِه خُبْرِى» .

وفى رثاء مسلمة بن عبد الملك – وكان كما يقال أجدر بالخلافة من إخوته جميعاً

---

(١) ديوان الفرزدق (ط. الصاوى) جـ١ ص ٢٢٥ و(باريس) جـ١ ص ١٩ و (بيروت) ص ١٦٨ و(مجمع اللغة العربية بدمشق) ص ٧٨، ص ٧٩. وقد شارك كثير عزة فى رثاء عبد العزيز – كما فعل بعد مع ابنه عمر – وكانت له به علاقة طيبة فى حياته ومدائح كثيرة ووفد عليه – فيمن وفد عليه من الشعراء – بمصر . ديوان كثير . ت.د. إحسان عباس ص ٣١٢، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٨، ٥٣٥.

(٢) الأغاني جـ ٢ ص ٤٣٤ .

– نرى ذا الشامة بن أبي قطيفة يعرب عن ضيق صدره وعجزه عن أن يجن ماعتراه من الجوى والحزن :

« ضاقَ صَـدرِى فما يَجُنُّ جَوَاكا   عَيٌّ عن أن يَجُنَّهُ مادَهاكا »[1].

فكل ميت قبله قد اغتفر هلاكه واستطاع بعد فترة أن يسلوه، لكنه عجز عن ذلك معه :

« كلُّ ميتٍ قد اضْطَلَعتُ عليه الْـ   حُزنَ ثُمَّ اغْتَفرتُ منهُ الهَلاكا

قَبلَ مَيْتٍ أو قَبلَ قَبرٍ على الحـا   نوتِ لم أستَطِعْ عليه اتِّراكـا ».

وهو زين للقبور كما كان فى حياته زيناً للسلطان والملك :

«زائنٌ للقُبورِ فيها كما كنـ   ـتَ تَزينُ السُّلْطانَ والأملاكا» .

وتوجهه بالخطاب إليه من البداية إلى النهاية يوحى بتسلطه عليه وتملكه لمشاعره، فهو لايزال أمامه يستمع إليه كما كان يفعل قبل الموت ويحاوره ولاتفارق عينيه صورته ولاتزايل وجدانه ومخيلته .

وفى رثاء زياد ابن أبيه – وكان عاملاً لبنى أمية على العراق وذا مكانة فيهم منذ استلحقه معاوية بن أبي سفيان – نجد مسكيناً يقرر فى بيت مفرد – لعله جزء من قصيدة ضائعة – أن الإسلام قد ولت زيادته بموت زياد :

«رأيتُ زِيادةَ الإسلامِ ولَّـتْ   جِهاراً حينَ وَدَّعَنا زِيادُ »[2].

وهى كلمة غير محددة – أعنى زيادة الإسلام – يفهم منها القوة والعزة والهيبة والانتشار، وهذا بعيد إلا إذا عنى بالإسلام أهله، ولن يخلو حتى على هذا الفهم من اعتراض .

ونجد حارثة بن بدر الغدانى – وقد رثاه عدة مرات – يعتبره سيد قريش، ولعله يدفع عنه ما أثير حول نسبته من شكوك، ويصفه بالتقوى والبر ومعرفة المعروف وإنكار المنكر،

(١) معجم الشعراء ص ٣٤٩ .

(٢) ديوان مسكين الدارمى – جمعه وحققه عبد الله الجبورى وخليل إبراهيم العطية – ط ١ (دار البصرى – بغداد سنة ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م) ص ٣٠ . وله فيه بيتان آخران ص ٣٩ .

وهى صفات دينية، والجود والكرم الشديدين والجمع بين الشدة واللين ووضع كل منهما موضعه الذى ينبغى أن يوضع فيه . أما الناس فقد خفت حلومهم بعده فكأنما «نفخت فيها الأعاصير» وصاروا منذ غاب عنهم فى فتنة وظلام دائم، وهو بيان لما حل بالأمة نتيجة فقده[1]. ولعله بالغ كما بالغ من قبل مسكين فى هذا المعنى الأخير .

ونراه فى أخرى[2] يذكر الخبر الذى جاء به مسعود - يعنى مسعود بن عمرو الأزدى وقد جاءهم بنعى زياد - وهو خبر مشئوم بل داهية غراء وشر أحاط بالناس وخلف بهم ماخلفه من الآثار .

وفى ثالثة[3] - لم يصلنا منها غير بيت - نراه يميل إلى التجمل ويدعو للصبر ويقرر فى غير قليل من المرارة أن الدنيا مفجعة، وهو يعنى بطبيعة الحال فجيعتهم فى زياد، ويتساءل فى شك : «من ذا الذى لم يجرع مرة حزناً» ؟ فالناس جميعاً قد تجرعوا الحزن وكل قد ذاقه مرة أو مرات، وقد علمته التجربة من خلال رؤيته لهؤلاء الناس أن «الصبر أجمل»، وهو ماقرره فى البداية، وبهذا وحده يلتئم البيت على مابين أطرافه من تفكك ظاهر.

وفى طلحة الطلحات الذى استعمله يزيد بن معاوية على سجستان نجد أبا حزابة ينعى جوده وفضله ويشير إلى ما لحقهم فى تلك البلاد من خسارة نتيجة فقدهم له؛ لأنهم -وقد دفنوه- قد علموا أنهم لن يروا مثله حتى النشور، مما يدل على حسن سياسته وحبهم الشديد له:

«هيْهاتَ هيْهاتَ الجَـنابُ الأَخْضَرُ والنَّائلُ الغمْرُ الَّذى لا يُنْزَرُ
واراهُ عنَّا الجَدَثُ الْمُغـــــــوَّرُ قد علِمَ القَوْمُ غَداةَ اسْتَعبَروا
والقبرُ بينَ الطَّلَحاتِ يُحْـــــفَرُ أن لن يَرَوا مثلكَ حتّى يُنْشروا»[4].

(١) شعراء أمويون جـ ٢ ص ٣٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٤ .
(٤) الأغانى جـ ٢٢ ص ٢١٢ .

وفى رياح بن عثمان - واليهم على المدينة - نجد ابن ميادة يتهم قريشاً بقتله، ويذكر أنه قد نصحه بالاحتراز ، لكنه لم يسمع له وسخر منه ، فوجد عليه بعد أن قتلوه شد مايكون الوجد :

«أمرتُكَ يا رياحُ بأمرِ حَـــزْمٍ فقلتَ هَشيمةٌ من أهلِ نَجْدِ
وقلتُ له تحفَّظْ من قُرَيــشٍ ورقِّعْ كلَّ حاشيةٍ وبُـــرْدِ
فَوَجْداً ماوَجَـدْتُ على ريــاحٍ وماأغنيتُ شيئاً غيرَ وَجْدى»[1].

وهو يشير بطريقة غير مباشرة إلى انقسام هوى قريش، ويبرز عداوتها - يعنى بعض فروعها - لبنى أمية، وكانوا أحرى - فى تصور الأمويين - بمؤازرتهم لهم فى الحكم .

وفى رثاء القواد وقتلى الفتوح نراهم يدورون حول المعانى المستمدة من الجهاد ويلحون فى بيان دور هؤلاء - وبالتالى دور بنى أمية - فى نشر الإسلام وحفظ الثغور وتوسيع رقعة الدولة . فنصر بن سيار فى رثاء أبى عطاء السندى له «حامى الحقيقة فى كل يوم مخوف الشر والعار»، «والقائد الخيل قبا فى أعنتها»، «ماضٍ على الهول» ، «مقدام» إذا اشتد القتال وولى كل فرار[2].

ومسمع بن مالك - عند أبى جلدة اليشكرى - كان «الشهاب الذى يرمى العدو به». لذا فإنهم لم يجدوا بعد موته من يدعونه حين تحل بهم النوائب وينال القوم ماينالهم من الفزع والاختلاف [3].

والمهلب بن أبى صفرة - وقد ذهب - ذهب معه «الغزو المقرب للغنى»، ومات الندى والحزم أو بالأحرى «أقاما بمرو الروذ» معه حيث دفن هناك. يقول نهار بن توسعة:

«ألا ذَهبَ الغَزْوُ المُقَرِّبُ للغنَـى وماتَ النَّدَى والحزْمُ بعدَ المهلَّبِ
أقاما بمرْوِ الرُّوذِ رَهْنَ ضَريحِـه وقد غُيِّبا عن كلِّ شَرْقٍ ومَـــغْرِبِ»[4].

---

(١) الأغانى جـ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١٧ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣.

(٣) شعراء أمويون جـ٤ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٤) الأمالى لأبى على القالى جـ٢ ص ٢٠١/ تاريخ الطبرى جـ٦ ص ٣٥٥، ٤٧٩/ العقد الفريد جـ٤ ص ٢٩٨. وبالوحشيات ص ١٤٨ مرثية أخرى لمجهول فى المهلب وآل بيته، لكنها - فيما أرجح - مما قيل بعد نكبتهم .

وابنه المغيرة – وقد رثاه زياد الأعجم بقصيدة طويلة عدها أبو الفرج الأصفهانى «من نادر الكلام ونقى المعانى ومختار القصيد» ثم قال: «وهى معدودة من مراثى الشعراء فى عصر زياد ومقدمها»[1] –رجفت لمصرعه البلاد واعتلّت قلوب الناس:

«رَجَفَتْ لَمصْرَعِه البلادُ وأَصبحتْ مِنّا القلوبُ لذاكَ غيرَ صَحائحِ»[2].

وبكته الخيل والرماح والنساء برنة وعويل، فلقد مات بعد طول تعرض للموت؛ حيث واجهه مرات عديدة ربما بعدد المرات التى شهد فيها القتال وجاهد فيها الأعداء :

«تَبكى المُغيرةَ خيلُنا ورماحُنا والباكياتُ برنَّةٍ وتَصايُحِ

ماتَ المُغيرةُ بعدَ طولِ تعرُّضٍ للموتِ بينَ أسنَّةٍ وصَفائحِ».

وها هى ذى صورته ماثلة أمام عينيه وهو يصول ويجول فى المعارك بين فرسانه وأبطاله الشجعان :

« للّه درُّ مَنيّةٍ فاتتْ بـه فلقدْ أراهُ يردُّ غَربَ الجامحِ

ولقدْ أراهُ مجفّفاً أفراسَه يَغْشى الأسنّةَ فوقَ نَهْدٍ قارِحِ

فى جَحْفَلٍ لَجِبٍ تَرى أبطالَهُ منه تُعضِّلُ بالفَضاءِ الفاسحِ

يَقصُ الحُزونَةَ والسُّهولةَ إذ غَدا بزُهاءِ أرْعنَ مثلِ ليلٍ جانحِ

ولقد أراهُ مقدّماً أفراسَهُ يُدْنى مَراجِحَ فى الوَغَى لَمراجِحِ

فتيانِ عاديةٍ لَدى مُرْسَى الوَغَى سنُّوا بسنَّةِ مُعْلِمينَ جَحاجحِ

لَبِسوا السَّوابغَ فى الحُروبِ كأنَّها غُدُرٌ تَحيّزُ فى بُطونِ أباطحِ

وإذا الضِّرابُ عن الطِّعانِ بدا لهم ضَربوا بمُرْهَفةِ الصُّدورِ جَوارِحِ».

ويمضى حتى آخر القصيدة فى تأبينه على هذا النحو مركزاً على شجاعته وبسالته وبطولته ودوره البارز فى الجهاد وقهر الأعداء . وهى المعانى التى طالما أبانوا عنها وداروا

(١) الأغانى (ط. الدار) جـ ٥ ص٣٨١. واعتبرها ابن خلكان (وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٩٣): «من غرر القصائد».

(٢) الأمالى لأبى على القالى جـ٣ (الذيل والنوادر) ص ١٠٠ وأمالى اليزيدى ص ١ والعقد الفريد جـ٤ ص ٢٨٨ مع اختلاف فى الترتيب .

حولها فى رثاء القواد وقتلى الفتوح والشهداء. غير أننا نجد اتجاهاً آخر فى هذا النوع من الرثاء ، يسعى إلى إبراز بعض السلبيات إلى جانب تمجيد القتلى ؛ فمن يموت فى تلك البلاد البعيدة -كـ«قندهار» فى أبيات لابن مفرغ الحميرى - «يرجم دونه الخبر» ولا تجد أشلاؤه المتناثرة فى الدروب من يحملها ويعنى بها ويكرمها - وهو أقل ماينبغى لها - بالدفن :

«كم بالدُّروبِ وأرضِ الرُّومِ مِن قَدَمٍ ... ومن جَماجمِ قتلَى ماهمُ قُبِروا
ومن سَرابيلِ أبطالٍ مُضرَّجــــةٍ ... ساروا إلى الموتِ ماخاموا ولا ذُعِروا
بقُنْدَهارَ ومَن تُختَمْ مَنِيَّتُــــه ... بقُنْدهارَ يُرَجَّمْ دونهُ الخَبَــــرُ»[1].

والفرار أثناء القتال سلبية أخرى يذكرها مسكين بن عامر - وإن كان قد وقع فيها مع غيره - فى رثائه لعمر بن سعد :

ليتنا قبلَ ذلك اليومِ متْنــــا ... أو فَعلنا ماتَفْعلُ الأحرارُ
فعلَ قومٍ تَقاذفَ الخيرُ عنهمْ ... لم نُقاتِلْ وقاتلَ العَيْــزارُ
وتَولَّيتُ عنهمُ وأُصيبـــــوا ... ونَفاني عنهمْ شَنارٌ وعارُ»[2].

فهو عار لا يعرفه الأحرار وإنما يقع فيه - وقد وقع فيه بعضهم بالفعل - الذين يحرصون على الحياة ولا يلتفتون إلى مافى صنيعهم هذا من ذل.

٣ - اتجه الرثاء لدى الأمويين - كما اتجه لدى الأحزاب الأخرى - نحو الاحتجاج لهم والدفاع عن حقهم فى الخلافة والتأييد. ولم تكن للحزب الأموى حجة فى المطالبة بالخلافة تضاهى حجج المعارضين . لذا فقد وجدنا شعراءهم يدورون حول معان عامة لايفتأون يذكرونها ؛ كشرف بنى أمية ومكانتهم فى قبيلتهم ، وحسن سياستهم ، وشجاعتهم ، وتفضيل الله عز وجل لهم بمؤازرتهم على خصومهم وظهورهم على أعدائهم وكثرة انتصاراتهم واختيارهم من دون الناس.

وهذه المعانى يجمعها فى تصورى أصل واحد ؛ هو الكفاءة ، فمادامت الخلافة فى

(١) شعر ابن مفرغ الحميرى - جمعه د. داود سلوم (مكتبة الأندلس - بغداد سنة ١٩٦٨ م) ص ٧٩، ٨٠.

(١) تاريخ الطبرى جـ٦ ص ٧٠ .

قريش كما نص النبى ﷺ دون تحديد لبطن من بطونها ، فهم أكفأ هذه البطون أو هكذا أشاع شعراؤهم لإقناع الرعية بهم، فقد جمعوا بين الشرف القديم المتوارث منذ الجاهلية والشرف الحديث الذى اكتسبوه فى الإسلام ؛ حيث تولى أحدهم – وهو عثمان رضى الله عنه – الخلافة فى الوقت الذى كان فيه أجلة الصحابة من المهاجرين والأنصار باختيارهم له وتقديمه على من سواه، كما تولى كثير منهم الإمارة وقيادة الجيوش فى حركة الردة والفتح. وأضيف إلى شرفهم وقرابتهم من النبى ﷺ الغنى – الذى هو مظنة العفاف – والكرم، وضبط أمور الناس، وقمع الخصوم، ونشر الإسلام وازدياد رقعة الدولة وتثبيت مكانتها وهيبتها لدى الدول المجاورة المتربصة بالإسلام وأهله .

وهم فى هذا الأصل يشتركون مع الزبيريين . ولا غرابة، فكلاهما ينطلق من مفهوم مذهبى واحد؛ هو مفهوم أهل السنة والجماعة، وأهل السنة لا يخرجون الخلافة عن قريش كما فعل الخوارج، ولايقصرونها على بطن واحدكما فعلت الشيعة [1].

ونجد هذه المعانى التى تندرج تحت هذا الأصل مبثوثة متفرقة فى مراثيهم للخلفاء ؛ ففى رثاء سليمان بن عبد الملك يقول عويف :

« لاحَ سَحابٌ فرأينا بَرْقَهُ

ثُمَّ تَدانى فسَمِعْنا صَعْقَهُ

وراحتِ الرِّيحُ تُزَجِّى بُلْقَهُ

ودُهْمَهُ ثُمَّ تُزَجِّى وُرْقَهُ

ذاكَ سَقَى قَبراً فَرَوَّى وَدْقَهُ

قبرَ امْرِئٍ عَظَّمَ ربِّى حَقَّهُ

قبرَ سُلَيمانَ الَّذى مَن عَقَّهُ

وجَحَدَ الخيرَ الَّذى قد بَقَّهُ

(١) يقول عبد القادر البغدادى فى كتابة (الفرق بين الفرق) ص ٣٧٢ عند حديثه عن الأصل العاشر من الأصول التى اجتمع عليها أهل السنة: «وقالوا من شرط الإمامة النسب من قريش .. على خلاف قول من زعم من الضرارية أن الإمامة تصلح فى جميع أصناف العرب وفى الموالى والعجم، وخلاف قول الخوارج بإمامة زعمائهم الذين كانوا من ربيعة وغيرهم ....».

فـى المسـلمـين جلّه ودقّه

فـارق فى الجحـود منه صدقه

قـد ابتلى الله بخـيـر خلقه

ألقى إلى خـيـر قريش وسقه» (١).

وفيها يركز على الخير الذى أفاضه على المسلمين ويعتبره خير قريش، ثم يطلب من خليفته عمر بن عبد العزيز - فى أبيات تالية - أن يسير على نهجه ويترسم خطاه، وخاصة فى الجود ورعاية عيال المسلمين باستدامة ماكان يفرضه لهم من رزق .

وفى رثاء عمر بن عبد العزيز يقول محارب بن دثار :

«كم من شريعة حقّ قد أقمتَ لهم ... كانت أُميتتْ وأخرى منكَ تُنْتظرُ

يالهفَ نفسى ولهفَ الواجدينَ معى ... على النُّجوم الّتى تغتالُها الحُفَرُ

ثلاثةٌ مارأتْ عينٌ لهم شبهـاً ... يَضُمُّ أَعْظُمَهم فى المَسجد المَدَرُ

فأنتَ تتبعُهم لم تألُ مُجْتهـداً ... سَقْياً لها سُنَناً بالحقِّ تُقْتَفَـرُ» (٢).

وهو يشير إلى حفظه للدين وصيانته لأركانه وإحيائه لسنن الشريعة. وهى معان طالما رثى بها عمر بن عبد العزيز على وجه الخصوص. إلا أنه يعتبره فى هذا ثالث ثلاثة، مع الاثنين اللذين دفنا من قبله فى القبر نفسه؛ فهو يسير على منوالهم ويتتبع - مجتهداً - سننهم .

وهو عند شاعر آخر: «قسطاس الموازين» و «قوام الملك والدين» (٣). وعند جرير «خير من حج بيت الله واعتمرا»، حمّل عبئاً ثقيلاً فاصطبر له وقام فيه بأمر الله، حتى لقد كسفت الشمس لمصرعه وبكته النجوم فى السماء (٤).

---

(١) شعراء أمويون جـ ١ ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) الأمالى لأبى على القالى (دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٧٨م) جـ٢ ص٣ / سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص ٣٣٥ .

(٣) الكامل للمبرد جـ٢ ص ٢٧٧/ تاريخ الطبرى جـ٦ ص ٥٧٢/ ونسبت لكثير فى إرشاد الأريب (ط. مرجليوث) جـ٥ ص٤٣ . ووضعها محقق ديوان كثير مع قصائد ومقطوعات أخرى تحت عنوان «أبيات منسوبة لكثير» . ديوان كثير ص ٥٣٨ .

(٤) ديوان جرير جـ٣ ص ٧٦.

وفى رثاء الوليد بن يزيد على ماعرف به من ميل إلى حياة اللهو والمجون يقول ابن ميادة :

«ألا يا لَهْفتَىْ على وَليــدٍ ... غَداةَ أصابهُ القَـدرُ المُتـاحُ

ألا أبكى الوَليدَ فتى قُريشٍ ... وأسْمحَها إذا عُدَّ السَّمــاحُ

وأجْبرَها لذى عَظمٍ مَهيضٍ ... إذا ضنّتْ بدرّتـها اللِّقاحُ» ؟[1].

فهو «فتى قريش» و«أسمحها» و «أجبرها» لمن هيض عظمه عند الشدائد و الملمات.

وكذا الأمر فى رثاء الأمراء والقواد ؛ فابن مسمع عند أبى جلدة اليشكرى فياض كريم كالبحر فى جوده، قوى شجاع كالشهاب فى مواجهة الأعداء، ذخر النوائب وخلف الأخيار:

«أقولُ للنّفسِ تأساءً وتَعْزِيــــةً ... قد كانَ من مِسْمَعٍ فى مالكٍ خَلَفُ

يامِسْمعَ الخَيرِ مَن ندعو إذا نَزَلتْ ... إحدى النّوائبِ بالأقوامِ واختَلفــوا

....

كنت الشّهابَ الّذى يُرْمى العَدوُّ به ... والبَحْرَ منه سِجالُ الجُود تَـغْـتَــرِفُ»[2].

ونصر بن سيار عند أبى عطاء السندى عدة الحرب وملجأ الضيف والجار ومصباح كل ظلماء ماض على الهول، مقدام، صادق، وفىٌّ غير غدار :

«فاضتْ دُموعى على نَصرٍ وما ظَلَمــتْ ... عَينٌ تَفيضُ على نَصْرِ بنِ سَيـّـارِ

يانَصرُ مَن للقاءِ الحَربِ إن لَقِحــتْ ... يانَصــرُ بعدَكَ أو للضّيفِ والجارِ

الخِنْدفىُّ الّذى يَحمى حَقيقَتَــهُ ... فى كلّ يومٍ مَخوفِ الشرِّ والعارِ

والقائدُ الخيَل قُبّاً فى أعنّتِهـــا ... بالقَومِ حتّى تلُفَّ القارَ بالـقارِ

مِن كلّ أبيضَ كالمصباحِ مِن مُـضرَ ... يَجلو بُسنّته الظّلماءَ للسّارى

ماضٍ على الهَولِ مِقْدامٌ إذا اعترَضتْ ... سُمْرُ الرّماحِ وولّى كـــلُّ فَرّارِ

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) شعراء أمويون جـ ٤ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

إن قالَ قولاً وَفَى بالقولِ مَوعِـدُه　　　إنَّ الكنانيَّ وافٍ غيرُ غَــدّارِ»[1].

وزياد ابن أبيه عند حارثة بن بدر الغدانى ، سيد قريش، تقى، يعرف المعروف وينكر المنكر، كريم جواد فى حالى الشدة واليسر، ذو خير كثير وقدم ثابتة فى الدين :

« صلّى الإلهُ على قبرٍ وطَـهّـرَهُ　　　عندَ الثَّوِيَّةِ يَسْفِى فَوقَهُ المُــــورُ

زَفَّتْ إليه قُريشٌ نَعْشَ سَيِّدِهــا　　　فثَمَّ كلُّ التُّقَى والبِرُّ مقبـــور

أبا المُغيرة والدُّنيا مُفَجِّعَــــةٌ　　　وإنَّ مَن غرَّتِ الدُّنيا لَمَغْـــرورُ

قد كانَ عندَكَ بالمَعْروفِ مَعْرفـةٌ　　　وكانَ عندَكَ للنكْراءِ تنكيـــرُ

وكنتَ تُفْشِى وتُعْطِى المالَ مِن سَعَـةٍ　　　إن كانَ بيتُكَ أضحَى وهْوَ مَهْجورُ

ولاتَلِينُ إذا عُوسِرتَ مُقْتَسِـراً　　　وكلُّ أمرِكَ مايُوسِرتَ مَيْســـورُ

....　　　............

لو خَلّدَ الخيرُ والإسلامُ ذا قَـدَمٍ　　　إذاً لخلّدَكَ الإسلامُ والخيـــرُ»[2].

وأسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان – فى رثاء ابن عرس العبدى له – ملك مطاع كان يحكم قبضته على البلاد ، فلما مات انفرط عقد الجماعة بها، غيث مريع، شجاع بطل، أتاه حمامه وهو يؤدى واجبه جندياً من جنود الله فى ذلك الصقع البعيد :

«نَعَى أَسَـدَ بنَ عبدِ اللّهِ نـاعٍ　　　فَرِيعَ القلبُ للمَلِكِ المُطـاعِ

ببَلْخٍ وافقَ المِقْدارَ يَسْـــرى　　　وما لقَضاءِ ربِّكَ من دِفــاعِ

فجُودِى عينُ بالعَبَراتِ سَحـاً　　　ألَمْ يَحزُنْكِ تَفْريقُ الجمــاعِ

أتاهُ حِمامُهُ فى جَوفِ ضِيـعٍ　　　وكم بالضِّيْعِ مِن بَطَلٍ شُجاعِ

كَتائبُ قد يُجيبونَ المُنـادى　　　على جُرْدٍ مُسَوَّمةٍ سِـــراعِ

سُقِيتَ الغيثَ إنّكَ كنتَ غَيْثاً　　　مَرِيعاً عِندَ مُرْتادِ النَّجـــاعِ»[3].

---

(1) الأغانى جـ ١٧ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣.
(2) شعراء أمويون جـ ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
(3) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٣٢٥ .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا كل رثاء يخلع فيه الشعراء مثل تلك الصفات على خلفاء بنى أمية وعمالهم بغية الاحتجاج لهم بالكفاءة فى سياسة الرعية وإثبات أحقيتهم فى الخلافة بناء على هذا الأصل الذى استعاضوا به عن ضعف حجتهم فى مواجهة حجج الخصوم، أو بالأحرى عن ضعف نظريتهم السياسية فى التفرد بالحكم [١].

وتظهر فى مراثيهم أيضاً فكرة «الحق الإلهى المقدس»؛ فالملك منحة وهبة من الله يؤتيه من يشاء ويصرفه عمن يشاء، وقد آتاه بنى أمية، فهم يحكمون الناس باسمه وباختياره هو لا باختيار الناس. لذا وجدنا ابن همام السلولى ينبذ فكرة الشورى ويدعو الخليفة إلى مواجهة من يدعون إليها بالسيف [٢]. ووجدناه يخاطب يزيداً فى رثائه لأبيه بقوله :

« اصْبِرْ يَزيدُ فقد فارقتَ ذاثِقَةٍ   واشكُرْ بَلاءَ الّذى بالمُلْكِ أَصْفاكا
أصبحتَ تَمْلِكُ هذا الخَلْقَ كلَّهمُ   فأنتَ تَرْعاهمُ واللهُ يَرْعاكا» [٣].

وهو يؤثر استخدام «الملك» على «الخلافة» ، وكان حكام بنى أمية ملوكاً بالفعل [٤]. ويرى أن هذا الملك اصطفاء من الله؛ فقد اصطفى يزيد له، ثم هو بعد ذلك يرعاه، ويرعى يزيد بدوره - باعتباره صفى الله ومؤتمنه على رعيته - الرعية.

ونجد العبلى - وهو واحد منهم نسباً وهوى - يقول فيهم محتجاً :

---

(١) مراث أخرى لجرير (ديوانه) جـ ٣ ص ٧١٩ / ونصيب بن رباح (شعر نصيب) ص ٨٧ ، ٨٨، ١٣٩ / والعجير (طبقات فحول الشعراء) ص ٦٢٤ / وابن همام السلولى (طبقات فحول الشعراء) ص ٦٢٦ : ٦٢٨ / ونهار بن توسعة (الأمالى لأبى على القالى) جـ٢ ص ٢٠١ / والأشهب بن رميلة (شعراء أمويون) جـ٤ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ وزياد الأعجم (الأمالى) جـ ٣ ص ٨ :١١ و(الشعر والشعراء) جـ ١ ص ٤٣٨ .

(٢) طبقات فحول الشعراء - المجلد الثانى ص ٦٣٠ ، ٦٣١ .

(٣) الكامل للمبرد جـ ٤ ص ١١٢ / العقد الفريد جـ٤ ص ٣٠٨ .

(٤) قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز حدثنا حماد بن سَلَمَة حدثنا سعيد بن جمهان عن سفينة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافةُ ثلاثونَ عاماً ثُمَّ يكونُ بَعدَ ذلكَ المُلْكُ». أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره. قال العلماء: لم يكن فى الثلاثين بعده عليه الصلاة والسلام إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن. تاريخ الخلفاء للسيوطى ط٤ (المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م) ص ٩ ، ١٠ . وفيه أيضاً ص ١٩٩ : «أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن سعيد بن جمهان قال: قلت لسفينة : إن بنى أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، قال: كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من أشد الملوك، وأول الملوك معاوية».

«وحَبا أُميّةَ بالخلافة إنّهم نُورُ البلاد وزَيْنُها وبَهاؤها

فبنو أُميّةَ خيرُ مَن وَطِئ الثرى شرَفاً وأفضلُ ساسة أُمَرَاؤهـا»[1].

وفيهما يجمع بين الكفاءة التى نلمحها فى كونهم: «خير من وطئ الثرى شرفاً» وكونهم: «أفضل ساسة» وكونهم: «نور البلاد وزينها»، وبين فكرة الملك الممنوح؛ فهو الذى قد حباهم بالخلافة وقلدهم إياها.

ونجد الأخطل يحتج لهم أيضاً بقوله:

«تمّتْ جُدودُهمُ واللّهُ فَضّلَهمْ وجَدُّ قَومٍ سِواهمْ خامِلٌ نَكِدُ»[2].

فاختيار الله تفضيل لهم على غيرهم، وقد تم بذلك جدهم، وتعثرت بالآخرين - ولعله يعنى خصومهم - الجدود .

٤- خاض الأمويون حملات كثيرة للتشهير بخصومهم من الشيعة والخوارج والزبيريين وغيرهم؛ بإسقاط مايدعونه من حق فى الخلافة، وتقليل شأنهم ، وهز صورتهم؛ لصرف الأنظار عنهم وفض الجموع من حولهم. وكان بنو أمية يدركون ما للشعر من أهمية فى تلك الحملات الدعائية، فكانوا يوجهون الشعراء توجيهاً ويغدقون عليهم فى العطاء، ولايقصرون فى صرف شعراء الأحزاب الأخرى المناوئة والعمل على اكتسابهم فى صفوفهم بشتى الوسائل والأساليب، فاجتمعت من حولهم طائفة كبيرة بعضها من الطامعين الذين احترفوا الشعر احترافاً، وأخرى من الخائفين اللاجئين الباحثين عن أمان، فضلاً عن شعرائهم الذين عبروا عن وجهة نظرهم ودافعوا عن قضيتهم، لا عن رغبة أو رهبة وإنما عن ولاء حقيقى واقتناع .

وقد وجد هؤلاء الشعراء أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم كما يقال وخصوصاً أن الأدلة التى يتكئون عليها فى الاحتجاج لأصحابهم ضعيفة - كما سبق أن ذكرت - إذا ماقيست بأدلة الخصوم ، فاتجهوا فى بعض مراثيهم نحو الإدانة والتنديد والتشهير بهؤلاء الخصوم للنيل منهم والانتقاص . فالخوارج - فى رثاء كعب بن معدان لقتلى جيوش

---

(١) الأغانى (ط. الدار) جـ١١ ص ٣٠٩ .

(٢) ديوان الأخطل - ت .د. فخر الدين قباوة ط ٢ (منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م) ص ٤٤٥ .

بنى أمية فى رامهرمز وسابور وجيرفت - جائرون عن القصد مائلون عن الإسلام متبعون لدين يخالف كل أديان السماء، بل هم -ويرميهم بذلك صراحة كما كانوا يرمون هم أيضاً غيرهم من المسلمين - كفار، فى الوقت الذى يصف فيه أصحابه بأنهم معتصمون بحبل الله متمسكون بآياته مؤمنون:

«إنّا اعْتَصمنا بحَبلِ اللّهِ إذ جَحَدوا ... بالمُحْكَماتِ ولم نَكْفُرْ كما كَفَروا

جاروا عن القَصْدِ والإسلامِ واتّبَعوا ... ديناً يُخالفُ ماجاءتْ به النُّـــذُرُ»[1].

وهم ذوو كيد ومكر وإن لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم شيئاً عند القتال:

«لم يُغْنِ عنهمْ غَداةَ التَّلِّ كَيْدُهمُ ... عندَ الطِّعانِ ولا المَكْرُ الّذى مَكَروا»

وطالما استباحوا - بتكفيرهم للأمة - مااستباحوا من الحرمات وسفكوا ماسفكوا من الدماء :

« وزادَنا حَنَقاً قَتلَى نُذَكَّرُها ... لا تَسْتَفيقُ عُيونٌ كلَّما ذُكِروا

إذا ذَكَرنا جَرُوزاً والّذينَ بها ... قَتلَى مَضَى لهمُ حَوْلانِ ماقُبِروا

تأتى علينا حَزازاتُ النُّفوسِ فما ... نُبقِى عليهم ومايُبْقونَ إن قَدَروا» .

وهم - فى رثاء محمد بن معاذ بن عبيد الله بن معمر التيمى المدنى لقتلى قديد - «خصم ألد» ، «يشغب بالظلم» . فطالما استباحوا الحرمات ونشروا الفساد:

« وكأنّ المَنونَ تَطْلُبُ منّـــى ... ذَحْلَ وِتْرٍ فما تُريدُ بَراحـــى

بَعدَ رُزْءٍ أُصبتُه بقُدَيـــــــدٍ ... هَدّ رُكْنى وهاضَ منّى جَناحِى

لخيارِ الجَميعِ قَومِى مِن بَنى عُثْــ ... ـمانَ كانوا ذَخيرتى وسِلاحِى

وبِخَصمٍ ألَدَّ يَشْغَبُ بالظُّلْــــ ... ـمِ إذا أكثَرَ الخُصومُ التَّلاحِى»[2].

وهى (نفثة) حارة يتجه بعدها نحو الإثارة لبيان ما ارتكبوه من عظيم الجرم بأهل

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ٣٠٨ / شعراء أمويون جـ٢ ص ٤٠١ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٤٨ وفيه مراث أخرى لقتلى قديد - بالصفحة نفسها والتى تليها - يتجه بعضها نحو الإثارة بالمبالغة فى الندب وبيان ماصنع الخوارج بأهل المدينة من قتل وسلب، ويتجه بعضها الآخر نحو الفخر - كرد فعل للهزيمة - وذلك فى معرض التأبين.

المدينة على مالهم ولبلدتهم من الحرمات.

ويستغل الأمويون قتل مصعب بن الزبير لعمرة بنت النعمان بن بشير فى التشهير به وبحزب الزبيريين. وكانت عمرة تحت المختار، وقد شهدت له بعد موته ورفضت أن تتبرأ منه فسجنها مصعب «وكتب فيها إلى عبد الله بن الزبير أنها تزعم أنه نبى ، فكتب اليه أن أخرجها فاقتلها». فقتلها بين الكوفة والحيرة [1] ورثاها عمر بن أبى ربيعة :

«إنَّ من أعْظَمِ الكَبائرِ عندى ... قتلُ حَسْناءَ غادةٍ عُطبولِ

قُتلتْ باطلاً على غَيرِ ذَنْبٍ ... إنَّ للّه درَّها من قَتيـــلِ

كُتِبَ القَتلُ والقِتالُ علينا ... وعلى المُحْصناتِ جرُّ الذُيولِ» [2].

وهو يسخر مما صنعوه بها دون أن يتطرق إلى معان سياسية كتلك التى تطرق إليها سعيد بن عبد الرحمن فى رثائه لها، ويبدو أن سعيداً كان كجده حسان يميل إلى الأمويين ، فحفزته أمويته إلى التنديد بآل الزبير فرماهم بالإلحاد وتمنى لهم الذل والخوف والهوان، وبالغ فى وصفها بالطهر والعفاف والدين والحسب، وأبرز مكانة قومها الأنصار ودورهم فى نصرة النبى ﷺ ونصرة دين الإسلام، فهى لاتستحق مافعلوه بها، وهو فى تصوره أمر جلل، أو على حد تعبيره «نبأ عجب» يقول سعيد :

«أتى راكبٌ بالأمرِ ذى النَّبأ العَجَبْ ... بقَتلِ ابنة النعمانِ ذى الدِّينِ والحَسَبْ

بقَتلِ فَتاةٍ ذاتِ دَلٍّ سَتيــــرةٍ ... مُهذَّبة الأخْلاقِ والخِيمِ والنَّسَـبْ

مُطَهَّرةٍ من نَسلِ قومٍ أكــــارمٍ ... من المُؤثِرِينَ الخَيرَ فى سالفِ الحقَبْ

خليلُ النَّبىِّ المُصطفى ونَصيـرُهُ ... وصاحِبُهُ فى الحَربِ والنَّكْبِ والكُـرَبْ

أتانى بأنَّ المُلْحدينَ تَوافقـــوا ... على قَتلِها لا جُنِّبوا القَتلَ والسَّلَـبْ

فلا هنَأتْ آلَ الزُّبَيرِ مَعيشــةٌ ... وذاقوا لِباسَ الذُّلِّ والخَوفِ والحَـرَبْ

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٦ ص ١١٢ .

(٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٨) ص ١٧٦ فى الشعر المنسوب إليه وهو الذى اختلفت الأقوال فيه / الكامل للمبرد جـ٣ ص ٢٤٦ / تاريخ الطبرى جـ٦ ص ١١٢ / الكامل لابن الأثير جـ٣ ص ٣٨٦ وقد نسبت فيها جميعاً إليه .

كأنهمُ إذ أبرزُوها وقُطِّعـــــــتْ بأسيافهم فازوا بمَمْلَكَةِ العَـــــــربْ»[1].

ويمضى فى تأبينها حتى آخر القصيدة مفصلاً لما أجمله فى بداية الأبيات من وصفها بأنها ذات أخلاق مهذبة عفيفة وذات دين وحسب ، ليستثير العجب ممن قتلوها على غير ذنب وهى امرأة مستضعفة، فهل يؤمن مثل هؤلاء على أمور الناس مع مايفعلونه بالضعفاء الأبرياء؟ وكيف تكون الحال إذا تولوا أمر الأمة ؟

«ألم تَعْجَبِ الأقوامُ مِن قَتلِ حُـــرَّةٍ منَ المُحْصنَاتِ الدِّينِ مَحمـــودةِ الأَدَبْ
مِن الغافلاتِ المُؤمناتِ بَريئـــةٍ مِن الذَّمِّ والبُهْتانِ والشَّكِّ والكَــذِبْ
علينا كتابُ القتْلِ والبأْسِ واجبٌ وهُنَّ العفَافُ فى الحِجالِ وفى الحُـجُبْ
على دينِ أجْدادٍ لها وأُبُـــــوَّةٍ كرامٍ مضتْ لم تُخْزِ أهلاً ولم تُـــرِبْ
من الخَفِراتِ لا خَرُوجٌ بذيَّـــةٌ ملائمةٌ تَبْغى على جارِها الجُـــنُبْ
ولا الجارِ ذى القُرْبى ولم تَدرِ ماالخَنـا ولم تَزدلِـفْ يوماً بسُوءٍ ولم تَجِـــبْ
عَجِبتُ لها إذ كُفِّنَتْ وهْىَ حَيَّـةٌ ألا إنَّ هذا الخَطبَ مِن أعْجبِ العَجَبْ» ؟

ويستغل عبد الله بن الزَّبير الشاعر الأموى قتل عبد الله بن الزُّبَيْر لأخيه عمرو فى التنديد كذلك بالزبيريين و التشهير بهم . وكان عمرو صديقاً له . وكان تابعاً لبنى أمية وهو الذى أرسلوه على رأس جيش لقتال عبد الله فى مكة فانتصر عليه عبد الله وحبسه ومكن منه كل من ادعى أن له حقاً عليه ، فكانوا يقتصون منه دون أن تطلب منهم بينة حتى مات فى سجنه ، فرثاه الشاعر بقصيدة طويلة رمى فيها زعيم الزبيريين ــ أو كبير بنى العوام على حد قوله ــ بالغدر و قطيعة الأرحام واستفظع ما فعلوه به فى السجن من تعذيب حتى الموت :

« أيا راكباً إمّا عَرَضتَ فبلِّغَـــنْ كَبيرَ بَنى العَوّامِ إن قيلَ مَن تَعْنـى
ستَعلم إن جالَتْ بكَ الحَربُ جَوْلةً إذا فَوّقَ الرّامون أسهمُ مَن تُغْنـــى
فأصبَحتِ الأرحامُ حينَ وَليتَها بكفّيكَ أكْراشاً تُجرُّ على دِمْـــنِ

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ١١٣ / الكامل لابن الأثير جـ٣ ص ٣٨٧ .

عَقَدتمْ لعَمْرِو عُقْدةً وغَدْرتـــمُ ... بأبيضَ كالمصْباحِ فى لَيلة الدَّجْنِ
وكبَّلتهُ حَولاً يَجودُ بنفْســـه ... تنوءُ به فى ساقه حَلَقُ اللَّبْـــنِ
فما قالَ عَمْرٌو إذ يَجودُ بنفْســـه ... لضاربه حتّى قضَى نَحْبَهُ دَعْنــــى»[1]

وسخر منه ومما كان يدعيه من أنه «عائذ» بالبيت، خرج إليه طالباً الأمان، وهو يقتل المسلمين فيه دون مراعاة لحرمته ولا لحرمة هؤلاء القتلى :

« تُحدِّثُ مَن لاقيتَ أنَّكَ عائذٌ ... وصرَّعتَ قتلى بينَ زمْزمَ والرُّكْنِ».

ومضى فى تصوير مافعله بأخيه مستبشعاً له ومعبئاً للمشاعر ضده، ثم توعده فى آخر الأبيات بالوقوع فى تلك البئر التى حفرها، فهو الذى أعلن العصيان وأسال ماأسال من الدماء :

«جعلتم لضَرْبِ الظَّهْرِ منهُ عِصِيَّكم ... تُراوِحُهُ والأصْبَحيَّةُ للبَطْـــنِ
تُعذِّرُ منهُ الآنَ لمَّا قتلتَـــــهُ ... تفاوتَ أرجاء القَـليب من الشَّطْنِ
فلم أرَ وفداً كـانَ للغَدْرِ عـاقِـداً ... كوَفْدِكَ شدُّوا غيرَ مُوفٍ ولا مُسْنِــى
وكنتَ كذاتِ الفِسقِ لم تدْرِ ماحوَتْ ... تُخيِّرُ حالَيها أتسرقُ أم تزْنــــى
جزى اللهُ عنّى خالداً شرَّ ماجَـــزى ... وعُرْوةَ شرّاً مِن خليلٍ ومِن خِـــدْنِ
(لعَمْرى لقد أردى عُبَيدَةَ جـارَهُ ... بشَنْعاءَ عـارٍ لاتُوارَى على الـدَّفْنِ
وقد كانَ عَمْرٌو قبلَ أن يَغـدُروا بـــه ... صَليبَ القَناة ماتَلينُ على الدَّهْنِ)
قتلتُم أخاكم بالسِّياط سَفاهــــةً ... فيـالَكَ للرَّأى المُضَـلَّلِ والأفْـــنِ
فلو أنَّكم أجْهـزتمُ إذ قتَلتــــمُ ... ولكن قتَلتُم بالسِّيـاط وبالسِّجْـنِ
وإنِّى لأرجو أن أرَى فيكَ ماتَـرى ... به مِن عِقـابِ الله مـادُونَهُ يُغْنـى
قَطَعتَ على الأرْحامِ ماكان واشِجاً ... على الشَّيبِ وابْتَعتَ المخافَـةَ بـالأمْنِ
وأصبحتَ تَسعَى قاسِطاً بكَتيبـــةٍ ... تُهـدِّمُ مـاحَولَ الحَطيمِ ولا تَبْنِى

(١) شعر عبد الله بن الزبير الأسدى – جمعه وحققه د. يحيى الجبورى (دار الحرية – بغداد سنة ١٩٧٤م) ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

فلا تَجْزَعَنْ مِن سُنَّةٍ قد سَنَنْتَهـا فما للدِّماءِ الدَّهرَ تُهْرَقُ مِن حَقْنِ» .

ومن غريب أن هذا الشاعر كان فى بداية أمره على هواهم ثم انصرف عنهم مع تطور الأحداث وتعصب للأمويين تعصبا شديدا أعماه عن فضل هذا الصحابى الجليل فقال فيه وفى أنصاره ما قال. ثم عاد ليندد به من جديد فى رثائه لقتلى بنى أمية ممن كانوا يتجسسون لحساب عبد الملك على ابن الزبير فى مكة. ودار مرة أخرى حول التناقض بين مايدعيه عبد الله ومايفعله؛ فعلى حين يزعم أنه عائذ بمكة نراه – على حد قول الشاعر – يكثر من القتل على غير ذنب ويريق الدماء حول البيت :

«أيُّها العائذُ فى مَكَّةَ كمْ مِن دَمٍ أجْرِيتَهُ فى غَيرِ دَمْ
أيَدٌ عائـــذةٌ مُعْصِمَةٌ ويَدٌ تَقْتُلُ مَن جاءَ الحَرَمْ»[1] .

وهو يبرز جانبين هامين يحاول من خلالهما التشكيك فيما عرف به عبد الله من زهد وتقوى وورع ، وهى من أهم وسائله فى إثبات أحقيته وجدارته بالخلافة والتفاف الناس حوله، فإن صح هذان الجانبان – وقد حاول جاهداً إثباتهما بالإلحاح الشديد عليهما – نجح فى سحب البساط من تحته، وصرف الناس عنه، وهما الكذب، والاستهانة بالحرمات. وعبدالله هو رأس الحزب ، وفى النيل منه نيل من أتباعه وشيعته .

وثمت صدى خفيف للتشهير بالموالى يظهر فى مراثى الشعراء لسعيد بن عثمان بن عفان قتيل الصغد. وفيه يقول خالد بن عقبة :

«ألا إنَّ خيرَ النّاسِ نَفساً ووالـــداً سَعيدُ بنُ عُثْمانٍ قَتيلُ الأعاجِمِ
بَكَتْ عَينُ مَن لم يَبكِه وَسْطَ يَثْرِبٍ مَدَى الدَّهرِمنهُ بالدُّموعِ السَّواجِـمِ
فإن تكنِ الأيّامُ أردَتْ صُروفُهـــا سَعيداً فمن هذا عليها بسالـمِ»؟[2] .

(١) شعر عبد الله بن الزبير ص ١٣٢ .
(٢) الأغانى جـ ٢ ص ٢٥٨ .

فهم لم يتورعوا عن قتله على الرغم من مكانته تلك وخيريته وخيرية أبيه. وهذا المعنى يؤكده عبد الرحمن بن أرطاة بن سيحان ، ويضيف أنهم قتلوه بلا ترة ليضفى على ماصنعوه صفة الغدر :

«ألا إنّ خيرَ النّاسِ إن كُنتَ سائلاً سَعيدُ بنُ عُثْمانَ القَتيلُ بلا ذَحْلِ
تَدَاعتْ عليهِ عُصْبَةٌ فارسِيّـــــةٌ فأضحى سَعيدٌ لايُمرُ ولا يُحْلِـــى»[1].

إلا أن هذا الشعر لايرقى – فى التشهير بالخصوم – إلى ما رقى إليه شعرهم فى الخوارج والزبيريين ، وينحو أو يكاد منحى شخصياً أكثر من ارتباطه بالصراعات الحزبية السياسية والمذهبية .

٥ – اعتمد الأمويون على العصبيات فى تثبيت دعائم ملكهم والقضاء على خصومهم، ومنها العصبية الإقليمية التى ظهرت فى الصراع بين على ومعاوية، والعصبية القبلية التى نحن بصددها الآن. فقد وضح منذ البداية وقوف قبائل اليمن – وخصوصاً قبيلة كلب – خلف البيت السفيانى فى وجه ربيعة ومضر فى صراع بنى أمية ضد الشيعة، وخلف البيت المروانى فى وجه قيس فى صراعهم ضد الزبيريين .

واستمر اعتماد بنى أمية على القبائل اليمنية طيلة ملكهم وإن كانوا قد راوحوا فى بعض الأحيان بينها وبين القبائل المضادة لها كلما أحسوا بازدياد نفوذهم وسطوتهم وخشوا على أنفسهم منهم. وكان من جراء ذلك اشتعال تلك الجمرة التى غطاها الإسلام طيلة الصدر وأحل محلها مبادئ أخرى كالأخوة الدينية، فقد عادت العصبية جزعة تأكل الروابط والعلاقات التى قام عليها المجتمع الجديد، وتشعل العداوة بين القبائل والبطون، فتندلع الحرب فى كل مكان، ويكثر القتلى، ويكثر مع القتلى الرثاء .

وتبرز أسماء بعض الفحول كالفرزدق وجرير والأخطل، وتبرز أسماء أخرى لشعراء مغمورين، كلٌ يلهج بالثناء على قتلى قومه ويشيد بقبيلته ويفخر بأيامها ويدعو للثأر وينتقص من قدر خصومه ويعيرهم بأيام كانت عليهم ويكشف عن مثالبهم ويصفهم بأقبح الصفات. وقد يتطرقون إلى وصف المعارك والأسباب التى أدت اليها ونتائجها وماخلفته من آثار. وقد يميلون إلى التفصيل ويضيفون إلى تلك المعانى شيئا من النقد

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٢٥٨ .

السياسى ويلتفتون إلى دور الأحزاب وخاصة الحزب الأموى والزبيرى فى الارتكاز على العصبية وتوجيهها لخدمة أغراضهم فى الصراع الدائر بينهم من أجل الخلافة والسلطة. لذا فقد وجدنا القطامى يثور على الحرب المندلعة بين تغلب وقيس وهما أبناء عمومة واحدة ويدعو إلى الصلح وجمع الشمل قبل أن تبيد القبيلتان، ويفضح ساسة الأحزاب ويبرز دورهم فى إشعالها وإراقة ماأريق من الدماء. يقول القطامى .

«قفى قَبلَ التَّفرُّق ياضُباعا	ولايَكُ موْقفٌ منكِ الوَداعا
قفى فادى أسيرَكِ إنَّ قومى	وقومَكِ لا أرى لهمُ اجْتماعا
وكيفَ تَجامُعٌ معَ ما استَحلّا	من الحَرَمِ العظامِ وما أضاعا
ألم يحزُنْكِ أنّ حِبالَ قَيسٍ	وتَغْلبَ قد تَبايَنَت انْقطاعا
يُطيعونَ الغُواةَ وكان شَرّاً	لمُؤتَمِرِ الغَوايةِ أن يُطاعا
ألم يحزُنْكِ أنّ ابنَىْ نِزارٍ	أسالا مِن دِمائِهما التِّلاعا»[1] ؟

ونجد على بن الغدير يحذر قيساً من التمادى فى تلك الفتنة التى جرتهم إليها قريش والتى لا تخدم فى النهاية إلا أبناءها على حساب ماتريقه بين القبائل من دماء. يقول على :

«مَن مُبلغٌ قَيسَ بنَ عَيْلانَ كلَّها	بما احْتازَ منها أرضُ نَجْدٍ وشامُها
فلا تُهْلكنكم فتْنةٌ كلُّ أهلها	كحَيرانَ فى طَخياءَ داجٍ ظَلامُها
فشأنُ قُريشٍ بالخُصومةِ بَينَها	إذا اختَصَمتْ حتّى يقومَ إمامُها
همُ أخذوها بَينَ حَتْفٍ مُعجَّلٍ	وخُطّةِ خَسْفٍ لاتزالُ تُسامُها
فضُمُّوا جَناحَيكم إلى مُرْجَحنّةٍ	معاً حَرْبُها إن حارَبتْ أو سِلامُها
وشِيموا سُيوفَ الهِنْدِ حتّى تَبيَّنوا	على أىِّ أعْداءٍ يُسَلُّ حُسامُها
وخلّوا قُريشاً تَقْتتِلْ إنَّ مُلْكَها	لها وعليها بِرُّها وأثامُها

(١) ديوان القطامى ت.د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب . ط ١ (دار الثقافة - بيروت سنة ١٩٦٠م) ص ٣١ ، ٣٢ .

فإن وَسِعتْ أحلامُها وَسِعتْ لها وإن عَجَزتْ لم يَدْمَ إلا كلامُها

فإنّ قُرَيشاً مُهْلِكٌ من أطاعَهــا تنافُسُ دُنيا قد أحمَّ انصِرامُهــا»[1].

وهى من أعنف ماوجه للحزبين القرشيين – حزب ابن الزبير والحزب الأموى – معاً ؛ فالصراع الدائر بينهما والذى جر فى ركابه قبائل الشمال والجنوب، ليس – فى تصوره – صراعاً من أجل الدين وإنما هو صراع من أجل الدنيا والتنافس على الملك والسيادة، وقد غاب فيه ماعرفت به قريش من سعة الأحلام، وخلف على القبائل ـ إلى جانب ماخلفه من خراب ـ فتنة عمياء مظلمة حاروا فيها جميعاً وتمزق مابينهم من أواصر وتقاسمتهم الأهواء.

ومن غريب أن نجد لقطب من أقطاب الحزب الأموى فى تلك الفترة وهو مروان بن أمية شيئا من هذا القبيل، حيث قال وقد مر على شيخ صريع يوم المرج :

«ماضرَّ ذا غيرُ حيْنِ النُّفوسِ أىُّ أميرَىْ قُريشٍ غلَبْ»[2].

وفى رواية : «ماضرهم». وهو اعتراف صريح بما جرته قريش على تلك القبائل من تناحر لا يخدم كما سبق أن ذكرت إلا بنيها.

وعلى الجانب الآخر نجد شاعراً قرشياً وهو عبد الله بن الزبير ينعى قتلى قريش فى ذلك الصراع ويندد بقبائل قيس التى وقفت خلف ابن الزبير فى صورة زعيمها الضحاك يقول من أبيات :

«فمَن مُبْلغُ الضَّحَّاكَ عنّى رِسالةً ومثلُ الَّذى يأتى مِن الهَمِّ أنْصَبا

أبَحتَ قُريشاً دِينَها ودماءَهــــا أحابيش شتّى مِن خُشَينٍ وأَهْيَبــــا» [3].

ويقتل خالد بن عبد الله القسرى – فى الفتنة بين المضرية واليمنية – وتزداد الفتنة اشتعالاً بمقتله، وتودى الأحداث برأس خليفة من خلفاء بنى أمية هو الوليد بن يزيد.

---

(1) نقائض جرير والأخطل لأبى تمام – نشر أنطون صالحانى (دار المشرق – بيروت سنة ١٩٨٦م) ص ٢٣/ معجم الشعراء ص ١٣١ .

(2) نقائض جرير و الأخطل ص ٢١. وينسب مع بيت آخر لأخيه عبد الرحمن فى قتلى الجمل. الأغانى جـ ١٢ ص ٧٦ .

(3) نقائض جرير والأخطل ص ٢٢ .

ويثير مقتل الوليد حفيظة بعض الشعراء من مؤيديه وأتباعه، فيرثيه ابن ميادة بأبيات يتهم فيها بنى مروان صراحة وهم آله ، ويؤبنه بمكانته من قريش وبما عرف عنه من كرم وعطف. منها:

« لقد فَعَلَتْ بنو مَرْوانَ فِعْلاً وأمراً مايَسوغُ به القَراحُ»[1].

ويرثيه شبيب بن زيد أحد أحفاد النعمان بن بشير، فينعى على بنى أمية انقسامهم، وما آل إليه أمرهم من التنافس على الخلافة والصراع، ويتهمهم صراحة بقتل الوليد وسفك دمه، ويعتبر ذلك بغياً منهم وعدواناً وجرأة على ما للخلافة من قداسة كان يعرفها لها خيارهم الأولون . يقول شبيب :

«ياأيُّها الرّاكبُ المُزجي مَطيَّتَهُ لَـقيتَ حَيثُ تَوَجَّهتَ الثَّنا الحَسَنا

أبلغْ أميّةَ أعْلاها وأسْفلَهـا قَولاً يُنفِّرُ عن نُوّامِها الوَسَنـا

إنّ الخلافةَ أمرٌ كان يُعْظِمُـهُ خيارُ أوّلِكم قِدْماً وأوّلنـا

فقد بَقَرْتم بأيْديكم بُطونَكـمْ وقد وُعِظْتم فما أحسَنْتُمُ الأذنـا

لما سَفَكْتم بأيْديكم دِماءَكمْ بَغْياً وغَشَّيتمُ أبوابَكم دَرَنـا»[2].

ولعله فى نقده هذا كان يستشعر نهاية عهدهم ويتوقع انقضاء مدتهم وزوال دولتهم بما أحدثوه من استهانة بالمقدسات وتطاول على الحرمات، وتصارعهم من أجل الوصول إلى السلطة. وقد وصفهم بالنوام، وأراد لكلماته تلك أن تزيل عنهم ماغشاهم من الوسن، وتفتح آذانهم للإصغاء إليه. لكنهم كانوا كما يقول يسدون آذانهم فلا يحسنون الاستماع لمن يزجى النصح إليهم ويعظهم مخلصاً.

ومثل هذا نراه عند العبلى فى قصيدة طويلة ينعى فيها تفرقهم ويحذرهم من مغبة الاستمرار فى التناحر والصراع [3]. كما نراه فى مراثى الجهة الشرقية وخاصة خراسان فى الأحداث التى أودت بقتيبة بن مسلم وغيره من الأبطال والقواد الفاتحين العظام [4].

---

(١) الأغانى جـ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) نقلا عن كتاب: «تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجى زيدان جـ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الأغانى (ط. الدار) جـ ١١ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٤) تاريخ الطبرى جـ٦ ص ٥٢١ / شرح نقائض جرير والفرزدق جـ١ ص ٣٤٩ .

٦ـ ما إن سقط الحزب الأموى وقامت دولة بنى العباس وتتبع العباسيون أقطاب بنى أمية بالقتل والتنكيل حتى أثار الحنين بعض شعرائهم ممن ظلوا على الوفاء لهم إلى رثاء دولتهم ، وتحسروا على ماكان فيها من خير وما آل إليه أمر المسلمين على يد العباسيين من كبت وضيق .

ولم تكن صورة العباسيين قد ظهرت بعد بالصورة التى تكفى لعقد مثل هذه المقارنات وتوجيه مثل هذا النقد، ولكنه الوفاء لأتباعهم وموالى نعمتهم والخوف مما تخبئه الأيام على أيدى هؤلاء الخصوم وخصوصاً أنهم قد أماطوا اللثام عن وجه يتشفى بالثأر .

وغنى عن القول أن هذه المراثى صيغت فى عصر تال للعصر الذى ندرسه، لكنها قريبة عهد به، شديدة الاتصال بأحداثه السياسية والمذهبية. لذا فسوف نكتفى بالإشارة ونورد بعض النماذج دونما تفصيل.

ونشير أول مانشير إلى أبى عطاء السندى الذى حاول أن يتقى السفاح بمدحه فلم يثبه، وأظهر الانحراف عنه لعلمه بمذهبه فى بنى أمية، فلما عاود المدح شتمه شتماً قبيحاً وذكره برثائه لنصر بن سيار فخرج من عنده وهو يتحسر على عهد بنى أمية ويردد أشهر ماقيل من أبيات فى تلك الفترة وهى قوله :

« فلَـيتَ جَوْرَ بنى مَرْوانَ عادَ لنا وليـتَ عَدْلَ بنى العَبّاسِ فى النّارِ »[١].

وفيه يتمنى عودة ملك بنى أمية على ماعرفوا به من جور، وزوال ملك بنى العباس مع مايشيعونه فى الناس من أنهم أصحاب العدل، فالعبرة بما كان يجنيه ويجنيه المسلمون معه من خير حرموه، لا بالكلمات والشعارات.

ومثل هذا نراه فى بيتين آخرين له يصرح فيهما بحبه الشديد للأمويين ويتحسر كذلك على ضياع ملكهم وانتهاء دولتهم . يقول أبو العباس:

«أليسَ اللّهُ يَعلَمُ أنّ قَلْبِـــى يُحِبُّ بنى أميّةَ ما اسْتطاعا
ومابى أن يكونوا أهلَ عَدْلٍ ولكنّى رأيتُ الأمرَ ضاعا»[٢].

---
(١) الأغانى جـ ١٧ ص ٣٣٣ .
(٢) المصدر نفسه والصحيفة.

وممن رثى دولتهم كذلك وبكى عهدهم أبو سعيد مولى فائد «وهو يعرف فى الشعراء بأبى سنة مولى بنى أمية ، وفى المغنيين بأبى سعيد مولى فائد، وكان شاعراً مجيداً ومغنياً وناسكاً بعد ذلك فاضلاً مقبول الشهادة بالمدينة معدلاً، وعمر إلى خلافة الرشيد........ وله قصائد جياد فى مراثى بنى أمية الذين قتلهم عبد الله وداود ابنا على بن عبد الله بن العباس» [1]. ومما قاله فى قتلاهم وغنى فيه :

«بَكيتُ وماذا يَرُدُّ البُكـــــاءُ ... وقلَّ البُـكاءُ لقتْلَى كُـــداءْ

أُصيبوا مَعاً فتولَّوا مَعـــــــاً ... كذلكَ كانوا معاً فى رَخـاءْ

بَكَتْ لهمُ الأرضُ مِن بَعـدِهـم ... وناحتْ عليهم نجومُ السَّماءْ

وكانوا الضِّياءَ فلما انقضَى الـ ... ـزَّمانُ بقَومِى تَولَّى الضِّيـاءْ» [2].

وفيها يظهر مدى الفجيعة بذهابهم في وقت واحد، حيث تولوا معاً كما كانوا فى الرخاء معاً ، ولهول المصاب فقد بكت الأرض وناحت عليهم النجوم وصارت الحياة من بعدهم ظلاماً. ولعله يعنى حياة المسلمين جميعاً فى ظل بنى العباس.

وقد تغنى أبو سعيد هذا فى أبيات أخرى للعبلى– وهو ثالث من نشير إليه – يبكى فيها ملكهم ويستفظع مافعله بنو العباس ببعضهم من قتل وبطش وتعذيب، وهى قوله:

أَفاضَ المَدامعَ قَتلَى كُـدَى ... وقَتلَى بكُثْوَةَ لم تُرْمَـــسِ

وقَتلَى بَوجٍّ وباللابَتيـــــــ ... ـــن من يَثرِبٍ خيرُ ما أَنفُـسِ

وبالزابيين نُفوسٌ ثَـــوتْ ... وأُخرَى بنَهرِ أبى فُطـــرُسِ

أُولئكَ قَومِى أَناختْ بهـــم ... نَوائبُ مِن زَمَنٍ متْعِـــسِ

إذا رَكبوا زَيَّنوا المَوكبَـــنِ ... وإن جَلسوا الزَّينُ فى المَجْلسِ

همُ أَضْـرَعونى لرَيبِ الزَّمانِ ... وهم أَلْصقوا الرَّغْمَ بالمَعْطِـــسِ [3].

---

(١) الأغانى (ط. الدار) جـ ٤ ص ٣٣٠

(٢) الأغانى (ط. الدار) جـ ٤ ص ٣٥٢ .

(٣) الأغانى (ط. الدار) جـ ٤ ص ٣٣٩ . وقد أوردها أبو الفرج بتمامها (ص ٣٤٠ ، ٣٤١) ويبدو أن أبا سعيد قد تصرف فيها بالزيادة والحذف معاً، لذا فقد نسبها إلى نفسه حين استنشده إياها بعض خلفاء بنى العباس .

ولعله يشير فى البيت الأول إلى ماكان يصنعه بنو العباس من نبش قبور الأمويين وطرح جثثهم فى العراء ؛ فقتلاهم بـ (كثوة) لم ترمس. وإن لم يصرح بأكثر من ذلك. وهو بعيد، ولعل هذه الجثث - وهو الأقرب إلى التصور والفهم - لم تدفن أصلاً. وفى البيت الثالث إشارة إلى جثث أخرى ملقاة بالنهر.

ورابع من نشير إليه أبو العباس الأعمى ، وله فيهم مرثيتان قصيرتان؛ الأولى قالها فى عهد مروان بن محمد آخر ملوكهم ، وفيها ينعى غيابهم - وكأنه كان يستشعر زوال الملك عنهم - ويشيد بمكانتهم من عبد شمس، ويثنى على ماعرفوا به من الخطابة وسعة الأحلام وفصل القول :

«لَيتَ شِعْرِى أفاحَ رائحةُ المِسْـــ ـــكِ ومإخالُ بالخيفِ أُنْسِى
خُطَبَاءُ على المَنابِرِ فرْســـــا نٌ عليها وقَالَةٌ غَيْرُ خُـــرْسِ
لايُعابونَ صامِتينَ وإنْ قـــــا لوا أصابوا ولم يقولوا بلَـبْـسِ
بحُـلومٍ اذا الحُـلومُ تقَضَّـــتْ ووُجوهٍ مِثلِ الدّنانيرِ مُلْـــسِ»[1].

والثانية :

«آمَتْ نساءُ بنى أُميّةَ منهـــــمُ وبَنَاتُهم بمَـضـيعةٍ أيتَـــامُ
نامَتْ جُـدودُهمُ وأُسقِطَ نَجْمُهم والنَّجمُ يَسْقُطُ والجُدودُ نيـامُ
خلَتِ المَنابرُ والأسِرَّةُ منهـــــمُ فعَلَيْهِمُ حتّى المَماتِ سَلامُ»[2].

وفيها يصور نكبتهم تصويراً حزيناً مؤثراً ، ويعرض لما تعرضت له نساؤهم فى ظل بنى العباس من الضياع بعد فقد الآباء والأزواج، ويذكر منابرهم وأسِرَّة ملكهم وقد خلتا منهم، ثم لا يملك فى آخر المطاف إلا السلام يلقيه عليهم حتى يأتيه الموت .

---

(١) الأغانى (ط. الدار) جـ ١٦ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٢) الأغانى (ط . الدار) جـ ١٦ ص ٣٠٠. معجم الأدباء جـ١١ ص ١٧٦، ١٨٠ (ترجمة السائب بن فروخ). وقد نسبت فى البيان والتبيين جـ٣ ص ٣٥٧ للكميت . والصحيح - فى تصورى - نسبتها لأبى العباس الذى عرف بالولاء الشديد لبنى أمية خلافا للكميت - إن عنى به الجاحظ وهو المتبادر إلى الذهن لشهرته صاحب الهاشميات - ولم يعش الكميت إلى تلك الفترة، ولم أجدها - بعد - فى هاشمياته ولا فى ديوانه المجموع .

٧- لم تكثر مراثى أحد من شعراء بنى أمية كما كثرت مراثى الفرزدق، ولم تتعدد اتجاهاتها كما تعددت اتجاهات مراثيه. وعلى الرغم مما يمكن أن يقال فى ولائه ومدى انتمائه لهذا الحزب - شأنه فى ذلك شأن جرير والأخطل وفحول آخرين [١]- إلا أن كثرتها من ناحية وتعدد اتجاهاتها من ناحية أخرى يدفعنا إلى إيثاره بتلك الوقفة - ولو كان من المتكسبين - على غيره ممن يوصفون بصدق الولاء والهوى والتعصب الشديدين ،كعبد الله بن الزبير وأبى العباس الأعمى وعدى بن الرقاع وأعشى ربيعة ونابغة بنى شيبان ؛ فقد قلت مراثى هؤلاء بدرجة ملحوظة - وبعضهم لم يصلنا له مراث قط - وربما شغلوا بالأحياء من الحكام - وحزبهم حزب حاكم أو بالأحرى حزب الحاكم - عن الموتى، فأخذهم المديح وصرفهم إلى حد ما عن الرثاء . وتلك مسألة قد تجعلنا نعيد النظر فيما يقال عن الولاء ، وهل هو ولاء لحزب فى صورة شخص - كما سوف نرى عند الفرزدق - يشغل به الشاعر حياً وميتاً، أم ولاء للأحياء فقط وانتماء للحاكم - وتلك مأساة الحزب الحاكم فى كل عصر - طالما كان حاكماً فحسب ؟

رثى الفرزدق ـ من خلفاء بنى أمية - سليمان بن عبد الملك ، وهو أول من اتصل به من خلفائهم فى رأى الدكتور شوقى ضيف [٢]، وإن مدح بعض من سبقوه . ونراه فى رثائه له - على قصره - يتجه شيئاً مانحو الاحتجاج لهم والدفاع عنهم؛ فهو «ملك» من «الملوك» وقد كان بنو أمية - كما سبق أن ذكرت - ملوكاً بالفعل ، وطالما أشار إليهم فى مراث أخر بتلك الصفة [٣]، مؤثراً لها على الخلافة ومشتقاتها، فالملك كمارسخ فى وجدان العامة هبة من الله يؤتيه من يشاء ويصرفه عمن يشاء، وقد آتاه بنى أمية وصرفه عن خصومهم، فهم يحكمون باسمه وبتفضيله وإيثاره لهم على غيرهم، لا باختيار الناس. لذلك أتى باسم المفعول (متوج) المشتق من الفعل المبنى للمجهول، وجعل النبوة ميراثاً ورثه سليمان - وهو الأغر من الملوك - بانتمائه لقريش أباً وأماً أو بدراً وهلالاً كما يقول. ولم يورث النبى ﷺ النبوة بالفعل وإنما أراد الخلافة . ثم وصفه بعد

(١) تاريخ الشعر السياسى د. أحمد الشايب ص ٣٦٥:٣٩٤ الفصل الخاص بـ «الفحول والسياسة أو فى ظل الملكية ».

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١٢٠ / وفى تعليق له على رأى لجورجى زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ص ٢٥٧) بالطبعة التى راجعها وعلق عليها.

(٣) ديوان الفرزدق (ط. الصاوى) جـ١ ص ١٩١ ، ٢٦٨ و (ط.باريس) جـ٢ ص ١٢٩ و (ط. بيروت) ص ١٤٦ ، ص ١٩٣ .

ذلك بصفة طالما خلعوها عليهم وهم يحتجون لهم؛ أعنى الغنى الذى هو مظنة العفاف ومايستتبعه من كرم وجود وخير عميم. يقول الفرزدق :

« ما للمنيّة لاتزالُ مُلحّـــــةً　　تَعدو عليَّ وماأُطيقُ قتالَهـــا
تَسقِى المُلوكَ بكأسِ حَتْفٍ مُـرَّةٍ　　ولتَلْبسنَّكَ إن بَقيتَ جلالَها
أَردَتْ أغرَّ من المُلوكِ مُتوّجـــاً　　وَرِثَ النُبوّةَ بَدْرَها وهلالَهـــا
أغْنَى العُفاةَ بنايلٍ مُتدفّـــقٍ　　مَلأَ البلادَ دَوافعاً فأسالَهـــا »[1].

وفى رثائه لمروان وابنه يذكر تجربته الخاصة معهما، فقد منعاه حين فر إليهما – ولعله يعنى هربه المشهور من زياد ابن أبيه – وأمناه، وطالما أزالا الخوف عنه وأكرماه. وفى ذلك إشادة بقوتهم وفضلهم ونفعهم للناس :

«إذا ذُكِّرتْ نَفسى ابنَ مَروانَ صَـاحبى　　ومَروانَ فاضتْ ماءَ عينى غُروبُهـــا
هما مَنَعانى إذْفَرَرْتُ إليهمــــــا　　كما مَنَعتْ أرْوَى الهِضابِ لُهوبُها
«فما رِمْتُ حتّى ماتَ مَن كنتُ خائفاً　　وطُومِنَ من نَفسِ الفَرَوقِ وَجيبُهـــا
....　　..............................
وكنتُ إذا ماخِفتُ أو كنتُ راغباً　　كفانىَ من أيديهما لى رَغيبُهـــا » [2].

لذلك نراه يتجه بعد ذلك إلى الاحتجاج المباشر لبنى أمية مشيراً إلى دورهم فى القضاء على الفتن ولم شمل الأمة والاشتفاء للمظلومين:

«رأيتُ بنى مَروان إذ شُقَّتِ العَصـا　　وهرَّ من الحَربِ العَوانِ كَليبُهـا
شفَوا ثائرَ المَظلومِ واستَمسكتْ بهم　　أكفُّ رجالٍ رُدَّ قَسراً شَغوبُها».

وفيها – مع الاحتجاج – تبرير لسلوكهم العنيف فى تتبع الخصوم وقمع المعارضة؛ فهؤلاء الخصوم كالشيعة والخوارج والزبيريين شقوا – فى تصوره– العصا وخرجوا عن الجماعة وشغبوا على الحكام وظلموا المستضعفين، فلم يكن هناك بد من ردهم قسراً

(١) ديوانه (ط. الصاوى) جـ ٢ ص ٦٣٢. و(باريس) جـ٢ ص ١٥٩. و (بيروت) ص ٤٣٣ .
(٢) ديوانه (ط. الصاوى) جـ ١ ص ٦٥، ٦٦ .و(باريس) جـ٢ص ١٥٥ ، ١٥٦ .و(بيروت) ص ٥٨ .

والقضاء على شغبهم انتصاراً لأنفسهم وللملك الذى حباهم الله به وللدين والجماعة[1].

وهذا الاتجاه الذى يجمع بين الاحتجاج والتبرير نراه كذلك فى رثائه لبشر بن مروان من الأمراء، والحجاج بن يوسف الثقفى من القواد والوزراء؛ فابن مروان «ملك» كادت النجوم لفقده تقع والجبال تزول، أغر صريح النسبة فى قريش، نمته الروابى من فروعها. ويلح على القرشية إلحاحاً غريباً ؛ لأنها مستندهم الأول فى الحكم، تليه الكفاءة ويبين عنها كونه «ثوى غير متبوع بعجز ولا غدر»، «ربيع اليتامى»، «والمقيم على الثغر»، قاهر الخصوم فى اليمامة والعراق ومقيم الدين قسراً:

«ولكنْ فُجعنا والرَّزِيئةُ مثلُــــه	بأَبيضَ ميْمونِ النَّقيبةِ والأَمْــــرِ
على مَــلِكٍ كادَ النُّجومُ لفقْــدِه	يَقَعنَ وزالَ الرَّاسياتُ مِن الصَّخْـرِ
....	....
أغرُّ أبو العاصِى أبوه كأنَّمــــا	تفرَّجت الأثوابُ عن قَـمَرٍ بَــدْرِ
نَمتْهُ الرَّوابِى من قريشٍ ولم تكــنْ	له ذاتُ قُربى فى كُلَيبٍ ولا صِهْرِ
سيأتى أميرَ المُؤمنينَ نعيُّــــهُ	وينْمِى إلى عَبدِ العَزيزِ إلى مِصْــــرِ
بأنَّ أبا مَرْوانَ بشْراً أخاكُمــــا	ثَوى غَيْرَ متبوعٍ بعَجزٍ ولا غَــدْرِ
وقد كانَ حيّاتُ العراقِ يَخفْنَــهُ	وحيّاتُ مابَينَ اليمَــامةِ والقَهْــرِ
وقد أُوثرتْ أرضٌ علينا تَضَمَّنــتْ	ربيعَ اليَتـامَى والمُقيمَ على الثَّغْــرِ
وكانتْ يَدا بِشْرٍ يَدٌ تُــمْطِرُ النَّـدَى	وأُخرى تُقيمُ الّدينَ قَسْراً على قَسْــرِ» [2]

وفى وصف الخوارج بالحيات — حيات اليمامة — وكذا الشيعة والزبيريون بالعراق مايبرر قهره وإخافته لهم وشدة بنى أمية فى تتبعهم والتنكيل بهم.

(1) وفى سيرة عمر بن عبد العزيز (ص ٣٣٥) بيتان نسبهما أبو بكر بن عياش إلى الفرزدق يرثى بهما عمر بن عبد العزيز. لم أجدهما فى الديوان وأرجح نسبتهما إلى محارب بن دثار وقد نسبا إليه مع أبيات أخرى فى المصدر نفسه (ص ٣٣٦) وفى مصادر أخرى.

(2) ديوانه (ط. الصاوى) جـ ١ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩، و(باريس) جـ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٠. و(بيروت) ص ١٩٣ ، ١٩٤.

وتمتلئ القصيدة إلى جانب هذا التأبين بالندب المبالغ فيه والذى يهدف من ورائه إلى إظهار مدى الفجيعة والمصاب؛ فالأرض قد هدت جبالها، والنجوم لم تعد تسرى، والثريا وسط مجموعة من الكواكب الزهر تبكى عليه، والعين ملومة إن لم تسعده بالبكاء «فما بعد بشر من عزاء ولا صبر» ،على أن هذه الدموع لاجدوى منها إلا فى التخفيف عما يشعر به من حرارة فى الصدر؛ لأنها لن تعيد بشراً مرة أخرى إلى الحياة. وماأجمل هذا الختام:

«وكُنّا ببشرٍ قدأمِنّا عَدوَّنـــــا   من الخَوفِ واستغنى الفَقيرُ عن الفقْرِ».

إنه يلخص كل مامضى فى الاحتجاج ، ويعطى سبباً مقبولاً لكل هذا البكاء.

وفى رثائه للحجاج دعوة أخرى للبكاء، لكنه هذه المرة بكاء على الدين فى صورته، يذرفه المسلمون فى كل مكان؛ المجاهدون على الثغور، واليتامى الفقراء فى طول البلاد وعرضها، فما ذرفت عين دموعها على أحد مثله- بعد النبى ﷺ – حاشا الخلفاء . وهو يعنى خلفاء بن أمية بطبيعة الحال. وفى هذا احتراز منه لمكانة هؤلاء الخلفاء لم تنسه إياه الفجيعة ولم يشغله عنه المصاب:

«ليبْكِ على الحجّاجِ مَن كانَ باكياً   على الدّينِ أو شارٍ على الثّغْرِ واقِفِ
وأيتامِ سَوْداءِ الذّراعَينِ لم يَـــدَعْ   لها الدهرُ مالاً بالسِّنينَ الجَوالِفِ
وما ذَرَفَتْ عَينانِ بَعدَ مُحمَّـــــدٍ   عل مثْلِه إلا نفوسَ الخَـلائفِ»[1].

ويستمر فى تأبينه على هذا المنوال، فيذكر حزمه ودوره فى قمع الفتن والتنكيل بأصحابها وضبط أمور الرعية ونشر الأمان ، حتى إن المرأة لتهمل قطيعها وتتركه يرعى وحده فى الصحراء ، فإذا ماتيقنت أنه قد مات طلبت من عبديها أن يتابعا القطيع وتخلت عن إهمالها لتغير الأوضاع وذهاب الأمن الذى كانت تستشعره فى وجود الحجاج. وهو الذى كان يرعى على الناس دينهم ويطيح برءوس المخالفين – ولعله يعنى المخالفين لأحكام الدين من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم، أو المخالفين لبنى أمية والمعارضين لهم فى الحكم ـ لذلك كان يوم موته – وتلك شهادة يسجلها الفرزدق له – أنكى رزية من سائر الأيام التى رزء فيها بغيره – ولم يستثن هذه المرة أحداً – ورزء

(١) ديوانه (ط. الصاوى) جـ٢ ص ٥٢٩ و(باريس) جـ٤ ص ٢١٢ و(بيروت) ص٣٦٨.

فيها معه المسلمون ولا أكثر منه بكاء وأشد إراقة للدموع :

« وما ضُمِّنَتْ أرضٌ فتَحْمِلَ مثلَهُ ... ولا خُطَّ يَنْعَى فى بُطونِ الصَّحايفِ
لحزمٍ ولا تَنْكيلِ عِفْريتِ فِتْنَـــةٍ ... إذا اكتَحلتْ أنيابُ جَرْباءَ شـــارِفِ
فلم أرَ يوماً كانَ أنْكى رَزِيَّـــةً ... و أكثر لَطْماً للعُيونِ الـــــذَّوارِفِ
من اليَومِ للحَجّاجِ لمّا غَدَوا بـــه ... وقد كانَ يَحْمِى مُضْلِعاتِ المكالِفِ
ومُهْمِلَةٍ لما أتاها نعيُّـــــــــــهُ ... أراحتْ عليها مُهمَلاتِ التّنايــــفِ
فقالتْ لعبدَيها أريحا فَعَقِّـــــلا ... فقد ماتَ راعِى ذَوْدِنا بالطَّرايــــفِ
وماتَ الذى يَرعَى على النّاس دينَهـم ... ويَضْرِبُ بالهِنْدِىِّ رأسَ المُخـــالِفِ».

فليت الأكف التى دفنته وحثت فوق قبره التراب تقطعت قبل أن تدرك هذا اليوم. ويعجب كيف ألقوه فى قاع القبر مدرجا فى الأكفان، ألم يعلموا أن الذى دفنوه «به كان يرعى قاصيات الزعانف»؟

«وكانتْ ظُباةُ المَشرَفِيَّةِ قد شَفَـى ... بها الدِّينَ والأضغانَ ذاتَ الخَوالِفِ
ولم يكُ دونَ الحُكمِ مالٌ ولم تكنْ ... قُواهُ من المُسْتَرخياتِ الضَّعايـــفِ
ولكنّها شَزْراً أمِرّتْ فأُحكِمـــتْ ... إلى عُقَدٍ تُلْوَى وراءَ السَّـــوالِفِ».

وينقل على لسان الجيش – أو بالأحرى بقاياه – خلف النهر لَمّا أنْ جاءهم نعيه قولهم:

«شَقِينا وماتَتْ قُوّةُ الجَيشِ والّذى ... به تُرْبَطُ الأحشاءُ عندَ المَخاوِفِ».

فهو – وهذا اعتراف منهم بذلك – قوة الجيش ، وبه كانوا يشدون من عزيمتهم عند المخاوف. والجيش القوى المنظم إحدى الدعامات التى ارتكز عليها الأمويون فى توطيد ملكهم وقمع الخصوم ، لكنه إن مات وكان كذلك – من هنا يتجه إلى الحزب الذى ينتمى إليه هو والمرثى اتجاهاً مباشراً – لم تمت «قروم أبى العاصى» الذين يصفهم بالشجاعة والكرم، ولم يعدموا من آل مروان – ولعله يعنى الخليفة – حية، ثم يحترز لما فى هذا الوصف على دقته فى التمكن والقدرة من شبهة الغدر والخيانة والفتك فيثنى

بالبدر التام الذى ينير أرض العراق. ويجعل من هذا الشخص الذى لم يعدموه ملاذا وملجأ للخائفين من كل شئ إلا الذنوب. فأى الذنوب تراه يعنى؟ ذنوب الدين أم الذنوب كما يعرفها الساسة ورجال الحكم؟

«فإن يكنِ الحَجّاجُ مَاتَ فلم تَمُتْ ... قُرومُ أبى العاصى الكِرامِ الغَطارِفِ
ولم يُعْدَموا من آلِ مروانَ حيَّـةً ... تَمامَ بُدورٍ وَجْهُهُ غيرُ كاسِـفِ
له أشْرَقَتْ أرضُ العراقِ لنُـورِهِ ... وأومِنَ إلا ذنْبَهُ كلُّ خايِـفِ»

ويعود الفرزدق مرة أخرى ليرثى الحجاج فى أربعة أبيات لا يضيف فيها شيئا جديدا يختلف عما ذكرناه، حيث يبدأ بالدعوة - كما بدأ القصيدة السابقة - للبكاء عليه بكاء دائماً، ويمد المصاب ليشمل القبائل من نزار كلها، ويتلهف عليه ليوم الطعان ويوم الشدة والبأس [1].

وفى رثائه لإبراهيم يتجه مثلما اتجه فى رثائه للحجاج نحو الاحتجاج لبنى أمية بطريقة مباشرة، ويخص الفرع المروانى الذى آلت إليه السلطة، فهم الغرة - وغرة القوم أخيارهم وأشرافهم وسادتهم - والمطعمون فى وقت القحط وحين يجحد غيرهم ويتنكر للفقير والمحتاج، وهم السابقون فى كل خير، والرافدون الذين يمدون أيديهم بالعطاء فى الشدائد والملمات، والعاطفون على أتباعهم، والأمجدون فمن جاراهم - بعد هذا الذى ذكره - قصر عنهم ولم يمكنه اللحاق بهم:

«إنّى رأيتُ بنى مَروانَ غُرَّتَكـم ... والمُطعمينَ إذا ما غَيْرُهم جَحدوا
والسّابقينَ إذا مُدَّتْ مواطنُهـم ... والرّافدينَ إذا ماقَلَّـت الرِّفَدُ
والعاطِفينَ على المَوْلَى حُـلومَهمُ ... والأمْجَدينَ فَمنْ جاراهم مَجَـدوا» [2].

وفى رثاء عبد العزيز تأكيد لمعنى الكرم الذى عرفوا به وشمل الرعية بالخير والجود وكثرة العطاء [3].

---

(1) ديوانه (ط. الصاوى) جـ١ ص ٣٦٥ و (بيروت) ص ٢٥٨ .
(٢) ديوانه (ط. الصاوى) جـ ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ و(باريس) جـ٢ ص ١٩٠ . و(بيروت) ص ١٢٥ .
(٢) ديوانه (ط. الصاوى) جـ١ ص ٢٢٥ . و(باريس) جـ١ ص ١٩ و(بيروت) ص ١٦٨ . و(مجمع اللغه العربية بدمشق) جـ١ ص ٧٨ ، ٧٩.

وفى رثائه لمحمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج، وهى طويلة تبلغ سبعة وثلاثين بيتاً، يتجه الفرزدق فى آخرها نحو التشهير بخصوم بنى أمية وخاصة فى العراق، وفيها يبرز عداوتهم للإمام – يعنى الخليفة – ويصفهم بالناكثين ويجعلهم أتباعاً فى غيهم وضلالهم لإبليس النفاق. ولعله يعنى ابن الزبير وإن لم يصرح به. يقول:

«وقد كنتَ ضرّاباً بها يا ابنَ يوسُفٍ   جَماجمَ مَن عادَى الإمامَ وشيَّعا

جَماجمَ قَومٍ ناكثينَ جَرى بهم   إلى الغَىِّ إبْليسُ النِّفاقِ وأَوْضَعا»[1].

وكما أشاد فى مراثيه بدور الأمويين فى الداخل أشاد كذلك بدورهم فى الجهاد ونشر الدين وتأمين الثغور وتوسيع رقعة الدولة فى رثائه لقتلى الفتوح وشهدائهم على الحدود وفى الأقاليم النائية؛ فسلم بن زياد ابن أبيه – على الرغم مما كان بين الفرزدق وأبيه:

«تَداعتْ عليه الخَيلُ تَحتَ عَجاجةٍ   مِن النَّقعِ مَعبوطٍ على القَومِ ثائرِ»[2].

وكم كر فى ميادين القتال كر الأسود ، وأسدى أيادى لم تشب. لكنه إن كان قد مات فما مات مابنى ولا ماأتاه من الصالحات:

«ومُستَلحِمٍ يَدعو كَـرَرتَ وَراءهُ   كتَكْرارِ لَيثِ الغابَتينِ المُهاهِرِ

وكم مِن يدٍ ياسَلْمُ لاتَستَثيبُها   نَفَحْتَ إلى مُستَمْطِرٍ غيرِ شاكِرِ

وإن كانَ سَلْمٌ ماتَ ما ماتَ مابَنى   ولا ما أَتَى من صالحٍ فى المَعاشِرِ».

والجراح بن عبد الله الحكمى – قتلته الخزر أيام هشام بأذربيجان وهو الذى فتح بَلَنْجَر – غداة ثوى حلت بالناس إحدى العظائم، وافتقدوا بفقده الملجأ والملاذ، وحسبه أنه قد صار – على اعتبار أنه من الشهداء – رفيق النبى ﷺ فى الجنة ، ومات معه أو بالأحرى مات بموته «من يحشد القرى» و «من يضرب الأبطال فوق الجماجم». فلتبك النساء «إذا دعت لها حامياً يوم الذمار» ولتبك عليه الشمس وليبك القمر، وليبك عليه المسلمون فى كل مكان[3].

---

(١) ديوانه (ط. الصاوى) جـ١ ص ٤٩٧ . و(باريس) جـ٢ ص ١٧٧ . و(بيروت) ص ٣٤٦.

(٢) ديوانه (ط. الصاوى) جـ١ ص ٣٣٧ . و (بيروت) ص ٢٣٩.

(٣) ديوانه (ط. الصاوى) جـ٢ ص ٧٨٩ . و (باريس) جـ٢ ص ١٦٥ ، ١٦٦ . و(بيروت) ص ٥٥٩. وله فيه مرثية أخرى (بيروت) ص ٥٦٩ .

وهلال بن أحوز المازني طالما جاهد العدو وقاد إليه الخيل مثنى وموحداً، لذلك فهو قط لم ينسه، وأبداً لن ينساه :

«ومَن حَمَلَ الخَيلَ العتاقَ على الوَجا ... تُقادُ إلى الأعْداء مَثنًى ومَوحَدا

لَعَمْركَ ما أنسى ابنَ أحْوزَ ماجَـرتْ ... رياحٌ وما فاءَ الحَمَــامُ وغرّدا»[1].

ومحمد بن موسى بن طلحة – وكان عبد الملك قد استعمله على سجستسان فقتل هناك بالأهواز على يد شبيب الخارجي – بكته العيون كلها من فصيح وأعجم، مابعده ذخيرة ولا أحد يعد ليوم لقاء أو «حمالة مغرم»، أصله بين الصديق أبي بكر وطلحة بن عبيد الله، وقد كان بمقدوره الفرار لكنه آثر الموت كريماً على الحياة ذميمة وأيقن «أن فرار المسلمين خزية» وأحدوثة تشيع في المواسم والأحياء، فكر وكر من معه، وجاد بنفس «لايجاد بمثلها»، وضرب لمن خلفه أروع الأمثلة في التضحية والفداء [2].

ورثى من قريش – غير ابن طلحة – عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، ودار في رثائه له حول المعاني نفسها المستمدة من الجهاد ونشر الدين وحرب العدو، فالخيل «إذ هزمت تبكي على عمرا» وكم من فوارس، قد نادوا باسمه حتى يطعموا الظفر ويحققوا النصر. لقد رزئت بموته تيم بل قريش كلها، وهو من هو فيها كرما وفعالا وشرفا. ويستتبع هذا – كما مضى في مواضع كثيرة – البكاء عليه، للحرب إذا لقحت و «إذا شؤبوبها استعرت» فـ:

«كم من جبانٍ لدى الهَـيْجا دَنوتَ بـه ... إلى القتالِ ولولا أنتَ ما صبَـرا

منهنّ أيّامُ صِدْقٍ قد بُليتَ بها ... أيّامُ فارسَ والأيّامُ مِن هَــجَرا»[3].

وماأجمل تلك الصورة التي يرسمها بعد ذلك ليديه – على تكرارها – فإحداهما سيف «يعاذ به من العدو» والأخرى «غيث ينبت الشجرا».

ويرثي من رجال بني أمية– غير الخلفاء والأمراء – محمد بن العاص بن سعيد بن

---

(١) ديوانه (ط. الصاوى) جـ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ . و(باريس) جـ٢ ص ٢٢٢. و(بيروت)ص ١٢٢ .

(٢) ديوانه (ط. الصـاوى) جـ٢ ص ٨٠٧ ، ٨٠٨ . و(باريس) جـ١ ص ٨٢، ٨٣. و(بيـروت)ص ٥٧١ .

(٣) ديوانه (ط. الصاوى) جـ١ ص ٢٩١ .و(باريس) جـ٢ ص ٢٠٤،٢٠٥. و(بيروت)ص ٢٠٨ .

أمية – وقد مات فى الشام – وعبد الملك بن بشر بن مروان – من أبناء الأمراء. وقد أفرد للأول مرثية بلغت خمسة وأربعين بيتاً [١]، وهى من أطول مراثيه على الإطلاق، وللآخر مقطوعة قصيرة عدتها أربعة أبيات[٢] . وفيهما استفظاع للمصاب وبيان لمكانة الرجلين. وقد اكتفى فى الثانية بذلك ، بينما مضى فى الأولى فى ذكر معانى الجود والشجاعة، وفصل فيهما تفصيلاً طويلاً ، ومزج التأبين بالندب المبالغ فيه .

أما مراثيه لقتلى قومه وخاصة فى فتنة خراسان فقد أخذت أبعاداً قبلية، وأطلت من خلالها العصبية أوضح ماتكون ، والتنافس فى تلك الأقاليم النائية على السلطة وبسط النفوذ. ولم تكن تلك الأحداث القبلية بمنأى عن السياسة، ولم تكن مراثى الفرزدق لهؤلاء القتلى بمنأى عن الحزب الذى ندرسه؛ فوكيع بن سود – وقد تعددت فيه مراثيه على نحو ملحوظ [٣]– كان مقرباً من الأمويين وهو الذى خلصهم من قتيبة بن مسلم الباهلى الذى بلغ من نفوذه ونفوذ قيس حداً جعله يتجرأ على خلع الخليفة. وقد أشار الفرزدق إلى إيقاع وكيع به فى إحدى مراثيه لوكيع حيث يقول:

«أَهلِى فداؤكَ ياوَكيعُ إذا بَـدا ... يومٌ كعالـيَـةِ السِّنانِ يُسَعَّـــرُ
أَوْقَعتَ بالبَلَـدِ المُشرَّقِ وَقْعــةً ... أَمْستْ بكلِّ بلادِ قَومٍ تُشْـهَــرُ»[٤] .

وهو – وإن لم يصرح بذلك واكتفى بالإشادة بوكيع – يدل على بنى أمية ويبرز بطريقة غير مباشرة دور قبيلته تميم فى تثبيت دعائم الحكم الأموى بتلك الأطراف .

وفى رثائه لعمرو بن يزيد – أحد ضحايا خالد بن عبد الله القسرى فى عهد هشام – دعوة صارخة للانتقام من خالد وتحريض واضح للحد من العصبية اليمنية التى تضخمت فى تلك الفترة على يديه، وربط بين ثورة يزيد بن المهلب بالعراق وتنهك خالد – على حد تعبيره – وتسلطه على المضريين، ودل صريح هذه المرة بما لتميم من دور – يراه كبيراً وخطيراً – فى نصرة الأمويين [٥] .

---

(١) ديوانه (ط. الصاوى) جـ٢ ص ٧٥١ ومابعدها. و(بيروت)ص ١٢٢ .
(٢) ديوانه (ط. الصاوى) جـ١ ص ٤٣،٤٤ . و(باريس) جـ٢ ص ١٦٠. و(بيروت)ص ٤٠ .
(٣) ديوانه (ط. الصاوى) جـ١ ص ١٤٦ ، ٢٤٦، ٣٨٩ وجـ٢ ص ٤٣٨، ٦٣٢، ٧٧٨.
(٤) ديوانه (ط. الصاوى) جـ٢ ص ٤٣٨، ٤٣٩ . و (بيروت) ص ٣٠٣.
(٥) ديوانه (ط.الصاوى) جـ٢ ص ٧٩٠ . و(بيروت) ص ٥٦٠ .

الفصل الخامس
ظواهر أدبية وخصائص فنية

فى الشكل العام
(النقض والكتم وغلبة المقطوعات)

١ - اتخذ الرثاء فى ظل الصراع السياسى والمذهبى شكلاً أدبياً يقوم على الجدل والمناظرة والاحتجاج، ويعتمد اعتمادا كبيرا على الحضور العقلى فى مناقشة الخصم ودحض آرائه والانتصار للمذهب الذى ينتمى إليه والدفاع عن وجهة نظره والاعتداد به والتعصب له. وهو مايعرف بفن النقائض. ذلك الفن الذى ازدهر فى العصر الأموى ازدهاراً شديداً وبلغ أوج قمته على يد فحوله الثلاثة جرير والأخطل والفرزق. غير أن هؤلاء الفحول - وقد شغلوا كل الدراسات التى تعنى بهذا الفن - كانوا يتحركون فى إطار العصبية القبلية والحاجات الفردية، وكانت نقائضهم - فى الأغلب الأعم - تتكئ على الفخر والهجاء لاتكاد تخرج عنهما. ولم يعن أحد من الدارسين - فيما أظن - بدراسة النقائض فى ظل الأحزاب السياسية والفرق المذهبية. وهو باب كبير يعنينا منه ما اتصل بموضوع دراستنا الرثاء. وقد تتبعنا البدايات الأولى فى الجزء الخاص بصدر الإسلام. ونواصل فى هذا الجزء متابعة الظاهرة فى العصر الجديد.

فما إن يُقتل علِي بن أبى طالب -رضى الله عنه - على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجى، ويُقتل ابنُ ملجم بعليّ ، حتى يهب عمران بن حطان فقيه الصفرية وشاعرهم ليشيد بصنيع ابن ملجم ويفخر به ويعتبره نوعا من الفداء؛ فقد خلص - فى تصوره - الأمة من خليفة يرميه هو وأصحابه بالكفر ويعدونه شر خلق الله ، ويذكر عمران أن صاحبه قد تعرض فى سبيل ذلك للمخاطر والأهوال وأنه قد كفَّر بصنيعه هذا عما جناه من الآثام وصار أوفى الناس ميزاناً عند الله عز وجل :

«ياضَربةً من تَقِىٍّ ما أَرادَ بها	إلاَّ ليبلُغَ من ذى العَرْشِ رِضواناً
إنِّى لأَذكرُهُ حيناً فأَحْسَبُهُ	أَوفَى البَرِيَّةِ عندَ اللهِ ميزاناً

لِلَّـهِ دَرُّ المُرادِيِّ الَّذِي سَفَكَـتْ كَفَّاهُ مُهْجَةَ شَرِّ الخَلْقِ إِنْسانـا

أَمسى عَشيَّـةَ غَشَّاهُ بِضَرْبَتِـــــه مِمَّا جَناهُ مِنَ الآثامِ عُريانـــــا»[1].

وذلك فى معرض رثائه لابن ملجم كما ذهبنا إليه. ويثير هذا الشعر مجموعة من الشعراء من سائر فرق المسلمين فى العصر الأموى وبعده، فيهبون للدفاع عن علىّ كرم الله وجهه والنيل مااستطاعوا من ابن ملجم وعمران بن حطان والخوارج أجمعين. وأكثر هؤلاء الشعراء من أهل السنة والشيعة [2]. ويجيء على رأسهم جميعاً السيد الحميرى شاعر الشيعة الكبير فى العصرين الأموى والعباسى، فنراه ينقض على عمران ما وصف به صاحبه من تقوى فيعتبره ملتقطاً من نسل إبليس بل شيطاناً، وينقض عليه مازعمه من نيل الثواب وعظيم الأجر وثقل الميزان عند الله بقتل على وتخليص الأمة منه فيعده ملعوناً ابن ملعونين وغوياً أوردته ضربته لظى، ولم يعف عنه الله بها بل سوف يلقاه وهو غضبان عليه، ولم تكفر عنه بل حَمَّلَتْه من الآثام ما لاتطيق حمله الجبال:

« فلا عَفا اللَّهُ عنهُ ما تَحمَّلَــهُ لعائنَ اللَّهِ إسراراً وإعلانـــــا

بلْ ضَرْبَةٌ من غَوِيٍّ أَورَدَتْه لَظَى فَسوفَ يَلقَى بها الرَّحمنَ غَضبانـا

طَوراً أقولُ ابنُ مَلْعونينَ مُلتَقَطٌ من نَسلِ إبْليسَ لا بلْ كانَ شَيطانا

عَبدٌ تَحمَّلَ إثماً لو تَحمَّلَـــهُ ثَهْلانُ طُرفَةَ عَينٍ هَدَّ ثَهْلانـــا»[3].

وكلا الموقفين؛ موقف عمران من على وابن ملجم، وموقف السيد الحميرى منهما كذلك، نابع من انتمائهما المذهبى؛ فالخوارج يكفرون علياً - كما سبق أن ذكرت - ويستبيحون بتكفيرهم له دمه بل يعتبرون ذلك نوعاً من الجهاد فى سبيل الله، والشيعة يمجدون علياً ويكفرون قاتله ويبيحون لعن الخوارج باعتبارهم غواة ضالين أو بالأحرى مارقين عن الدين.

ويُقتل زين العابدين زيد بن على فى عهد هشام بن عبد الملك فى قصة شبيهة

(١) ديوان الخوارج ت. د. نايف معروف ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) منهم القاضى أبو الطيب الطبرى (خزانة الأدب جـ٥ ص ٣٩٣. والإصابة لابن حجر العسقلانى جـ٣ ص ١٧٧) وبكر بن حماد التاهرتى (خزانة الأدب جـ٥ ص ٣٩٢. والاستيعاب لابن عبد البر جـ٣ ص ١٧٧. وسماه أبا بكر) وطاهر بن محمد الإسفرائنى (خزانة الأدب جـ٥ ص ٣٥٢).

(٣) خزانة الأدب جـ ٢ ص ٤٣٦ .

بقصة جده الحسين -رضى الله عنه- ويثير مقتله شاعراً من الأنصار كان موالياً لبنى أمية، فيحمل عليه حملة شعواء فى أبيات له يصفه فيها بالغدر ونقض الميثاق، ويذكر أنه قد أطاع إبليس فى خروجه على الخليفة وأن إبليس قد أخلفه مامناه وتخلى عنه فلاقى مصيره المحتوم:

« ألا يا ناقضَ الميثـــاق أبشـــرْ بالّـــذى ســاكا
نَقَضْتَ العَهْـــدَ والميثـــاقَ قدْمـــاً كانَ قدْماكـــا
لقد أخْلَفَ إبْليـــسُ الّـــــذى قد كـــانَ منّاكـــا»[1].

فيرد عليه أحد شعراء الزيدية بقوله:

« ألا ياشـــاعرَ السّـــوءِ لقد أصْبحـــتَ أفّاكـــا
أتشتِـــمُ ابْنَ رَســـولِ اللّـــهِ يُرْضـــى مَن توَلاّكـــا
ألا صبّحَـــكَ الّـــلـــهُ بخـــزْيٍ ثُـــمّ مسّاكـــا
ويَـــومَ الحَشْـــرِ لاشـــكّ بأنّ النّـــارَ مثْواكـــا»[2].

وفيها يصفه بالسوء ويرميه بالتجنى على حفيد رسول الله ﷺ ، ويفضح دافعه إليه وهو التملق والرياء والرغبة فى إرضاء مواليه، ثم يبشره بالخزى فى الحياة الدنيا والنار فى الآخرة.

ونلاحظ أن الرثاء هنا يأتى طرفاً ثانياً، نلمحه فى ثنايا الرد على خصمه والدفاع عن صاحبه، بينما كان فى الفقرة السابقة - بين عمران والسيد الحميرى - هو المثير لا المثار .

ويشغل مقتل سعيد بن عثمان بن عفان بالمدينة على يد غلمان له جاء بهم من الصغد مجموعة من النقائض الفردية يتبادل فيها أصحابها الاتهامات، فقد فر عنه عبد الرحمن بن أرطأة بن سيحان حليف بنى حرب بن أمية ، فعيره خالد بن عقبة بن أبى معيط [3]، فاعتذر ابن سيحان عن ذلك بقوله :

---

(1) تاريخ الطبرى جـ٧ ص ١٩٠ . (2) تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ١٩٠ .
(3) الأغانى جـ٢ ص ٢٥٦ .

«يقولُ رجالٌ قد دعاكَ فلم تُجبْ   وذلكَ من تِلْقاء مثلكَ رائـــعُ
فإن كانَ نادَى دَعْوةً فسَمِعْتُهــا   فشُلَّتْ يَدى واستَكَّ منّى المَسامـعُ
وإلاّ فكانتْ بالّذى قالَ باطـــلا   ودَارتْ عليه الدّائراتُ القَـــوارعُ
يَلومونني أن كنتُ فى الدّار حاسِــراً   وقد فَرَّ عنه خالـــدٌ وهْوَ دارعُ»[1] .

وفيها يذكر أنه لم يسمعه إذ ناداه، ويعجب كيف يلومونه – يعنى بذلك خالداً – وكان فى الدار حاسراً بينما فر عنه خالد وهو دارع. أى أنه يعمد إلى قلب الاتهام الذى وجهه إليه خالد من قبل . فيجيبه أحد الشعراء :

«فإنّكَ لم تَسْمعْ ولكن رأيتَــهُ   بعَيْنيكَ إذ مَجْراكَ فى الدّارِ واسِـعُ
وأسْلَمْتَه للصُّغْد تَدْمَى كُلومُهُ   وفارَقْتَهُ والصَّوتُ فى الدّارِ شائـــعُ
وما كانَ فيهـــا خَالدٌ بمُعَـذِّرٍ   سواءٌ عليه صَمَّ أو هُوَ سامِـــعُ
فلا زِلْتُما فى غُلِّ سَوءٍ بعبْرَةٍ   ودارتْ عليكم بالشّمات القَـوارعُ»[2] .

وهو يبدأ بالتوجيه فيقر بأنه لم يسمع، لا ليبرئه وإنما ليفسر ذلك بما يزيده تورطاً ، فإنه إذ ذاك كان قد فر عنه وحالت المسافة بينه وبين سماع الصوت، لكنها لم تحل بينه وبين رؤيته. ثم يؤكد فى البيت الثانى تخليه عنه وتسليمه للصغد فى وقت كان أحوج مايكون فيه إليه، ويتوسع فى الاتهام ليشمل فى البيتين الأخيرين خالداً أيضاً .

وتختلف وجهات النظر حول مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى على يد وكيع بن سود فى أول عهد سليمان، وكان قتيبة قد قتل بعض بنى تميم فى خراسان وخلع الخليفة ودعا لنفسه[3] . وفى هؤلاء التميميين وفيما حاق بقتيبة دارت نقيضتان من أروع نقائض جرير والفرزدق هما الميميتان [4] . وقد وقف معهما الشايب وقفة طويلة [5] ، حلل فيها موقف الشاعرين وعلاقتهما بالأحداث، وربط بين مقتل قتيبة والسياسة العليا

(١) الأغانى جـ٢ ص ٢٥٧ .   (٢) الأغانى جـ٢ ص ٢٥٧ .
(٣) تاريخ الطبرى جـ٦ ص ٥٠٦ : ٥٢٢ .
(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٧١ ، ٣٩٩ .
(٥) تاريخ النقائض ص ٢٩٤ : ٣١٣ بالإضافة إلى الإشارات الواردة فى الصفحات ١٢، ١٣، ١٥، ٢٧، ١٦١ ، ٢٥٠ .

للدولة، وأبرز مافى النقيضتين من ملامح فنية وإشارات تاريخية تتصل بالسياسة وماحركته من العصبيات. وهما تشيران إلى ماكان فى أطراف البلاد – وخاصة الجهة الشرقية – من فتن واضطرابات لعبت فيها العصبية القبلية دوراً بارزاً.

ومثل هذه العصبيات التى حركتها السياسة وتأثرت السياسة بها نلمحها – حين نعود مرة أخرى إلى فترة سابقة – بين شعراء قيس الموالين لابن الزبير وشعراء كلب وغيرهم من الموالين لبنى أمية؛ فحين يبكى زفر بن الحارث قتلى قومه ويعتذر عن فراره عنهم فى يائيته الشهيرة [1] ينبرى له جواس بن القعطل الكلبى فيعذره على هذا البكاء ثم يوجهه نحو الشماتة به وبقومه لما حل بهم من هزيمة، ويعيره بالفرار ، ويسخر من دعائه بالسلاح ومايتضمنه ذلك الدعاء من تهديد ووعيد ، ثم يتجه نحو الفخر بفرسان قومه ويتغنى بقوتهم وشجاعتهم. يقول جواس :

«لَعَمْرِى لقد أبقتْ وَقيعةُ راهطٍ ... على زُفَرٍ داءً منَ الدَّاء باقيا
مُقيماً ثَوى بَينَ الضُّلوعِ مَحلُّهُ ... وبَينَ الحَشا أعْيا الطَّبيبَ المُداويا
تُبكِّى على قَتلَى سُلَيمٍ وعامرٍ ... وذُبْيانَ مَعْذوراً وتُبكِى البَواكيا
دَعا بسِلاحٍ ثُمَّ أحْجَمَ إذ رَأى ... سُيوفَ جَنابٍ والطِّوالَ المَذاكيا
عليها كأسدِ الغابِ فِتْيانُ نَجْدةٍ ... إذا أشرَعوا نَحوَ الطِّعانِ العَواليا» [2].

وقد استخدم شطراً كاملاً من كلام زفر – هو الشطر الأول فى الأبيات – وعدد بعض قبائل قيس ممن شاركوا فى القتال يوم المرج، لكنه كان حريصاً فيما يبدو على ألا يتعدى رده حد زفر فأخذ النقض طابعاً شخصياً، ولم يتعرض للعلاقة بين قيس والخلافة، ولا لما ذكره زفر عن مروان والصدع الذى أوجدته الوقيعة بين قيس وبنى أمية والتهديد الذى وجهه إلا بالسخرية منه ومن فراره سخرية عجلى سريعة، وكأن المسألة كما قلت مسألة شخص أو فرد. لكنه على أية حال لم يكن فرداً عادياً وإنما كان زعيماً من زعماء المعارضة وقائداً من قوادها تنضوى تحت لوائه قبائل بأسرها. ولعل إجابة عمر بن المخلاة

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٢٤ ، ٢٥ . وتاريخ الطبرى جـ٥ ص ٥٤١ ، ٥٤٢ مع اختلاف فى الترتيب .

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ٢٦ وتاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٥٤٢ ، ٥٤٣ .

الكلبي كانت أكثر عمقاً وإن لم يلتزم فيها بشرط من شروط النقض الشكلية يتعلق بالروى ؛ حيث سار على روى آخر . ومنها:

«بَكى زُفَرُ القَيسيُّ من هُلْكِ قَومِه — بعَبْرةِ عَينٍ مايَجفُّ سُجومُها

يُبكّى على قَتلَى أُصيبتْ براهِطٍ — تُجاوبُه هامُ القِفارِ وبُومُها

أَبَحنا حمَى للْحيِّ قَيسٍ براهِطٍ — وولَّتْ شلالاً واستُبيحَ حَريمُها

يُبكِّيهمُ حرَّانَ تَجرى دُموعُه — يُرجِّى نزاراً أن تئوبَ حُلومُها

فمُتْ كَمَداً أو عِشْ ذَليلاً مُهضَّماً — بحَسرةِ نَفسٍ لاتَنامُ هُمومُها»[1].

وهو من البداية حريص على نسبة زفر إلى قيس، مما يشعر أنه سوف يتفلت من الإطار الشخصى وإن ظل متعلقاً به على نحو ما فى السخرية من بكائه، غير أنه لايلبث أن يتحول إلى ذكر ماخلفته الوقيعة بقيس ، ويبرز مكانة زفر فى نزار ودوره فى توجيهها، ثم يتجه فى أبيات تالية نحو ذكر قضاعة والفخر بها.

ويشارك الأخطل وجرير بنقيضتين لاميتين فيما أعقب يوم المرج من أحداث بين تغلب وقيس ، وبالتحديد يوم البشر ؛ حيث أوقع الجحاف ببنى تغلب وقعة جأر منها الأخطل – وكان ممن تسبب فيها – ودل على عبد الملك بنصرة تغلب له ولآل مروان ووقوفها معهم ضد خصومهم السياسيين، وتهدده بالانصراف عنه وانفضاضهم من حوله إن لم ينتقم لهم ويزيل عنهم ما أحله الجحاف بهم من خزى وعار . وقد استغلها جرير كعادته فى السخرية من الأخطل وبنى تغلب، وألقى عليه التبعة بإثارته للجحاف، واعتبره شؤماً على قومه، وضيق عليه الخناق وأحرجه حين تعرض للعلاقة بين بنى تغلب وبنى مروان، فلولا حماية الأمويين لبنى تغلب لافترستهم قيس، فكيف يدل عليهم وهم ولاة نعمته؟ وكان الأخطل قد ذكر مصعباً فيما ذكر وأشار فى عجالة إلى دور قبيلته فى القضاء عليه وبالتالى فى القضاء على دولة آل الزبير حيث بدأ سقوطها الفعلى بسقوطه إثر الهزيمة التى حاقت به وبأتباعه يوم المرج[1].

ويسجل الطبرى فى أحداث سنة ١٠٢هـ مناقضة بين الفرزدق والجعد بن درهم حول مقتل المنتوف من بكر بن وائل فى القتال الذى دار بين يزيد بن المهلب وجيش

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٥٤٣ . (٢) نقائض جرير والأخطل ص ٤٨ : ٦٩ .

الشام [1]. وكان الفرزدق قد حرض البكريين بقوله :

«تُبكّى على المَنتوفِ بَكْرُ بنُ وائـلٍ وتَنْهَى عن ابْنَىْ مِسْمَعٍ مَن بَكاهُمـا
غُلامَينِ شبّا في الحُروبِ وأدركـا كِرامَ المَساعى قَبلَ وَصْلِ لحاهُما
ولو كانَ حيّاً مالكٌ وابنُ مالـكٍ إذاً أوقَدا نارَينِ يَعلو سَناهُمـا».

وابنا مسمع مالك وعبد الملك ، قتلهما معاوية بن يزيد بن المهلب. فأجابه الجعد بقوله:

«نُبكّى على المَنْتوفِ في نَصْرِ قَومِـه ولسنا نُبكّى الشّائدَينِ أباهُمـا
أرادَ فناءَ الحَىِّ بَكْرِ بنِ وائـلٍ فعزُّ تَميمٍ لو أُصيبَ فناهُمـا
فلا لَقيا رَوحاً من اللّهِ ساعـةً ولارَقَأتْ عيْنا شَجِىٍّ بَكاهُمـا
أَفِى الغِشِّ نَبكِى إن بَكينا عليهما وقد لَقِيا بالغِشِّ فينا رَداهُمـا» ؟

وفيها يرمى ابنى مسمع بالغش خلافاً لما ذكره الفرزدق عنهما، ويعلن أن موتهما كان بسبب هذا الغش، ويحمل عليهما حملة عنيفة وعلى الفرزدق، ويكشف عن الدافع العصبى الذى يحركه وأنه يهدف إلى : «فناء الحى بكر بن وائل»؛ فعز تميم معلق بهذا الفناء. وهى أبعاد قبلية، لكنها لاتخلو على أية حال من إشارات سياسية حيث كان هذا التحريض مرتبط بالثورة التى خاضها يزيد بن المهلب على الأمويين، وكان مقتل هؤلاء الثلاثة المنتوف وابنى مسمع فى خضم تلك الأحداث .

تأتى بعد ذلك مجموعة أخرى من النقائض الناقصة نكتفى بالإشارة إليها حيث لم تكتمل فيها شروط النقض وخاصة تلك التى تتعلق بالشكل؛ كالتزام الوزن والقافية. ومنها ما كان بين الفرزدق ومسكين الدارمى فى رثاء مسكين لزياد [2]، وما كان بين كعب بن جابر ورضى بن منقذ العبدى فى مقتل الحسين رضى الله عنه [3]، وبين عبد الله بن همام وعبيد الله بن الحر فى قتلى قيس عيلان [4].

---

(1) تاريخ الطبرى جـ٦ ص ٥٩١ .
(2) الأغانى جـ ١٩ ص ٣٢/ تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٢٩٠ / ديوان مسكين ص ٣٠ / ديوان الفرزدق (ط. الصاوى) جـ١ ص ٢٤٥.
(3) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٤٣٣ . (4) المصدر نفسه جـ٦ ص ١٣٧ .

كما نشير إلى وجود بذور أولية لما يمكن تسميته بالنقائض المذهبية تتمثل فى أبيات كثير التى ضمنها أفكاراً شيعية حول الإمامة والمهدية والغيبة والرجعة؛ فقد أثارت هذه الأبيات بعض شعراء الفرق المذهبية الأخرى فى عصور تالية فأجابوه عنها ونقضوا ما طرحه فيها من أفكار [١].

* * *

٢- ومن الظواهر الأدبية التى استمرت فى شعر الرثاء فى العصر الأموى كذلك تأرجحه بين القصائد والمقطوعات. وهو إلى المقطوعات أميل. ولعل هذه المقطوعات - وخصوصاً مالم يتعد منها البيتين والثلاثة - أجزاء من قصائد ضائعة لم تصل إلينا كاملة. يدل على ذلك ما لايستقيم فى صياغته منها إلا مع صلة ، كقول الرهين بن سهم المرادى - من شعراء الخوارج - فى مصرع مرداس وإخوان له:

«كزَيدٍ ومرداسٍ وعَمْرٍو وكَهْمَسٍ ... وكابنِ عَقيلٍ فى الكَتِيبةِ عامرِ
أقاموا بدارِ الخُلدِ لا يرْتَجيهِمُ ... حَميمٌ كما يُرْجَى إيابُ المُسافرِ» [٢].

وقد صُدِّرا فى الديوان بـ: «وقال .... فى قصيدة له طويلة» . ثم لم يورد غير البيتين. وهما يفتقدان كما هو واضح إلى جزء سابق يتعلقان به [٣] . وكثيراً مايصادفنا مثل هذا الوصف فى كتب القدامى ثم لانجد تحته غير البيت والبيتين، ونبحث عن سائر الأبيات فى المصدر نفسه وفى مصادر أخرى فلا نعثر على شىء. مما يدفعنا إلى الجزم بضياع هذا الشعر وإلى التأكيد مرة أخرى على أن ما وصلنا من رثاء سياسى ومذهبى لا يمثل بحال كل ماقيل فى العصر الأموى. وقد جزم غير واحد من الدارسين بضياع كثير من شعر الخوارج، وعللوا ذلك بعلل كثيرة [٤]. والرهين هذا الذى نذكره

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٦٢ ، ٦٣ . (٢) ديوان شعر الخوارج ت. د. إحسان عباس ص ٧٧ .

(٣) ومثل هذا نجده فى رثاء أم العريان - من شواعر الشيعة - لعلى (الكامل للمبرد جـ٣ ص ٢٤٤) وإسماعيل بن يسار - من شعراء الزبيريين - لمحمد بن عروة بن الزبير (ديوان إسماعيل بن يسار ص ٣٢) وعبيدة بن هلال (ديوان شعر الخوارج ص ١٠٧) وخارجى مجهول (ديوان شعر الخوارج ٢٥٧) والأشهب بن رميلة (شعراء أمويون جـ٤ ص ٢٣١).

(٤) منها مايضع فى الاعتبار الفترة التى دون فيها وهى العصر العباسى حيث ضعف شأن الخوارج ولم يجرؤ الرواة على جمع شعرهم وتدوينه فى ذلك العصر إلا ماكان من اهتمام قلة كالمبرد، ومنها العصبية المذهبية وعداء الشيعة وأهل السنة لهم .

– على سبيل المثال – يوصف بأنه كان من الدهاء والمعرفة بالشعر والفقه بمنزلة عمران ابن حطان وبأنه صاحب أشعار كثيرة فى مذاهبهم [1]. ثم لانجد له غير مقطوعتين إحداهما التى سبقت وهى فى بيتين، والأخرى فى ستة أبيات [2]. وكذا الحال بالنسبة لسميرة بن الجعد حيث يقول المسعودى: «ولسميرة أشعار كثيرة» [3]. ولم يورد له جامعا الديوان غير قطعة قصيرة فى أربعة أبيات وقصيدة أخرى فى ثمانية عشر بيتاً [4]. ويكفى أن ديوان الخوارج لايتعدى حجمه – على الرغم من اشتماله على شعرهم جميعاً وهم قرابة المائة – ديوان شاعر واحد يضمه مجلد صغير.

وليس الأمر وقفاً على الخوارج وحدهم؛ فقد تعرض شعر غيرهم من شعراء المذاهب الأخرى لما تعرض له شعرهم من الضياع وإن لم يكن بالصورة نفسها؛ فالكميت كما يذكرون كان مكثراً غاية الإكثار، ولم يصلنا – مع ذلك – من شعره إلا قليل، ولولا الهاشميات وهى مجموعة قديماً لما استطعنا تكوين صورة واضحة عنه ولضاعت معالمه كما ضاعت معالم آخرين.

ونخلص مما تقدم إلى أن شعراً – لانستطيع تحديد حجمه على وجه دقيق – قد ضاع، وأن ضياعه كان نتيجة لاتصاله واتصال أصحابه بالأحزاب المعارضة، وأنه قد اشتمل فيما اشتمل على الرثاء كما اشتمل على موضوعات أخرى تشبهه فى الاتجاه نحو السياسة والمذهبية. فإذا ماتقرر ذلك أمكن الإفادة منه فى تعليل شيوع المقطوعات وتأرجح الرثاء بينها وبين القصائد القصيرة. وإن كان هذا لاينفى بطبيعة الحال أن بعضها قيل على هذا النحو. ويمكن تعليل ذلك بأن الرثاء – كما ذكرت فى الجزء الخاص بصدر الإسلام – يميل بطبيعته إلى الاستقلال بخلاف المدح الذى لايصل إليه الشاعر – على سبيل المثال – إلا بعد تمهيد طويل ومرور على موضوعات أخرى لاتتصل به اتصالاً مباشراً ، وهى التقاليد التى سار عليها الشعراء منذ القدم، فهذا التعدد يدفع إلى الإطالة، كما أن المعانى –كما يقولون – محدودة فى الرثاء، وهذا صحيح إلى حد ما؛

---

(١) الكامل للمبرد جـ٣ ص ٢٦٢ / ديوان شعر الخوارج ص ٧٦.

(٢) ديوان الخوارج ت.د. نايف معروف ص ٨١.

(٣) مروج الذهب جـ٣ ص ٧٦.

(٤) ديوان شعر الخوارج ت.د. إحسان عباس ص ١٢٢ :١٢٤/ ديوان الخوارج ت.د. نايف معروف ص ٧٠، ٧٢ .

فقد أعطاه اتصاله بالصراعات السياسية والمذهبية شيئاً من الثراء فى هذا الجانب، إلا أنه ظل على الرغم من ذلك محصوراً فى دائرة ضيقة تمليها عاطفة الحزن والحالة التى تعتريهم عند التعرض للمصاب. ولاننسى أن كثيراً ممن شاركوا فيه كانوا من المغمورين، كما شاركت فيه النساء، وهؤلاء وأولئك من ذوى النفس القصير الذى يؤثر المقطوعات على القصائد وقلما تطول تجاربهم. كما أملت المواقف فى بعض الأحيان على آخرين لم يعرفوا بالشعر ولا قالوا إلا الأبيات أن يدلوا بدلوهم ويمتاحوا من معين الرثاء فجاءت مراثيهم قصيرة كالآباء والإخوة والأبناء، وماأكثر تلك المواقف وماأكثر ماقيل فيها. كما أن بعضه كان يصاغ أثناء المعارك والاضطرابات وعند القلاقل والفتن. وفى مثل تلك الأحوال تكثر المقطوعات ذات الطبيعة الملتهبة التى تتدفق تدفقاً وتخلو أو تكاد من التعمل والأناة فتفتقد إلى الطول والعمق معاً وخصوصاً إذا كان أصحابها ممن يشاركون بأنفسهم فى الأحداث ويخوضون عند صياغتهم لها فى خضم تلك الأحداث وتغطيهم أمواجها كمراثى الخوارج عامة، وقد جاءت فى أغلبها على هذا النحو. وكانوا - كما يقول الشايب - هم الزعماء أصحاب المذهب وهم المجاهدون حملة السيف[1]. وكبعض مراثى الشيعة فى صفين وكربلاء وعين الوردة،ومراثى الحرة ومرج راهط عند الزبيريين.

أما القصائد فلم تكثر كما كثرت عند شعراء الحزب الأموى. وكان أغلبهم من المحترفين ذوى النفس الطويل ، وقد ساعدتهم عوامل الاستقرار التى وجدوها فى ظل بنى أمية - والتى افتقدها نظراؤهم من شعراء الأحزاب الأخرى - على الإطالة ، وسمحت لهم ظروفهم المهيأة وماكان لديهم من السعة والوقت بمراعاة مايقتضيه الفن وإن جاء ذلك غالباً على حساب ماكنا نجده لدى الآخرين من البساطة والصدق.

ولايعنى هذا أن كل مراثيهم طويلة، فهناك مقطوعات عديدة يبدو أنها قيلت هكذا ولم تتعرض أجزاء منها للضياع لقلة دواعيه عندهم بالقياس إلى الخوارج والشيعة، وإنما يعنى أن ماجاء من قصائد كان أغلبها من نصيبهم، كما كانت أغلب المقطوعات من نصيب الأحزاب الأخرى المعارضة .

* * *

---

(١) تاريخ الشعر السياسى ص ٢٠٥ .

٣- الكتم من الظواهر الجديدة التي لم تشر إليها إلا مصادر قليلة، ولم يتنبه إليها بالتالي إلا قلة من الباحثين المعاصرين(١) . وممن أشار إليها من القدامى الطبرى، حيث قال فى تقديمه لقصيدة أعشى همدان: «وهى إحدى المكتمات، كن يكتمن فى ذلك الزمان» (٢). يعنى زمن بنى أمية؛ فهى فى رثاء التوابين الذين خرجوا بعد مقتل الحسين عليه السلام. والمرزبانى حيث قال فى ترجمته لعوف بن عبد الله الأحمر الأزدى: «وله قصيدة رثى فيها الحسين عليه السلام وحض الشيعة على الطلب بدمه ... وكانت هذه المرثية تخبأ أيام بنى أمية، إنما خرجت بعد» (٣). وقريب من هذا ماذكره أبو الفرج الأصفهانى من أن الكميت كان يستر الهاشميات(٤).

والذى نستطيع أن نستخلصه من هذه الإشارات على قلتها:

- أن المكتمات باعتبارها ظاهرة كانت خاصة بالعصر الأموى .

- وأنها ارتبطت بالرثاء ارتباطاً يجعلنا نجزم أو نكاد بأنها كانت وقفاً على هذا الغرض دون سواه .

- وأنها نمت فى الوسط الشيعى، وبالتحديد فى بيئة العراق، نتيجة للضغوط السياسية والكبت الذى كانت تعانيه الشيعة فى ذلك الإقليم .

- وأن مقتل الحسين كان فيما يبدو ذا صلة بنشأة الكتم والتحكم فى اتجاه

---

(١) منهم الدكتور كاظم الظواهرى وقد أفرد لها كتاباً صغيراً - نشرته دار الصحوة بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م تحت عنوان « المكتمات .. من صور الشعر السياسى فى العصر الأموى »-عالج فيه أسبابها وحلل بعض نماذجها وحاول استخلاص خصائصها فى الشكل والموضوع على السواء باعتبارها فناً قائماً بذاته لم يتخذ صورته المتكاملة إلا فى العصر الأموى. وهى دراسة طيبة أفدت منها كثيراً - فيما أنا بصدده - ولم آخذ عليه فيها إلا كثرة الاستطراد واعتباره الكتم ظاهرة عامة فى كل العصور دونما دليل مادى ملموس، وضمه قصائد ومقطوعات لم تصرح مصادرها بكونها من المكتمات، وعدم التفاته إلى أن كل ماصرحت به المصادر القديمة وأشارت إلى كونه من المكتمات كان يتحرك فى إطار الرثاء وحده دون سائر الأغراض وتلك خاصة بارزة لايمكن التغافل عنها وهو يدرس الكتم باعتباره فناً مستقلاً لا ظاهرة أدبية فحسب. كما أن محاولته استخلاص أصول ثابتة لهذا الفن أو بالأحرى «تقاليد» خاصة من نصوص قليلة قد انتابها غير قليل من التعسف والامتحال .

(٢) تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٦٠٧ .

(٣) معجم الشعراء ص ٢٧٧ .

(٤) الأغانى (ط. الدار) جـ ١٧ ص ٢٨ .

المكتمات، وإن كنا لانستطيع تحديد مدى هذه الصلة على وجه الدقة والقطع؛ لقلة ما وصلنا من ناحية، وللغموض الذى يكتنف تاريخ المكتمات من ناحية أخرى. كما لا نستطيع الجزم بشيوع المكتمات – أعنى بوجودها لدى أحزاب أخرى غير الشيعة – أو حصرها فى نطاق الشيعة وحدها على الرغم من أننا لم نتوصل – ولم يتوصل غيرنا – إلا إلى تلك النماذج المشار إليها وهى كلها شيعية؛ فأكثر المصادر لاتلتفت إلى الكتم ولا يعنى أصحابها أنفسهم بالإشارة إلى كون القصائد التى يوردونها من المكتمات أو ليست منها، وقد أورد بعضهم مكتمة عوف بن عبد الله دون أن يشير لا من قريب أو بعيد إلى كونها كانت تكتم فى عصره[1]. فى الوقت الذى صرح فيه المرزبانى بذلك[2]. ولولا إشارته لما تعرفنا عليها. وهو مثال لما يمكن أن يكون قد وصل إلينا بالفعل من مكتمات لم نستطع التعرف عليها بسبب إغفال القدامى الإشارة إليها. إلا أننا نميل إلى أن الكتم كان خاصاً بالشيعة لانسجامه مع ماعرفوا به من الأخذ بالتقية بل القول بوجوبها فى ظل الأوضاع السياسية الضاغطة التى عانوا منها أشد المعاناة طيلة العصر الأموى. أما الزبيريون فكانت لهم دولة خاصة بهم وخلافة يحتمون بها فى حياة ابن الزبير، فلما مات مات معه حزبه وتحول شعراؤه أو أكثرهم عنه وبقى آخرون على ولائهم إلا أنه كان ولاء شخصياً فى الأغلب الأعم. وأما الخوارج فلم يكونوا يؤمنون بالتقية ويرفضونها ويرفضون ماتستتبعه من مداراة وتكتم واستتار، وكان ديدنهم الجهر والمواجهة والصراحة التى لاتعرف الالتواء. وأما الأمويون فأصحاب الدولة الحاكمة ولم يخش شعراؤهم شيئاً وهم يواجهون تلك الأحزاب المعارضة طالما أنهم يحتمون بحكامهم وطالما أن هؤلاء الحاكم كانوا يتمتعون بالقوة ويحكمون سيطرتهم على الرعية أيما إحكام، فلم يحتاجوا إلى الكتم حاجة شعراء الشيعة المغلوبين على أمرهم والذين اضطرتهم الأحداث إليها اضطراراً بعد مقتل الحسين وماأعقب مقتله –رضى الله عنه– من ثورات كانت تبوء بالفشل فى أكثر الأحوال.

وأقدم المكتمات التى بين أيدينا هى مكتمة عوف. وهى كما وصفها المرزبانى «قصيدة طويلة». غير أن ماوصلنا منها بالفعل أربعة عشر بيتاً فحسب، مما يدل على ضياع بعض أجزائها؛ لأنه لايمكن أن يوصف مثل هذا الكم بالطول. ويبدو أن الطول

(١) مروج الذهب ج٣١ ص ١٠١.

(٢) معجم الشعراء ص ٢٧٧.

كان سمة عامة فى المكتمات؛ حيث نلحظه فى سائرها. وقد احتفظ لنا المسعودى بمطلع القصيدة وخاتمتها. أما المطلع فيختلف تماماً عن المطالع التقليدية، وفيه لانرى صدى للمقدمات الطللية أو الغزلية ، وإنما نحن بإزاء شاعر يصحو ويودع كل مايربطه بحياة الدعة واللهو، ويستعد لعمل عظيم يحرض من أجله أصحابه ويهيب بهم أن يهبوا معه ويجيبوا النداء الذى يدعوه ويدعوهم إلى الهدى. يقول عوف:

«صَحَوتُ وَوَدَّعتُ الصِّبا والغَوانِـيا وقلتُ لأصحابى أَجيبوا المُناديا

وقولوا له إذ قامَ يَدعو إلى الهُدَى . وقَبلَ الدُّعا لَبَّيكَ لَبَّيكَ داعيا»[1].

ولغرابة هذا المطلع ذهب الدكتور يوسف خليف إلى أنه لم يُسبق إليه [2]. وأسس فى ضوئه –وفى ضوء خاتمة القصيدة – الدكتور كاظم الظواهرى ماأسماه بالسمات الفنية والموضوعية الخاصة بالمكتمات فى بدايتها وخاتمتها[3]. وإن كنا نرى أن مقدمة الأعشى سوف تخرج عن هذا الإطار، وكذلك بعض مكتمات الكميت. ويبدو أنه كان تقليداً غالباً وليس عاماً – كما حاول الذهاب إليه – وفيه يترك الشاعر كل مايشغله ويصرفه عن الجهاد فيقرر منذ البداية أنه قد صحا، وهى صحوة (خاصة) مما يستغرق الشعراء عادة فى مقدمات قصائدهم؛ فلا مجال لترديد مايقولون من معانى الغزل ، لذلك نراه يقرن الصحوة بتوديع الغوانى والصبا. وهى أيضا صحوة (عامة) انتابت الشيعة – جماعته – عقب مقتل الحسين؛ لإحساسهم بالتقصير فى حقه وخذلانهم إياه، لذا نراه يحض فى غير مواربة على الثورة، ويدعو فى صراحة إلى إجابة داعى الجهاد [4].

ويمضى عوف فى قصيدته فينعى الحسين، «خير الناس جداً ووالداً» . ينعاه لأهل الدين من شيعته وأنصاره، وللفقراء واليتامى والمعدمين. وتعلو نغمة البكاء والعويل مقترنة بذكر هؤلاء والدعوة إلى استمرارها فى كل وقت، وترتفع بجانبها نغمة أخرى من اللوم الشديد والتأنيب على إشخاصهم له وانصرافهم عنه حين جد الجد وتخليهم عن كل ماقطعوه من العهود والوعود. وتقف نغمة ثالثة – شاحبة هزيلة – بين النغمتين السابقتين، وهى نغمة حماسية يفخر فيها بيوم صفين وماكان لهم فيه من مجد وعلو

---

(١) مروج الذهب جـ٣ ص ١٠١ .

(٢) حياة الشعر فى الكوفة ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٣) المكتمات ص ٩٠. (٤) المكتمات ص ٩٠.

شأن على ابن هند وأتباعه. لكنها على ضعفها ذات أثر خطير فى الإثارة والتوثيب بتذكيرهم بما كانوا عليه فى ماضيهم القريب وماكان عليه خصمهم الذى صار الآن يتحكم فيهم وينكل بزعمائهم ويكمم أفواههم، وتذكيرهم كذلك بالقضية الأصلية التى كانت وراء نشأتهم – حزباً – وصراعهم الدامى مع الأمويين، وهى قضية الخلافة التى اغتصبت منهم – فى زعمهم – وحولت عن أصحابها الحقيقيين.

ولاينسى الشاعر أن يبين – فى ثنايا ذكر الحسين ومقتله – عن غيبته يوم الطف، وهو اعتذار شخصى لايعفيه من الشعور بالندم والإحساس بالتقصير. ثم يختم القصيدة ختاماً قوياً يضفى عليها طابع الثورية والعنف، فيصف الأمة بأنها تاهت وضلت، ويهيب بها أن ترجع الى الصواب وتعود إلى الحق لترضى الله عز وجل :

«فيا أُمَّةً تاهتْ وضلَّتْ سَفاهةً أَنيبوا فأَرْضُوا الواحِدَ المُتَعاليا».

وهو فى تصورى يحمل إشارة خفية للتحرك من أجل الإطاحة بالحكام الذين جروا الأمة – كما يقول – إلى الضلال، فلا يمكن أن يعود الحق إلى نصابه إلا بخلعهم وإزاحتهم عن السلطة ، وهو ماعبر عنه عملياً التوابون على الرغم مما اعتور حركتهم من إخفاق.

ولئن كانت مكتمة عوف بمثابة الشعلة التى فجرت ما أعقب استشهاد الحسين من ثورات، أو ساعدت على تفجيرها ، فإن مكتمة أعشى همدان قد قيلت بعقب فشل إحدى هذه الثورات، وهى على وجه التحديد ثورة التوابين.

وعلى الرغم من أن الأعشى لم يشارك فى تلك الثورة مشاركة فعلية إلا أنه استطاع أن يرصد مادار فى عين الوردة رصداً دقيقاً حتى لتعد قصيدته وثيقة من أهم وثائقها، مما حدا بالطبرى إلى نقلها كاملة والإفادة منها فى عرض الأحداث ومتابعتها[1]. وقد تابعه ابن الأثير [2] فاحتفظ لنا بها فى الوقت الذى أهملتها فيه كتب الأدب وتجاهلتها تجاهلاً تاماً ، لا لضعف قيمتها الأدبية ، وإنما لكونها – فى تصورى – من المكتمات التى لم تعرف إلا فى وقت متأخر وظلت تتناقل فى سرية وحذر حتى رصدها الطبرى، وهو فيما نعلم أول من اهتم بها وأشار فى صراحة إلى أنها كانت تكتم فى ذلك الزمان

(١) تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ .
(٢) الكامل لابن الأثير جـ٣ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

ضمن قصائد أخرى لعلها ضاعت ولم تجد من يهتم بها، أو وصل إلينا بعض أجزائها كما هى الحال بالنسبة لمكتمة عوف.

ومثل هذه القصائد قد يُنظر إليها على أنها من التراث الشعبى فيُشك فى نسبتها إلى قائليها أو فى الأقل تكون مدعاة للزيادة والنقصان، وهذا سبب آخر من أسباب التجاهل والإهمال. إلا أن ماوصل إلينا منها قد توافرت على روايته كتب موثوق بها وبأصحابها، ولم يشكك أحدهم فيها ولا فى نسبتها إلى قائليها، وهى حتى مع احتمال الشك والزيادة والنقصان أقرب إلى التراث المذهبى إن جاز لنا هذا التعبير منها إلى التراث الشعبى، لكونها تدور فى فلك واحد هو الفلك الشيعى. ونحن معنيون بتتبع المذهب أكثر من اعتنائنا بتتبع الأشخاص .

يبدأ الأعشى مكتمتة تلك البداية الغريبة التى تبدو وكأنها منفصلة عن الجو العام للقصيدة؛ جو المواجع والأحزان. فنراه يتغزل فى أم غالب، ويستمر فى غزله تسعة أبيات تكاد تشكل وحدها قصيدة أو مقطوعة كاملة، يذكر فيها الخيال وكيف ألم به والهم الذى اعتراه نتيجة فراقها، ويتوالى بعد ذلك سيل من الذكريات تتراءى لنا فيه صورتها الحسية التى حرص على رسمها فى مهارة واقتدار والشباب وعهده ومايمليه من الإقبال على الحياة. ويتضح من ثم الخيط الذى يربط بين هذه المقدمة وماسوف يتلوها من رثاء؛ ففيهما معاً نراه وقد فقد شيئاً غالياً لايمكن تعويضه بحال، فالشباب – فى المقدمة – قد مضى ولم يبق منه غير ذكرى باهتة، والحبيب – فى المقدمة كذلك – قد جانبه وتفلتت لحظات الوصال وحل الهم والحزن والألم محل السعادة والهناء، وأحاطته تلك المشاعر بسياج رهيب لايستطيع التفلت منه إلا باللجوء إلى الذكريات والتشبث بالخيال – خيال المرأة – الذى يلم به من حين إلى حين. وابن صرد – فى صلب القصيدة – قد ولى كذلك، هو ومن قتل معه فى عين الوردة وخلف له ولغيره من شيعته ومحبيه ماخلف من الهموم والآلام. فالفقد عامل مشترك بين المقدمة والقصيدة فى صلبها، وكذا ماخلفه الفقد من النتائج والآثار.

لذا نقول إن الأعشى نجح فى توظيف تلك المقدمة وجعلها بمثابة التمهيد الموحى بما بعده ،كما نجح فى استغلال تقليد فنى من التقاليد الخاصة بالرثاء، وهو التعبير عن المرأة بالكنية فى مطلع القصائد التى تشتمل على أحداث خطيرة مما نجد له نظيراً عند

أبي محجن الثقفي [1] وأبي بكر بن الأسود بن شعوب الليثي[2] ، وغيرهما من الشعراء السابقين[3] . ثم إنه يكنى عنها بأم غالب وهو يعقب هزيمة مرة كي لايقطع حبل الرجاء في نفوس الشيعة من قلب الهزيمة وتحقيق الغلبة والنصر .

يتخلص الأعشى بعد ذلك إلى ابن صرد فيؤبنه تأبيناً رائعاً بمعانٍ أكثرها دينية؛ فهو مخبت لله، توسل إليه بالتقوى توسل صدق، ولم يكن خروجه من أجل الدنيا، فقد اطرحها وتخلى عنها، وإنما كان توبة إلى الله، وهو يعني ماعرف في المفهوم الشيعي بالتكفير عن تقصيرهم في حق الحسين ومن استشهد معه في كربلاء، تكفيراً يصل إلى حد التضحية بالنفس وتعريضها للقتل كما قال موسى لبعض بني إسرائيل حين اتخذوا العجل ﴿فتُوبوا إلى بارئكم فاقْتلوا أنفُسَكم ....﴾[4]. وهو ماذكره ابن صرد صراحة في إحدى خطبه فيمن اجتمع له من التوابين، وهو ماقامت عليه حركتهم أساساً.

يقول الأعشى :

«فإنّي وإن لم أَنسهُنّ لذاكِـــرٌ	رَزيئةَ مِخْباتٍ كَريمِ المنَاصِــب
تَوسَّلَ بالتَّقوَى إلى الّله صـادقاً	وتَقوَى الإله خيرُ تَكسابِ كاسِب
وخلّى عن الدُّنيا فلم يَلْتَبِسْ بها	وتابَ إلى الّلهِ الرَّفيعِ المَراتِــب
تَخلّى عن الدُّنيا وقالَ اطَّرحتُها	فلستُ إليها ماحَيِيتُ بآيِــب
وما أنا فيما يُكْبِرُ النّاسُ فَقـدَه	ويَسعَى له السّاعونَ فيها براغِـب»[5].

ويمضي الأعشى بعد ذلك في تبرير خروجه هو ومن اتبعه ، وإضفاء بعض المشروعية على ما صنعوه، فإذا هم أصحاب حق يرتطمون بابن زياد - قاتل الحسين - وجيوش الدولة لا من أجل الدنيا وإنما ليكفر بعضهم عما جروه بالأمس، ويلتمس آخرون التقى :

«فوَجَّهَهُ نَحوَ الثَّوِيَّة سائِـــراً	إلى ابن زيادٍ في الجُموعِ الكباكِب

(١) ديوانه ص ١٤ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام - المجلد الثاني ص ٢٩.

(٣) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي د.نصرت عبد الرحمن (مكتبة الأقصى - عمان سنة ١٩٧٦م) ص ١٤٦ . وشعر الرثاء في صدر الإسلام د.مصطفى عبد الشافي الشورى ص ٨٩.

(٤) البقرة من الآية ٥٤ . (٥) تاريخ الطبري جـ٥ ص ٦٠٨ .

بقومٍ همُ أهلُ التَّقيَّةِ والنُّهَـــى   مَصاليتُ أنجادٌ سُراةٌ مناجـــب
مَضَوا تاركي رأْى ابنِ طَلْحةَ حَسْبَهُ   ولم يستجيبوا للأمير المخاطـــب
فساروا وهم مِن بَينِ ملتمِسِ التُّقَى   وآخرَ مما جرَّ بالأمسِ تائـــب».

وقد وصفهم بالتقوى كما وصف قائدهم من قبل، ووصفهم كذلك بأنهم أصحاب عقول وأهل شجاعة وذوو نجابة ، وأشار إلى نصيحة عامل ابن الزبير على العراق لهم بالعودة وترك الخروج أو تأجيله وكان يشفق عليهم من الارتطام بجيوش الدولة مع أن ارتطامهم بها كان يحقق له وللحزب الذى ينتمى إليه مصلحة سياسية .

وينقلنا الأعشى بعد ذلك إلى أحداث المعركة فيصفها وصفاً دقيقاً، وتعلو نغمة الحماسة، ثم تعقبها نغمة الحزن والانكسار؛ فنرى أصحابه وقد غودروا صرعى بعد أن أكثروا القتل فى جموع الشام وأبادوا سراتهم ولم يفلت من بين أيديهم غير عصائب قليلة، ونرى ابن صرد مجدلاً بين القتلى وحوله مجموعة من الفرسان منهم المسيب بن نجبة الفزارى «رأس بنى شمخ»، وعبد الله بن نفيل الأزدى «فارس شنوءة» وعبد الله بن وال التيمى من تيم اللات بن ثعلبة بن عكابة إحدى قبائل بكر .

ويمضى فى تتبع أعلامهم ممن حصدوا فى ذلك اليوم ويخص بالذكر عمرو بن بشر والوليد بن عصير الكنانى وخالد بن سعد بن نفيل وزيد بن بكر والحليس بن غالب .

وتعلو نغمة الحماسة مرة أخرى، ويشير إلى قبيلته همدان ويفخر بمن ضارب منها ويخلص -ونخلص معه - إلى أن المصاب كان عاماً؛ فقد أصيب من كل قوم زعيمهم وآخرون من ذوى الحسب الرفيع وممن هم فى ذروة المجد. ويلفتنا فى الختام إلى شىء من العصبية الإقليمية التى ظهرت فى الصراع بين الشيعة وبنى أمية منذ عهد على فيسمى جيش التوابين بجيش العراق وإن لم يتحقق على يديه الآمال التى كانت منوطة به، فيكفى ماحققوه من الإثارة وماحركوه فى النفوس من المطالبة بالحق والموت فى سبيله. لذلك نراه يدعو لهم - كعادتهم - بالسقيا وعدم البعد، وهو دعاء يشى بالرضا عنهم. ويحسبهم أنهم كانوا فرسان العراق وحماته كما كانوا خير جيش له:

«فيا خيرَ جَيشٍ للعراقِ وأهله   سُقيتم رَوايا كلِّ أسْحَمَ ساكـب
فلا يَبْعَدنْ فُرسانُنا وحُماتُنـا   إذا البيضُ أبدتْ عن خِدامِ الكَواعِب».

أما ماحققه الأمويون فنصر هزيل، لأنهم إن كانوا قد قتلوا منهم «فالقتل أكرم ميتة»، وكل فتى مصيره إلى الموت، وما قُتِلَ هؤلاء حتى أثاروا عصابة أخرى من الشيعة – لعلها عصابة المختار – حملت اللواء بعدهم وخرجت تحت الشعارات نفسها التى نادوا بها من قبل:

«فإن يُقتَلوا فالقَتلُ أكرمُ ميتةٍ | وكلُّ فتًى يوماً لإحْدَى الشّواعِبِ
وماقُتلوا حتّى أثاروا عِصابــةً | مُحلّينَ ثَوْراً كالّليوثِ الضّـــوارِبِ».

ولعله كان يتنبأ بما سوف يحدث وهو يرى المختار يتلقف فلول التوابين ويضمهم إليه وقد جاء الواقع ليحقق ماتنبأ به، أو كان يسير فى الإطار نفسه الذى سار فيه عوف من قبل، وهو الإطار الفنى الذى يحرص فيه صاحب المكتمة على أن يختمها ختاما قويا يدعو فيه – غالباً – إلى الثورة والعنف ، وكأنه الهدف الذى صيغت القصيدة من أجله أو بنيت أساساً عليه.

ونصل إلى الكميت وإلى هاشمياته التى صاغها فى الانتصار لآل البيت وضمنها ماضمنها من الرثاء السياسى والمذهبى لنجد أبا الفرج يشير فى صراحة إلى أنه كان يسترها[1] ، وأنه كان يخشى أن يفتضح فى شعره عن علىّ [2]. ونعلم من قصته مع خالد بن عبد الله القسرى وإيقاع هذا الأخير به عند هشام بن عبد الملك أن الهاشميات لم تكن تصل إلى ملوك بنى أمية وولاتهم فى أول الأمر، وأنها كانت تتناقل فى أوساط الشيعة على حذر[3] ، ولم يعرف بها الأمويون إلا فى أخريات حياته، وقد ارتبطت على نحو مابنكبته وأدت فى نهاية الأمر إلى مقتله على يد جنود يوسف بن عمر والى العراق[4].

ونجد فى الوقت نفسه خبراً فى الخزانة ينقض هذا الكتم فـ «هو أول من ناظر فى التشيع مجاهراً بذلك» [5]، وقد أظهر ماكتمه غيره من الحق. غير أن هذا الخبر لايمس بالضرورة الهاشميات بل يجىء فى أعقاب وصفه بأنه كان «فقيه الشيعة...وكان جدلياً» .فربما أظهر ما أظهره فى محاورات له مع بعض الخصوم، أو فى مواقف تستدعى

---

(١) الأغانى (ط. الدار) جـ١٧ ص ٢٨ . (٢) المصدر نفسه جـ١٧ ص ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٦ . (٤) المصدر نفسه ص ٢٠/ الخزانة ج١ ص ١٤٦ .
(٥) خزانة الأدب جـ١ ص ١٤٤ .

المواجهة وترك التقية إلى حين، أو ربما في شعره الآخر الذى لم يصلنا منه إلا القليل .

على أننى أميل إلى أنه كان يُظهر بعض أجزاء من الهاشميات ويكتم بعضها الآخر وهو ما يؤيده قوله :

«بل هَواىَ الّذى أُجِنُّ وأُبْـــدِى لبنى هاشِمٍ فُروعِ الأنـــامِ»[1].

وقوله فى الهاشمية نفسها:

«مُعْلِناً للمُعالِنينَ مُسِـــــــــرّاً للمُسِرّينَ غيرَ دَحْضِ المَقامِ».

وقوله فى أخرى :

«لهم من هَواىَ الصَّفْوُ ماعِشتُ خالصاً ومِن شِعْرِىَ المَخْزونُ والمُتَــنخَّلُ»[2].

ويفسر الشارح قوله المخزون بأنه «هو المتحفظ به» والمتنخل بأنه «المختار» ثم يقول: «المخزون : يريد المخزون عن غيرهم، والمتنخل: المتخير».

ومما يدل على أنه كان يظهر بعض هاشمياته ما فيها من جدل وتحاور حول حق آل البيت فى الخلافة، فهذا لايصاغ ليكتم وإنما لينتصر به على خصوم مذهبهم ويرد حجتهم. ومافيها كذلك من ضيق بكثرة ما يوجه إليه من اللوم ورد على هؤلاء اللائمين، فهم يلومونه على أشياء هى ذاتها التى أعلن عنها فى كثير من الهاشميات ومنها حب آل البيت والذود عنهم والتعرض للأذى فيهم.

والذى أتصوره أنه كان يكتم الشق الذى ينال فيه من بنى أمية نيلاً مباشراً كالأبيات (٢٢:٤٣) بالهاشمية الرابعة [3]. وفيها يحمل عليهم حملة شديدة يركز فيها على وصفهم بالظلم وسوء سياستهم للرعية وترك الكتاب والعمل به، ويميل إلى شىء من الإثارة ، ويدعو فى غير مواربة إلى قلب نظام الحكم. لاشك أن مثل هذه الأبيات لم يكن الكميت ليجرؤ على الجهر بها، وإنما يتناقلها الشيعة همسا ويتدارسون ما بها خلف الجدران .

وقد تعرضنا للمعانى التى يشتمل عليها الرثاء فى الهاشميات والمحاور التى يرتكز عليها فى الفصل الخاص بالشيعة. فلن نعود إلى ماسبق أن ذكرناه وإنما نشير فى نقاط إلى أن الكميت:

---

(١) شرح الهاشميات ص ١٢.

(٢) شرح الهاشميات ص ١٧٨ .

(٣) شرح الهاشميات ص ١٥٥ : ١٦٤ .

- ثار فى مكتماته على المطالع التقليدية، كما ثار عليها من قبل عوف بن عبد الله فبدأ بعضها دون تقديم كاللامية [١]، واستبدل بها - فى بعضها الآخر - ديباجة جديدة يتغزل فيها ببنى هاشم على نحو لم نجد له من قبل مثيلا[٢].
- أعاد رثاء الحسين من جديد ودار فيه حول المعانى التى رددها شعراء الشيعة إبان حركة التوابين وبعدها من غدر الأمويين به وخذلان شيعته بالعراق له وانصرافهم عنه بعدما استقدموه إليهم وواعدوه ، ثم مااعتراهم من ندم وبكاء شديدين واتجاه نحو التوبة والتكفير. وكأن مقتل الحسين ومااستتبعه صار (تقليداً) من (التقاليد) التى ترتكز عليها المكتمات فى أخريات العصر الأموى.
- كان أشد عنفاً فى اتجاهه الثورى، ولم يكتف فيه بإثارة المشاعر وإلهابها وتحريك الوجدان، وإنما تميز بإضافة ما أضافه من الإقناع الفكرى والاحتجاج لما يقول ويدعو إليه بالحجج العقلية والأدلة والبراهين، فصار التوثيب فناً يخاطب العقل والوجدان معاً، ويقوم على الإثارة والإقناع، ولم يقصره على الجزء الأخير من القصيدة كما كانوا يفعلون وإنما جعله يشيع فى أنحائها.
- لم يلتزم بالقفل المثير ، وإنما ختم إحداها بالفخر [٣]، وأخرى بالبشارة [٤] وثالثة بما يؤمل من عدل وماهو فيه من خوف [٥].
- وضع مايمكن أن نعتبره قفلاً جديداً يبشر فيه بدولتهم بطريقة مباشرة كما فى أكثر الهاشميات [٦]، وغير مباشرة عن طريق وصول الناقة به إليهم كما فى الهاشمية الأولى والثالثة [٧]. لذا رأيناه يؤخر الجزء الخاص بالرحلة خلافاً لما اعتاده الشعراء وما اعتدناه فى القصائد الطويلة منذ العصر الجاهلى .

---

(١) شرح الهاشميات ص ١٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١ ، ٤٣ ، ١٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٩.
(٥) المصدر نفسه ص ١٩٤ .
(٦) ومنها الهاشمية الرابعة حيث يشير إلى كونها مجملة وسوف تحمل الأيام لها تفسيراً ص ١٨٧ . والخامسة حيث العدل الذى يؤمله وينتظر انتشاره «مابين شرق إلى مغرب» ص ١٩٤. والسادسة وهى أكثرها مباشرة حيث الحديث عن الهاشمى المنتظر الذى يلمن خلفاء بنى أمية «ويكون حياً لأمته ربيعاً» «ويقيم أمورها ويذب عنها» «ويترك جدبها أبداً مريعاً» ص ١٩٩.
(٧) شرح الهاشميات ص ٤٢ ، ١٤٤ . وكذلك الحال بالنسبة للهاشمية الثانية وإن اكتفى فيها بإعلان رغبته فى الوصول إليهم على ظهر ناقة شغلته أوصافها عن التصريح بالوصول فى الأبيات الأخيرة .

في اللغـــــة

١ - يظل المعجم القديم بألفاظه وتراكيبه ومادته واضحاً، فنرى السقيا والمشتقات الخاصة بها [١]، والدعاء بعدم البعد [٢]، والتلهف [٣]، وذكر الصدى والهام[٤]، والطيور البـارحة وعطر منشـم والعنقاء [٥]، والنـدب على طريقتهـم بالـواو ويـا... من لـ.....ه[٦] وغيرها. ونجد الأسلوب الجزل الرصين والألفاظ المستوحشة، والتقديم والتأخير، والقطع والاعتراض، والميل إلى الإيجاز والبعد عن التفصيل. ونجد المعاني القديمة والصيغ المتكررة .

بل إن بعض المراثي تجيء كأنها قطع قديمة لا يستطيع الباحث تمييزها عن مراثي الجاهليين بواسطة اللغة وحدها إلا في حدود ضيقة قد يساعده عليها أسماء الأماكن والشخوص والأحداث، وخصوصاً ماقيل على ألسنة البدو في الصراعات القبلية؛ فهو يشبه إلى حد بعيد رثاء القدامى، ولا يكاد يختلف في لغته عن لغتهم إلا نادراً وفي نواحي قليلة محدودة. تلك هي السمة الأولى التي نسجلها في دراستنا لهذا الجانب الفني. وهي سمة عامة تتفق وطبيعة هذا الموضوع الجادة والروح المحافظة التي تميل إلى التقليد أكثر من ميلها إلى التجديد والابتكار، وتؤكد في الوقت نفسه أن المؤثر الجاهلي القديم كان لايزال فاعلاً وأن فاعليته كانت كبيرة بحيث لايمكن التغاضي عنه .

---

(١) الأمالي جـ٣ ص ٣/ تاريخ الطبري جـ٥ ص ٢٨٢ ، ٤٧٠/ ديوان جرير جـ٣ ص ٧١٩/ ديوان شعر الخوارج ص ٦٧، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٢، ٢٣٦/ ديوان كثير ص ١٧٩ ، ٥٢١/ شعراء أمويون جـ٣ ص ١٩٨/ مروج الذهب جـ٣ ص ١٠١ / الموفقيات ص ٨٣.

(٢) ديوان جرير جـ٣ ص ٧١٩/ ديوان شعر الخوارج ص ٦٠/ شرح الحماسة للتبريزي جـ٣ ص ١٤/ شعر المتوكل الليثي ص ٢٥٤/ مقاتل الطالبيين ص١٥٠.

(٣) الأغاني جـ٢ ص ٣٢٣/ الأمـالي جـ٣ ص ٣ / ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٨٤ / ديوان الفرزدق (ط. الصاوي) جـ١ ص ٣٥٦ / ديوان مسكين ص ٤٣.

(٤) ديوان كثير ص ٥٣٦/ شعراء إسلاميون ص ٥٨٦ .

(٥) ديوان شعر الخوارج ص ٦٧/ ديوان الفرزدق (ط. الصاوي) جـ١ ص ١٤٦ / شرح الهاشميات ص ٨١.

(٦) الأغاني جـ١٧ ص ٣٣٢/ تاريخ الطبري جـ٥ ص ٢٨٢ / ديوان ابن قيس الرقيات ص ٩٩ / شعراء أمويون جـ٤ ص ٣٤٨ .

٢- ويقابلنا بجانب هذا المعجم معجم جديد يتصل بالحياة الإسلامية، وهو لايقل وضوحاً عنه، إلا أنه يتفاوت بينهم فيظهر لدى الخوارج أكثر من ظهوره لدى الشيعة، ويظهر لدى الشيعة أكثر من ظهوره لدى الحزبين الآخرين؛ فالخوارج - على الرغم من بداوتهم ومايمكن أن يقال من ميل البدو إلى المحافظة -كان أغلبهم من القراء الذين يحفظون القرآن ويتدارسونه فيما بينهم، وكانوا يتمسكون بظاهره تمسكا شديداً، ويحتكمون إليه، ويزهدون فيها سواه، وقد عاشوا فى رحابه وتأثروا به أكثر مما تأثروا بالشعر والفنون الأخرى الموروثة؛ لأنهم لم يكونوا أصلاً من الشعراء، أو فى الأقل أكثرهم، ولم يتكسبوا بالشعر ولم يبلغوا به حد الاحتراف . والشيعة كانت قضيتهم أساساً آل البيت، وهى قضية دينية فى المقام الأول، وقد شغفوا بهم حباً وبالنبى ﷺ فكان من الطبيعى أن يظهر أثر الدين واضحاً فى لغتهم وإن لم يظهر بالصورة نفسها التى ظهر بها عند الخوارج. كما كان من الطبيعى أن تكون الدرجة أقل عند الحزبين الآخرين، لطغيان السياسة فيهما على الفكرة المذهبية .

نقرأ رثاء هذه الفرق فيلقانا كم هائل من الألفاظ الإسلامية أو التى أخذت مع ظهور الإسلام معانى جديدة، كالصلاة والصوم والكتاب والجهاد والتقوى والهدى والضلال والمغفرة والرحمة والجنة والنار والثواب والملائكة والرسالة والشهادة والآخرة والمعروف والمنكر والولاية والخلافة والكفر والإيمان والإحسان والإخلاص والصلاة والتهجد والخشوع والشفاعة والطهارة والآية والحديث والسنة .

ونجد إلى جانب هذه الألفاظ ميلاً - يصل عند الخوارج إلى حد الشغف - إلى الاقتباس بدرجاته المتعددة من القرآن الكريم . فابن خدرة يضمن فى قوله:

«أبكى الَّذينَ تبوَّءوا الغُرفَ العُلَى فجرَتْ لهم مِن تَحتِها أنهارُ»[١] .

معنى الآية الكريمة ﴿ والَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَنُبوِّئنَّهم مِنْ الجنَّة غُرَفاً تَجْرى مِنْ تَحتِها الأنْهَارُ .....﴾ [٢].

ويتكرر المعنى نفسه فى قول حسان بن جعدة :

«إنِّى لأعلَمُ أن قد أُنزِلوا غُرفاً مِن الجِنانِ ونَالوا ثَمَّ خُدَّاما»[٣].

(١) ديوان شعر الخوارج ص ٢٢٩ . (٢) العنكبوت ٥٨ .
(٣) ديوان شعر الخوارج ص ٢١٣ .

وقول الأصم:

«ساروا إلى الله حتّى أُنزلــوا غُرَفاً   من الأرائكِ فى بَيتٍ من الذّهب»[1].

وينظر عمران بن حطان فى قوله :

«إن كنتِ كارهةً للموتِ فارْتَحلى   ثُمّ اطلُبى أهْلَ أرضٍ لايَموتونـا

فلَستِ واجدةً أرضاً بها بَشَــــرٌ   إلاّ يَروحونَ أفْواجاً ويَغْدونــــا»[2].

إلى الحقيقة الكبرى التى يقررها المولى عز وجل فى قوله : ﴿كلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾[3]. وقوله عز من قائل ﴿ وماجعَلْنا لبَشَرٍ مِنْ قَبْلكَ الخُلْدَ أفَئِنْ مِتَّ فَهمُ الخالدونَ﴾[4]. وفى البيت التالى من القصيدة نفسها :

«قد كانَ مُهْتدياً يَهْدى الإلهُ به   دَوْماً يُصلّى ولايَهْوَى المُصلّينا».

إشارة إلى المصلين ﴿الّذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهمْ ساهُونَ ، الّذينَ هُمْ يُراءُونَ ويَمْنَعُون الماعُونَ﴾ [5] . وهم الذين توعدهم الله عز وجل بالويل والهلاك والثبور. فاستغنى بلفظة واحدة من الآية رغبة فى الإيجاز واعتماداً على فطنة سامعيه وفهمهم لما يعنيه .

ويصف الأصم أصحابه بقوله :

«قَوْماً إذا ذُكّروا بالّله أو ذَكَّروا   خرّوا من الخوفِ للأذْقان والرُّكَب» [6].

وهو ينظر إلى قوله تعالى : ﴿الّذينَ إذا ذُكرَ اللهُ وجلَتْ قُلوبُهمْ﴾ [7]. فيفصل فى الذكر، ويجعله مرة صادراً منهم، ومرة نابعاً من تذكير الآخرين لهم. وهو بهذا إنما يهدف إلى جعل أصحابه ذاكرين مذكرين، فيلفت إلى ماكان من تعاهدهم عليه وتواصيهم فيما بينهم به. ويفصل أيضاً فى الجواب، فينقلنا إلى الأثر الذى يحدثه الوجل ويقدم فى الوقت نفسه الدليل عليه .

وعند الشيعة نجد السيد الحميرى – على سبيل المثال – يغرم فى مراثيه بتضمين

(1) ديوان شعر الخوارج ص ١٣٩ .
(2) المصدر نفسه ص ١٦٠ .
(3) الرحمن ٢٦ .
(4) الأنبياء ٣٤ .
(5) الماعون ٥ ـ ٧ .
(6) ديوان شعر الخوارج ص ١٣٩ .
(7) الأنفال من الآية ٢. وينظر فيه كذلك إلى قوله تعالى ﴿ويَخِرُّونَ للأذْقانِ يَبْكُونَ ويَزيدُهم خُشوعاً﴾. الإسراء ١٠٩ .

قصص من القرآن الكريم، نحو قوله فى رثاء أخيه :

«أو كسبْعينَ وافداً معَ مُوسَى   عايَنوا هائلاً مِن الأهْوالِ

حينَ رامُوا من خبْثِهم رُؤْيةَ الله (م)   وأنّى برؤْيةِ المُتعَالـى

فرَماهم بصَعْقةٍ أحْرقتْهم   ثمّ أحْياهم شَديدُ المحَال»[1].

وهى القصة المذكورة فى سورة (البقرة) [2]. وكان كذلك مغرماً بتضمين الأحاديث النبوية والآثار التى تخدم مايدعو إليه من أفكار مذهبية [3].

وعند الزبيريين نجد ابن قيس الرقيات ينظر فى قوله :

« فسعَوا كى يفلّلوكَ ويأبَى اللّهُ إلاّ الّذى يرَى ويشاءُ »[4].

إلى قول المولى عز وجل : ﴿وماتشاءُونَ إلاّ أنْ يَشاءَ اللّهُ ربُّ العالمَينَ﴾ [5]. وقوله فى القصيدة نفسها :

« خصّهُ اللّهُ بالكَرامةِ فالبادُونَ والعاكِفونَ فيه سَواءُ ».

إلى قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿.. والمسْجدِ الحَرامِ الّذى جَعلْناهُ للنّاسِ سَواءً العاكِفُ فيه والبادِ﴾[6] .

ومن شواهده عند غيرهم قول جرير:

«لا يبْعَدَنّ وكلُّ حَىٍّ هالِكٌ   ولكلّ مَصْرعِ هالكٍ مِقْدارُ»[7] .

وهو معنى قوله: ﴿كلُّ مَنْ عَليْها فانٍ﴾ وقوله – وقد ضمنه جرير الشطرة الثانية – ﴿لكلِّ أجَلٍ كِتابٌ﴾ [8]. و ﴿وماكانَ لِنَفْسٍ أنْ تَمُوتَ إلاّ بإذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤجّلاً﴾[9].

ومنه قول المتوكل الليثى:

« لو كانَ علْمُ الغَيبِ عندَ أخيكُمُ   لتَوَطّأتْ لكمُ بهِ الأخْبارُ»[10] .

---

(1) العقد الفريد جـ2 ص 407.

(2) الآية 55 وما بعدها .

(3) الزينة ص 257/ العقد الفريد جـ2 ص 407 .

(4) ديوان ابن قيس الرقيات ص 91.

(5) التكوير 29.

(6) من الآية 25 .

(7) ديوان جرير جـ3 ص 719.

(8) الرعد من الآية 38.

(9) آل عمران 145 .

(10) شعر المتوكل الليثى ص 255 .

وهو ينظر فيه إلى قوله تعالى : ﴿....ولو كنتُ أَعْلَمُ الغَيبَ لاسْتَكْثَرتُ مِنْ الخَيرِ ومامَسَّنِىَ السُّوءُ﴾ [1].

فعلم الغيب مما اختص الله به نفسه . وبالطريقة نفسها التى علم الله بها نبيه مجادلة خصومه فى هذا الشأن جادل المتوكل أصحاب المختار مستخدماً الصيغة الشرطية والحرف الذى يفيد الامتناع .

٣- ومع شيوع الاقتباس وشيوع الألفاظ الإسلامية على تفاوت بين المذاهب والشعراء نجد معجماً لألفاظ تكاد تكون جديدة أوجدها العامل الحضارى. منها مايتصل بالسياسة وأنظمتها المستحدثة؛ كالسلطان [2]، والشرطة [3]، والجماعة بمعنى الأمة [4]، والوزير نائباً عن السلطان[5]، والولاية [6]، والأمراء[7]، والملوك[8]، والساسة[9]. ومنها ماجاء نتيجة الاحتكاك بالدول المجاورة، وهى الألفاظ الأجنبية أو الدخيلة؛ كالجاثليق [10] ، والسدير[11] ، والبريد[12] ، وسربال[13] ، ومرزبان[14]، وبعض أسماء البلدان[15]. ومنها الألفاظ المذهبية، وهى تكون معجماً خاصاً أثراه ونماه علم الكلام والثقافات الأجنبية الوافدة وماكان يثار بين الفرق فى ذلك العصر من جدل حول

---

(١) الأعراف ١٨٨ .

(٢) الأغانى (ط. الدار) جـ١١ ص ٣٠٨ / ديوان جرير جـ٢ ص ٤٩٩.

(٣) شعر المتوكل الليثى ص ٢٥٥ .

(٤) الكامل للمبرد جـ١ ص ١١٨.

(٥) الأغانى جـ١٧ ص ١٥٥ .

(٦) شرح الهاشميات ص ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٧ .

(٧) الأغانى (ط. الدار) جـ١١ ص ٣٠٨ .

(٨) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١١٣/ ديوان الفرزدق (ط. الصاوى) جـ١ ص ١٩١ ، ٢٦٨.

(٩) الأغانى (ط. الدار) جـ١١ ص ٣٠٩ /شرح الهاشميات ص ١٥٣ .

(١٠) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٩٦. والجاثليق يونانى (katholicos) معناه عام وجامع ويراد به فى الكنيسة متقدم الأساقفة. تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربى طوبيا العنيسى ص ٥٥.

(١١) الأغانى جـ٧ ص ٥٤. فارسى (سه دير) أى ثلاث قبب. تفسير الألفاظ الدخيلة ص ٣٤.

(١٢) الأغانى جـ١٧ ص ٢١٢. فارسى من (بردن) أى حمل. تفسير الألفاظ الدخيلة ص ٩.

(١٣) شرح الهاشميات ص ١٧٢ . فارسى معناه فوق القامة وهو لباس معروف. تفسير الألفاظ الدخيلة ص ٣٥.

(١٤) شرح الهاشميات ص ١٥٥ فارسى معناه حافظ الحدود وحارس التخوم. تفسير الألفاظ الدخيلة ص ٦٩.

(١٥) وهى كثيرة جداً منها : دير القسطل، وكداء، ودير سمعان، وفلج، ومرو، وخراسان، وسلى، وسلبرى، والأهواز، وقومس، والجوسق، ودقوقاء، وزاذان، وخرة، وحران.

بعض المسائل الدينية . وأكثر مصطلحات هذا المعجم والمواد الخاصة به نجدها عند الشيعة، وخصوصاً المتأخرين وبينهم الموالى وأكثرهم من أهل الفرس . وتلقانا من ألفاظ هذا المعجم ومواده ومصطلحاته:

الغيبة[١] ، والتقية والاكتتام[٢] ، والتناسخ[٣] ، والمهدية[٤] ، والإمامة[٥] ، والوصى[٦] ، والقائم[٧] ، والمريد[٨] ، والمبلغ والأمين[٩] ، والرفض[١٠] ، والإفراط والقصد[١١] ، ومعرفة المعروف وإنكار المنكر[١٢] ، والشك والمراء[١٣] والمروق[١٤] ، والشراية[١٥] ، والخروج[١٦] والقضاء والقدر[١٧] ، وتصرف الدهر[١٨] ، والحتم والاختيار[١٩] ، والكفر والإلحاد[٢٠] ، والعدل والجهاد[٢١] .

وقد أثرى هذا المعجم الرثاء ثراء واسعاً وأعطاه أبعاداً جديدة لم تكن موجودة من قبل، وآفاقاً لم يستشرفها الشعر العربى القديم إلا على استحياء، وهى الآفاق التى تعلى من جانب العقل وتعطيه مكاناً بارزاً فى التجربة الشعرية، وتحتفل به احتفالاً لا يقل عن احتفالها بالعاطفة .

---

(١) ديوان كثير ص ٥٢١ . (٢) شرح الهاشميات ص ٣٥.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٢. (٤) ديوان كثير ص ٤٩٦ .
(٥) ديوان كثير ص ٤٩٦ / شرح الهاشميات ص ٢٦ عيون الأخبار - المجلد الثانى ص ١٤ .
(٦) ديوان أبى الأسود الدؤلى ص ١٧٦/ ديوان كثير ص ٤٩٧ ، ٥٢١ / الفرق بين الفرق ص ٦٣ ،
(٧) ديوان كثير ص ٥٢١ / ديوان المعانى جـ١ ص ٢٦ .
(٨) شرح الهاشميات ص ٣٣.
(٩) شرح الهاشميات ص ٦١ / شعراء أمويون جـ٣ ص ١٩٧ .
(١٠) شرح الهاشميات ص ١٩٧ .
(١١) شرح الهاشميات ص ١١١.
(١٢) تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٢٨٢ / شعراء أمويون جـ٢ ص ٣٤٦ .
(١٣) ديوان شعر الخوارج ص ١٣٩ / ديوان كثير ص ٥٢١ .
(١٤) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٩٦ .
(١٥) ديوان شعر الخوارج ص ٧٥، ١٠٧، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٩٦، ١٩٧، ٢٢٩، ٢٣٤.
(١٦) ديوان شعر الخوارج ص ١٣٩، ١٥٩، ٢١٣ / شعر الراعى النميرى ص ٦٠ .
(١٧) الأغانى جـ٢ ص ٣٢٣، ٤٣٤، جـ٧١ ص ٢١٢ / الأمالى لأبى على القالى جـ٣ ص ٣ / ديوان ابن قيس الرقيات ص ٨٩ / ديوان شعر الخوارج ص ١٩٧ ، ٢٥٢ .
(١٨) الأغانى جـ٢ ص ٤٣٤ .
(١٩) ديوان شعر الخوارج ص ١٠٤ . (٢٠) ديوان شعر الخوارج ص ١١٨ .
(٢١) ديوان شعر الخوارج ص ٢٢٢/ ديوان كثير ص ١٧٨ ، ١٧٩ / شرح الهاشميات ص ١٩٤ .

٤- وتظهر بعض سمات التوليد فى اتجاههم نحو السهولة، والاقتراب من الأساليب الشعبية والنثرية، والميل إلى تخفيف الهمزات وحذفها بعد المد وفى وسط الكلمات وإغفالها عند القطع؛ للاقتراب من العامة ومخاطبتهم بلغة تشبه فى بعض جوانبها اللغة التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية؛ رغبة فى التأثير ، وضماناً لشيوع أشعارهم وذيوعها فيهم، وهو مايسعون إليه باعتبارهم شعراء سياسة ومذهبية لا شعراء رثاء فحسب.

أما الميل إلى تخفيف الهمزات وحذفها بعد المد فيظهر فى قول قطرى بن الفجاءة:

«فما الدِّينُ كالدُّنيا ولا الطَّعنُ كالمُنَى ... ولا الضُرُّ كالسرَّا ولا الَّليثُ ثَعْلَبا» [(١)].

حيث حذف الهمزة الموجودة بعد الألف الممدودة فى كلمة «السراء» وفى قول سلامة بن عامر:

«يُذكِّرنى الخَطَّارَ كلُّ منَطَّقٍ ... يَجولُ به عندَ الَّلقا حَصْنانِ»[(٢)].

وهو يعنى اللقاء. وفى قول الحكم بن عبدل :

«فَلأَصْبِرنَّ ومارأيتُ دَوًى ... للهَمِّ غيرَ عَزيمة الصَّبْرِ»[(٣)].

و«دوى» ههنا مقصور دواء، وهو الشائع عند العامة .

وأما حذفها فى وسط الكلمة فيجىء أحياناً فى الاسم؛ نحو «كاس» و «ياس» بدلاً من «كأس» و«يأس» فى قول عمران بن حطان :

«إمَّا شَرِبتَ بكأسٍ دارَ أَوَّلُها ... على القُرونِ فذاقوا جُرْعةَ الكَاسِ

فكلُّ مَنْ لم يَذُقْها شاربٌ عَجِلاً ... منها بأنفاسِ وِرْدٍ بَعدَ أنفاسِ

قد كنتُ أَبْكيكَ حيناً ثُمَّ قد يئستْ ... نَفسى فما رَدَّ عنِّى عَبْرَتى ياسى»[(٤)].

و«قران» بدلا من «قرآن» [(٥)]، و«فجاة» بدلا من «فجاءة» [(٦)]، و«أرطاة» بدلا من «أرطأة» [(٧)]، ويجىء أحياناً فى الفعل نحو «سال» فى قول عبيدة بن هلال:

«فيارُبَّ يَومٍ قد دَعاني لِمثْلِها ... فلم أكُ فيما سالَنى بمُجيبِ»[(٨)].

---

(١) ديوان شعر الخوارج ص ١٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٤ .
(٣) الأغانى جـ٢ ص ٤٣٤ .
(٤) ديوان شعر الخوارج ص ١٥٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٤١، ٢١٤ .
(٦) المصدر نفسه ص ١١٧ .
(٧) الكامل للمبرد جـ٤ ص ٢٥ .
(٨) ديوان شعر الخوارج ص ١٠٩ .

يعنى سألنى. وقد يجيء فى آخر الفعل بعد إسناده إلى ضمير، فيبدو الفعل والضمير غريبين، ويشبه الكلام كلام العامة، مثل «تجينا» فى قول امرأة من الخوارج ترثى أخاها:

«كلّما سَكَنَتْ حَرارةُ وَجْـــدِ   مِن فَقيدٍ منّا تَجينا بأُخْــــرَى»[1].

و «تبووا» فى قول الجعد بن ضمام :

«فلمّا تَبَوّوا من دَقُوقا بمَــنْــزِلٍ   لِميعادِ إخْوانٍ تَداعَوا فَأَجْمَعَـــوا»[2].

وقد سهل المد فى «دقوقاء» وحذف الهمزة من «تبوأ» بعد إسناده إلى الواو.

ومن إغفالهم للقطع قول عمران فى رثاء أبى بلال: «يارَبِّ مِرْداسٍ الْحِقْنى بمِرْداسِ»[3].

وقول كثير:

«كَدَحْتَ لها كَدْحَ امْرِىءٍ مُتَحرِّجِ   قدَ ايقنَ أنّ اللهَ سَوفَ يَدِينُها»[4].

ويبدو اقترابهم من الأساليب الشعبية والنثرية فى عبارات وردت كتلك العبارات:

«وقالتْ له أهْلاً وسَهْلاً»[5] و «ياطُولَ يَومى»[6] و «ياضَيْعةَ الفتْيان»[7] و «ورَحْمةُ اللّه عليه»[8] و «صبّحكَ اللّهُ بخِزْيٍ ثُمّ مَسّاكَ»[9] و «ويابا حُسَين»[10] و «دَعِينى قد مَلَلْتُ مِنَ العُمْرِ» [11].

ومن العبارات التقريرية التى تخلو من التصوير والخيال وتعتمد على الألفاظ البسيطة والتراكيب السهلة المباشرة – وماأكثرها – ومنها: «وأبكِى سَعِيدَ بنَ عُثْمانَ بنِ عَفّانا»[12] وقد حرص فى هذه الشطرة على ذكر الاسم كاملاً، و«ارزقْ عِيالَ المسلمينَ»[13]. بما توحيه كلمة «عيال» على فصاحتها ودقة استخدامها فى هذا السياق. و«مَنْ دَلَّ والِهةً حَرّى» [14]على مافيها من تفجع وحيرة وحسرة. و «لا خَيرَ

(1) ديوان شعر الخوارج ص ٢٢٥ .
(2) المصدر نفسه ص ١٩٧ .
(3) المصدر نفسه ص ١٥٨ .
(4) ديوان كثير ص ١٧٧ .
(5) المصدر نفسه ص ١٧٩ .
(6) شرح الحماسة للتبريزى جـ٣ ص ١١٢ .
(7) الأغانى جـ٢١ ص ٢٤٤ .
(8) مناقب آل طالب ص ٢٠٤ .
(9) تاريخ الطبرى جـ٨ ص ٢٧١ .
(10) ديوان شعر الخوارج ص ٢٣١ .
(11) المصدر نفسه ص ١٩٥ .
(12) الأغانى جـ٢ ص ٢٥٦ .
(13) الأغانى جـ١٩ ص ٢١٠ .
(14) الكامل للمبرد جـ٤ ص ٢٧ .

فى الدُّنيا وقد ماتَ صَالِحُ »[1]. فهى وما سبقها من جمل وعبارات تشبه فى بساطتها ومباشرتها وتلقائيتها وخلوها من التصوير والصنعة لغة العامة فى حياتهم اليومية أو لغة النثر العادى .

وتزداد هذه الظاهرة وضوحاً مع الاتجاه نحو الاحتجاج والاستدلال واصطناع المنطق بقضاياه وأقيسته فى مناقشة الخصوم والرد عليهم، كما هى الحال عند الكميت وغيره من شعراء الشيعة المتأخرين .

٥ – ويتفاوت الأسلوب تفاوتاً ملحوظاً بتفاوت الاتجاه الذى يسود الرثاء واختلاف الجو النفسى الذى يهيمن على الشاعر عند صياغته والظروف والملابسات التى تحيط به ، فنراه جزلاً قوياً حيناً، ونراه سهلاً رقيقاً حيناً، ونراه يتأرجح بين الجزالة والسهولة حيناً ثالثاً، وقد يميل إلى أحدهما على حساب الآخر حتى تغلب عليه صفته، وقد تتساوى فيه الصفتان.

وهذا التفاوت ملحوظ حتى بين شعراء الحزب الواحد، وخصوصاً تلك الأحزاب التى لم تطغ فيها روح الجماعة والمذهبية على الاعتبارات الفردية والتى غلبت عليها صفة السياسة والنفعية، كالحزب الأموى وهو أكثر الأحزاب تفاوتاً يليه حزب الزبيريين. بل قد نراه عند الشاعر الواحد –وإن جاء ذلك قليلاً – ولا يفسره غير اختلاف الباعث الذى يحركه إلى الرثاء، وتحت هذا الباعث تدخل مجموعة من الاعتبارات؛ منها صدق العاطفة ومدى الحب والوفاء والولاء، واتجاهه نحو الندب أو التأبين أو العزاء، وغلبة العاطفة عليه وتحكمها فيه أو ضبطه لها وتحكمه فيها وتوجيهه لها، ومقدار حضوره العقلى، وطبيعة الموقف وما يمليه من ثورة أو بث أو شكوى أو رجاء أو تعبئة أو توثيب أو إقناع أو اعتذار أو فخر أو هجوم أو دفاع، إلى آخر تلك الموضوعات التى يتضمنها الرثاء؛ فمع الثورة والتوثيب والتعبئة يقوى الأسلوب ويشتد ويميل نحو الجزالة، ومع البث والشكوى والعتاب يلين ويرق ويميل نحو السهولة. لكنه لايجيء هكذا بالضرورة فى كل الأحوال – وإن لوحظ فى أغلبها – لوجود مؤثرات أخرى تفعل فى الوقت نفسه فعلها، كتلك التى ذكرتها أولاً، وكاتجاهه بعامة نحو الطبع أو الصنعة واحتفاله بأحدهما، وما لديه من موروث ثقافى، وماتفرضه الظروف المحيطة به من اصطناع البساطة عند

(١) ديوان شعر الخوارج ص ١٩٨ .

مخاطبة العامة والميل إلى السهولة والوضوح، ومن امتطاء ظهر الجزالة واستظهار القدرة على الوعورة والصعوبة عند مخاطبة الخاصة وهو مانراه غالباً فى رثاء شعراء بنى أمية للخلفاء والأمراء.

٦- ويشدنا فى جانب الأسلوب أيضاً مانراه من تكرار؛ تكرار عبارات بعينها كـ «صلى الإله» ومشتقاتها. وكانوا يستخدمونها فى مفتتح قصائدهم باعتبارها نوعاً من الدعاء، وهو دعاء بالرحمة وضعوه بإزاء ماكان يضعه الجاهليون من السقيا واحتفلوا به احتفالهم بها، إلا أنهم وظفوه فى تجديد بداياتهم وكادوا يوظفونه كذلك فى الخاتمة[1]. وكذا عبارة «لاتبعدوا» و«لاتبعد» و «لاتبعدن». وهى من العبارات القديمة التى ظلوا على استخدامهم لها وتكررت فى مراثيهم كثيراً وأصبح وجودها يشكل نمطاً من الأنماط الثابتة أو لازمة من لوازم هذا الفن .

ومن التكرار مايجىء فى المقطوعة الواحدة، حيث تتكرر كلمة بعينها يتلذذ الشاعر بذكرها أو يعبر بواسطتها عما يشعر به من حزن أو يلقى الضوء عليها ويعطيها شيئاً من الأهمية والتركيز؛ نحو قول عمران فى أبى بلال:

«يا عَينُ بكّى لِمِرْداسٍ ومَصْرَعِهِ ... يارَبِّ مِرْداسٍ الْحِقْنِى بمِرْداسِ»[2].

وقد كرر اسمه ثلاث مرات ولم يتعد البيت الواحد. ثم كرر فى أبيات تالية كلمة «الناس» و«كاس» و «أنفاس». وكلها تجمع بين حرف السين الذى يجىء بعد مد، وهو الحرف البارز فى المقطوعة كلها.

وقد تتكرر جملة بأكملها تحمل فى الغالب فكرة يريد الشاعر تقريرها وترسيخها ويجذب من خلالها الأذهان إليه. ومنه قول خالد بن غفران فى رثاء الحسين عليه السلام:

«جاءوا برأسكَ يا ابنَ بِنْتِ مُحمَّدٍ ... مُتَزَمِّلاً بدمائِهِ تَزْميلا

وكأنَّما بكَ يا ابنَ بِنْتِ مُحمَّدٍ ... قَتَلُوا جِهاراً عامدِينَ رَسولا

(١) ديوان جرير جـ٣ ص ٧١٩ / ديوان شعر الخوارج ص ١٦١ ، ٢١٣ / ديوان كثير ص ١٧٩ / شعراء أمويون جـ ٣ ص ١٩٨ . وفيها نراهم يختمون قصائدهم بالدعاء، وهو يجىء أكثر مايجىء عن طريق السقيا وصلاة الإله .

(٢) ديوان شعر الخوارج ص ١٥٨ .

قَتَلوكَ عَطْشاناً ولم يترقَّبـــــوا   في قَتلِكَ التَّأويلَ والتَّنْزيــــلاَ
ويُكبِّرونَ بأن قُتِلْتَ وإنّمــــــا   قتَلوا بكَ التّأويلَ والتّكْبيــــرا»[1].

وفيه يكرر «يا ابن بنت محمد» استفظاعاً لما صنعوه وإبرازاً لمكانته -رضى الله عنه- وإلهاباً لمشاعر المسلمين. كما يكرر - إمعاناً منه فى التوثيب والإثارة - جملة القتل على بناء الفعل للمعلوم ثلاث مرات وللمجهول مرة، ويجىء بالمصدر مضافاً إلى الضمير الدال عليه مرة خامسة. وأكثر مايجىء التكرار فى شعر الشيعة ثم الخوارج، ويقترن عند الأولين غالباً بالاتجاه نحو التوثيب؛ حيث تشبه الموثبات الخطب السياسية الملتهبة وتتضمن بعض خصائصها.

٧- ويشيع النداء والاستفهام، ويجىء النداء أكثر مايجىء للمرثى نفسه، استحضاراً لصورته، واستئناساً بالحديث معه، وتقليصاً لشعورهم بالفقد، فكأنه حى لايزال، يكلمهم ويكلمونه ويحاورهم ويحاورونه. ومنه قول أيوب بن خولى فى هدبة اليشكرى:

«فياهُدْبُ للهيّجا وياهُدْبُ للنّـدَى   وياهُدبُ للخَصْمِ الألدِّ يُحارِبُهْ
وياهُدْبُ كم مِن مُلْحَمٍ قد أجَبْتَهُ   وقد أسْلَمتْهُ للرِّماحِ جَوالِبُهْ»[2].

وهو يتحول به فى البيت الأول إلى صيغة من صيغ الندب. ويجىء أيضاً للقاتل حين يتوجهون إليه بالتهديد والوعيد والتنديد والعتاب. ويجىء للنفس وللآخرين فى مواقف التعزية والاعتبار، ولله عز وجل فى الدعاء والاستغفار، وللعين فى التبكية والاستعبار. وقد يجىء لمجرد التنبيه فتشبه الأداة عندئذ «ألا» وقد استخدموها هى الأخرى بكثرة. والحاجة إلى التنبيه من سمات الشعر الذى يعد - كالخطب - للإلقاء، وكثير من هذه المراثى كانت تلقى إلقاء، وبعضها كان يصاغ وسط الجموع .

أما الاستفهام فقد تعددت أدواته، وتعددت كذلك صوره وأغراضه. إلا أنه فى الأغلب الأعم يأتى تعبيراً عن الحيرة والاضطراب كما فى قول الخثعمية ترثى ابنيها:

«يامَنْ أحَسَّ بُنَيَّ اللّذَينِ هُما   كالدُّرّتينِ تشظّى عنهما الصَّدَفُ؟»[3]

(١) التاريخ لابن عساكر جـ٥ص٨٥ .
(٢) ديوان شعر الخوارج ص ١٥٨ .
(٣) التاريخ الكبير لابن عساكر جـ٥ ص ٨٥ .

وقد كررت – فى أبيات تالية – الشطرة الأولى كاملة عدة مرات. ويجىء كذلك استظهاراً للأسى والحسرة والمرارة ، كما فى قول الشيبانية:

«أينَ الَّذينَ إذا أتاهم سائـــلٌ بَذلوا له أموالَهم بيَســـارِ» ؟[1].

واستبعاداً كما فى قول أخت الأشتر:

«أبَعدَ الأشتَرِ النَّخعِيِّ نَرجــو مُكاثَرةً ونَقْطعُ بَطْـــنَ وادِ» ؟[2].

ونفياً كما فى قول محمد بن بشير :

وأنّى لنا أمثالُ زَيدٍ وحَــدُّهُ مُبلِّغُ آياتِ الهُدَى وأمينُهـــا» ؟[3].

وعتاباً :

«لَحاكِ اللَّهُ ياشرَّ المَطايـــــا أعَنْ قَبرِ المُهلَّبِ تَنْفرينــــا» ؟[4].

وتعجباً :

«أما تُصْـلِحُ الدُّنيا لنا بَعضَ لَيلةٍ مِن الدَّهْرِ إلا عادَ شَىءٌ فأفْسَدا» ؟ [5].

وتقريراً :

«هل الجُودُ إلا أن تَجودَ بأنْفُسٍ على كلِّ ماضِى الشَّفْرَتينِ قَضِـيبِ» ؟[6].

وتمرداً وثورة :

«ألم يكُ مَقتَلُ العَبْدِىِّ ظُلْمــاً أبا حَفْصٍ مِن الكُبَرِ العِظـــامِ» ؟ [7].

ورجاء ودعاء ورغبة :

«فيا مُلْحِقَ الأرواحِ هل أنتَ مُلْحِقِى بمَوتَى مَضَى فيهم سَعيدُ بنُ بَهْدَلِ» ؟ [8].

---

(1) ديوان شعر الخوارج ص ٢١٥ .
(2) الكامل للمبرد جـ٣ ص ٢٧ .
(3) ديوان الخوارج ت.د. نايف معروف ص ٢٠٢ .
(4) الكامل للمبرد جـ٢ ص ٦٦ .
(5) شعراء أمويون جـ٣ ص ١٩٧ .
(6) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٢٠ .
(7) ديوان الفرزدق (ط. الصاوى) جـ١ ص ١٥٥ .
(8) الكامل للمبرد جـ١ ص ٢١٠ .

ويكثر كذلك استخدامهم للشرط [١] ، والتوكيد بصوره المختلفة [٢] ، وتتنوع الجمل وتتفاوت طولاً وقصراً ، ويتصدر الماضى وخصوصاً عند التأبين قائمة الأفعال . ويشتم فى رثاء بعضهم كعمرو بن الحصين وأعشى همدان رغبة قد تصل إلى حد الجنوح فى استخدام أسلوب القص الشعرى . ولعل أولهما – وكان من الموالى الفرس – قد تأثر فيه بفارسيته ، كما تأثر الثانى – وكان فقيهاً محدثاً – بالقصص القرآنى الكريم .

فى التصـوير والخيـال

١ – تقوم الصورة بدور هام فى التأثير والإقناع، والتعبير عما تنطوى عليه النفوس فى أعماقها من المشاعر وما يعتمل فى العقول، ونقل المعانى التى يريد الشاعر طرحها والانفعالات التى يصدر عنها نقلاً دقيقاً جميلاً فى لغة تعلو عن المباشرة وتثير فى المتلقين لذة الكشف والتحليق وتحقق بينهما قدراً من التواصل والمشاركة وتخلق جواً من التفاهم والانسجام .

وهى لا تنفصل عن سائر العناصر التى تقوم عليها عملية الإبداع ؛ فليست خلقاً ثانياً ، وليست حلية أو إطاراً أو زركشة شكلية يضيفها الشاعر على تجربته بعداكتمالها ، وإنما هى جزء من هذه التجربة يتخلق معها لحظة لحظة، وينمو بنموها، ويتشكل وفق اتجاهاتها، ويكتمل فى الوقت الذى تكتمل هى الأخرى فيه . وبقدر أصالته وعمقه وانسجامه مع العناصر الأخرى – وبخاصة عنصر الشعور والانفعال – تكون عمق التجربة ونجاح الشاعر فيها وقدرته على التأثير والإمتاع .

على أن أغلب الصور فى شعرنا القديم صور جزئية تقوم على التشبيه والاستعارة والكناية والتورية ، وغيرها من الأبواب التى رصدها البلاغيون . وقد تمتد ، ونادراً ما

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص ١٥٥ ، ٢١٢ ، ٣٣٣ ، ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٨٤ ، ١٩٦ / ديوان جرير جـ ١ ص ٢٤٢ / ديوان شعر الخوارج ص ٦٠، ٧٠، ٧٤، ١١٠، ١٣٠، ١٣٩، ١٤١، ١٥٩، ١٦٠، ١٩٧، ١٩٨، ٢١٠، ٢٣١ / ديوان كثير ص ١٧٨/ شرح الهاشميات ص ٢٧ ، ١٦٨/ شعراء أمويون جـ ٣ ص ١٩٨ ، جـ٤ص ٢٣١ / شعر نصيب ص ٨٧، ٨٨.

(٢) ومنها قد ولقد والباء الزائدة والمفعول المطلق والقصر وإنّ وأنّ والنون والقسم والتقديم والتأخير والاسمية والتكرار وكلمة جميع وكل وأبداً . وهو أكثر من أن يحصى ولا تكاد تخلو منه مقطوعة أو قصيدة .

تجىء كلية. وقد تعتمد على الألفاظ والتعبيرات الحقيقية دون النقل أو اللجوء إلى المجاز والتخييل والإيهام . وقد يتكرر بعضها مع زيادات طفيفة يمليها السياق أو ينقلها كما هى . وقد يميل بعضهم إلى الابتكار ، إلا أن ابتكارهم يجىء فى حدود ضيقة لا يخرج بالصورة عن إطارها الذى ظلت تتحرك فيه منذ العصر الجاهلى، وهو كونها جزئية فى الأغلب الأعم .

وهذه السمات هى نفسها ما نراه فيما بين أيدينا من رثاء ؛ فالتشبيه هو الغالب ، تليه الاستعارة بنوعيها . وهم فى تشبيهاتهم يراعون - كما راعى سلفهم - القرب والإصابة ووضوح العلاقة بين المشبه والمشبه به ومناسبة كل منهما للآخر ، ويمتاحون من التراث المحفوظ فى الذاكرة والمحفور فى وجدانهم ، ومن البيئة المحيطة بهم . فلا يزال الإنسان كالأسد شجاعة [١] ، وكالغيث كرماً وجوداً وعطاء [٢] ، وكالسيف نحافة وصلابة [٣] . ولا تزال الدموع كالأوشال [٤] ، والوجه كالبدر [٥] والرايات كالطير [٦] . إلى آخر تلك التشبيهات المعروفة المكررة فى سائر الأغراض ، والتى طرقها من قبلهم شعراء كثيرون فصارت بحكم ترددها وتكرارها حقاً مباحاً للجميع .

إلا أن هذه التشبيهات التى يمكن اعتبارها أنماطاً أو أشكالاً ثابتة أو أطراً جاهزة الاستخدام لم تكن على أية حال مجرد صنعة ، ولم تجئ فى كثير من الأحيان منفصلة عن التجربة الخاصة للشاعر بحيث تبدو وكأنها دخيلة على الموقف الذى يمر به ويعبر عنه ، وقد يحملها شيئاً من إحساسه ويضع عليها بصماته ويعمد إلى الزيادة فيها والنقصان ويتفنن فى التماس أوجه جديدة يربط فيها بين الأطراف ويعيد صياغتها فيطبعها بطابعه الخاص ، وتبدو فى هذه الحال وكأنها جديدة أو بنت ساعتها كما يقال، ولا يشعر المرء حين يقرؤها أنه بإزاء نمط مكرر أو قالب قديم . ومن هذا القبيل قول

---

(١) ديوان شعر الخوارج ص ٢١٠ ، ٢٥٧ / ديوان الفرزدق جـ١ ص ٢٦٧ / شعراء أمويون جـ٤ ص ٢٣٢ / الكامل للمبرد جـ٤ ص٢٥ / الموفقيات ص ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) ديوان كثير ص ١٧٨ / شرح الهاشميات ص ١٩٩ شعراء أمويون جـ٤ ص ٣٤٩ .

(٣) ديوان شعر الخوارج ص ٥٧ / الشعر والشعراء جـ ١ ص ٤٣٤ .

(٤) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١١٤ / شرح الهاشميات ص ١٩٦ .

(٥) ديوان جرير جـ ٣ ص ٧١٩ / ديوان الفرزدق جـ ١ ص ١٦٠ / ديوان شعر الخوارج ص ٥٧ / ديوان إسماعيل بن يسار ص ٣٤ / شعراء أمويون جـ ٢ ص ٥٢٣ .

(٦) ديوان الأخطل ص ٧٤٥ .

أحد الخوارج في رثاء أصحابه :

« وهمُ الأُسودُ لدى العَرينِ بَسالَةً ومِن الخُشوعِ كأنّهم أحبارُ » (1)

فالتشبيه بالأسود في الشجاعة والقوة كثير ، لكنه هنا يضعه بإزاء تشبيه آخر لا تكتمل الصورة إلا به ، وهو كونهم كالأحبار خشوعاً لله وخوفاً منه، وكلاهما - على ما فيهما من تضاد - يبرزان معاً حقيقة هؤلاء الخارجين بحيث لا يغنى أحدهما عن الآخر إلا بالقدر الذى يخدم فيه جانباً ، كحالهم عند القتال ، وحالهم فى الأمن . وهو لا يريد هذه التجزئة ولم يقصد إليها وإنما يريد إعطاء صورة عامة متكاملة للإنسان الخارجى الذى يجمع بين ما يبدو للوهلة الأولى متناقضاً والذى يصل فى كل طرف إلى حد المثال . وقد حذف الأداة من الجزء الأول فجعل المشبه والمشبه به شيئاً واحداً وأبرز وجه الشبه على الرغم من أنه معروف بداهة للتأكيد وإضفاءمزيد من الرهبة ، وخصص بقوله « لدى العرين » لأن الأسود أشد ما تكون شراسة وعنفاً وهى تقاتل عن نفسها وأبنائها عنده ، وليعطى لقتالها - أو بالأحرى لقتال الخوارج - صفة المشروعية بدفاعها عن الحرمات .

ومنه وهو من التشبيه المقلوب قول الطرماح :

« فتًى لو يُصاغُ المَوتُ صيغَ كَمِثْلِهِ إذا الخَيلُ جالَتْ فى تَساجُلِها قُدْما » . (2)

وهو ينظر فيه إلى قول عنترة :

« إنّ المَنِيّةَ لو تُمثَّلُ مُثّلتْ مِثْلِى إذا نَزلوا بِضنْكِ المَنْـــزِلِ » .

لكنه ينقل الصورة إلى غيره ، ويؤثر « الصياغة »على « التمثيل » ، و« الموت» على « المنية » ويتفادى التكرار المصطنع فى « تمثل مثلت مثلى »، ويزيد الكاف مع «مثل » تقليداً للنسق القرآنى الذى تشبع به واستقاه وهو يردد قول الله عز وجل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (3) . ويزيد القيد وضوحاً : « إذا الخيل جالت .... » ، حيث لا يتبادر إلى الذهن إلا المعركة والقتال . وهذه الأشياء الطفيفة تعطى لصورته شيئاً من الخصوصية، على الرغم من تشابهها فى البناء مع صورة عنترة تشابهاً كبيراً،

(1) ديوان شعر الخوارج ص ٢٥٧ . (2) ديوانه ص ١٦٧ .
(3) الشورى من الآية ١١ .

يفضحه القالب نفسه المعتمد على الجملة الاسمية، ثم الشرط المستحيل المصدر بأداة الامتناع، ثم الفعل المبنى للمجهول، ثم القيد « إذا » .

ويعمد الشمردل بن شريك إلى اختصار صورة امرئ القيس :

« فيالَكَ مِن لَيلٍ كأنَّ نُجومَـــهُ   بكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ » .

فيكتفى بالعبارة المباشرة : « لا تبرح » :

« لَبِسَ الصَّباحَ وأَسْلَمَتْهُ لَيلَــةٌ   طالَتْ كأنَّ نُجومَها لا تَبْرَحُ » . [1]

ويركب التشبيه الذى كشفه فى شطرة واحدة على صورة استعارية رائعة تضمنتها الشطرة الأولى وهى صورة الصباح الذى لبسه والليلة التى أسلمته.

٢ – وبجانب هذه التشبيهات التى امتاحوا فيها أكثر ما امتاحوا من الذاكرة واعتمدوا فيها على الموروث، نجد تشبيهات طريفة، كتشبيه السيوف بالنار فى قول المتوكل الليثى:

« ويَجيئُكم قَومٌ كأنَّ سُيوفَهم   بأكُفِّهِمْ تَحتَ العَجاجَةِ نارُ » . [2]

وهو تشبيه لشيء محسوس بشيء محسوس ، لكن وجه الشبه لا يمكن أن يكون فى الشكل أو فى اللون أو فى الحركة ، وإنما هو فى تصورى فى الأثر الذى يحدثه كل منهما ، إضافة إلى ما تتركه النار فى النفس من الرهبة والخوف . يقول هذا فى معرض تهديده وتوعده الشديد لشيعة المختار . ولعل القافية هى التى أوحت له بهذا التشبيه الجميل المنسجم غاية الانسجام مع روح الحماسة والغضب المسيطرة عليه من أول الأبيات .

وتشبيه هند لما حل بحجر على أيدى أهل الشام بالذبح [3] ، وهو على بساطته غاية فى التوثيب . والأم لابنيها بالدرتين والسمع والطرف ومخ العظام [4] ، حين تملكها الوله وتمكنت منها الفجيعة . والورع وهو معنى إسلامى جديد بالرداء [5] . والمسجدين وقد خليا من أهلهما بالبلاقع [6] . والنكبات – وقد شيبت الرأس حتى جعلته كالثغامة

---

(١) شعراء أمويون جـ ٢ ص ٥٢٣ .
(٢) شعر المتوكل الليثى ص ٢٥٦ .
(٣) الأغانى جـ ١٧ ص ١٥٤ .
(٤) الكامل للمبرد جـ ٤ ص ٢٧ .
(٥) ديوان كثير ص ٥٢١ .
(٦) ديوان الفرزدق (طـ . الصاوى) جـ ٢ ص ٤٩١ .

– بوقع القدوم [1] .

أما عمران فقد شبه نفسه ومن معه من الخوارج بعدموت أبى بلال باليتامى . وهو تشبيه لا يصدر إلا عن حس صادق وشعور عميق بما يخلفه الفقد فى النفس من الآثار ، و يوحى – وقد نكر المشبه به ثم أكــده بقــوله : « باد والدهم » – بكل معانى الضعف والوحدة والعجز والاغتراب . كما توحى الاستعارة التى ضمنها الشطر الثانى بالبؤس والحرمان ، وهى النتيجة الصريحة المباشرة لموت الأب .والصورتان متكاملتان ، أو هما بالأحرى صورة واحدة ضمنها لونين بلاغيين ورتب أحدهما على الآخر فجاء بمثابة النتيجة والتفصيل بعد إيجاز . يقول عمران :

« تركْتَنا كيَتامَى بادَ والِدُهــــم   فلم يَرَوا بَعدَهُ خفْضاً ولا لِينا » . [2]

ومثل هذا الإحساس نلمحه فى رثاء الرباب للحسين عليه السلام بقولها :

« قد كنتَ لى جَبلاً صَعْباً ألوذُ بهِ   وكنتَ تَصْحَبُنا بالرَّحْمِ والدِّينِ » . [3]

وهى فى الشطرة الأولى تجسد إحساسها الخاص ؛ إحساس الزوج والمرأة فتستخدم ضمير المفرد ، بينما تجسد فى الشطرة الثانية إحساس الجماعة وخاصة الشيعة الذين كانوايدينون له بالولاء فتنتقل من المفرد (لى) إلى الضمير الدال على جماعة المتكلمين . وما أكثر ما مزجوا بين الصوتين معاً ؛ صوت الجماعة والفرد . وهى سمة من سمات الشعر المذهبى .

ويحتل التشبيه الإضافى مكانة بارزة فيما بين أيدينا من رثاء . وهو كالبليغ بلا أداة ، إلا أن الشاعر فيه يركب بين الطرفين فيضيف المشبه به إلى المشبه ، وهى درجة أكثر تعقيداً مما نراه فى التشبيه العادى وأشد تخييلاً . أما الغرض منه فهو فى الغالب التجسيد أو التجسيم ، وهما الغرضان اللذان سوف يتضحان فى الاستعارة أيضاً . لذلك كان هذا اللون سمة من سمات التطور تتناسب وطبيعة العصر الذى رقت فيه الحياة العقلية رقياً هائلاً ونما فيه الذوق الحضرى إلى حد كبير . فالتقوى منتجع ، وهى صورة مركبة

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٩٥ .
(٢) ديوان شعر الخوارج ص ١٦١ .
(٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٣ / الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٢٩ .

على صورة أخرى يجعل فيها الكميت علياً كرم الله وجهه طرفاً أول وهذه الصورة طرفاً ثانياً :

« ونِعْمَ ولِيُّ الأمرِ بَعدَ وَلِيِّـــــــه ومُنتجَعُ التَّقْوى ونِعْمَ المُؤدِّبُ ».[1]

والإسلام رحى تدور وتستدار للتعبير عن الصيرورة والمضى :

« هوَى أُعْطِيتَهُ لما استَـــــــدارتْ رَحَى الإسلامِ لم يَعْدِلْ سَوِيًا ».[2]

والدين قناة تستلبها أكف الظالمين :

« فصارتْ قَناةُ الدّينِ فى كَفّ ظالِمٍ إذا اعْوجَّ منها جانبٌ لا يُقيمُها ».[3]

وحمى يرعى ومحارم تحاط :

« ماتَ الّذى يَرْعَى حِمى الدّينِ والّذى يَحوطُ حَرَاهُ بالمُثقَّفةِ السُّمْـــرِ ».[4]

والموت منهل :

« وبَكِّ على الخُلّانِ لما تُخرِّمـوا ولم يجدوا عن مَنْهلِ المَوتِ مَصدَرا ».[5]

وهى صورة رائعة للموت تجسمه ، وتجسد فى الوقت نفسه إحساس الشاعر بحتميته.

ويجىء التشبيه المركب فى درجة تالية بعد التشبيه الإضافى . وهو لا يقل عنه تعقيداً ، بل ربما زاد عنه ، لما فيه من تعدد الأطراف وملاحظتها منفردة ثم ملاحظتها بعد ذلك مجتمعة . ومنه قول عبيدة بن هلال:

« يَدنو وتَرفعُهُ الرِّمـــاحُ كأنّهُ شِلْوٌ تَنشَّبَ فى مَخالِبِ ضـــارِ » .[6]

فقد شبه لحمه المتناثر فوق أسنه الرماح تعلو به وترفعه بشلو ممزق تخطفته مخالب طير من الطيور الجارحة . وعلى الرغم من اشتمال كل طرف من طرفى الصورة على جزأين يقابل كل منهما الآخر فالجسد يقابله الشلو والرماح تقابلها المخالب ، إلا أننا لا نستطيع

(٤) شرح الهاشميات ص ٨٢ .
(٢) ديوان أبى الأسود ص ١٧٦ .
(٣) الأغانى (ط . الدار) جـ ٧ ص ١٣٨ .
(٤) ديوان الفرزدق (ط . الصاوى) جـ ١ ص ٣٤٦ .
(٥) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٢٨٢ .
(٦) ديوان شعر الخوارج ص ١٠٧ .

الفصل بينهما لأنه إنما يعنى بهما معاً وبالحالة الناشئة عن اجتماعهما ومجيئهما ممتزجين ، لا كقلوب الطير فى بيت امرئ القيس الشهير [1].

٣ – ويجرنا هذا النوع من التشبيه إلى لون آخر من ألوان التصوير قريب منه وهو « التمثيل » وقد أدخله بعضهم فى التشبيه ، وميز بينهما آخرون على اعتبار أن وجه الشبه ينتزع فى التمثيل من أمور متعددة ويدرك بالعقل لا بالحواس ، فالشاعر لا يقف فيه عند مجرد الشكل أو الصوت أو الرائحة وإنما يعمد إلى شىء أبعد من ذلك لا نستطيع الوصول إليه إلا عن طريق التأويل . وهو على هذا الأساس يحتاج إلى درجة من الرقى لدى المبدع والمتلقى على السواء . ولذلك لم يشع مثلما شاع التشبيه لدى الجاهليين ، وكان شيوعه فيما بين أيدينا من شعر هو فى تصورنا سمة من سمات التطور والتجديد .ومنه قول حارثة بن بدر :

« النّاسُ بَعدَكَ قد خَفّتْ حُلومُهُمُ   كأنّما نَفَختْ فيها الأعاصيرُ » . [2]

وهى صورة طريفة لما يصيب العقول من الخلل ؛ صورة الرياح وهى تنفخ فيها حتى تخف وتطيش؛ وهو يعنى الذهول الذى اعتراهم والدهشة التى انتابتهم بعد موت صاحبه زياد ابن أبيه .

ويقول أعشى همدان :

« فقالَ تَقدّمْ أَحْتَسِبْكَ فأقْبلَتْ   إليهِ جُموعٌ مِن كِلابٍ وأَذْؤُبِ » . [3]

فتشبيه الناس بالكلاب والذئاب يحمل فى طياته إحساساً جارفاً بالنقمة عليهم والغضب لصاحبيه مصعب وابنه وقد قُتلا على أيديهم . أما الرابط بين طرفى التشبيه فى الكلاب مرة والذئاب مرة أخرى فيختلف باختلاف الفهم وتأويل كل منا لما يمكن أن يكون رابطاً ؛ فالغدر والشراسة والفتك والمكر والدهاء كلها أمور واردة ومعان محتملة ،

---

(١) ومنه أيضاً قول الفرزدق (ديوانه ط – الصاوى جـ ١ ص ٦٥) :
« هما متعانى إذ فررت إليهما   كما منَعتْ أَرْوَى الهِضابِ لُهوبُها » .
وقول جرير (ديوانه جـ ١ ص ٢٤٢) :
« أمْسَى بنوه وقد جلّتْ مُصيبتُهم   مِثلَ النُّجومِ هَوَى مِن بَينِها القَمَرُ » .

(٢) شعراء أمويون جـ ٢ ص ٣٤٦ .

(٣) الموفقيات ص ٨٥ .

وهو من التكثيف الذى يثير الخيال إلى أقصى درجاته .

وقد يعمدون إلى الإشارة مكتفين بما تثيره فى الذهن من الأفكار وفى النفس من المشاعر والأحاسيس نحو قول أبى حزابة :

« مِثلُ أبى القَعْواءِ لا بل أَقْصَرُ » . (١)

وأبو القعواء هذا كان حاجباً لطلحة الطلحات وكـان قصيـراً بيّن القصـر. (٢)

وقد يضيفون إلى الإشارة شيئاً من التفصيل، لبيان المقصود وإيضاح وجه الشبه، كقول إسماعيل بن يسار :

« وغَنينا كابنَىْ نُوَيرةَ إذ عـــا   شا جَميعاً بغِبْطةٍ واتّفاقِ » . (٣)

٤ – وتعد الاستعارة بنوعيها ركيزة من الركائز التى اعتمدوا عليها فى بناء الصورة وتشكيلها، وهى تحتاج الى خيال أعمق مما يحتاج إليه التشبيه بدرجاته المتعددة ، ومما يزيدها تعقيداً أنهم كانوا يعمدون فى بعض الأحيان إلى الأطراف المتباعدة التى لا يربط بينها إلا خيط رفيع يحتاج فى معرفته والوصول إليه إلى كد ذهنى وتأمل دقيق . وكان هذا كما لاحظ الأقدمون أول خروج عن عمود الشعر، بينما نراه نحن الآن اعتماداً على سنن التطور ومقتضيات الحضارة سمة من سمات التوليد ظهرت أول ما ظهرت فى العصر الأموى ثم شاعت بعدذلك فيما تلاه من عصور ، واعتمد عليها العباسيون أو من أسماهم النقاد بالشعراء المحدثين اعتماداً كبيراً فيما بعد وتوسعوا فيها بدرجة ملحوظة جعلت كثيراً من الدارسين ينسبونها إليهم ويتغافلون عن دور أسلافهم من الشعراء الأمويين فيها .

وتبدو الرغبة فى التجسيم والتجسيد واضحة فى أغلب استعاراتهم ، وهى رغبة قد تصل عند بعضهم إلى حد الجنوح ، وقد شهدنا طرفاً منها فيما عرضنا له من تشبيهات . فالمنايا تزرع ثم تحصد ما زرعته ، والإنسان بدوره كالنبات :

« وكانَ حَصاداً للمَنَايا زَرَعْنَـهُ   فهَلاَّ تَرَكْنَ النَّبتَ ما كان أخْضَرا » ؟ (٤)

---

(١) الأغانى جـ ٢٢ ص ٢٦٢ .
(٢) المصدر نفسه والصحيفة .
(٣) ديوان إسماعيل بن يسار ص ٤٧ .
(٤) الأغانى جـ ٢٢ ص ٢٥٩ .

والزمان يعثر ، ويوصف بالفساد مرة :

« ما خَيرُ عَيشٍ بالجزيرة بَعدَما عَثَرَ الزَّمــانُ ومــاتَ عَبــدُ الواحِدِ

....

ذهبَ الرِّجالُ الصّالحونَ وبُقِّيتْ ضَعْفَى الرِّجالِ لدى الزَّمانِ الفاسِدِ »[1].

وبالنقاء مرة[2] ، وبالعنت والخيانة مرة ثالثة [3]. والمصيبة تشخص الروح فوق الترقوة حتى تكاد تخرجها :

« وتَناسَتْ مُصيبةً بِدمَشْقٍ أشْخَصتْ مُهْجَتِي فُوَيْقَ التَّراقِي » . [4]

والحاجة تستنبح [5] ، والمجد يباع ويشترى [6] ، والداهية غراء باد حجولها [7] ، والموت يولع بكل فتى رحب الذراع [8] ، ويغدو ويروح [9] ، والدهر يعض [10] ، والحرب تلقح [11] ، وتشمر [12] وهى بعدُ ذات تلهب [13] والخوف يطير النوم [14] ، والشجى ينشب فى الحناجر فلا يستطيع المرء بلعه[15] ، والذكر يهيج الشجون[16] ، والقلب يطير وجداً [17] ، والليالى ذات صروف تفسد العيش [18] ، واليوم أغر محجل[19] ، والدين يموت [20] ، والدنيا تغر [21] ، ويتغير صفوها [22] والدهر له ساعد[23] ، والوتر يصاب [24].

٥ – وتتخلل مراثيهم كنايات كثيرة – وخصوصاً الشيعة وبنى أمية – وهى فضلاً

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٧٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١٤ .
(٣) ديوان إسماعيل بن يسار ص ٣٣ .
(٤) ديوان اسماعيل بن يسارص ٤٥.
(٥) شعراء أمويون جـ ٢ ص ٥٢٣ .
(٦) المصدر نفسه والصحيفة .
(٧) المصدر نفسه ص ٣٦٣ .
(٨) الموفقيات ص ٨٠ .
(٩) ديوان شعر الخوارج ص ١٩٨ .
(١٠) الموفقيات ص ٨٠ .
(١١) الأغانى جـ ١٧ ص ٣٣٢.
(١٢) ديوان شعر الخوارج ص ٢١٠ .
(١٣) الموفقيات ص ٨٤ .
(١٤) ديوان شعر الخوارج ص ٧٠ .
(١٥) المصدر نفسه ص ١١٨.
(١٦) المصدر نفسه ص ١٤٠.
(١٧) المصدر نفسه ص ٢٠٨.
(١٨) المصدر نفسه ص ٢٢٥.
(١٩) ديوان الأخطل ص ٣٤ .
(٢٠) ديوان شعر الخوارج ص ٢٣٧ .
(٢١) شعراء أمويون جـ ٢ ص ٣٤٦.
(٢٢) ديوان كثير ص ١٧٨.
(٢٣) شعراء أمويون جـ ٤ ص ٢٣٢.
(٢٤) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٨٤ .

عن اشتمالها على المعنى وتقديمه بطريقة غير مباشرة تعطى الدليل عليه وتقيم الحجة له فتؤكده دونما إسهاب أو إطالة ، وتجعلنا نميل - بدون قصد منا أو إرادة - إلى التصديق ، وتضفى على الأسلوب نوعاً من الطرافة بجمعها بين الحقيقة والتخييل . ومنها « تصدعت عصاهم » و « أصبح سيفهم مسلولاً » للتعبير عن تفرقهم وتصارعهم فيما بينهم وتربصهم وتحفزهم للقتال :

« فتَصدَّعتْ مِن بَعدِ ذاكَ عَصاهمُ شَقَقاً وأصْبحَ سيفُهم مَسْلولا » . [(١)]

و « أضحى لا يمر ولا يحلى » لا نفع يرجى من ورائه ولا ضر يخشى منه حيث نزل به الموت فصار جيفة كالجماد :

« تَداعتْ عليه عُصْبَةٌ فارسيَّــةٌ فأضحى سَعيدٌ لا يُمِرُّ ولا يُحْلى » . [(٢)]

و« ضنت بدرتها اللقاح » لحلول الأزمات فى أوقات الجدب والقحط وانتشار الفاقة والفقر :

« وأَجْبَرَها لِذى عَظْمٍ مَهِيــضٍ إذا ضَنّتْ بدرَّتِها اللِّقــاحُ » . [(٣)]

و « رقع كل حاشية وبرد » . ينصحه بإصلاح الأمر وتدبره والاحتياط له بسد الثغرات :

« وقلتُ له تَحَفَّظْ مِن قُريــشٍ ورَقِّعْ كلَّ حاشيةٍ وبُــرْدِ » . [(٤)]

و« الريحُ طيبةٌ قبولُ » [(٥)] . وهى من الكنايات القديمة المستهلكة ، للأمر يحين موعده فيحث عليه والمرء تواتيه الظروف . و « يجلى الغبار » [(٦)] : تتضح الأمور . وعند كذا « قطرةٌ من دمائنا » [(٧)] : ثأر لنا . و « ألقوا السلاح واغزلوا بالمغازل » [(٨)] : ارضوا بالذل وتشبهوا بالنساء . و « البيض أبدت عن خدام الكواعب » [(٩)] : حلت بهم الهزيمة وتعرضت نساؤهم للسبى . إلى آخر تلك الكنايات المبثوثة فى مراثيهم بشكل لافت والمنثورة بين الأبيات والتى تشكل باعتبارها طرفاً ثالثاً - أو رابعاً بعد التشبيه

(١) شعر الراعى النميرى ص ٥٨ .
(٢) الأغانى جـ٢ ص ٢٥٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٢٣ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٩ .
(٥) ديوان الأخطل ص ٣٧٣ .
(٦) شعر المتوكل الليثى ص ٢٥٥ .
(٧) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٢٢٣ .
(٨) الأغانى جـ ٢١ ص ٣٦٠ .
(٩) تاريخ الطبرى جـ٥ ص ٦٠٩ .

والتمثيل والاستعارة – بعداً من أبعاد الصورة ونمطاً من أنماط الصنعة والفن .

٦ – على أن الصورة فى شعرهم بصفة عامة قد تمتد فلا تقف عند حد البيت الواحد وإنما تتجاوزه إلى البيت الذى يليه دون أن تفقد صفتها التى أشرنا إليها من قبل – وهى كونها جزئية – وذلك حين يميلون إلى التفصيل فى أحد الطرفين واستقصائه من بعض جوانبه ، وغالباً ما يكون الطرف الثانى ، أو التفصيل فى الطرفين معاً نحو قول الكميت :

« كأنَّ خُدودَهمُ الواضحـــا ت بينِ المَجرِّ إلى المَسْحَب
صَفائـحُ بِيضٌ جَلَتْها القُيُـــونُ (م) مِمَّا تُخَيَّرنَ من يَثْـــرِبِ » (١)

وقد تأخذ صفة التركيب فيجعلون من الطرف الثانى طرفاً أول فى صورة أخرى . ومنه قول محارب بن دثار :

« يالَهفَ نَفسي ولَهفَ الواجدينَ معِي على النُّجومِ الَّتي تَغْتالُها الحُفَـــرُ » (٢)

فقد ركب استعارة مكنية (تغتالها الحفر) على النجوم وهى الطرف الثانى المصرح به من الصورة الأولى . وقول ابن قيس :

« إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِن اللهِ تَجلَّتْ عن وَجْهِهِ الظَّلْماءُ » .(٣)

فالشهاب وهو الطرف الثانى من التشبيه البليغ صار له وجه ينحسر الظلام عنه فى الصورة الثانية المفصلة للصورة الأولى ، على اعتبار أن الضمير هنا يعود على الشهاب – وهو أقرب المذكورين – لا على مصعب .

وقد تميل إلى الغلو وخصوصاً عند الشيعة وإن شاركهم شعراء الأحزاب الأخرى إلا أنهم لم يبلغوا مبلغهم ولم يصلوا إلى الحد الذى وصلوه . ومن أمثلته قول أبى عمرو بن الأراكة فى مقتل ابنه على يد بسر بن أرطأة :

« لَعَمْرى لئن أَتبعتَ عَينَيكَ ما مَضَى به الدَّهرُ أو ساقَ الحِمامُ إلى القَبرِ

(١) شرح الهاشميات ص ١٩٤ .
(٢) الأمالى لأبى على القالى جـ ٣ ص ٣ .
(٣) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٩١ .

لتَستَنفِدَنْ مـاءَ الشئونِ بأسـرِهِ ولو كنتَ تَمْرِيهنَّ مِن ثَبَجِ البَحْرِ »[1]

وقول أبى الأسود فى آل البيت :

« أُحِبُّهـمُ كحُـبِّ اللّـهِ حتّـى أَجِـيءُ إذا بُعِثتُ على هَـوِيَّا » .[2]

وقد يصل الغلو لديهم حد الأسطورة . وقد أشرنا إلى ذلك فى دراستنا لرثاء الحسين وقتلى كربلاء.

وقد شاركهم شعراء الحزب الأموى فى الغلو وساروا على نهجهم فى الإفراط الشديد والمبالغة غير المقبولة – إرضاء لأولى نعمتهم ومواليهم من الحكام والأمراء – فرأينا مسكيناً ينعى زيادة الإسلام بموت زياد:

« رأيتُ زيادةَ الإسلامِ ولَّـتْ جِهاراً حِينَ وَدَّعَنا زِيـادُ » .[3]

وجريراً يمد المصاب على شخص يكاد يكون مجهولا ليشمل ما بين مصر إلى عمان:

« ولقد تَواضعَ مَن بحَضْرةِ مالكٍ ما بَينَ مِصرَ إلى قُصورِ عُمانا » .[4]

ويعكس أثر موت عبد العزيز بن الوليد على الجماد، فإذا الأرض قد هدها مصرعه ونضبت البحور ومادت الجبال :

« فَهَدَّ الأرضَ مَصرعُهُ فمـادتْ رَواسِيها ونُضِّبتِ البُحـورُ » .[5]

وبكت الأرض عند أبى سعيد مولى فائد على قتلى بنى أمية يوم كداء ، وناحت عليهم نجوم السماء [6] . وكادت النجوم تقع – عند الفرزدق – لفقد بشر بن مروان ولم تعد تسرى من بعده وزالت الصخور الراسيات وهدت الجبال وبكته الثريا فى السماء[7] .

وهذا الخيال المفرط يستعيض عنه الخوارج بالصدق ، حتى اشتهر به بعضهم كعمران

---

(١) الكامل للمبرد جـ ٤ ص ٢٥.
(٢) ديوان أبى الأسود الدؤلى ص ١٧٦ .
(٣) ديوان مسكين الدارمى ص ٣٠.
(٤) ديوان جرير جـ ٢ ص ٤٩٩ .
(٥) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٦٩٤ .
(٦) الأغانى (ط. الدار) جـ ٤ ص ٣٥٢ .
(٧) ديوان الفرزدق (ط . الصاوى) جـ ١ ص ٢٦٨ .

ابن حطان ، وكان يفخر بأنه لا يكذب فى شعره كما يكذب الشعراء ، وتجادله امرأة فى قوله عن رجل إنه كان أشجع من أسامة، فيجيبها إنه كان بالفعل كذلك لأن بمقدوره أن يفتح مدينة ويعجز الأسد عن ذلك (١) . وها هى ذى مليكة الشيبانية تقول فى صدر رثائها للضحاك بن قيس :

« قُولِى فإنَّكِ غَيـرُ كـاذِبةٍ   يا عُـدَّتِى لِنَوائبِ الدَّهـرِ » . (٢)

وهذا الصدق الذى يعنونه ينصرف غالباً إلى الصدق الواقعى ، لكنه لا ينفى ما نحن بصدده من حرصهم على الاعتدال فى الخيال والبعد عن الغلو الشديد وعن الإغراق فى المبالغة على النحو الذى تورط فيه غيرهم من شعراء الشيعة وبنى أمية . وقد نجد لديهم بعض المبالغات لكنها تظل على أيه حال فى الحدود المستساغة المقبولة .

وقد تجنح الصورة نحو الحياة الشعبية ، فتستمد من التعبيرات التى تدور على ألسنة العامة والأخيلة التى تشيع فى أجوائها . وهذه واحدة من أهم خصائص الشعر السياسى تضمن له السيرورة وتكفل له الانتشار ؛ فالموت كأس تدار :

« إمّا شَرِبتَ بكأسٍ دارَ أوَّلُهـا   على القُرونِ فذاقوا جُرعةَ الكاسِ
فكلٌّ من لم يَذُقْها شارِبٌ عَجِلاً   منها بأنفاسِ وِرْدٍ بَعدَ أنفـاسِ » (٣)

وفيه راحة :

« فمُتْ قَطَرِىٌّ إنَّ فى الموتِ راحةً   وأنتَ لَـدَيه لا مَحالةَ صـائرُ » . (٤)

ويغدو ويروح :

« أمِنْهالُ إنَّ الموتَ غـادٍ ورائـحٌ   ولاخيرَ فى الدُّنيا وقد ماتَ صالحُ» .(٥)

والرأى يفلق الصخر :

« رُمِينا بشيخٍ يَفْلِقُ الصَّخْرَ رأيُـهُ   يَراهُ رِجـالٌ حَـولَ رايَتِه أبـا » .(٦)

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ١١٩ ، ١٢٠ . وقد شهد له الأخطل عند عبد الملك بأنه أشعر من بقى « لأنه قال وهو صادق ففاقهم فكيف لو كذب كما كذبوا » . ص ١١٦ .
(٢) ديوان شعر الخوارج ص ٢٣٨ .   (٣) ديوان شعر الخوارج ص ١٥٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ١١٨ .   (٥) المصدر نفسه ص ١٩٨ .
(٦) المصدر نفسه ص ١٣٠.

والسلام يلقى على الأرواح :

« وقائلةٍ ودَمعُ العَينِ يَجْـــــرى على رُوحِ ابنِ علْقَمةَ السّلامُ » . [1]

والمرء يعيش فى الضلال ويطول عيشه فيه :

« فقد طالَ عيْشى فى الضّلالِ وأهله أخافُ الّتى يَخشَى التّقىُّ وأحْذَرُ » . [2]

والأحزان تهيج [3] ، والذمام يضيـع [4] ، ويستـــرعى الأمانـة ذيب [5] والسرير ينكر والمنبر [6] ، والعين تبكى دما [7] ، والأنباء أمر من الصبر [8] ، والخوف يطير النوم[9] ، والضلوع تنفرج من الأنين [10] ، والحمام يسوق إلى القبر [11] ، ويجمع الله القلوب [12] .

٧ – ويظهر الرمز خافتاً عند ابن قيس الرقيات فى قصيدته التى رثى فيها قتلى الزبيريين يوم الحرة [13] ، ويزداد وضوحاً فى مراثيه ومراثى الزبيريين بصفة عامة لدولتهم بعد انتقال الملك عنهم وموت خليفتهم عبد الله بن الزبيـر [14] . لكنه لا يبلغ على أية حال ما بلغه عند الشيعة فى ظل إيمانهم بالتقية واعتقادهم بجواز التمويه وما لاقوه على أيدى خصومـهم السياسيين – على مدى تاريخهم الطويل – من عنت وكبت . فقد لجأوا إلى الكتـم حينـاً – كما مر – ولجأ بعضهم إلى المواجهة الملتوية فكانت التورية والإشارة وإيثار التعريض على التصريح من السمات الأسلوبية المميزة لهم ، وكان الرمز بأشكاله المختلفة من العناصر البارزة فى تشكيل صورهم وصياغتها .

---

(١) ديوان شعر الخوارج ص ٢٦٩ .
(٢) ديوان شعر الخوارج ص ٧٤ .
(٣) ديوان جرير جـ ٢ ص ٤٩٩ .
(٤) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٩٦ .
(٥) الوحشيات ص ١٤٦ .
(٦) الأغانى جـ ٢٢ ص ٢٦٢ .
(٧) المصدر نفسه ص ٢٥٨ .
(٨) ديوان الأخطل ص ٥٦٦ .
(٩) ديوان شعر الخوارج ص ٧٠ .
(١٠) المصدر نفسه والصحيفة .
(١١) الكامل للمبرد جـ ٤ ص ٢٥ .
(١٢) شرح الهاشميات ص ١٧١ .
(١٣) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٢٩ : ١٣١ . وفيها يتغزل – على غير المعهود فى جو الرثاء – بامرأة من بنى أمية ويذكر العقبات التى تحول بينه وبينها وكيف أن قومها يمنعونه عنها ويتمنى من طبيب العراق أن يجد له حلاً . وهو يشير من خلال هذا كله إلى الصدع الذى أحدثه الصراع بين فرعى قريش والشرخ العميق فى بنيان تلك القبيلة . أما الطبيب فلعله يعنى به مصعباً وكان يعول عليه فى تخليص الشام من النفوذ اليمنى المسيطر فى تصوره على الأمويين ولم شعث الخلافة .
(١٤) ديوان ابن قيس ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٥ / الأغانى (ط . الدار) جـ ١٢ ص ٢٥٢ .

والمتصفح لشعرهم يجد نماذج متعددة لهذه الظاهرة نكتفى منها ببعض ما جاء فى الهاشميات للكميت ومنها قوله :

« لنا راعيا سَوءٍ مُضيعان منهمـا أبو جَعْدَةَ العادى وعَرْفاءُ جَيّألُ
أتتْ غَنَماً ضاعتْ وغابَ رِعاؤُها لها فُرْعُلٌ فيها شَرِيكٌ وفُرْعُلُ » .[1]

وهو يعنى - كما يقول مفسر شعره - هشاماً وخالد بن عبد الله القسرى. لكنه يعدل عن التصريح ، ويؤثر استخدام تلك الصورة لراعيين أحدهما ذئب والآخر ضبع استرعيا قطيعاً من الغنم غاب عنه رعاؤه الحقيقيون . ويترك النتيجة - وهى معروفة قبلاً - لنا ؛ نتيجة الرضا بتلك الأوضاع الخاطئة .

ويكثر حديثه فى القصيدة نفسها عن الغاية القصوى؛ وهى دولتهم المرتقبة كما يقول شارحه، وعن المهدى؛ وهو الزعيم الذى يكنى عنه ولا يصرح به . كما تكثر فى قصائده الأخرى إشارات لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى الشروح والتفاسير؛ كفذ الأمة والخليع وغيرهما .

وتمثل الرحلة فى هاشمياته نوعاً من الحنين إلى دولتهم لا إليهم فحسب ، كما أنها ترمز كما يقول الدكتور القط إلى مأساتهم؛ فـ « مثل تلك النهايات التى تبدو ذيولاً للقصائد تتضمن بعض الرموز التى تبرر وجودها بأكثر مما يبرره تمنى الشاعر أن يبلغ أحباءه الهاشميين على ظهور تلك المطى . فقد نجد فى بعض أبياتها ما يوحى بأن الشاعر يعقد بينه وبين مطيته مماثلة نفسية تشى بحنينه إلى بنى هاشم وترمز إلى مأساتهم» .[2]

ومن مقتضيات الرمز - بمفهومه الحديث - مايسمونه بـ « تبادل الحواس » . وهذا التبادل نلاحظه بمستويات بسيطة حين يعمدون فى بعض صورهم إلى شىء من الخلط والتداخل ؛ فالعين تذوق وتتلذذ :

« فما طَعِمتْ عَيناىَ نَوماً للَذّةٍ وما زالتَا مِن ذِكْرِه تَكِفانِ » [3]

---

(1) شرح الهاشميات ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
(2) فى الشعر الأموى ص ٣٠٣ .
(3) ديوان شعر الخوارج ص ٢٠٤ .

وللنوم طعم :

« فبتْنا لا نقرّ بطعْـــم نـــوم ولا ليـــلٌ نُكـــابِدُهُ قَصيـــرُ » [1]

وللأنباء – وهى أخبار مسموعة – مرارة كمرارة الصبر أو أشد :

« أتانى ودُونى الزّابيانِ كلاهمـــا ودِجـــلةُ أنباءٌ أمَرُّمِـــن الصَّبْرِ » [2]

والقول يبصر – وإن أمكن صرف البصر هنا إلى العقل –:

« أتُبصِرُ ما تَقولُ وأنتَ كَهْـــلٌ تُراكَ عليكَ مِـن وَرَعٍ رِداءُ » ؟ [3]

والذكر حلو [4] ، والحزن يجرع [5] ، والموت يذاق [6].

وهذه الأخيرة من صور القرآن الكريم [7] . وربما قاسوا عليها فكانت تلك المجموعة من الصور التى يحال فيها عمل حاسة على حاسة أخرى . وهذا فى تصورى أقرب من القول بـ « الإحساس الكلى » وهو الاصطلاح الذى يعول عليه عادة فى تفسير ما يجىء فى شعر الرمزيين منها ؛ لأنهم لم يصدروا عن فلسفة كتلك التى يصدر الرمزيون عنها ، ولم يقصدوا إليها ولم يتعمقوا فيها وإنما جاء فى شعرهم بمستويات بسيطة أحالوا أكثر ما أحالوا فيها على الذوق تماماً مثلما جاء فى القرآن الكريم .

٨ – ونراهم يرتكزون فى صور أخرى على التقابل . ويجىء هذا التقابل أكثر ما يجىء فى بيت ، نحو قول حارثة بن بدر :

« أمّا القُبورُ فإنّهنّ أوانِـــسٌ بجُوارِ قَبرِكَ والدّيارُ قُبورُ » . [8]

وفيه يقارن بين الديار وقد خلت من صاحبه فصارت خراباً كالقبور ، والقبور وقد أنست به فصارت عامرة كالديار . ولاشك أنه يتصنع فى تلك المقابلة ، لكنها تجىء أقرب إلى العفوية منها إلى الصنعة فى قول أبى ثميلة :

« والنّاسُ قد أمِنوا وآلُ مُحمّدٍ مِن بَينِ مَقتولٍ وبَينِ مُشرَّدِ » [9]

وهو يعمد إلى المقابلة فقط دون اللجوء إلى المجاز . وقد تمتد فى بيتين نحو

---

(١) ديوان جرير جـ ٣ ص ٦٩٤ .
(٢) ديوان الأخطل ص ٥٦٦ .
(٣) ديوان كثير ص ٥٢١ .
(٤) شرح الهاشميات ص ٣٥ .
(٥) شعراء أمويون جـ ٢ ص ٣٦٤.
(٦) ديوان كثير ص ١٧٨.
(٧) آل عمران ١٨٥ والدخان ٥٦ .
(٨) شعراء أمويون جـ ٢ ص ٣٤٦ .
(٩) مقاتل الطالبيين ص ١٥٠ .

قول كثير :

« فإن تُصبحِ الدُّنيا تغيَّرَ صفْوُها   فحالتْ وأمستْ وهْيَ غثٌّ سَمينُها
فقد غَنِيَتْ إذ كنتَ فيها رَخِيَّةً   ولكنَّها قِدْماً كثيرٌ فُتونُهـــــا » .(١)

وقد تشمل عدة أبيات فتتخلل لوحة كاملة وتصل إلى أرقى درجاتها كما فى قول عيسى بن فاتك :

« إذا ما الَّليلُ أظلـــمَ كابَـدوهُ   فيُسْفِرُ عنهمُ وهمُ رُكـــوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهمُ فقامـــوا   وأهلُ الأمنِ فى الدُّنيا هُجوعُ
لهم تَحتَ الظَّلامِ وهم سُجودٌ   أنينٌ منهُ تَنفرجُ الضُّلـــوعُ
وخُرسٌ بالنَّهارِ لطُولِ صَمـتٍ   عليهم من سَكِينَتِهمْ خُشُـوعُ
يُعالُون النَّحيبَ إليــه شَــوقاً   وإن خفَضوا فربُّهمُ سَميـــعُ » . (٢)

وهو يعتمد على مجموعة من الألفاظ المتضادة والصور المتقابلة ليميز أصحابه ويبرز الهيئة التى كانوا عليها، وهى هيئة مُثْلَى لا تتوافر لكثير من الناس ، فنراهم والليل مظلم فى كَبَدٍ فإذا ما أسفر أسفر عنهم وهم ركوع ، ونراهم فى البيت التالى وقد أطار الخوف نومهم فقاموا بينما أظل الأمن غيرهم فهجعوا ، ثم نراهم فى البيتين التاليين مرة فى الظلام حيث يرتفع الأنين ومرة فى النهار حيث يخيم عليهم الصمت والسكون والوقار والخشوع، وفى البيت الأخير يعالون النحيب شوقاً إلى الله تارة ويخفضونه تــارة أخرى.

ومثل هذا الامتداد نلمحه فى قول حارثة بن بدر فى رثاء زياد :

« قد كانَ عندَكَ بالمَعروف مَعْـرِفةٌ   وكانَ عنـــدَكَ للنَّـــكراء تَنكيرُ
وكنتَ تُغْشى وتُعْطِى المالَ من سَعَةٍ   إن كان بَيْتُكَ أضحى وهْوَ مَهْجورُ
ولا تَلينُ إذا عُوسِـــرتَ مُقتسِـــراً   وكلُّ أمرِكَ ما يُوسِـــرتَ مَيســـورُ
النّاسُ بَعدَكَ قد خَفَّتْ حُلومُـــهمُ   كأنَّمـــا نَفَخـــتْ فيــها الأعاصيرُ

(١) ديوان كثير ص ١٧٨ .   (٢) ديوان شعر الخوارج ص ٧٠ ، ٧١ .

لم يَعْرِفِ النّاسُ مُذ غُيِّبتَ فِتْنتَهم   ولم يُجَلِّ ظَلاماً عنهمُ نُورُ ».[1]

وهو أيضاً يعتمد على مجموعة من الألفاظ المتضادة والعبارات المتقابلة ، لكنه يميل إلى التكلف وتبدو أبياته أكثر تفككاً ، ولا يبلغ مبلغ صاحبه إلا فى البيت قبل الأخير الذى ضمنه تلك الصور الرائعة للناس وقد خفت حلومهم ، وهو يشمل مقابلة ضمنية لما كانوا عليه قبل موت صاحبه وبعده . لكنه فى غير هذا البيت يبدو صانعاً يهتم بالألفاظ وصياغتها أكثر من اهتمامه بصدق الشعور والإحساس ، ولذلك تفككت منه الأبيات .

٩ – وقد يكتفون بالألفاظ فى صياغة بعض صورهم دون اللجوء إلى المجاز وما يندرج تحته من ضروب التخييل المختلفة كالتشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها فيما يمكن أن نسميه بـ « الصور الوصفية ». وهى صور لا تقل جمالاً ولا تأثيراً عن الصور المجازية التى احتفلت بها كتب البلاغة وأعطتهاكل اهتمامها . ومنها ما يجىء أيضاً فى بيت كقول الحارثية :

« تُسائلُ مَن رأى ابْنَيهـــا   وتستَبغِى فما تُبْغَـــى » .[2]

وهى تصور امرأة ثكلى – هى الشاعرة نفسها – وهى تطوف بكل مكان وتسأل من تراه عن ابنيها وتبغى جواباً يريحها فلا تجد ما تبتغيه لأنها تعلم علم اليقين أنهما قتلا حين أخذا من تحت رجليها .

وقول محمد بن بشير :

« وأرمَلةٍ تَبكِي وقد شَقّ جَيْبُها   عليه فآبتْ وهْىَ شُعْثٌ قُرونُها » .[3]

وهى ملأى بالصوت « تبكى » ، والحركة « آبت » ، ولون القرون ، والإيحاء الذى يحمله كونها صارت أرملة ، وشقها للجيب ، ودعوتها وقد تبعثر منها الشعر . وتنكيره لكلمة « أرملة » ، واستخدام الفعل « تبكى » مضارعاً مستمراً محتفظاً باللحظة التى رآها عليها ، وجملة الحال مؤكدة بقد مع بناء الفعل فيها للمجهول ، واعتراضها

(١) شعراء أمويون ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .   (٢) الكامل للمبرد ج ٤ ص ٢٦ .
(٣) شعراء أمويون ج ٣ ص ١٩٨ .

للفعل « تبكى » والمتعلق به « عليه » ، والفاء وما فيها من سرعة، والعودة على تلك الحال التى تجسدها كلمات ثلاث مباشرة لاغموض فيها ولا التواء ، مع عودة الضمير فى آخر البيت على ضمير آخر ظاهر يعود بدوره على الاسم الذى صدره به فيربط آخره بأوله ربطاً رائعاً .

وقد تمتد فى عدة أبيات فتشكل لوحة متكاملة يشيع فيها الصوت واللون والحركة والإيحاء [(١)].

* * *

١٠ – ولا نجد ما نختتم به هذا الجزء أجمل من تلك الصورة الكلية وهى من الصور القليلة لابن قيس الرقيات فى قتلى قومه يوم الحرة :

« إنَّ الحَوادثَ بالمَدينة قـد أوْجـعننى وقرَعنَ مرْوَتيَهْ
وجَبَبْنَنى جَبَّ السَّنام فلم يتْركنَ ريشـاً فى مَناكِبيَهْ
وأتى كِتـابٌ من يزيدَ وقـد شُدَّ الحزامُ بسَرجِ بَغْلَتيَهْ
يَنعَى بنى عبْدٍ وإخْوتَهـم حَلَّ الهَلاكُ على أقـاربيَهْ
ونَعَى أُسـامـةَ لى وإخْوتَه فظَلَلْتُ مُسْتكّاً مَسـامعيَهْ
كـالشّارِبِ النّشـوَانِ قطّرَه سَمَلُ الزّقاق تَفيضُ عبْرتيَهْ
سَدِماً يُعزّينى الصَّحيحُ وقد مرَّ المَنونُ على كَريمتـيَهْ
كيفَ الرُّقادُ وكلّما هَجَعتْ عيْنى ألَمَّ خيَـالُ إخْوتيَهْ
تبْكى لهم أسْمـاءُ مُعْولةً وتقولُ لَيلَى وارزيّتيَهْ » [(٢)]

وفيها نتخيل شخصا عاجزا هدته الحوادث وقصمت ظهره وجبت منه السنام ونزعت

(١) ديوان إسماعيل بن يسار ص٤٦ الأبيات (١٠٥) / والشعر والشعر ج٢ ص٦٣٥ رثاء ثابت قطنة ليزيد بن المهلب .

(٢) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٩٨ ، ٩٩ .

ريشه وتركته فى مهب الرياح ، ونرى الكتاب وقد جاء من المدينة ينعى إليه أقاربه وينبؤه بما أصابهم وما حل بهم من هلاك ، فى الوقت الذى كان قد تأهب فيه للرحيل وشد الحزام على ظهر بغلته ، فأصابه الدوار ، وترنح كما يترنح الشارب حين يصرعه الشراب ، واستكت مسامعه وفاضت عيناه بالعبرات . ونرى كذلك الرجال وهو يعزونه ، ونراه مرة أخرى وهويتقلب فى الفراش يحاول النوم فلا يستطيع ويلم به الخيال فيرى أخوته وامرأة ثكلى تبكى معولة وأخرى تصيح بالرزية والهلاك .

وقد استعان على رسم تلك الصورة بمجموعة من الصور الجزئية المتناسقة فيما بينها والمنسجمة مع الشعور العام فى الأبيات ، ومنها الاستعارة المكنية فى البيت الأول والتشبيه البليغ فى البيت الثانى والكناية فى الثالث والتشبيه الممتد فى البيتين الخامس والسادس . كما استعان على رسمها بالألفاظ الموحية والمعبرة فى الوقت نفسه عن الحركة، كالأفعال – ويغلب عليها المضى – « أوجعننى » و « جببننى » و « أتى » و« شد » و « حل » و« مر » و « ألم » و « تفيض ». و الصوت : « قرعن » و« ينعى » و « نعى » و« يعزينى » و « تبكى معولة» و « تقول ... » . واللون : « مروتيه » ولون السنام والريش والحزام والسرج والبغلة والخمر والزقاق . والأساليب التى غلب عليها طابع الإخبار بما يحمل فى طياته من صدق وإحساسه أن ما وقع من أحداث هو من المسلمات التى لا مجال للشك فيها ، والاستفهام فى البيت قبل الأخير وهو عن النوم الذى يطلبه والراحة التى يبتغيها لا عن الموت والمصاب ، وهو يحمل معانى كثيرة منها التعجب والنفى والاستبعاد .

ثم تلك القافية الغريبة المكونة من الهاء الساكنة بعدياء مفتوحة مكسور ما قبلها والتى تشبه إلى حد بعيد سجعات الندب وصرخات الناحة ، وقد أطلق هو نفسه واحدة منها فى البيت الأخير على لسان من أسماه بليلى .

لكن مثل تلك الصور – كما ذكرت – قليل ؛ لأنهم كانوا يهتمون فى المقام الأول بالصور الجزئية التى تنسجم مع الفكرة القائلة بوحدة البيت لا القصيدة .

في الموسيقى والأوزان

١ - الموسيقى عنصر من العناصر الهامة في صياغة الشعر ، ووسيلة من وسائله الرئيسة في إثارة الشعور وتحريك الوجدان وبث الإحساس لدى المتلقي بالجمال . فـ «القصيدة كلها إن هي إلا صرخة منغومة » [١]. والشعر في تعريف بعضهم له « بناء موسيقى باللغة » . لأنه في حد ذاته « تنظيم لنسق من أصوات اللغة تنظيماً يحدث نوعاً من الإثارة » [٢]وهذا التنظيم الذي يعتمد في جوهره على اللغة من حيث هي أصوات والذي يهدف فيما يهدف إلى الإثارة تلمسه الأقدمون فيما أسموه بالبحور والأوزان وما يتصل بهما من القافية . وهي بحور كثيرة متنوعة نسقها الخليل وتلميذه في ستة عشر بحراً - غير البحور المهملة - وفي كل بحر أشكال وصور متعددة ، ما بين التام والمجزوء والمشطور والمنهوك وغيرها . إضافة إلى ما تحدثه العلل من تغيير ملحوظ يخرج البحر عن صورته في الضرب أو العروض أو فيهما معاً إلى صور جديدة يصلح كل منها لأن يكون بحراً جديداً قائماً بذاته وإن وضعه العروضيون تحت مسمى البحر نفسه واعتبروه صورة من صوره وشكلاً من أشكاله .

وهذا الثراء والتنوع في بحور الشعر العربي كانا وراء استمرارها وبقائها دون محاولة من الشعراء للتفلت منها أو الخروج عليها زمناً طويلاً . لذا كان هذا الجانب أقل الجوانب الفنية خضوعاً للتجديد في العصر الذي ندرسه . ولم يصبه ما أصاب غيره من التطور الهائل الكبير . يقول الدكتور إبراهيم أنيس : « والتجديد في الأوزان نادر ، وتطورها بطيء تمر عليها القرون والأجيال دون أن يصيبها ما يسترعي أو يلفت النظر، وذلك لأن ألفة الوزن وشيوعه في البيئة اللغوية يتطلب زمناً طويلاً وإنتاجاً شعرياً كثيراً حتى يعتاده جمهور كبير من السامعين ويستسيغوا ما فيه من نغم وموسيقى »[٣].

---

(١) الشعر والتجربة - أرشيبالدمكليش . ترجمة سلمى الجيوسي (دار اليقظة العربية - بيروت ١٩٦٣م) ص ١٤ .

(٢) فنون الأدب - هـ. ب . تشارلتن - تعريب زكي نجيب محمود ط٢ (لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥٩ م) ص ٦٠ .

(٣) موسيقى الشعر - د . أبراهيم أنيس ص ٥ (مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٧٨م) ص١٨ .

ولعله قد وضع يده فى تعليله لتلك الظاهرة فى الشعر العربى القديم على نقطة هامة جديرة بالالتفات إليها فيما نحن بصدده من رثاء ؛ فالألفة لاشك مقترنة بالشيوع ، وشعراؤنا شعراء سياسة قبل أن يكونوا شعراء رثاء ، ودعاة لأفكار مذهبية يهمهم نشرها والإقناع بها أكثر من إظهار اللوعة والحزن ومشاركة أهل الموتى فى البكاء . وهذا الانتشار – أعنى لدى العامة – مقترن باستساغة الناس لما يقولون ، والناس لا تستسيغ إلا المألوف وخصوصاً فى الأشياء الظاهرة الملموسة كالوزن والقافية وهما أول ما يطرق الآذان ويلفت الأذهان .

لذا كان التزامهم بالبحور المعروفة ، والتفافهم حول أكثر هذه البحور انتشاراً كالطويل والبسيط والكامل والوافر والخفيف ، وكان التزامهم أيضاً بالشكل التقليدى للقافية .

وهذا الجدول يوضح البحور التى استخدموها وعدد المرات التى استخدم فيها كل بحر على حدة ونصيب كل حزب منها . وقد راعينا عدد التجارب لا الأبيات ؛ لكثرة الأبيات من ناحية ، ولأن بعض هذه التجارب لم تصلنا كاملة بحيث لا نطمئن إلى عدد أبياتها بقدر اطمئناننا إلى عددها هى من ناحية ثانية مع تسليمنا بأن تجارب كاملة ضاعت أو بالأحرى لم نستطع الوصول إليها :

البحور / الأحزاب	طويل	بسيط	كامل	وافر	خفيف	متقارب	رجز	منسرح	رمل	مديد	هزج	سريع	م.البحور
الخوارج	٣٠	١١	٧	٤	٢	–	١	–	–	١	–	–	٧
الشيعة	١٣	٥	٥	١٦	٧	٤	١	٣	١	–	١	١	١١
الزبيريون	١٣	٢	٦	٢	٤	١	١	–	–	–	–	–	٧
الحزب الأموى	٢٢	١٦	١٢	٨	٢	١	٣	١	١	–	–	–	٩
المجموع	٧٨	٣٤	٣٠	٣٠	١٥	٦	٦	٤	٢	١	١	١	١٢

ونلاحظ :

– أنهم لم يستخدموا المجزوء إلا فى حالات قليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ، منها ثلاث مرات مع الكامل عند الزبيريين وشعراء بنى أمية والشيعة[1] ، ومرة مع الوافر، وأخرى مع الهزج عند الشيعة[2] . وفيما عدا ذلك كانوا يستخدمون البحور فى صورها التامة.

– أن البحر الطويل هو أكثر هذه البحور استعمالاً عندهم جميعاً ، ولم يشذ إلا الشيعة؛ حيث جاء عندهم بعد الوافر بقليل .

– يلى الطويل البسيط فالكامل فالوافر ثم الخفيف . وهذا الترتيب ينطبق عليهم مجتمعين كما ينطبق على الخوارج وشعراء الحزب الأموى منفصلين . ويشذ الشيعة مرة أخرى فيتقدم الخفيف ليجىء بعد الوافر والطويل ويستوى عندهم الكامل والبسيط ، والزبيريون حيث يتقدم الكامل والخفيف على البسيط .

– يلى هذه البحور الخمسة بحران هما المتقارب والرجز . أما المتقارب فلم يستخدمه الخوارج فى الرثاء ، وهو من البحور النادرة عند الزبيريين وشعراء الحزب الأموى ، فلم يستخدمه كل منهما إلا مرة واحدة ، بينما استخدمه الشيعة أربع مرات . وأما الرجز فنادر كذلك عند الخوارج والشيعة والزبيريين وقليل عند شعراء الحزب الأموى؛ حيث استخدموه ثلاث مرات .

– تجىء بعد ذلك بحور نادرة استخدمها بعضهم مرة ولم يستخدمها آخرون؛ كالرمل ولم يستخدمه إلا الشيعة ، والمديد ولم يستخدمه إلا الخوارج ، والهزج والسريع ولم يستخدمهما إلا الشيعة .

٢ – أما القافية فقد جاءت بأنواعها الثلاثة : المتوافر والمتدارك والمتراكب . وهى فى أكثر الأحيان مطلقة غير مقيدة ، مشبعة بحروف المد . وقد تنوع الروى فيها وتنوعت حركاته ما بين الضم والكسر والفتح . وهذا الجدول يوضح على نحو تفصيلى كل نوع من أنواع القافية والحركات التى استخدموها فى الروى وعدد كل منها . كما يوضح الجدول الثانى الحروف التى استخدموها فى الروى وعددها ومجموعها :

---

(١) الأغانى ج٢ ص ٢٥٧ و ج٧ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ . / ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٨٤ .

(٢) الكامل للمبرد ج ٤ ص ٢٦ / مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢١٩ .

الأحزاب	أنواع القافية			حركة الروى			
	متواتر	متدارك	متراكب	كسرة	ضمة	فتحة	سكون
الخوارج	٢٩	٢٢	٥	٢٥	١٩	١١	١
الشيعة	٣٣	١٩	٤	٢٥	١٦	١١	٤
الزبيريون	١٤	١٣	٢	١٠	٨	٩	٢
الحزب الأموى	٣٤	٢١	١١	١٨	٣١	١٢	٥
المجموع	١١٠	٧٥	٢٢	٧٨	٧٤	٤٣	١٢

الأحزاب	حرف الروى																	مج حروف
	ء	ب	ت	ح	د	ر	ز	س	ع	ف	ق	ك	ل	م	ن	ا	ى	
الخوارج	–	٥	–	١	٦	١٧	١	٢	٢	١	٢	١	٣	٨	٦	–	١	١٤
الشيعة	٤	٥	٢	–	٦	٦	–	–	٢	٢	٢	–	٨	٦	٨	١	٤	١٣
الزبيريون	٢	٤	–	–	٣	٢	–	–	٣	–	١	١	٤	٧	–	–	٢	١٠
الحزب الأموى	٢	٣	١	٢	١٠	٢٢	–	–	٢	١	١	–	٩	٤	٦	٣	–	١٣
المجموع	٨	١٧	٣	٣	٢٥	٤٧	١	٢	٩	٤	٦	٢	٢٤	٢٥	٢٠	٤	٧	١٧

ويتضح من الجدولين أنهم كانوا يؤثرون القافية المتواترة (– ٥ – ٥) ؛ فقد جاء عددها أكثر من ضعف عدد النوعين الآخرين مجتمعين ، يليها المتدارك (– ٥ – –٥)، بينما يقل بشكل ملحوظ المتراكب (–٥ –––٥) . وهذا الترتيب واضح عند كل فرقة على حدة كما هو واضح فى المجموع . إلا أن النسب بين الأنواع الثلاثة تختلف من فرقة إلى أخرى ، فيضيق الفرق بين النوعين الأولين عند الزبيريين ، ويتسع عند الخوارج، ويزداد اتساعاً عند الشيعة وشعراء الحزب الأموى .

ويتضح أيضاً أنهم قد استخدموا سبعة عشر حرفاً فى الروى ، مما يدل على ثراء هذا العنصر وتنوعه، ويجىء الراء فى المقدمة، يليها الدال والميم فاللام ثم النون والباء ، وهذه الحروف الستة تشكل القدر الأكبر فى عدد المرات لدى المجموع ، حيث يزيد كل منها – باستثناء الباء والنون – عن العشرين ، ويقترب بعضها من الخمسين وهو الراء ، بينما لا يتعدى كل حرف من الحروف الأخرى العشر ، ومنها العين فالهمزة فالياء ثم القاف . وتقل الفاء والألف والتاء والحاء والسين والكاف والزاى عن الخمس . ومنها حروف لم تستخدم إلا عند فرقة واحدة كالسين والزاى ، ومنها ما استخدم عند فرقتين كالألف والتاء والحاء والكاف ، وعند ثلاثة كالفاء والنون والياء والهمزة . أما الحروف المشتركة بينهم جميعا فهى : الباء والدال والراء والعين والقاف واللام .

وتتفاوت حركة الروى تفاوتاً ملحوظاً من فرقة إلى أخرى وإن تقدمت الكسرة عندهم جميعاً باستثناء الأمويين ، وهى تناسب الإحساس بالانكسار وهو الإحساس الذى يسود الرثاء فى أغلب الأحيان . يليها الضمة ثم الفتحة عند الخوارج والشيعة ، وتتقدم الضمة على الكسرة عند الأمويين والفتحة على الضمة عند الزبيريين. والزبيريون هم أكثر الفرق تناسباً بين الحركات الثلاث، ولا ترتفع نسبة الفتحة إلا عندهم حيث تمثل الثلث تقريباً بينما تقل بشكل لافت عن الحركتين الأخريين عند سائر الفرق وكذلك فى المجموع .

وأكثر ما جاء الروى بعد مد ، يليه إشباع بالياء أو الواو أو الألف . وقد يعقبه هاء السكت كما نرى عند ابن قيس الرقيات ولكن ذلك لا يجىء إلا قليلاً .

ولم تقيد القافية إلا مرات معدودة عوضوا فى أغلبها عن التنفيس الذى يحدثه

الإطلاق بمد طويل قبل السكون فتوالى ساكنان وتشكلت بذلك القافية على هذا النحو (٥٥-) ومنها قول سعيد مولى فائد :

« بَكيتُ وماذا يَرُدُّ البُكـــاءْ   وقَلَّ البُكاءُ لقتلى كُداءْ » . (١)

وقول محارب بن دثار :

« على جَميلةٍ صَلاةُ الأبرارْ   ومَطَراً فاغْفِرْ له يا غَفّـــارْ

قد كانَ صوّاماً طَويلَ الأسْحارْ » (٢)

وهى تجىء أكثر ما تجىء فى الرجز ، وترتبط كما نرى فى المثالين السابقين بالتصريع .

ومن الظواهر اللافتة فى الرجز أيضاً التشطير ؛ فلا نكاد نجد أرجوزة إلا مشطرة بحيث تصلح الشطرة أن تكون بيتاً كاملاً . وتختلف تبعاً لذلك المصادر فى كتابتها وبالتالى فى عدد أبياتها والصورة العروضية التى تنتمى إليها .

أما التصرف فى القافية لإيجاد أشكال جديدة – باستثناء هذا التشطير وهو قديم – فلا نجد له إلا آثاراً ضئيلة تظهر على استحياء داخل القصيدة فى مواضع متفرقة منها دون أن يلتزمها الشاعر فى قصيدته كلها . كقول كثير فى رثاء عمر بن عبد العزيز :

« ولمّا اقْشَعَرَّتْ حينَ وَلّى وأيْقَنَتْ   لقد زالَ منها أُنسُها وأمينُها

وقالتْ له أهْلاً وسَهْلاً وأشـرَقتْ   بنُورٍ له مُستَشرِفاتٍ بُطونُهـــا

فإن أشْرَقتْ منها بُطونٌ وأبْشَرتْ   له إذ ثَوَى فيها مُقيماً رَهينُها » . (٣)

وهو هنا يلتزم التقفية فى نهاية الشطرة الأولى كما يلتزمها فى نهاية البيت، فتتكرر التاء مع الإيقاع الصرفى للكلمة الأخيرة التى تجىء على وزن واحد (أفعلت) وشكل يماثل شكل القافية من ناحية الوزن العروضى فى آخر الأبيات وهو الشكل المتدارك (–

(١) الأغانى (ط . الدار) ج ٤ ص ٣٥٢ .   (٢) ديوان الخوارج ص ١٩٠ .

(٣) ديوان كثير ص ١٧٩ .

٥ -- ٥) . ولا يمكن أن تكون هذه المحاولة قد جاءت هنا دون قصد ؛ لأنه – وإن لم يلتزمها – كررها فى القصيدة نفسها أكثر من مرة، فالأبيات الثلاثة السابقة على هذه الأبيات ينتهى ضربها على هذا النحو : (فقده – حكمه – عدله) واللذان يسبقهما : (أهلها – رخاؤها) . وهذه اللاحقة الـ (ها) فيهما تعطى للبيتين شكل الدوبيت المعروف – وإن لم يكن قد شاع بعد – فى اتحاد قوافيه الأربعة . وفى بيتين آخرين تتحد الشطرة الأولى والثانية والرابعة وتخالف الشطرة الثالثة، وهى أيضاً إحدى أشكال الدوبيت.

ولا يكتفى بعضهم بالتزام الروى فى القافية فيلزم نفسه ما لايلزم ويضع قيوداً أكثر فى آخر كل بيت . وهذه القيود وإن ضيقت أمامهم مجال الاختيار فى جانب اللغة وفرت للموسيقى عناصر أخرى يعدها العروضيون ترفيهاً ونعدها نحن ثراء ونرى فيها شيئاً من البراعة والقدرة ، فجرير يلتزم الميم المفتوحة مع الراء المفتوحة كذلك فى رثائه لعمر ابن عبد العزيز [١]، فيتكرر هذان الصوتان وصوت الألف – نتيجة الإشباع – بعدهما فيفتح الفم عن آخره مع آخر كل بيت كما يفتح عند التوجع والصراخ . وسليمان بن قتة يلتزم اللام المشددة مع التاء المكسورة فى رثائه للحسين عليه السلام [٢]. وابن قيس الرقيات يلتزم صيغة عروضية واحدة هى صيغة (فاعله) آخرها سكت – فى رثائه لإخوانه بالنعف [٣] . كما التزم ابن سيحان فى رثائه لسعيد بن عثمان[٤]، وعبد الله ابن الزبير فى رثاء قتل الحرة [٥]صيغة (فعيل) . وهذا الالتزام بالصيغ الصرفية ذات الإيقاع الواحد يولد نوعاً من الانسجام فى آخر الأبيات يضاف إلى الانسجام الذى تحدثه بالضرورة القافية والروى .

ومن الظواهر المتصلة بالقافية كذلك الإرصاد ، وهو توقع الكلمة الأخيرة واستنتاجها قبل الوصول إليها، بتمهيدهم لها عن طريق الترادف أو التضاد أو الإفراد والجمع أو

---

(١) ديوان جرير ج ٣ ص ٧٣٦ .
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ج ٣ ص ١٤ .
(٣) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٠١ .
(٤) الأغانى ج ٢ ص ٢٥٦ .
(٥) نسب قريش ص ٢٨٢ .

غيرها من الصور والأشكال التي تعين السامع على استلهامها والنطق بها قبل مجيئها في البيت، فتحدث نوعاً من المشاركة واليقظة الذهنية والتجاوب والإصغاء [1]. وهي سمة خطابية ولدها ارتباط الشعر في تلك العصور بالإلقاء وغذَّاها في تصورنا بالنسبة للرثاء اتجاهه نحو السياسة والمذهبية ؛ فهذا الاتجاه قد خلع عليه كثيراً من السمات الخطابية ومنها الإرصاد .

٣ – فاذا تجاوزنا الوزن القافية ونظرنا في موسيقى البيت الداخلية والإيقاع واجهتنا عدة ظواهر، منها شيوع الجناس وكثرة السجع وحسن التقسيم والتكرار اللفظي والانسجام بين الحروف والكلمات والتنغيم الناشئ عن تردد بعض الحروف والحركات والتنوين والمد والعلو والخفوت والتنسيق بين الأصوات .

أما الجناس فيجيء أكثر ما يجيء ناقصاً. ويكون بين الفعل والاسم كقول مسكين :

« أبا المُغيرةِ والدُّنيا مُغيَّـــرةٌ ‏ ‏ ‏ إنَّ امرءاً غرَّتِ الدُّنيا لمَغْرورُ » .[2]

وبين الفعل والفعل كقول عويف :

(١) ومن نماذجه :

« النّافرينَ على مِنْهاجِ أوّلهِـــم ‏ ‏ ‏ مِن الخَوارِجِ قَبلَ الشّكّ والرِّيَـــبِ » .

ديوان شعر الخوارج ص ١٣٩ .

« فلنَ تَرىْ أبداً ما عِشْتِ مثلَهمُ ‏ ‏ ‏ أتقى وأكْملَ في الأحْلامِ أحْلاما » .

المصدر نفسه ص ٢١٣.

« ظَعَنَ الأبْرارُ فارْتَحَلـــــوا ‏ ‏ ‏ خيرُهم مِن مَعْشرٍ ظَعَنـــــــوا » .

المصدر نفسه ص ٢٣٧ .

فهبْنا أُناساً أهْلكتْنا ذُنوبُنـــــا ‏ ‏ ‏ أما لثقيفٍ عثْرةٌ وذُنـــــوبُ » ؟

الوحشيات ص ١٤٦ .

« تَولّى قِتالَ المارِقينَ بنَفْســهِ ‏ ‏ ‏ وقد أسْلماهُ مُبْعَدٌ و حَميـــــمُ » .

ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٩٧ .

ونماذج أخرى : الأغاني ج ١٧ ص ٣٣٣ب ٧ / ديوان كثير ص ٥٢٩ ب ١ ، ٢ ، ٧ / شعراء أمويون ج ٤ ص ٢٣٢ ب ٢ / الموفقيات ص ٨٣ ب ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ .

(٢) ديوان مسكين ص ٣٩ .

« قبرَ سُلَيْمانَ الّذى مَنْ عقّهُ   وجَحَد الخيرَ الّذى قد بَقّهُ » .(١)

والاسم والاسم كقول الكميت :

« ومالَ أبو الشّعْثاءِ أَشْعَثَ دامياً   وإنّ أبا حَجْلٍ قَتيلٌ مُحجّلُ » . (٢)

والفعل والمفعول المطلق ، وهو كثير جداً فى شعرهم ؛ لأنهم استخدموه – بالإضافة إلى كونه عنصراً من عناصر الموسيقى – وسيلة من وسائل التأكيد. ومنه :

– « رَمى الحَدَثانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ   بمِقْدارٍ سَمَدْنَ له سُمُـــودا » .(٣)

–« فَوَجْداً ما وَجَدتُ على رِياحٍ   وما أغـنَيتُ شيْئاً غيرَ وَجْدى » .(٤)

والفعل فى صوره المختلفة :

« راحَ الرِّفاقُ ولم يَرُحْ مَـــرّارُ   وأقامَ بَعدَ الظّاعنينَ وســـاروا » .(٥)

والمفرد والجمع :

« وكانوا غِياثاً ثُمّ أَضْحَوا رَزِيّةً   ألا عَظُمتْ تلكَ الرّزايا وجلّتِ » .(٦)

ومن السجع قول ابن قيس الرقيات :

« حتّى أُفَجّعَهم بإِخْوتِهـــم   وأَسوق نِسْوَتَهم بنسْوَتيـــهْ » .(٧)

والكميت :

« والوَصىُّ الّذى أمالَ التّجوبىُّ به عَرشَ أُمّةٍ لانهـــدامِ

....

والوَصىُّ الوَلىُّ والفارسُ المُعْلِمُ تحتَ العَجاجِ غيرُ الكَهامِ » (٨)

وسعيد مولى فائد :

---

(١) شعراء أمويون ج ٣ ص ١٤٩ .
(٢) شرح الهاشميات ص ١٦٦ .
(٣) شعر عبد الله بن الزبير الأسدى ص ١٤٣ .
(٤) الأغانى ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٥) ديوان جرير ج٣ ص ٧١٩ .
(٦) شرح الحماسة للتبريزى ج ٣ ص ١٥ .
(٧) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٠٠ .
(٨) شرح الهاشميات ص ٢٩ ، ٣٠ .

« بَكيتُ وماذا يَرُدُّ البُكـاءُ   وقَلَّ البُكاءُ لقَتْلَى كُـداءْ » (١).

وحسن التقسيم. وهو يرتبط فى أغلب الأحيان بالسجع والوقف، كقول بعضهم :

« تأسَّ فكم لكَ مِن سَلْوةٍ   تُفرِّجُ عنكَ غَليلَ الحَـزَنْ

بمَوتِ النَّبِىِّ وقَتلِ الوَصىِّ   وقَتْلِ الحُسَينِ وسَمِّ الحَسَنْ » (٢)

وقول الكميت :

« وبُورِكْتَ مَوْلُوداً وبُورِكْتَ ناشئاً   وبُورِكْتَ عِندَ الشَّيبِ إذ أنتَ أشْيَبُ » (٣)

وفيه مع التقسيم سجع وتكرار لفظى للفعل المبنى للمجهول ونائب فاعله والصيغتين المشتقتين من الشيب ، وتردد للواو الممدودة والباء ، والهمزة فى أول الكلمات الثلاث التى تضمنتها الجملة الأخيرة .

ومن التقسيم الجميل الذى ترتاح له النفوس وتطرب القلوب وتتعشقه الأسماع وتألفه الأذن قول عمرو بن الحصين فى قتلى قديد :

« صرْعَى / فخاويةٌ / بيُوتُهمُ /   وخَوامعٌ / بجسُومِهم / تَفْرِى » . (٤)

وهو يعتمد فيه على الوقفات الطبيعية التى يقتضيها المعنى ويحدثها فى الوقت نفسه السكون والتنوين والإشباع فى آخر الكلمات ، كما يعتمد على تكرار المقطع « هم » فى آخر كلمتى « بيوتهم » و« جسومهم » وإطلاق النفس بحركتى المد « الألف » و« الياء » فى « صرعى » و « خاوية » و « خوامع » و« تفرى » ، والإشباع فى آخر الشطرة الأولى ، والتقديم والتأخير فى نهاية الشطرتين . ويلاحظ أن تقسيمه للبيت على هذا النحو يعطيه نغمة عروضية جديدة تضاف إلى نغمة البحر الذى يندرج تحته وهو بحر الكامل . وهذه النغمة هى « فعلن مفاعلتن مفاعلتن » فى الشطرة الأولى ، يقابلها « متفاعلن متفاعلن فعلن » فى الشطرة الثانية بحيث يبدأ البيت وينتهى بتفعيلة واحدة — وهى تفعيلة قصيرة — بينهما أربع تفعيلات فى كل شطرة اثنتان متشابهتان ، وهاتان الاثنتان تختلفان عن المقابلتين لهما أو هما بالأحرى قلب لهما ، لهذا لم نشعر

(١) الأغانى (ط . الدار) ج ٤ ص ٣٥٢ .   (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٣ .
(٣) شرح الهاشميات ص ٦١ .   (٤) ديوان الخوارج ت. د. نايف معروف ص ١٤٥ .

بالاختلاف ولم نفتقد روعة الانسجام .

ويجيء التكرار بأشكاله المختلفة ليثرى الإيقاع ويوفر له الغنى. وقد عرضنا له فى جانب اللغة وحللنا بعض نماذجه . ونشير الآن إلى أنهم قد تأثروا فيه كما تأثروا فى إرصادهم للقافية بالخطابة والإلقاء ، ونضيف إلى الأشكال التى عرضنا لها – وهى الجملة الكاملة واللفظة المفردة – تكرار المقطع والحرف والصيغ الصرفية والتنوين والحركة والمد . فمن المقاطع تكرار « هم » ثلاث مرات فى قول سليمان بن قتة :

« بُدِّلْتُهم منكَ ليتَ أنّهـــــــمُ　　　أَضْحَوا وبَيْنى وبَيْنَهم عَرَنُ » [1]

وإن حرك الميم فى إحداهن وأشبع الضمة . ومرتين فى قول أحد الخوارج :

« ولقد مَضَوا وأنا الحَبِيبُ لَدَيْهِمُ　　　وهمُ لَدَىَّ أَحِبَّةٌ أبْـــــرارُ » .[2]

وقد جاء المقطع منفصلاً ممدوداً فى كلا الحالين بإشباع الضمة لتتناسب مع الواو قبلها فى « مضوا » والتنوين بعدها فى « أحبة » وحركة الضم فى كلمتى « الحبيب » و « أبرار » . ولم يفصل بين المقطعين غير حرف واحد هو حرف الواو الذى يتناسب هو أيضاً مع حركة الإشباع .

وجاء كذلك منفصلاً ومتصلاً فى قول الأشهب بن رميلة :

« وإنّ الّذى حانتْ بفَلْجٍ دماؤُهم　　　همُ القَومُ كلُّ القومِ يا أُمَّ خالدِ» .[3]

ولم يفصل بينهما هذه المرة فاصل ، وأشبع المنفصل دون المتصل ، وكرر كلمة « القوم »، وردد حرف الميم خمس مرات ، وحذف النون من الاسم الموصول تخفيفاً .

وأما تكرار الحروف وترددها فمنه – إضافة إلى البيت السابق الذى تردد فيه الميم – قول حسان بن جعدة :

« أَسْقَى الإلهُ بلاداً كانَ مَصْرَعُهم　　　فيها سَحاباً مِن الوَسْمِيِّ سَجّاما » [4]

وهو يعتمد على تكرار صوت السين لما له من همس يتناسب والدعاء من ناحية

(١) مقاتل الطالبيين ص ٧٧ .　　(٢) ديوان شعر الخوارج ص ٢٥٧ .

(٣) شعراء أمويون ج ٤ ص ٢٣١ .

(٤) ديوان شعر الخوارج ص ٢١٣ . ومن نماذجه أيضاً :

– الهاء : « فوالله ما هذا بعَيشٍ فيشتهى　　　هَنِىٌّ ولا مَوتٍ يُرِيحُ سَرِيعِ»

نسب قريش ص ٢٨٢.

==

والخشوع الذى يمليه الموقف من ناحية ثانية ، وهو فى الوقت نفسه (تنفيس) عما يشعر به وما يعتمل داخله نتيجة الفقد والمصاب .

وقد تتكرر الصيغة الصرفية محدثة إيقاعاً خاصاً داخل البيت كاسم الفاعل من الثلاثى دالاً على الجمع فى قول ابن قيس الرقيات :

« الحاملينَ لواءَ قومِهِـــمُ   والذائدينَ وراءَ عَوْرَتِـهْ » (1)

وهو يجىء بهما فى أول الشطرتين – وصيغة « فعيل » فى العروض والضرب :

« أتاكَ بياسرَ النبأُ الجَليـلُ   فلَيْلُكَ إذ أتاكَ به طَويلُ » (2)

و« أفعل » التفضيل فى القافية والحشو :

== – والجيم : « وأسْعدَهُ قومٌ كأنّ وُجوهَهم   نُجـومُ دُجُناتٍ تَجلّتْ غُيـومُها ».
ديوان شعر الخوارج ص ٧٥ .
– والقاف:« فقلتُ لأصْحابِى قِفوا حِينَ أشْرَفوا   قَليـلاً لكى نَبـقَى وُقوفاً ونَنْظُرُ ».
ديوان شعر الخوارج ص ١٤١
– والكاف : « بكَرٌ كما كَرّ الكُلَيبىُّ مُهْـــرَهُ   ومـــا كَرّ إلاّ خَشْيـــةَ أن يُعيّرا ».
الأغانى ج ٢٢ ص ٢٥٩ .
– والفاء:« أنحَى على وَدَجَىْ طِفْلىَّ مُرْهَفَـــةً   مَشْحـوذَةً وعَظيمُ الإفكِ يُقْتـرَفُ ».
الكامل للمبرد ج ٤ ص ٢٧ .
– والراء : « والمرءُ رَهنُ مَنيّةٍ يُدْعى لهـــــا   لابُدَّ أســــرَعَ من رداءِ المُرْتَدى ».
ديوان إسماعيل بن يسار ص ٣٤ .
– والصاد: «لَعَمْرُو أبى النّاعِى لعَمّتْ مُصيبــةٌ   على النّاسِ واخْتَصّتْ قُصيّاً رَصينُها».
شعراء أمويون ج ٣ ص ١٩٧ .
– والشين : « كيفَ نَومى على الفِراشِ ولَمّــا   يَشْمَلِ الـــشّامَ غَارةٌ شَعْواءُ » ؟
ديوان ابن قيس الرقيات ص ٩٥ .
– والعين : « أقولُ لما نَعَى النّاعُون لى عُمَــرا   لا يَبْعَدَنْ قـــوامُ العَدلِ والدّينِ ».
ديوان كثير ص ٥٣٨ .

وقد يتردد الحرف لا فى البيت وحده وإنما فى المقطوعة كلها كما تردد السين فى رثاء عمران بن حطان لأبى بلال (ديوان شعر الخوارج ص ١٥٨ ، ١٥٩) والنون فى رثاء نصيب لعبد العزيز بن مروان (شعر نصيب بن رباح ص ١٣٩) .

(1) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٩٨ .   (2) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٣٣ .

« للّه عَيناً مَن رَأى مِثلَ مُصْعَبٍ أعفَّ وأَقْضَى بالكِتاب وأَفْهَما » .[1]

و « فعلى » فى آخر الشطرة الأولى وأول الثانية ، و « فعيل » فى الحشو والعروض :

« ونترُككم بأرضِ الشّامِ صرّعَى وشتّى مِن قَتيلٍ أو طَرِيـــــدِ » .[2]

و« يفعلن » فى أول الأبيات [3] ، و« فعلت » فى آخرها [4] ، وكذا « فاعلة»[5] و« فعيلة » [6].

وتتردد الحركات أيضاً كالضمة والكسرة والفتحة، كما يتردد التنوين والمد . وكانوا يراعون – بجانب هذا التردد والتكرار – الانسجام بين الضم والتنوين والواو نحو :

« فضُمَيّرٌ فالما طِرونَ فحُوران قِفارٌ بَسابِسُ الأطْلالِ» [7]

وبين الكسر والتنوين والياء :

« ومن عِيشَةٍ لاخيرَ فيها دَنِيئةٍ مُذمَّمةٍ عِندَ الكِرامِ ذَوِى الصَّبرِ » [8]

والفتح والتنوين والألف :

« إنَّ السَّماحةَ والمروءةَ ضُمِّنا قَبراً بمَرْوَ على الطَّرِيقِ الواضِحِ » [9]

والنون والتنوين :

« يُشقّقنَ عنهنَّ الجُيوبَ كآبةً ولَهْفاً على أُسْدٍ أُتِيحَ لها القَتْلُ » [10]

كما راعوا ائتلاف الحروف وقرب مخارجها ، وانسجام الكلمات فيما بينها وتلاؤمها مع العاطفة ، واتساق الصور و الأخيلة . وغيرها من العناصر التى ساعدت على إيجاد نوع من الموسيقى الخفية، إضافة إلى تلك الموسيقى الظاهرة الواضحة فى القافية والأوزان ، فكان ما أشرنا إليه من الغنى والثراء والقدرة على التأثير – وهو مطلب هام لشعراء السياسة – والتعبير والإيحاء فى هذا الجانب الفنى .

* * *

(١) نسب قريش ص ٢٦٩ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

(٣) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢١٩ .

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ج ٣ ص ١٥ .

(٥) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٠١.

(٦) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٧) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٨) ديوان شعر الخوارج ص ١٩٥ .

(٩) الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٣٨ .

(١٠) الوحشيات ص ١٤٨ .

خـاتمـــــة

* يشغل الرثاء حيزاً كبيراً فى شعر الخوارج . ولعل هذا يتناسب وطبيعة حياتهم فى هذا العصر . وباستثناء قليل جداً من مراثيهم فإن ما يتبقى منـها - حتى ما كان رثاء للأقارب كالإخوة والأبناء - يدور فى الفلك الذى ندرسه متأثراً بالصراعات السياسية والمذهبية . وهو فى رثاء الخوارج أنفسهم ممن ماتوا على خارجيتهم مؤمنين بالمبادئ التى اعتنقوها وشروا أنفسهم من أجلها، فامتزج البكاء بتلك المبادئ وظهرت نبرة من التمجيد والفخر والاعتزاز لا بالقتلى من حيث هم أفراد وإنما من حيث هم أعضاء فى حزب سياسى دينى، وارتفعت تلك النبرة على سائر النبرات، فضلاً عما فيه من دفاع ودعوة أساسهما أيضاً حزبى .

* على أن كثيراً من الأفكار المذهبية تجىء فى صورة لمحات خاطفة لا يميلون فيها إلى التفصيل والتحليل، ولا يلجأون - كالشيعة مثلاً - إلى البرهنة والتعليل وسوق الأدلة العقلية لإثبـــاتها والإقناع بها . وأول هـــذه الأفـــكار (التكفير) وهو ناتج عن فهم خاص للإيمان، وقد استغلوه استغلالاً سياسياً واسعاً، فكفروا خلفاء بنى أمية، وكفروا عامة الناس والرعية، ولم يبق بين المسلمين مؤمناً - كما يتضح صداه بإلحاح غريب فى مراثيهم - إلا من كان على رأيهم؛ فهم الفئة القليلة التى لاتزال على الحق، وهم الأبرار والصادقون والصالحون وأهل القرآن . أما خصومهم فمحلون يستحلون ما حرم الله وملحدون وكفار . وطالما وصفوا أنفسهم بالمهاجرين - وهم يعنون هجرتهم عن ديار الكفر التى هى دار المسلمين - وذكروا غربة الإسلام ووحشة الحق .

* ونراهم يرفضون فكرة (الجبر) التى روج لها الأمويون؛ فقد تنبهوا لما وراءها من أهداف سياسية تسعى لتبرير الحكم الأموى على ما به - فى تصورهم وتصور المعارضين - من الأخطاء . ونراهم فى مراثيهم يعيرون خصومهم - تبعاً لذلك - بالجبرية، ويعلون - على النقيض من الجبريين - من قيمة العمل .

* وظهر فى مراثيهم وصف الله عز وجل بالعلو . وهى من المسائل التى شغلت الفكر المذهبى فى العصر الأموى؛ فقد نفت المعتزلة هذه الصفة مع صفات أخرى لله،

بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إن الله فى السماء قد اعتلى عرشه . وهو الظاهر من النصوص . ويبدو أن الخوارج قد أخذوا بهذا الرأى الأخير لا انتصاراً لأهل السنة وإنما لأنهم كانوا يتمسكون دائماً بظاهر النصوص .

* ويقل الندب فى رثائهم بدرجة ملحوظة بالقياس إلى مراثى غيرهم من الفرق الأخرى . ويرتبط هذا فى تصورى ارتباطاً وثيقا بما اعتقدوه من أنهم - وحدهم - هم أهل الحق، فقتلاهم فى الجنة وقتلى غيرهم فى النار، وجدير بمن كان مصيره الجنة أن يفرح له لا أن يبكى عليه . وتذكرنا مراثيهم - فى هذا الجانب - بمراثى المسلمين الأولين فى أحد ومراثى الفاتحين فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان . غير أنهم توسعوا عن الأولين توسعاً كبيراً حتى صارت هذه السمة ظاهرة عامة لاتكاد تخلو منها مقطوعة أو قصيدة، وحتى أخفت أو كادت مشاعر الحزن والبكاء ، وحتى ليشعر من يقرأ تلك المراثى أنهم يزفون قتلاهم إلى الجنان، فى الوقت الذى امتلأت فيه مراثى غيرهم - وبخاصة الشيعة - بالهلع والفزع واللهفة والإحساس الشديد بالفقد والضياع . وأعتقد أنهم كانوا يعمدون إلى ذلك عمداً لتحقيق أهداف سياسية؛ فهم قلة من ناحية، وهم - على قلتهم هذه - قد اختاروا الخروج والمواجهة سبيلاً للتغيير، ولا يمكن بحال لتلك الفئة القليلة أن تحقق أهدافها فى مواجهة خصوم أقوياء إلا بتزيين الموت فى النفوس والتخفيف من وقعه بما وراءه من نعيم فى حياة أخرى باقية .

* ونراهم فى تأبين قتلاهم - وهو من أكبر أبواب الرثاء - يوجهونه وجهة مذهبية لخدمة أغراض السياسة كذلك؛ فهم يركزون دائماً على المعانى الدينية والمثاليات الخلقية الإسلامية، ليخلعوا على قتلاهم صفة الجهاد المقدس، وليضفوا على حروبهم مسحة من الشرعية وعلى عصيانهم ورفضهم للخلافة القائمة نوعاً من التبرير .

* ويعكس الرثاء رأيهم فى الإمامة - وهى الأصل الكبير الذى قام عليه مذهبهم والذى يميز حزبهم باعتباره حزباً سياسياً عن سائر الأحزاب؛ حيث أجازوها فى غير قريش وتوسعوا فيها لتشمل الموالى مع العرب والعبيد مع الأحرار - ولكن هذا الرأى يجىء فى صورة لفتات سريعة وأفكار تطرح بشكل غير مباشر مثل خلعهم لقب الإمارة - إمارة المؤمنين - على بعض زعمائهم وهم بطبيعة الحال من غير قريش .

* أما المسائل التى لم يتحرجوا من الخوض فيها فى الرثاء - على ما كلفتهم من تضحيات - فتلك التى تتصل بنقد الأوضاع السياسية وسبل تغييرها والحث على هذا التغيير . فهم منذ البداية ناقمون على الحكام وعلى أسلوب الحكم ساعون للإطاحة بهم عن طريق المواجهة الثورية الصريحة التى لا تعرف المداهنة أو الالتواء ، والتى لا تجيز - على خلاف بينهم - القعود وتزين بكل السبل الشراية والخروج . ويمتد النقد ليشمل - بجانب الحكام - الولاة والرعية وفرقاً أخرى كالشيعة والزبيريين . بل يمتد إلى أبعد من ذلك فنراهم يتوجهون فى رثائهم بالنقد إلى أنفسهم وإلى قادتهم وينعون ما حل بهم من الفرقة والانقسام، وهى واحدة من أهم الأمور التى تعرض لها الخوارج فى تاريخهم السياسى وإن لم يمدنا الرثاء فيها بالتفاصيل .

* وتعكس مراثيهم كذلك سلسلة من الحروب التى خاضوها ضد جيوش الدولة الأموية و الزبيريين وخاصة ما تعرضوا فيها للهزيمة واستحر القتل . ولم يكن الهدف من وراء ذكرهم لهذه الحروب مجرد رصدها أو إثارة البكاء بما نالهم فيها من هزائم وتعرضوا له من مصاب، وإنما كانوا يتوجهون من خلالها نحو التشنيع بأعدائهم، والتنديد بما صنعوه، وتعبئة النفوس للانتقام، والاعتذار عما حل بهم، والتهديد والوعيد بالثأر والقصاص . وهى توجهات سياسية فى المقام الأول . واستغل بعضهم تلك الأيام فى نقد الخوارج أنفسهم وتوجيه اللوم لمن تقاعس منهم عن القتال، وهى جزء من تاريخهم العسكرى بما فيه من إيجابيات وسلبيات .

* تقوم النظرية السياسية عندالشيعة على اختلاف فرقها على أصل واحد كبير يجمع بينهاوهو الإمامة . وقد تركت هذه النظرية صدى واضحاً - لعله أوضح صدى سياسى - فى مراثى شهدائهم وقتلاهم، وتحولت مراثى بعضهم - تبعاً لذلك - إلى نوع من الجدال، تساق فيه أدلة العقل والنقل، ويفاد فيه بعلم الكلام والمنطق والمواريث، ويعلى فيه من جانب الفكر إعلاء شديداً . وتأخذ القرابة والوصية مكاناً بارزاً فى الاحتجاج .

* وبجانب هذه النظرية نجد صدى آخر لا يقل وضوحاً للأحداث والصراعات السياسية التى دخلتها الشيعة فى العصر الأموى؛ موت الحسن بن على عليهما السلام - وقد أشيع أنه قتل مسموماً بإيعاز من معاوية - مقتل حجر بن عدى وآخرين من أشراف الكوفة ثاورا فى وجه زياد ابن أبيه حين سُب على بن أبى طالب على المنابر،

استشهاد الحسن ومأساة آل البيت فى كربلاء ، حركة التوابين وثورة المختار فى العراق، خروج زيد بن على فى العقد الثالث من القرن الثانى الهجرى ومقتله ثم مقتل ابنه يحيى طالب الحق من بعده وقد جدد مقتلهما أوجاع الشيعة وخلفت مأساتهما شعراً يشبه الشعر الذى خلفته مأساة كربلاء .

* وتتفتح مراثى الشيعة على نوع من النقد السياسى لبنى أمية ممثلى الدولة الحاكمة وولاتهم بالعراق وابن الزبير وأخيه مصعب والخوارج والمرجئة ولأنفسهم أيضاً على ما كان منهم من تقصير . وهو نقد حاد عنيف يصدر عن نفوس غضبى ويمثل روح التمرد والثورة، ويصل فى بعض الأحيان إلى حد التكفير - وهو أقسى ما يرمى به الساسة فى دولة ترتبط فيها السياسة بالدين ارتباطاً وثيقاً . وهو كذلك نقد عام يصبون فيها جام غضبهم ويعربون عن سخطهم أكثر مما يهتمون بالتفصيل . وعلى الرغم من هذا نستطيع أن نخرج من مراثيهم تلك بصورة واضحة لخصومهم كما يرونهم هم أو كما يتمثلونهم فى لحظات الغضب والتمرد والسخط . وقد يصيبون أحياناً، وقد يبالغون ويبعدون فى أحايين كثيرة، وقد يرمون فى مقتل، وقد يطوفون ويحومون كثيراً، وتبقى بعدذلك مراثيهم وثيقة سياسية لها مدلولها الخاص . ويتسع نقدهم ليشمل المسلمين جميعاً ناعياً عليهم الرضا بالظلم والخنوع والخضوع لمن يسومونهم خسفاً وذلاً، والسكوت عما يحيق بآل البيت، وكأنهم قد اتخذوا من مآسى آل البيت وسيلة لتحريك الرعية نحو التمرد والعصيان والثورة على الحكام .

* وعلى النقيض من الخوارج يكثر الندب والبكاء فى مراثى الشيعة كثرة ملحوظة، بل لعله أكثر ألوان الرثاء شيوعاً عندهم . لكثرة المآسى والمحن التى مروا بها من ناحية، ولأنهم كانوا يلتفون حول أشخاص يعظمونهم تعظيماً شديداً ويوقرونهم توقيراً قد يصل إلى حد التقديس . بينما كان الخوارج يلتفون حول أفكار ومبادئ يؤمنون بها أكثر من التفافهم حول الأشخاص . على أن الشيعة كانوا يوظفون - فى تصورى - هذا الندب توظيفاً سياسياً ويستغلونه استغلالاً واسعاً فى الإثارة والتوثيب . لذلك كانوا يبالغون فى البكاء . وكان هذا البكاء من ناحية أخرى متنفساً لما يجدونه فى نفوسهم من أحزان متراكمة خلفها كثرة ما مروا به من محن وما حاق بهم من هزائم على المستوى السياسى . وكان الأئمة من ناحيتهم يغذون هذا الاتجاه فى الرثاء ويوجهون الشعراء إليه

توجيهاً .

* هذا عن الجانب السياسى، أما الجانب المذهبى - وقد كانت الفكرة الشيعية فى حقيقة الأمر فكرة سياسية ذات طابع دينى - فلعل أبرز ما يميزهم فيها حب آل البيت وتوليهم وبغض خصومهم والبراءة منهم والتخلى عنهم، وهو ما عبروا عنه بـ « التولى والتبرى » . وهذا الحب فى الحق لم يكن خاصاً بهم إلا أنهم بالغوا فيه حتى خرجوا به عن حدوده المعقولة، ورتبوا عليه أشياء - ظهرت واضحة فى مراثيهم - باعدت بينهم وبين العقيدة الإسلامية الخالصة،؛كوقف الإمامة عليهم، والتبرى من كل خليفة ليس منهم واعتباره كافراً مغتصباً، والارتفاع بأئمتهم عن مستوى البشر وإنزالهم منزلة الآلهة وأنصاف الآلهة عند بعض متطرفيهم ممن قالوا بالتناسخ والحلول . ولم يترك الشيعة فرصة إلا عبروا فيها عن هذا الحب وخصوصاً فى المواقف التى كانت تستدعى الرثاء لما تفرضه من صدق وصراحة ينأيان بهم - إلى حد ما - عن التقية التى كانوا يأخذون بها أنفسهم فى بعض الأحيان، ولما تحركه فى أنفسهم من أشجان ومواجع تجعلهم يبالغون فى إظهاره، وكأنهم يتحدون بذلك خصومهم وينفسون عن بعض ما يشعرون به من غيظ .

* ويجىء الرجعة و المهدية والغيبة فى درجة تالية . ونراهم يستشهدون فى مراثيهم ببعض القصص القرآنى على صحة ما ذهبوا إليه، ويتكلف بعضهم كالسيد الحميرى فى هذا تكلفاً شديداً يحيل بعض مراثيه - عند التوسع فى الاستشهاد - إلى نوع يخلو أو يكاد من حرارة العاطفة وإن حاول تعويض هذا النقص باتكائه على عنصر السرد القصصى وما يتولد عنه عـــادة من التشويق .

* ويبدو الأثر الأجنبى واضحاً فيما بثه الغلاة فى الفكر الشيعى وروجوا له فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى؛ كالقول بعصمة الأئمة والتناسخ والحلول . وهى أفكار غريبة على المجتمع الإسلامى حاولوا بواسطتها ضرب الإسلام من داخله . وقد تركت هى الأخرى صداها فى الرثاء ، غير أنه صدى ضعيف بالقياس إلى ما سبق . وقد تكون التقية - وكانوا يعتبرونها تسعة أعشار الدين - وراء تحفظهم خشية الارتطام بالمجتمع الإسلامى الذى لم يكن من السهل قبوله مثل هذه الأفكار أو السكوت عنها فى تلك الفترة الباكرة وخوفاً من تشنيع خصومهم بهم والحيلولة بينهم وبين الوصول

إلى ما يطمحون إليه .

* وفى وسط مشبع بأفكار كتلك الأفكار المتطرفة، ومع ما تعرضت له الشيعة من مآس ومحن وتعرض له زعماؤهم من بطش وقتل وتنكيل، وما فرضته السياسة من كبت وقهر وتضييق وجدت الخرافة طريقها إلى الفكر الشيعى ولعبت الأساطير دورها فى صياغة هذا الفكر وتوجيهه إلى حد بعيد، وانعكس هذا بطبيعة الحال على رثائهم وبخاصة رثاء الحسين عليه السلام فإذا به يفيض بذكر اللعنة السابقة وبكاء الأرض والسماء واحمرار الشمس فى الآفاق واصطباغها بدمه أربعين يوماً، ثم استمرارها على هذا اللون - وكأنها لم تكن هكذا من قبل - فى كل صباح ومساء .

* وفى الحرّة يلقانا أول رثاء سياسى فى تاريخ الزبيريين، ومراثى الحرة - على خطورة هذا اليوم بالنسبة للمسلمين جميعاً - قليلة . وهى على قلتها تأخذ ثلاثة اتجاهات؛ ندم وفخر وإثارة . أما الندم فممتزج بالحسرة والإحساس بالتقصير وخصوصاً عند من فروا من الميدان وتخلوا عن إخوانهم وأسلموهم لجيش الأمويين . وأما الفخر فيجيء ارتداداً على الهزيمة وتعالياً عما نالهم فيها من مصاب، وتختفى وراء عنفه وهيمنته مشاعر الضعف والانكسار . وتأتى الإثارة - كما كنا نرى عند الشيعة فى مراثى الحسين عليه السلام - مع الندب والبكاء .

* وكان الاتجاه الغالب على مراثيهم يوم مرج راهط هو العصبية القبلية وإبراز ما لها من دور فى التقلبات السياسية والتحكم فى مسار الخلافة وتوجيهها .

* ويحالف الانتصار الزبيريين فى كثير من المعارك التى خاضوها فى العراق ضد الشيعة والخوارج فلا نجد لهم فى ارتطامهم بهؤلاء وأولئك مراثى تذكر إلا فى النادر القليل . أما الكثرة البالغة من المراثى فتلك التى نتجت عن ارتطامهم بالأمويين مرة ثانية فى « دير الجاثليق » . وفيها قُتل زعيمهم بالعراق والرجل الثانى فى دولتهم بعدعبد الله، مصعب بن الزبير . وكان مصعب جواداً بخلاف ما عرف - أو أشيع - عن أخيه . وقد التف حوله شعراء كثيرون فى حياته، ورثاه بعدموته كثيرون . وتظهر فى مراثيهم له ولمن قتل معه التحريض على خصومهم من الأمويين والقبائل المساندة لهم كقبيلة كلب، والإشادة بمواقفه الكريمة المشرفة وبيان دوره ومكانته وما كانوا يعلقون عليه من الآمال،

واستفظاع ما حل به وتوقع قرب نهايتهم بعده، والتنديد بمن قتلوه وبمن فروا عنه من صحابته، وإماطة اللثام عن خيانة بعض قواده وجنوده ممن اشترى عبد الملك ضمائرهم وولاءهم بالمال .

* ونبحث فى شعرهم بعدمقتل مصعب ثم عبد الله وسقوط حزبهم بمقتلهما – وكنا نتوقع أن يكثر الرثاء – فلا نجد إلا صدى خافتاً يدخل معظمه فيما يمكن تسميته برثاء الدول أو يحمل فى الأقل بذوراً لهـــذا النوع من الرثاء .

* فإذا ما وصلنا إلى الأمويين وجدنا مراثيهم تتعدد فى الخلفاء بدءاً من معاوية بن أبى سفيان خليفتهم الأول – وقد ورثاه كثيرون – ومروراً بيزيد ومروان بن عبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز – ولم يحظ أحد منهم بمثل ما حظى به من الرثاء كثرة وعمقاً – وانتهاء بمن تلاه فى الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى كالوليد بن يزيد . وقد تطرقوا فى رثائهم لهؤلاء الخلفاء – مع الندب الموجه لبيان مدى الخسارة والمصاب والمبالغ فيه أشد المبالغة والتأبين الموظف فى الدفاع عنهم والاحتجاج – إلى مسائل غاية فى الخطورة تتصل بالسياسة اتصالاً مباشراً؛كالخلافة وولاية العهد، والترويج للأفكار الجبرية التى تخدم فكرة الحق المقدس وتقلل من قيمة الشورى،وتبرير العنف فى مواجهة الخصوم وإخماد الثورات وقمع الحركات المضادة، وإلقاء الضوء على ما اعترى البيت الأموى نفسه – فى الفترة الأخيرة – من الانقسامات والخلافات والتنافس بين أبنائه والمؤامرات التى حيكت لهم واستغل فيها بعضهم وكيف عجل هذا كله بنهايتهم

* ونلاحظ أن مراثى الأمويين بعامة تتجه تارة نحو الدفاع عن حق الأمويين فى السلطة وتأييدهم بشتى الوسائل وتبرير مواقفهم وتسويغ أساليبهم فى الحكم، وتارة أخرى نحو التنديد بالخصوم وشن حملات التشهير ضدهم للنيل منهم والانتقاص وصرف الناس عنهم وفض الأشياع من حولهم واجتذابهم نحو القائمين على السلطة بالفعل، وثالثة نحو القبلية وفيها يبدو أثر العصبية واضحاً ويتجلى دورها الكبير فى تثبيت دعائم ملكهم وصرف الخلافة إليهم ووقفها عليهم طيلة العصر .

* ونراهم فى دفاعهم عن حق الأمويين فى الخلافة ينطلقون من أصل واحدكبير هو

الكفاءة، فإذا كانت الخلافة فى قريش – كما أشارت الأحاديث – دون تحديد لبطن من بطونها فالأجدر بها – هو فى تصورهم – أكثر هذه البطون كفاءة . وهو المنطلق نفسه الذى كان ينطلق منه الزبيريون . من هنا كان حرصهم الشديد فى توجيه التأبين نحو الاحتجاج لبنى أمية بما يخلعونه عليهم من الصفات التى تبرز كفاءتهم وتميزهم فى هذا العنصر بالذات عن غيرهم . وطالما أشاروا فى هذا الصدد إلى حلمهم وقوتهم ورفعة حسبهم وعزتهم وحزمهم وحسن تدبيرهم وإدارتهم والخير الذى فاض على الناس فى عهدهم واتساع رقعة الدولة وتأمين الثغور ونشر الدين وقمع الفتن وإرهاب الخصوم . وخلعوا عليهم بجانب هذه الصفات بعض المثاليات الدينية كالعدل والزهد والتقوى وإحياء السنن وخاصة فى رثائهم لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، وهى من المؤهلات المعتبرة فى إثبات جدارتهم ودفع ما يشيعه الخصوم عنهم من الشبهات . وتظهر فى ثنايا الاحتجاج ظلال واضحة لفكرة الحق الإلهى المقدس .

* وفى التشهير بالخصوم والتنديد بهم نجد المختار وأتباعه ينالون النصيب الأكبر من تشهير الأمويين بالحزب الشيعى فى الرثاء . وقد رموه بالضلال وشبهوه بالدجال واستغلوا ما كان يصطنعه لجميع العامة حوله من الترهات وسيلة لفضحه وفضح الشيعة من خلاله وتشويه صورتهم لدى عامة المسلمين . ونجدهم يرمون آل الزبير – وعلى رأسهم عبد الله – بالإلحاد ويتمنون لهم الذل والهوان ويتتبعون سقطاتهم ويبالغون فى إظهارها ويضخمون من حجمها ويسخرون من التناقض بين ما يدعونه وما يأتونه بالفعل كاستعاذة زعيمهم بالبيت وإعلانه أنه ما خرج إليه إلا طلباً للأمان ثم إراقته للدماء فيه دون مراعاة – فى زعمهم – لحرمة المكان. ونجدهم كذلك يرمون الخوارج بالكفر والضلال والظلم والتخريب والإفساد والنهب والسلب وإثارة الفزغ وزرع الخوف فى نفوس الآمنين من الناس .

* وفى الاتجاه نحو القبلية تبرز أسماء بعض الفحول كالفرزدق والأخطل وجرير، وتبرز أسماء أخرى لشعراء مغمورين، وكل يلهج بالثناء على قتلى قومه ويشيد بقبيلته ويفخر بأيامها ويدعو للثأر وينتقص من قدر خصومهم ويعيرهم بأيام كانت عليهم ويكشف عن مثالبهم ويصفهم بأقبح الصفات .

وقد يتطرقون إلى وصف المعارك و الأسباب التى أدت إليها ونتائجها وما خلفته من

آثار . وقد يثور بعضهم على الحروب الدائرة ويفضح ساسة الأحزاب ويبرز دورهم فى إشعالها والمصالح التى يجنونها من ورائها . ويزداد هذا الاتجاه وضوحاً فى الصراع مع الزبيريين، وفى مقتل الوليد بن يزيد، وفى مراثى الجهة الشرقية وخاصة خراسان .

* وما إن قامت دولة بنى العباس وتتبع العباسيون أقطاب بنى أمية بالقتل والتنكيل حتى أثار الحنين بعض شعرائهم ممن ظلوا على الوفاء لهم إلى رثاء دولتهم، وتحسروا على ما كان فيها من خير وما آل إليه أمر المسلمين على يد العباسيين من كبت وضيق .

* تعود النقائض مرة أخرى وتفرض نفسها – ظاهرة أدبية – فى مراثى العصر الأموى . ويتجه الرثاء فى ظلها نحو الجدل والمناظرة والاحتجاج والاعتماد بشكل لافت على الحضور العقلى – مما يعطيه مكاناً متميزاً داخل التجربة – فى مناقشة الخصم ودحض آرائه مناقشة فكرية هادئة حيناً وساخنة فى أغلب الأحيان والانتصار للمذهب الذى ينتمى إليه والدفاع عن وجهة نظره والاعتداد به والتعصب له . وتأخذ هذه النقائض شكلاً حزبياً ترجع بداياته الأولى إلى الفترة الأخيرة فى صدر الإسلام فيما دار بين شيعة على بالعراق وحزب معاوية بالشام، ثم نراها فى مقتل على رضى الله عنه وعبد الرحمن ابن ملجم بين الشيعة والخوارج، وفى مقتل زين العابدين زيد بن على فى عهد هشام ابن عبد الملك بين الشيعة وشعراء الحزب الأموى . إلى جانب مجموعة أخرى من النقائض السياسية العامة يأخذ بعضها طابعاً فردياً؛ كتلك التى دارت فى مقتل سعيد بن عثمان بن عفان بالمدينة بين مجموعة من المقربين إليه . ويأخذ بعضها طابعاً قبلياً؛ كتلك التى دارت بين جرير والفرزدق فى مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى على يد وكيع ابن سود فى فتنة خراسان، وبين جرير والأخطل فى نكبة التغلبيين حين أوقع بهم الجحاف فى يوم البشر، وبين شعراء قيس الموالين لابن الزبير وشعراء كلب وغيرهم من الموالين لبنى أمية فى قتلى المرج .

* وتظهر فى مراثى هذا العصر ظاهرة جديدة – لم يكن للرثاء بل للشعر عهد بها من قبل – وهى الكتم . وقد لاحظت ارتباط هذه الظاهرة بالشيعة على وجه خاص وبالنكبة التى حلت بهم عقب استشهاد الحسين رضى الله عنه بكربلاء وظهور التوابين بالعراق، ثم استمرارها بعد ذلك عند الكميت فيما كان يستره من الهاشميات . وقد دفعتهم الضغوط السياسية وما كانوا يجيزونه لأنفسهم فى معتقدهم المذهبى – بل

يوجبونه فى بعض الأحيان – من الأخذ بالتقية إلى هذا الكتم دفعاً . واتخذت المكتمات – وجميع ما وصلنا منها على قلته فى الرثاء – طابعاً خاصاً وتقاليد تكاد تكون متميزة فى البناء ، خاصة فيما يتعلق بالمقدمة والقفل أو الخاتمة المثيرة وطريقة عرض الموضوع.

* ومن الظواهر الأدبية أيضاً غلبة المقطوعات .وهى تؤكد من ناحية ضياع كثير من مراثى المعارضة فى ذلك العصر – حيث لوحظت عندهم هذه الظاهرة أكثر مما لاحظتها فى مراثى الأمويين، وعند المتطرفين والأشـــد (ثورية) كالخوارج أكثر من المعتدلين – وتؤكد من ناحية أخرى ما ذكرته قبل – فى صدر الإسلام – عن طبيعة الرثاء ؛ تلك الطبيعة التى تميل به نحو التفرد بالتجربة والاستقلال والاستغناء عن غيره من الموضوعات والأطر الضيقة التى يجد الشاعر نفسه محصوراً فيها فلا يتحرك إلا من خلالها والمعانى المحدودة – على الرغم من الاتساع الذى أضفاه الارتباط بالصراعات السياسية والمذهبية عليه فى هذه الناحية – ومشاركة المغمورين والنساء ومن تملى عليهم المواقف أن يقولوا الشعر قولاً كالآباء والأبناء والإخوة ممن لم يعرفوا به وليست لهم فيه قدم راسخة أو طول باع . وقد تكون هذه الغلبة للمقطوعات مرتبطة من ناحية أخرى – وهى حقيقة لم ينتبه إليها – باتجاه الرثاء نحو السياسة؛ فالمقطوعة أقدر على الانتشار ؛ لسهولة حفظها وإمكان تداولها وإنشادها فى كل وقت وعلى أية حال، وهى فى تصورى أكثر تأثيراً وأشد خطورة فى هذا المجال من القصائد الطوال، وخصوصاً إذا توافر لها مع القصر عناصر لغوية كالسهولة والوضوح، وموسيقية كالأوزان الخفيفة المألوفة والقوافى المستساغة الشائعة . من هنا يكون القصد إلى المقطوعات أمراً وارداً، إلا أنه لا يفسر إلا جزءاً بطبيعة الحال، ولا يغنى عن التفسيرات الأخرى السابقة .

* والقصائد التى وصلتنا – وأكثرها من نصيب الحزب الأموى ثم الشيعة – تخلو أو تكاد من المقدمات التقليدية المعتادة، فنادراً ما يذكرون الديار وما أحدث الزمان بها من البلى – مع مناسبتها للحال – ونادراً ما يتغزلون بالنساء أو يصفون الرحلة وما يعتورهم فيها من المشاق، وإنما يتعرضون للموضوع مباشرة دون تقديم – وهذا هو الغالب – وقد يستبدلون بهذه المقدمات مطالع خاصة كالتوجه إلى الله بالدعاء واستمطار رحماته، والسلام وهو يجىء فى صورة التحية ويقترن فى الوقت ذاته بالتشييع والتوديع، والتأمل فى الموت والحياة والنفس والوجود والفناء والغاية من خلق الإنسان وما بعدالموت من حياة

أخرى وجزاء وخلود وأبد . إلا أن هذه المطالع – وكانت كما ذكرت شيئاً جديدا – لا تطول ولا تتعدى غالباً البيت أو البيتين، ولا تبدو منفصلة فى أشكالها الثلاثة عن سائر الأبيات .

* ومن الظواهر الأدبية أيضاً التشابه والتمايز المذهبى؛ فعلى حين تتشابه الشخصيات الأدبية إلى حد ما داخل المذهب الواحد – وهذا التشابه يتفاوت فى درجته من مذهب إلى آخر، فيزداد وضوحاً عند الخوارج ويقل عند شعراء الحزب الأموى – نراهم يتمايزون عند المقارنة بغيرهم من شعراء المذاهب الأخرى؛ فلكل مذهب سمات خاصة تميزه، ومثال ذلك الموت واختلاف نظرتهم إليه واختلاف البكاء تبعاً لذلك فى درجته وحدته؛ حيث يصل إلى حد الهلع عندالشيعة ويمتزج بالخوف والندم والحزن العميق، بينما يقل بدرجة ملحوظة فى مراثى الخوارج الذين باعوا أنفسهم فى سبيل ما اعتقدوه ورأوا فى الموت مخلصاً لهم من ربقة الحياة وموصلاً إلى الجنة وإلى العالم المثالى الذى عجزوا عن تحقيقه فى الدنيا وفشلوا فى إقامته بين الناس . والظروف المواتية – وعلى رأسها الوقت المتسع والإحساس بالأمان – التى أتاحت لشعراء بنى أمية فرصة الإطالة والتجويد فجاءت مراثيهم فى أغلب الأحيان حاملة هاتين السمتين، بينما وجدنا الخوارج – مرة أخرى على النقيض – تطغى على شعرهم المقطوعات طغياناً شديداً وتغلب على هذه المقطوعات صفة التلقائية والقصر الشديد بما يتناسب وطبيعة حياتهم التى تشبه الحياة العسكرية فى بعض جوانبها كما تتناسب مع شدة إحساسهم بقرب الموت . وعلى حين يشغل الأمويون والزبيريون أنفسهم بالتأبين والعزاء فيستأثرون بالجانب الأكبر منهما يشغل الشيعة بالندب ويتجهون به اتجاهاً واضحاً نحو التوثيب . ولا تكاد مراثى الشيعة تخلو من الإثارة، ومراثى الخوارج من التحريض الصريح، لذا فقد اتجه بعض شعراء الشيعة إلى الكتم وما زالوا به حتى كادوا يحيلونه فناً، وضاع فيما نرجح كثير من رثاء الخوارج . ولم يخل مذهب من المذاهب كلها من النقد السياسى، لكنه يختلف فى كمه وعمقه كما يختلف فى درجة حدته وصراحته فيصل إلى حد التجريح عند شعراء الحزب الحاكم، ويأخذ شكلاً جدلياً منظماً هادئاً حيناً وثائراً حيناً آخر عند شعراء المعارضة .

* ويقابلنا فى جانب اللغة معجم قديم يستمد مادته وألفاظه وتراكيبه من الشعر الجاهلى الذى كان لايزال فاعلاً – وهوأحد العناصر المؤثرة الهامة التى لا يمكن تغافلها

فى دراسة الشعر الأموى – وتشيع فى هذا المعجم لوازم خاصة بالرثاء ؛ كالسقيا ومشتقاتها والدعاء بعدم البعد والتلهف والندب على طريقتهم بـ « يا .. من لـ .. » وغيرها . ومعجم آخر جديد يتصل بالحياة الإسلامية، وهو لا يقل وضوحاً عن المعجم القديم إلا أنه يتفاوت من فرقة إلى فرقة ومن شاعر إلى آخر . وهذا المعجم وإن بدأ منذالصدر إلا أنه ازداد وضوحاً واتساعاً فى مراثى العصر الأموى . وفيه تشيع الألفاظ التى أخذت فى الإسلام معانى جديدة، والاقتباس بدرجاته المتعددة من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف. وبجانب هذين المعجمين نجد معجماً ثالثاً أوجده العامل الحضارى، وفيه تشيع الألفاظ المتصلة بالسياسة وأنظمتها المستحدثة، والمصطلحات المذهبية، وبعض الكلمات الأجنبية الدخيلة التى جاءت نتيجة الاحتكاك بالدول المجاورة .

* وتظهر بعض سمات التوليد فى اتجاههم نحو السهولة والاقتراب من الأساليب الشعبية والنثرية والميل إلى تخفيف الهمزات وحذفها بعدالمد وفى وسط الكلمات وإغفالها عند القطع؛ للاقتراب من العامة ومخاطبتهم بلغة تشبه فى بعض جوانبها اللغة التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية، رغبة فى التأثير وضماناً لشيوع أشعارهم وذيوعها فيهم، وهو ما يسعون إليه باعتبارهم شعراء سياسة ومذهبية لا شعراء رثاء فحسب . وقد لاحظت أن الأسلوب يتفاوت بتفاوت الاتجاه الذى يسود الرثاء واختلاف الجو النفسى الذى يهيمن على الشاعر عند صياغته والظروف والملابسات التى تحيط به؛ فنراه جزلاً قوياً حيناً، ونراه سهلاً رقيقاً حيناً، ونراه يتأرجح بين الجزالة والسهولة حيناً ثالثاً . وهذا التفاوت ملحوظ حتى بين شعراء الحزب الواحد وخصوصاً تلك الأحزاب التى لم تطغ فيها روح الجماعة والمذهبية على الاعتبارات الفردية والتى غلبت عليها صفة السياسة والنفعية، كالحزب الأموى وهو أكثر الأحزاب تفاوتاً، يليه حزب الزبيريين . بل قد نراه عند الشاعر الواحد – وإن جاء ذلك قليلاً – ولا يفسره غير اختلاف الباعث الذى يحركه إلى الرثاء واختلاف الزمان . ولاحظت فى جانب الأسلوب كذلك ميلهم إلى التكرار وكثرة النداء والاستفهام والتوكيد والشرط، وتنوع الجمل بين الطول والقصر، وجنوح بعضهم نحو استخدام أسلوب القص الشعرى وقد تأثروا فيه بالقرآن الكريم والشعراء السابقين والثقافات الأجنبية الوافدة .

* ويغلب فى جانب التصوير التشبيه بأنواعه ثم الاستعارة فالكناية . وتظهر فى هذه

الألوان جميعاً رغبة واضحة فى التجسيم والتجسيد، ومباعدة - فى الاستعارة على نحو خاص - بين طرفى الصورة مما عده بعضهم خروجاً عن عمود الشعر، ورأينا فيه - اعتماداً على سنن التطور ومقتضيات الحضارة - سمة من سمات التوليد اتكأ عليها فيما بعد وتوسع فيها من أسماهم النقاد بالشعراء المحدثين .

* وقد تمتد الصورة فلا تقف عند حد البيت الواحد وإنما تتجاوزه إلى ما يليه، وقد تأخذ صفة التركيب، وقد تميل إلى الغلو وخصوصاً عند الشيعة والأمويين، وقد تجنح نحو الشعبية فتستمد من التعبيرات التى تدور على ألسنة العامة والأخيلة التى تشيع فى أجوائها . أما الأثر القرآنى فلا يقل وضوحاً عما رأيناه فى جانب اللغة، ويتفاوت كذلك بتفاوت الأحزاب، فيظهر عند الخوارج بدرجة أعلى من غيرهم، كما يتفاوت بتفاوت الشعراء ومدى قربهم من الدين أو بعدهم عنه .

* ويظهر الرمز خافتاً عند بعضهم ويزداد وضوحاً عند آخرين ولا سيما الشيعة فى ظل إيمانهم بالتقية وجواز التعريض . ومن مقتضيات الرمز بمفهومه الحديث ما يسمى بـ « تبادل الحواس » . وهذا التبادل نلاحظه بمستويات بسيطة حين يعمدون فى بعض صورهم إلى شيء من التداخل والخلط .

* ونراهم يرتكزون فى صور كثيرة على التقابل . وهذا التقابل يجيء فى البيت والبيتين - وهو الغالب - وقد يشمل عدة أبيات فيتخلل لوحة كاملة ويصل عندئذ إلى أرقى درجاته . وقد يكتفون بالألفاظ - دون اللجوء إلى المجاز وما يندرج تحته من ضروب التخييل كالتشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها - فى صياغة بعض صورهم، وهى صور لا تقل جمالاً ولا تأثيراً عن الصور المجازية التى احتفت بها كتب البلاغة وأعطتها كل اهتمامها .

* وفى جانب الموسيقى - وهو الجانب الأخير - نجد ثراء واسعاً فى استخدام البحور . وقد تقدم البحر الطويل ثم البسيط فالكامل والوافر ثم الخفيف ثم المتقارب والرجز . وقل استخدامهم للرمل والمنسرح والمديد والهزج والسريع . ولم يستخدموا فيما وصلنا بحوراً أخرى كالمضارع والمجتث . ولم نجد لهم من المجزوء إلا القليل؛ فقد كانوا يؤثرون - كأسلافهم استخدام البحور فى صورها التامة الكاملة .

* أما القافية فقد جاءت بأنواعها الثلاثة : المتواتر والمتدارك والمتراكب . وكانوا يؤثرون النوع الأول على النوعين الآخرين . وهى فى أكثر الأحيان مطلقة غير مقيدة مشبعة بحروف المد . وقد تنوع الروى فيها، وتنوعت حركاته ما بين الضم والكسر والفتح، وجاء الراء فى المقدمة يليه الدال والميم فاللام ثم النون والباء . وتقدمت الكسرة – عندهم جميعاً باستثناء الأمويين – على سائر الحركات . وهى تناسب الإحساس بالانكسار وهوالإحساس الذى يسود الرثاء فى أغلب الأحيان . ولم يكتف بعضهم بالتزام الروى وحده فى القافية فألزم نفسه ما لا يلزم ووضع قيوداً أكثر فى آخر كل بيت . وهذه القيود وإن ضيقت أمامهم مجال الاختيار فى جانب اللغة وفرت للموسيقى عناصر أخرى يعدها العروضيون ترفيهاً ونعدها نحن ثراء ونرى فيها شيئاً من البراعة والقدرة .

* ومن الظواهر المتصلة بالقافية كذلك الإرصاد والتضمين . وقد لاحظناهما فى دراستنا لمراثى الصدر، إلا أنهما يأخذان هنا شكلاً أكثر اتساعاً ووفرة . فإذا ما تجاوزنا الوزن والقافية، ونظرنا فى الموسيقى الداخلية والإيقاع واجهتنا عدة ظواهر؛ منها شيوع الجناس، وكثرة السجع، وحسن التقسيم وما يستتبعه من الاهتمام بالوقفات، والتكرار اللفظى، والانسجام بين الحروف، والكلمات، والتنغيم الناشئ عن تردد بعض الحروف والحركات والتنوين والمد والعلو والخفوت والتنسيق بين الأصوات .

وبعـــــــد

* فلعل هذه الرسالة – وهى جديدة فى موضوعها حيث حصرت نفسها فى زاوية معينة لم تُفرد لها دراسة مستقلة من قبل – تكون قد أضافت نتائج جديدة إلى ما سبقها من دراسات تتناول الرثاء بصفة عامة فى صدر الإسلام والعصر الأموى، وتكون قد وضعت أيديها على ما اعتراه من تطور وأصابه من تغيير فى ظل علاقته بالصراعات السياسية والمذهبية .

* ولعلها كذلك تكون قد تناولت بالتحليل نصوصاً جديدة، وجوانب لم تسبق إليها منها ما يتعلق بالصدر؛ كمراثى الفتنة على نحو خاص – فى مقتل عثمان ويوم الجمل، وفيما دار بين على ومعاوية وبينه رضى الله عنه والخوارج من صراعات – ومراثى يهود، والقبائل العربية – غير قريش – فى صراعهما ضد الإسلام، والظل السياسى فى مراثى

النبى ﷺ وخليفتيه أبى بكر وعمر . ومنها ما يتصل بالعصر الأموى؛ كمراثى الحرة ومرج راهط ودير الجاثليق عند الزبيريين، وبعض الخلفاء والأمراء ورجال الدولة عند الأمويين، إضافة إلى ما أجرته من موازنات بين الأحزاب والفرق المختلفة وانتهت إليه مما رصدنا بعض نتائجه فيما أسميناه بالتشابه والتمايز المذهبى.

* وحققت مواقف بعض الشعراء – فى العصر الأموى بصفة خاصة – من الأحزاب؛ كأعشى همدان وعبد الله بن الزبير الأسدى وقد تضاربت فيهما الأقوال .

* وأضافت فصلين كاملين للجوانب الفنية، فلم تقف عند حد الموضوع – كما وقفت الدراسات التى تسبقها – إيماناً منا بأن جوانب الفن المختلفة – كاللغة والتصوير والموسيقى والأوزان – لم تتخلف فى تأثرها بتلك الصراعات عن الموضوع . وقد سجلنا فى هذه الناحية سمات جديدة؛كمعجم الألفاظ المتصلة بالسياسة وأنظمتها المستحدثة والمصطلحات المذهبية، والاقتراب من الأساليب الشعبية والنثرية بغية التأثير فى العامة، واللهجة الخطابية وما تستتبعه من التكرار والمباشرة والتلقائية فى جانب اللغة . واستخدام الرمز – بمستويات بسيطة – وجنوح الصورة نحو الشعبية وامتياحها من الأخيلة التى تشيع فى أجوائها، وتفاوتهم فى الاقتباس من القرآن الكريم بتفاوت الأحزاب نفسها ومدى ارتكازها على الدين وقربها منه أو ابتعادها عنه، وكثرة الصور التقابلية وخاصة فى معرض الإثارة والتوثيب، والغلو والإفراط فى جانب التصوير، والثراء الواسع فى استخدام البحور وتنوع الروى والقافية، وإيثارهم للأوزان المألوفة لضمان الشيوع والانتشار، والاهتمام بالموسيقى الداخلية والإيقاع فى جانب الموسيقى والوزن.

* ورصدنا فى هذين الفصلين كذلك مجموعة من الظواهر الأدبية؛ كالكتم، وهو – وإن أفرد له غيرنا بحثاً مستقلاً لدراسته فى الشعر بصفة عامة – يعد فى تصورى شيئاً جديداً بالنسبة لما نحن بصدده من رثاء ، حيث لاحظت ارتباطه بهذا الغرض دون سواه، وبالشيعة على نحو خاص، خلافاً لما ذهب إليه حين مده فى عصور أخرى غير العصر الأموى وأغراض أخرى استشهد لها – اجتهاداً – بنصوص لم تصرح مصادرها بكتمهم لها ولم تنص على كونها من المكتمات . وشيوع المقطوعات نتيجة الاتجاه نحو السياسة والمذهبية وما فيهما من صراعات فهى أقدر على السيرورة – وربما التأثير أيضاً – من القصائد الطوال، واحتمال كون بعضها أجزاء من قصائد ضائعة خاصةً عند شعراء

المعارضة فيكون الأثر السياسى ههنا بالسلب . وما تركه النقض على الرثاء من بصمات في ظل ارتباطه به على نحو واسع كبير فى العصرين معاً . والمطالع الخاصة – التى استعاضوا بها عن المقدمات التقليدية المعتادة فى القصائد – ومنها الدعاء والسلام .

فإن أك قد وفقت فمن الله، وإن تكن الأخرى فمن نفسى، وحسبى أنى اجتهدت وحاولت ولم أدخر فى سبيل هذه المحاولة وسعاً . والله المستعان .

* * *

مصادر ومراجع

*** أولاً : المصادر :**

١ - الأخبار الطوال لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى - ت . عبد المنعم عامر - مراجعة د . جمال الدين الشيال - مكتبة المثنى - بغداد - بدون تاريخ .

٢ - استشهاد الحسين لابن كثير (ومعه رأى الحسين لابن تيمية) قرأهما وقدم لهما د.محمد جميل غازى - دار المدنى للنشر والتوزيع - جدة سنة ١٩٨٥م .

٣ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة - لعز الدين بن الأثير أبى الحسن على بن محمدالجزرى - ت . محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور - كتاب الشعب - القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٤ - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديين أبى بكر محمد وأبى عثمان سعيد ابنى هاشم - ت . السيد محمد يوسف - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة جـ ١ سنة ١٩٥٨م ، جـ ٢ سنة ١٩٦٥م .

٥ - الإصابة لابن حجر العسقلانى (ومعه كتاب الاستيعاب لابن عبد البر) - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

٦ - الأصمعيات لأبى سعيد عبد الملك بن قريب - ت . أحمد محمدشاكر وعبد السلام محمدهارون ط ٤ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

٧ - أصول الدين - عبد القاهر البغدادى - نشر مدرسة الإلهيات - استنبول سنة ١٣٤٦هـ .

٨ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - لفخر الدين الرازى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

٩ - الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ت . لجنة من الأساتذة تحت إشراف د. محمدأبو الفضل إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - سنوات مختلفة .وط .

الدار القديمة (فيما أُشيرُ إليه بها) .

١٠ - الأمالى لأبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى - ط ١ - جمعية دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد الدكن - الهند سنة١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

١١ - الأمالى فى لغة العرب لأبى على القالى - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

١٢ - أمالى المرتضى للشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى العلوى - ت . د . محمدأبو الفضل إبراهيم - ط١ - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م .

١٣ - أنساب الأشراف للبلاذرى - الجزء الأول ت . محمد حميد الله - دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٥٩ م/ القسم الثانى من الجزء الرابع ت . ماكس شلوسنجر - القدس ١٩٣٨م / الخامس ت . غويتاين - القدس سنة ١٩٣٦م / الحادى عشر - غريغزولد سنة ١٨٨٣م . وسائر الأجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٠٣ تاريخ .

١٤ - البداية والنهاية لأبى الفدا الحافظ ابن كثير الدمشقى - مكتبة المعارف (بيروت) ومكتبة النصر (الرياض) سنة ١٩٦٦م .

١٥ - بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب - محمود شكرى الألوسى - شرحه وضبطه محمدبهجة الأثرى - ط ٣ - دار الكتب الحديثة - القاهرة - بدون تاريخ .

١٦- البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - ت .د . عبد السلام هارون - ط ٣-مكتبة الخانجى - القاهرة سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥ م .

١٧ - تاريخ الخلفاء للسيوطى - ط ٤ - المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩ م .

١٨ - تاريخ دمشق لابن عساكر (على بن الحسن بن هبة الله) - مطبعة روضة الشام

– دمشق سنة ١٣٣٢هـ .

١٩ – تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى – ت . د . محمد أبو الفضل إبراهيم – ط ٤ – دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩ م

٢٠ – تاريخ اليعقوبى – أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الإخبارى – المكتبة المرتضوية – النجف سنة ١٣٥٨هـ .

٢١ – التعليقات والنوادر – لأبى على هارون بن زكريا الهجرى – ت . د . حمود عبد الأمير الحمادى ـ ط ٢ – دار الشئون الثقافية العامة « آفاق عربية » – بغداد سنة ١٩٨٧م .

٢٢ – تلبيس إبليس (أو : نقد العلم والعلماء) لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى – ت . د . أحمدحجازى السقا – مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – بدون تاريخ .

٢٣ – التنبيه والإشراف للمسعودى – عنى بتصحيحه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوى – دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف – القاهرة – سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨ م .

٢٤ – تهذيب التهذيب – لابن حجر العسقلانى – حيدر آباد الدكن – الهند سنة ١٤٢٥هـ .

٢٥ – جمهرة أشعار العرب – لأبى زيد محمد بن أبى خطاب القرشى – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

٢٦ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى – مطبعة السعادة – القاهرة سنة ١٩٣٣ م .

٢٧ – الحماسة للبحترى – ضبطه وعلق حواشيه كمال مصطفى ـ المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة سنة ١٩٢٩ م .

٢٨ – الحماسة البصرية – لصدر الدين على بن أبى الفرج بن الحسن البصرى ت .

عادل جمال سليمان (مخطوط) تحت رقم ٨٥٣ رسالة دكتوراه بالمكتبة العامة – جامعة القاهرة . وقد نشر الجزء الأول – وأحلنا عليه فى المواضع المتصلة به – بالقاهرة سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م عن لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٩ – الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – ت . د . عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجى ـ القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

٣٠ – الخراج – لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم ـ ط٢ – المطبعة السلفية – القاهرة سنة ١٣٥٢هـ .

٣١ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – عبد القادر بن عمر البغدادى – ت . د . عبد السلام محمد هارون – دار الكاتب العربى للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٣٢ – الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور – زينب بنت على بن حسين بن عبيد الله العاملى – ط١ – المطبعة الأميرية ببولاق – القاهرة سنة ١٣١٢هـ .

٣٣ – ديوان أبى الأسود الدؤلى – ت . عبد الكريم الدجيلى ـ ط ١ – شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة بغداد – سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .

٣٤ – ديوان أبى محجن ـ ت . لودوفيكوس ابل – بريل سنة ١٨٨٧م .

٣٥ – ديوان جرير – ت . د . نعمان محمد أمين طه – دار المعارف بمصر – المجلد الأول (جـ ١ ، ٢) سنة ١٩٦٩م / المجلد الثانى (جـ ٣) سنة ١٩٧١ م.

٣٦ – ديوان الخوارج – جمعه وحققه د . نايف معروف ـ ط ١ – دار المسيرة – بيروت سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٣٧ – ديوان شعر الخوارج – جمعه وحققه د . إحسان عباس ـ ط ٤ – دار الشروق – بيروت سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .

٣٨ - ديوان شعر عدى بن الرقاع العاملى ت .د . نورى حمودى القيسى د . حاتم صالح الضامن - المجمع العلمى العراقى - بغداد سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٣٩ - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - ت . د . محمد يوسف نجم - دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨ م .

٤٠ - ديوان الفرزدق - شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ على فاعور - ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

٤١ - ديوان الفرزدق - نشر بوشيه - باريس سنة ١٨٧٠ م.

٤٢ - ديوان الفرزدق جـ ١ـ قدم له د . شاكر الفحام - مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢ م .

٤٣ - ديوان مسكين الدارمى - جمعه وحققه عبد الله الجبورى - وخليل إبراهيم العطية - ط ١ - دار البصرى بغداد سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠ م .

٤٤ - ديوان النابغة الجعدى - نشر عبد العزيز رباح - المكتب الإسلامى - دمشق - سنة ١٩٦٤ .

٤٥ - ديوان الهذليين - القسم الأول ت . أحمد الزين ، والقسمان الثانى والثالث ت . محمود أبو الوفا ـ الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٤٦ - ديوان الوليد بن يزيد - مجلة المجمع العلمى الدمشقى - المجلد الخامس عشر - الجزء الأول - دمشق سنة ١٩٣٧ م .

٤٧ - الزينة فى الكلمات الإسلامية (القسم الثالث) ت . عبد الله سلوم السامرائى (نشره بكتابه : الغلو والفرق الغالية فى الحضارة الإسلامية) ط ٢ - دار واسط للنشر - بغداد سنة ١٩٨١م.

٤٨ - سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب - لأبى الفوز محمد أمين البغدادى الشهير بالسويدى ـ ط ١ـ دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٤٩ – سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط ٤ – المكتب الإسلامي – بيـــروت سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٥٠ – سمط اللآلي – لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى – ت . عبد العزيز الميمني – لجنـة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٣٦م .

٥١ – سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ـ لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ـ ضبطه وشرحه وعلق عليه نعيم زرزور –دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٥٢ – شاعرات العرب – جمعه وحققه عبد البديع صقر –ط ١ – المكتب الإسلامى – بيروت – سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٥٣ – شرح ديوان الحماسة لأبي زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى –ت. محمد محيى الدين عبد الحميد – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة – سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨ م .

٥٤ – شرح ديوان الحماسة للمرزوقي – نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٥٥ – شرح ديوان الخنساء بالإضافة إلى مراثى ستين شاعرة من شواعر العرب – دار التراث – بيروت سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

٥٦ – شرح ديوان الفرزدق – عنى بجمعه وضبطه والتعليق عليه عبد الله الصاوى ط ١ – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م .

٥٧ – شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى – نشـر بيفان – ليدن سنة ١٩٠٥م.

٥٨– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد – ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢ – دار إحياء الكتب العربية القاهرة سنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

٥٩ - شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدى بتفسير أبى رياش أحمد بن إبراهيم القيسى - ت . د . داود سلوم ود . نورى حمودى القيسى - ط ١ - مكتبة النهضة العربية - بيروت سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .

٦٠ - الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان - حميد بن محمد بن رزيق - ت. عبد المنعم عامر - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٦١ - شعر ابن مفرغ الحميرى - جمعه د. داود سلوم - مكتبة الأندلس - بغداد سنة ١٩٦٨ م .

٦٢ - شعراء إسلاميون - جمعه وحققه د . نورى حمودى القيسى - ط ٢ - مكتبة النهضة العربية - بيروت - سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

٦٣ - شعراء أمويون - جمعه وحققه د . نورى حمودى القيسى - المجمع العلمى العراقى - بغداد سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٦٤- شعر الأخطل ت . د . فخر الدين قباوة - ط ٢ - دار الآفاق الجديدة بيروت سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٦٥ - شعراء مقلون - جمعه وحققه د . حاتم صالح الضامن - ط ١ - مكتبة النهضة العربية - بيروت سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٦٦ - شعر الأحوص الأنصارى - جمعه وحققه عادل سليمان جمال - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة - سنة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م.

٦٧ - شعر إسماعيل بن يسار - جمعه د . يوسف حسين بكار - ط ١ - دار الأندلس - بيروت سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٧٢م .

٦٨ - شعر الحارث بن خالد المخزومى - ت . د . يحيى الجبورى - ط ١ - مكتبة الأندلس - بغداد سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م .

٦٩ - شعر الراعى النميرى - ت . د . نورى حمودى القيسى وهلال ناجى - المجمع

العلمى العراقى بغداد سنة ١٩٨٠م .

٧٠ - شعر عبد الله بن الزبير الأسدى - جمعه وحققه د . يحيى الجبورى - دار الحرية - بغداد سنة ١٩٧٤م .

٧١ - شعر عمر بن لجأ التيمى - ت . د . يحيى الجبورى - ط ٣ - دار القلم - الكويت - سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٧٢ - شعر المتوكل الليثى - ت. د.يحيى الجبورى ـ مكتبة الأندلس - بغداد - سنة ١٩٧١م.

٧٣ - شعر مروان بن أبى حفصة - جمعه وحققه د . حسين عطوان- ط ٣ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٢م .

٧٤ - شعر نصيب بن رباح - جمعه د . داود سلوم - مطبعة الإرشاد - بغداد سنة ١٩٦٧م .

٧٥ - شعر النعمان بن بشير الأنصارى - ت . د . يحيى الجبورى ـ ط ٢ - دار القلم للنشر والتوزيع - الكويت سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

٧٦ - الشعر والشعراء لابن قتيبة - ت . أحمد محمد شاكر ـ ط ٣ - دار التراث العربى - القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

٧٧ - الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ـ ت . محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٧٨ - صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى - المطبعة المصرية ومكتبتها - القاهرة - سنة ١٣٤٩هـ .

٧٩ - طبقات الشعراء لابن المعتز - ت . عبد الستار فراج - ط ٤ - دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٨١م .

٨٠ - طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى - ت . محمود محمد شاكر -

مطبعة المدنى ـ القاهرة سنة ١٩٧٤م .

٨١ – الطبقات الكبرى لابن سعد – دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت سنة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

٨٢ – الطرائف الأدبية – صححه وخرجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيله عبد العزيز الميمنى ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٣٧م .

٨٣ – العقد الفريد لأبى أحمد بن محمد بن عبد ربه – وضع فهارسه محمد فؤاد عبد الباقى ومحمد رشاد عبد المطلب – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م .

٨٤ – العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى – ت . محمد محيى الدين عبد الحميد – ط ١– المكتبة التجارية الكبرى– القاهرة سنة ١٩٥٧م .

٨٥ – عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوى ـ ت . د . محمد زغلول سلام – منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٨٠م .

٨٦ – عيون الأخبار لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى – دار الكتب – القاهرة ١٩٢٥م .

٨٧ – فتوح البلدان لأبى الحسن البلاذرى – مراجعة رضوان محمد رضوان – دار الهلال ومكتبتها بيروت سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٨٨ – الفرق بين الفرق – عبد القاهر البغدادى – ت . محمد محيى الدين عبد الحميد – دار التراث – القاهرة – بدون تاريخ .

٨٩ – فرق الشيعة للنوبختى ت.د. عبد المنعم الحنفى ـ ط ١ـدار الرشاد ـ القاهرة سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

٩٠ – الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم (وبهامشه كتاب الملل والنحل للشهرستانى) صححه عبدالرحمن خليفة – مكتبة السلام العالمية – القاهرة سنة

١٣٤٨هـ .

٩١ – الفهرست لابن النديم – نشر فلوجل – ليبزج سنة ١٨٧٢م.

٩٢ – القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى – المطبعة الحسينية – القاهرة سنة ١٣٣٠هـ .

٩٣ – الكامل – لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد – ت . د . محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة – بدون تاريخ .

٩٤ – الكامل فى التاريخ – لعز الدين ابن الأثير الجزرى – صحح أصوله الأستاذ عبد الوهاب النجار – إدارة الطباعة المنيرية – القاهرة سنة ١٣٥٦هـ .

٩٥ – لسان العرب – لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصرى – ت . عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمدالشاذلى – دار المعارف – القاهرة ١٩٧٩م .

٩٦ – متن البخارى بحاشية السندى – لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – بدون تاريخ .

٩٧ – مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى المعروف بالميدانى – المطبعة البهية المصرية – القاهرة – بدون تاريخ .

٩٨ – مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة – محمد حميد الدين الحيدر آبادى – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٤١م .

٩٩ – المحاسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البيهقى – عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى – طبع بمطبعة السعادة – القاهرة سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٦م.

١٠٠– المحبر لأبى جعفر محمد بن حبيب – ت . د . إيلزة ليختن شتيتر – جمعية دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م .

١٠١- مختارات شعراء العرب لابن الشجرى - ت . على محمد البجاوى - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة سنة ١٩٧٥م .

١٠٢ مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى - ت . محمد محيى الدين عبد الحميد - ط ٤ ـ المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

١٠٣ - المعارف لابن قتيبة - ت . ثروت عكاشة - ط ٢ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٦٩م .

١٠٤- معجم الأدباء - ياقوت الحموى - دار إحياء التراث العربى - بيروت سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .

١٠٥ - معجم البلدان - ياقوت الحموى - ت . فريد عبد العزيز الجندى - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

١٠٦ - معجم الشعراء لأبى عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزبانى - ت . عبد الستار أحمد فراج - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .

١٠٧ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبى عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى - ت . مصطفى السقا - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥١م .

١٠٨ - المفضيات للمفضل بن محمد بن يعلى الضبى - ت . أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ ط ٧ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

١٠٩ - مقاتل الطالبيين - أبو الفرج الأصفهانى - ت . السيد أحمد صقر - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م .

١١٠ - مقالات الإسلاميين واختلاف المسلمين - أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى - ت . محمد محيى الدين عبد الحميد - ط ٢ - مكتبة النهضة

المصرية سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

١١١ – مقدمة ابن خلدون – عبد الرحمن محمد بن خلدون – ت . د . على عبد الواحد وافى – ط ١ – لجنة البيان العربى – القاهرة سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

١١٢ – مناقب آل طالب للمازندرانى – قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته على عدة نسخ خطية لجنة من أساتذة النجف الأشرف – المكتبة الحيدرية – النجف – سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

١١٣– المؤتلف والمختلف للآمدى – مكتبة القدسى – القاهرة سنة ١٣٥٤هـ .

١١٤ – النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبين هاشم – تقى الدين المقريزى – ت . د . حسين مؤنس ـ دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٨م .

١١٥ – نسب قريش – لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيرى – ت . ليفى بروفنسال – ط ٣ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٢م .

١١٦ – نقائض جرير والأخطل لأبى تمام – عنى بطبعها وعلق حواشيها أنطون صالحانى اليسوعى – دار المشرق – بيروت سنة ١٩٨٦ م .

١١٧ – نهاية الأرب فى فنون الأدب – لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – القاهرة – بدون تاريخ .

١١٨ – الوافى بالوفيات – لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى – نشر : ريتر – استنبول سنة ١٩٣١م.

١١٩ – الوحشيات وهو الحماسة الصغرى لأبى تمام – ت . عبد العزيز الميمنى وزاد فى حواشيه محمود محمد شاكر – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

١٢٠– وفيات الأعيان – لابن خلكان – مطبعة السعادة – القاهرة – سنة ١٩٤٨م.

١٢١ – وقعة صفين – نصر بن مزاحم المنقرى – ت . عبد السلام محمد هارون – ط ٣ ـ المؤسسة المصرية الحديثة للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

* ثانيـــاً : المراجـــع :

١ – ابن قيس الرقيات شاعر السياسةوالغزل – د . على النجدى ناصف – لجنة البيان العربى ـ القاهرة سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م .

٢ – أبحاث فى السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدوية فى ظل خلافة بنى أمية – فان فلوتن – ت . د . إبراهيم بيضون . نشـــره فى كتـــابه : « الدولة الأموية والمعارضة » ط ٢ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٣ – اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى – د . محمد مصطفى هدارة – المكتب الإسلامى – دمشق سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

٤ – الأخطل شاعر بنى أمية – د . سيد غازى – ط ٤ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

٥ – أدب الخوارج فى العصر الأموى – د . سهير القلماوى – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٤٥م .

٦ – أدب السياسة فى العصر الأموى – د . أحمد محمد الحوفى – ط ٤ – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة سنة ١٩٧٥م .

٧ – أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى – د . عبد الحسيب طه حميدة – الزهراء للإعلام العربى – القاهرة سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٨ – أدب العرب – مارون عبود – دار الثقافة – بيروت سنة ١٩٦٠م .

٩ – الأدب العربى فى ظل بنى أمية – د . جودة عبد الله مصطفى – دار الحمامى – القاهرة سنة ١٩٧٥م .

١٠ – الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة – د . مصطفى سويف – ط ١ – دار المعارف القاهرة سنة ١٩٥١م .

١١ - الإسلام والحضارة العربية - محمد كرد على- لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٩م .

١٢ - الأصوات اللغوية - د . إبراهيم أنيس - مكتبة نهضة مصر - القاهرة - ١٩٤٧م

١٣ - الأعلام - خير الدين الزركلى - ط ٥ - دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٨٠م .

١٤ - بناء لغة الشعر - جون كوين - ت . د . أحمد درويش - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة سنة ١٩٩٠ م .

١٥ - تاريخ آداب العرب - مصطفى صادق الرافعى - مطبعة الاستقامة - القاهرة سنة ١٩٤٥م .

١٦ - تاريخ آداب اللغة العربية - جرجى زيدان - طبعة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور شوقى ضيف - دار الهلال - القاهرة - بدون تاريخ .

١٧ - تاريخ آداب اللغة العربية - نللينو - ت . إبراهيم كيلانى - الجامعة السورية بدمشق سنة ١٩٥٦م .

١٨ - تاريخ الأدب العربى - ريجيس بلاشير - ت . إبراهيم كيلانى - بيروت - بدون تاريخ .

١٩ - تاريخ الأدب العربى - كارل بروكلمان - ت . عبد الحليم النجار - ط ٥ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٣م .

٢٠ - تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى - السباعى بيومى - ط ٢ - القاهرة ١٩٣٥م .

٢١ - تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن - ط ٤ - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة سنة ١٩٥٨م.

٢٢ – تاريخ التمدن الإسلامى – جرجى زيدان – طبعة جديدة راجعها وعلق عليها د . حسين مؤنس ـ دار الهلال – القاهرة سنة ١٩٦٨م .

٢٣ – تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية – يوليوس فلهوزن – ت . محمد عبد الهادى أبو ريدة – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٥٨م .

٢٤ – تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى – د . أحمد الشايب – ط ٥ – دار القلم – بيروت سنة ١٩٧٦م .

٢٥ – تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى – د . نجيب محمد البهبيتى – دار الكتب المصرية – القاهرة سنة ١٩٥٠م .

٢٦ – تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى – د . على حسنى الخربوطلى – دار المعارف سنة ١٩٥٩م .

٢٧ – تاريخ العرب – فيليب حتى – ت . محمد مبروك نافع – مطبعة العلم العربى – القاهرة ١٩٤٩م.

٢٨ – تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام – د . محمد على أبو ريان – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية سنة ١٩٨٦م .

٢٩ – تاريخ النقائض فى الشعر العربى – د . أحمدالشايب – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

٣٠ – التركيب اللغوى للأدب – د . لطفى عبد البديع – مكتبة نهضة مصر – القاهرة ١٩٧٠م .

٣١ – التطور والتجديد فى الشعر الأموى – د . شوقى ضيف ـ ط ٨ – دار المعارف القاهرة ١٩٨٧م .

٣٢ – تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه – طوبيا العنيسى

- دار العرب - القاهرة ١٩٦٥م .

٣٣ - التفسير النفسى للأدب - د . عز الدين إسماعيل - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٦٣م .

٣٤ - حديث الأربعاء - د . طه حسين- دارالمعارف - القاهرة سنة ١٩٥٧م .

٣٥ - حركات التجديد فى الأدب العربى - أبحاث ومقالات لمجموعة من الدارسين - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٧٩م.

٣٦ - الحركات السرية فى الإسلام رؤية عصرية - د . محمود إسماعيل - مؤسسة روز اليوسف - القاهرة - سنة ١٩٧٣م .

٣٧ - حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام - د . سعيد حسين منصور - دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٣٨ - الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية - فون كريمر - ت.مصطفى طه بدر - دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٤٧م.

٣٩ - الحياة الأدبية فى مكة فى القرن الأول الهجرى - د . زكى عابدين غريب - ط ١ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٤٠ - الحياة الأدبية فى البصرة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى - د . أحمد كمال زكى - ط ١ - دار الفكر بدمشق سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

٤١ - حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة - د . يوسف خليف - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

٤٢ - الخلافة - توماس آرنولد - ت . جميل معلى - دار اليقظة العربية - دمشق سنة ١٩٤٦م .

٤٣ - الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية - د . محمدعمارة - دار الهلال - القاهرة

سنة ١٩٨٣م .

٤٤ - الخوارج فى العصر الأموى - د . نايف معروف - ط ٢ - دار الطليعة - بيروت سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

٤٥ - الخوارج والشيعة - يوليوس فلهوزن - ت . عبد الرحمن بدوى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة سنة ١٩٥٨م.

٤٦ - دراسات فى الأدب الإسلامى - د . محمد أحمد خلف الله - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - سنة ١٩٤٧م .

٤٧ - دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث - د . بدوى طبانة مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٥٤م .

٤٨ - دلالة الألفاظ - د . إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٦م .

٤٩ - الدولة الأموية والمعارضة (مدخل إلى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندى ڤان فلوتن) - د . إبراهيم بيضون ـ ط ٢ - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٥٠ - الرثاء - د . شوقى ضيف (سلسلة فنون الأدب العربى) - ط ٣ - دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٧٩م.

٥١ - شعر البصرة فى العصر الأموى - عون الشريف قاسم - دار الثقافة - بيروت سنة ١٩٧٢م .

٥٢ - شعر عبيد الله بن قيس الرقيات - د . إبراهيم عبد الرحمن (جـ ١ - الدراسة) - ط ١ - مكتبة الشباب القاهرة سنة ١٩٧٧م .

٥٣ - الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى - النشأة والتطور - د . محمد مصطفى هدارة - ط ١ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٤٠١هـ /

١٩٨١م .

٥٤ – الشعر واللغة – د. لطفى عبد البديع – مكتبة نهضة مصر – القاهرة سنة ١٩٦٩م .

٥٥ – الشعر والنغم – د . رجاء عيد – دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٧٥م .

٥٦ – الصيغ البديعى فى اللغة العربية – د . أحمد إبراهيم موسى – دار الكتاب العربى – القاهرة سنة ١٩٦٩م .

٥٧ – الصورة الأدبية – د . مصطفى ناصف – مكتبة مصر – القاهرة سنة ١٩٥٨م .

٥٨ – الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغة – د . جابر أحمد عصفور – دار المعارف سنة ١٩٨٠م .

٥٩ – الصورة والبناء الشعرى – د . محمد حسن عبد الله – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨١م.

٦٠ – ضحى الإسلام – أحمد أمين – ط ٢ – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م .

٦١ – عبد الله بن الزبير – د . على حسنى الخربوطلى – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر – القاهرة سنة ١٩٦٥م .

٦٢ – عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية – د . ضياء الدين الريس – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – القاهرة – سنة ١٩٦٢م .

٦٣ – العروض والقافية دراسة فى التأسيس والاستدراك – محمد العلمى – ط١ – دار الثقافة – الدار البيضاء سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

٦٤ – العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى – د . إحسان النص – ط ٢ – دار الفكر – بيروت – سنة ١٩٧٣م .

٦٥ – العصر الإسلامى – د . شوقى ضيف ـ ط ٤ – دار المعارف – القاهرة بدون تاريخ.

٦٦ – عضوية الموسيقى فى النص الشعرى – د . عبد الفتاح صالح نافع – ط ٢ – مكتبة المنار – الأردن سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٦٧ – العقيدة والشريعة فى الإسلام – أجناس جولد تسيهر – ت . محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبد القادر – دار الكاتب المصرى – القاهرة سنة ١٩٤٦م .

٦٨ – الغلو والفرق الغالية فى الحضارة الإسلامية – د . عبد الله سلوم السامرائى – ط ١ – دار واسط للنشر – بغداد – سنة ١٩٨٢م .

٦٩ – الفتنة الكبرى – د . طه حسين – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٠م .

٧٠ – فجر الإسلام – أحمد أمين – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م.

٧١ – الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى – د . النعمان القاضى – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٧٠م .

٧٢ – الفكر السياسى فى الإسلام شخصيات ومذاهب – د. على عبد المعطى و د . محمد جلال أبو الفتوح شرف – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٨٤م .

٧٣ – الفن ومذاهبه فى الشعر العربى – د . شوقى ضيف – ط ١٠ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٧٨م .

٧٤ – فى الشعر السياسى – د . عباس الجرارى – ط ١ – دار الثقافة – الدار البيضاء ١٩٧٤م .

٧٥ – قضايا الشعر فى النقد العربى – د . إبراهيم عبد الرحمن – مكتبة الشباب – القاهرة ١٩٧٧م .

٧٦ – قضايا النقد الأدبى المعاصر – د . محمد زكى العشماوى – الهيئة المصرية العامة للكتاب بالإسكندرية سنة ١٩٧٥م .

٧٧ – القيم الخلقية فى الخطابة العربية – د . سعيد حسين منصور – ط ٣ – منشورات جامعة قار يونس – بنغازى سنة ١٩٩١م.

٧٨ – الكميت بن زيد شاعر العصر المروانى وقصائده الهاشميات – عبد المتعال الصعيدى – دار الفكر العربى – القاهرة – بدون تاريخ .

٧٩ – المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول – د . شكرى فيصل – ط ٣ – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٧٣م .

٨٠ – المختار الثقى مرآة العصر الأموى – د . على حسنى الخربوطلى – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٩٦٣م .

٨١ – مختصر تاريخ الشيعة – أحمد عارف الزين – صيدا سنة ١٩١٤م .

٨٢ – المديح النبوى فى القرن الأول الهجرى – د . على صافى حسنين – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

٨٣ – مقدمة فى نظرية الأدب – تيرى إيجلتون – ت . أحمد حسان – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة سنة ١٩٩١م .

٨٤ – المكتمات من صور الشعر السياسى فى العصر الأموى – د . كاظم الظواهرى – ط ١ – دار الصحوة للنشر – القاهرة سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٨٥ – من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده – د . محمد خلف الله أحمد – القاهرة سنة ١٩٤٧م .

٨٦ – المهدى حقيقة لا خرافة – جمعه ورتبه محمد بن أحمد بن إسماعيل – ط ٢ – الناشر : مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامى – القاهرة – سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

٨٧ – المهدى والمهدية – أحمد أمين – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٥١م.

٨٨ – الموالى فى العصر الأموى – محمد الطيب النجار – مكتبة الخانجى بمصر ١٩٤٩م .

٨٩ – موسيقى الشعر – د . إبراهيم أنيس – ط ٨ – القاهرة ١٩٦٥م .

٩٠ – ميزان الذهب فى صناعة شعر العرب – السيد أحمد الهاشمى – المكتبة التجارية الكبرى بمصر – بدون تاريخ .

٩١ – نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة – د . مصطفى حلمى – ط ١ – دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع – الإسكندرية سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٩٢ – نظرية المعنى فى النقد العربى – د . مصطفى ناصف – ط ٢ – دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

٩٣ – النظم الإسلامية – حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٣٩م .

المحتوى